الدكتور الطاهر أحمد مكى
دكتوراه دولة بامتياز من جامعة مدريد
أستاذ الأدب فى كلية دار العلوم
جامعة القاهرة



الطبعة الرابعة
١٩٩٣



* الطبعة الأولى : ذو القعدة ١٣٩٦ هـ
نوفمبر ١٩٧٦ م
* الطبعة الثانية : ربيع الأول ١٣٩٧ هـ
مارس ١٩٧٧ م
* الطبعة الثالثة : ذو الحجة ١٤٠١ هـ
أكتوبر ١٩٨١ م
* الطبعة الرابعة : شوال ١٤١٣ هـ
إبريل ١٩٩٣ م

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

إلى ذكرى والديّ ، فى رحاب الله . . .



تمثال ابن حزم، أقامته بلدية قرطبة عام ١٩٦٣ م، أمام باب إشبيلية،
أو العطارين، وكان يؤدى إلى بلاط مغيث، الحى الذى نشأ فيه ابن حزم..
من هنا كان طريقه اليومى إلى المسجد الجامع، طالبا، وأستاذا أو للصلاة !

مقدمة الطبعة الثالثة

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب منذ خمس سنوات تقريبًا، وأردت بها أن تكون كالمقدمة لكتاب «**طوق الحمامة**»، وقد حققته وصدر عن دار المعارف، ولم يدر بخلدى أنها سوف تنفد خلال شهور. وجاءت الطبعة الثانية صورة من الطبعة الأولى، إذ لم يتهيأ لى من الوقت، ومن راحة البال، ما يجعلنى أعيد النظر فيها، ونفدت بدورها، وازداد الإقبال على الكتاب، وبيعت نسخه أخيرا الواحدة بخمسة أمثال ثمنها، مما دفعنى إلى إصدار طبعته الثالثة هذه.

وبين الحاجة العاجلة إلى طبعه والمشاغل المتزاحمة، ألقيت نظرة عجلى على صفحاته، صححت فيها ما وقعت فيه من خطأ أو سهو فى الطبعتين السابقتين، وأضفت إلى الدراسات المطولة عناوين جانبية، تعين القارئ على تبيّن طريقه، وتهدى الباحث إلى معالم مادته، وأضفت إلى الكتاب فصلا خاصًا عن **ابن حزم شاعرا**، لأن الشعر يمثل جانبًا هامًا من مادة **طوق الحمامة**، لمّا يدرس تفصيلا فيما أعلم. ورأيت أن الدراسات الخاصة بتأثير الطوق فى الأدب الإسبانى أولى بها كتاب خاص سوف يصدر قريبًا عن: «**طوق الحمامة فى اللغات الأجنبية**»، أتتبع فيه تأثيرات الطوق فى الآداب الغربية من جانب، وأترجم آراء المستشرقين فى الكتاب من جانب آخر، وبذلك نضع الكتاب فى مكانه من الفكر العالمى، لمن يريد أن يقف على أهميته وآثاره وتأثيراته.

لقد شغل ابن حزم الدنيا على أيامه، وبدأ فى أيامنا هذه يشغل من اهتمام المفكرين مساحةً تزداد كل يوم اتساعًا، لما فى فكره من أصالة وتجدُّد، وما يعكس من صدق وشجاعة وإخلاص، ويجئ هذا الكتاب، وتحقيقنا «**طوق الحمامة**» قبله، وتحقيقنا ودراستنا كتاب «**الأخلاق والسير فى مداواة النفوس**» من بعد، إسهاماً متواضعاً فى التعريف بابن حزم وبآثاره، وسوف تتلوها دراسات وتحقيقات أخرى إن شاء الله.

والله أرجو أن ينفع به، وأن يبلـغ مـن القـارئ مبلغ الفائدة، وأن يسهـم على نحـو ما في إيقاظ أمتنا، وبعث الرائع مـن تراثنـا.

٤ من رمضان ١٤٠١ هـ
٦ من يوليــة ١٩٨١ م

الطاهر أحمد مكى
٣ شارع مصدق – الدقى. الجيزة – مصر
ت: ٣٦١٣٣٠٦ / ٣٤٧٩٣٩٢

كلمات فى البدء

كان مقدراً لهذه الدراسة أن تكون مقدمة لكتاب **«طوق الحمامة» لابن حزم**، وقد حققته، وصدرت طبعته الأولى عن دار المعارف منذ شهور، ونفدت، وتصدر الطبعة الثانية منه خلال أيام.

لكننى وجدت المقدمة طالت، وجدتها تتجاوز حجم الكتاب نفسه، ولم أُرد أن أختصرها لأنها دراسة للطوق، ومقدمة له، وتعريف بصاحبه، ودراسة الطوق يجب أن تتناول، على الأقل، الجوانب الهامة فيه، وما أكثرها!. والصفحات التى تمهد له، وحياة كاتبه، تعينان القارئ على تصور جوه، وتسهمان فى تذليل صعابه، والكتاب حافل بها.

لقد تصورت فى البدء – مثلا – ألاّ حاجة بى لأن أكتب عن عمران قرطبة، الشوارع والميادين والحياة والناس، ثم وقعت عينى على كتاب للدكتور زكريا إبراهيم بعنوان: «ابن حزم الأندلسى»، وصدر فى سلسلة «أعلام العرب» فأدركت على الفور، من النظرة الأولى فيه، أن جهله بتخطيط مدينة قرطبة، أوقعه، كما أوقع ناسخ مخطوطة الطوق الوحيدة قبله، وكل الذين نشروا الكتاب بعد ذلك، فى خطأ مريع. تقول الفقرة فى غير نسختنا المحققة، والتى اعتمد عليها الدكتور زكريا إبراهيم: «... سألنى يوماً أبو عبدالله محمد بن كليب من أهل القيروان، أيام كونى بالمدينة، وكان طويل اللسان جداً، مثقفاً للسؤال فى كل فن...».

هكذا جاءت الفقرة فى كل الطبعات العربية، باستثناء طبعتنا المحققة، واعتماداً عليها مضى الدكتور زكريا إبراهيم يعلق على النص ويستنطقه: «ولكن ابن حزم لم يذكر لنا سبب انتقاله إلى القيروان، فضلا أنه لم يشر إلى أى اضطهاد وقع عليه من جانب أهل المغرب عموماً، وأهل تلك المدينة خصوصا، وأغلب الظن أن يكون إمامنا قد رحل إلى القيروان للدفاع عن مذهبه الظاهرى، ومجادلة الفقهاء وأهل الفرق». وهذا كلام باطل كله!. فابن حزم لم يغادر الأندلس أبدا، لا إلى القيروان ولا إلى غيره، ولم يقع عليه اضطهاد من أهل المغرب، كما وهم الدكتور.

ولو عرف مؤلف كتاب ابن حزم، والذين نشروا مخطوطة «الطوق» قبلى، أنّ كلمة «مدينة» إذا جاءت مرسلة عند الحديث عن قرطبى، فإنما تعنى الحى القديم من عاصمة الخلافة، وتميّز فى عماره وحياته بملامح خاصة، ولو عرفوا أن ابن حزم لم يسكن هذا الحى القديم أبدا من قرطبة، أى المدينة، لفكروا فى تقويم النص. و «المرية» مما سكن ابن حزم حقاً، أقرب الألفاظ رسما إلى كلمة المدينة، وليس ثمة شك فى أن هذه تحريف عن تلك، جرى بها قلم ناسخ المخطوطة الوحيدة جهلا، لأنه مشرقى بجهل أسماء الأمكنة الأندلسية وهو تصويب يمكن الوصول إليه بشىء من التأمل، وللحق فإن الأستاذ الجليل الدكتور طه الحاجرى أدرك هذا الخطأ وصوبه منذ أعوام طويلة، فى كتابه القيم: «ابن حزم: صورة أندلسية». ولم يقرأ أحد ممن نشروا الطوق هذا الكتاب واستفاد منه.

وكان ذلك دافعاً لكتابة الفصل الأول عن قرطبة، عمرانها وتخطيطها والحياة فيها على أيام ابن حزم، وألحقته بمصور تخطيطى وتقريبى للمدينة فى القرن العاشر الميلادى، ودون ادعاء، يرسم وينشر لأول مرة فى اللغة العربية.

وأمام حياة **ابن حزم**، شاهد عصر، ترددت لحظات!. لأنى ترجمت كتاب المستشرق الإسبانى العظيم **ميجيل أسين بلاثيوس** عن ابن «حزم القرطبى»، وسوف ينشر قريبًا، وفيه الغناء كل الغناء، ولكنه كتاب موسع وشامل ومتعمق ودراسة مستقلة، ونحن هنا فى حاجة إلى علامات هادية فحسب، على طريق حياة ابن حزم، تعين على فهم «الطوق»، وليس إلى حياته كلها، ثم هممت أن أقدم ترجمة للدراسة الجميلة والموجزة التى قدم بها غرسية غومث ترجمته الإسبانية للطوق، ولكن الرجل يتحدث فيها إلى إسبان، يكتب لهم أحيانًا ما ليس القارئ العربى فى حاجة إليه، ويتجاوز أحيانًا قضايا فوق طاقة القارئ الإسبانى غير المتخصص، ولكنها ضرورية للقارىء العربى، ومن ثم فقد استهديته فى دراستى، وأفدت مما كتب، وهو يعتمد أصلا على أسين بلاثيوس، دون أن أسير على دربه دوامًا.

وقد وجدت الفيلسوف الإسبانى الكبير **أورتيجا إى جاسيت** (١٩٥٥ - ١٨٨٣)، وشهرته تتجاوز إسبانيا إلى عالم الفلسفة بأسره، قدم لترجمة الطوق الإسبانية، بدراسة مركزة ورائعة، فآثرت نقلها إلى العربية برمتها، ليكون لدى قارىء الطوق العربى، وجهة

نظر أخرى غير عربية، قد يرضى عنها أو يختلف مع صاحبها، ولكنها مفيدة فى كل الأحوال.

وعن هوّية ابن حزم كتب المؤرخ الإسبانى، الحجة فى دراسات العصر الوسيط، الأستاذ **سانتشيث البرنس** (١٨٩٣–١٩٨٨) دراسة مستفيضة، رد فيها عبقرية ابن حزم إلى خصائص سلالته الإسبانية، وقد ترجمت هذه الدراسة برمتها أيضاً، دون تعليق منى أو مناقشة، ودون أن يعنى هذا موافقتى على رأيه، لأنى فضلت، كعادتى فيما أترجم، أن أترك القارىء العربى حرًا، مطلق الفهم، فى مواجهة ما يقرأ من نصوص مترجمة، وأن يبدى رأيه فيها دون تطفل منى. وثمة كثيرون من المفكرين الإسبان المعاصرين يشاركون سانتشيث البرنس رأيه، ولكنه الوحيد الذى درس القضية، وعبر عن فكره، وربما عن فكرهم أيضًا فى هذه الدراسة المستفيضة.

أما أن **ابن حزم** من أصول غير عربية فحقيقة لا نرفضها، وكان عالم قرطبة العظيم مسلمًا طيبًا، والإسلام فوق عصبيات الجنس واللون والدم، وأما أنه من سلالة يمكن أن توصف بأنها إسبانية ففيه شك كبير، لأن لفظة «إسبانيا» لحظة الفتح الإسلامى كانت تعنى امتدادًا جغرافيا فحسب، دون أن تكون لها دلالة أبعد من هذا، قومية أو دموية أو فكرية. والقول بهذا ليس من عندى، وإنما هى فكرة اهتدى إليها المفكر والمؤرخ الفيلسوف **أميركو كاسترو**، وظل يبشر بها طوال حياته (١٨٨٥–١٩٧٣)، ويرى فى تجاهل الإسبان لها تضليل وتحريف للتاريخ، وانحراف بسير الثقافة فى وطنه، وألف فى ذلك كتابًا قيمًا: «حقيقة إسبانيا التاريخية»، وكانت دراسة سانتشيث، وكتاب آخر له، ردا على نظرية كاسترو هذه، ولقد حُرِمَ القارئ من فكر أميركو كاسترو الرائع فى هذه الدراسة التى نقدمها، لأن نظريته لا تقف عند ابن حزم وحده، وإنما تتجاوزه إلى القضية فى جوهرها: لمن ينتسب هؤلاء الذين عاشوا فى الأندلس، على امتداد دولة الإسلام التى ظلت تسعة قرون؟ وإجمالها غير متاح، ومن ثم فقد ترجمت الكتاب كله، وينتظر الناشر ليأخذ طريقه إلى القارئ قريبًا.

ورأيت مفيداً إلى جانب ما تناولت من أفكار «الطوق» ودلالاته المتنوعة، أن أتتبع آثاره فى الآداب التى عايشته، أو تلته، فى الأندلس، وأن ألقى نظرة على الدراسات المماثلة التى سبقته إلى هذا المنحى فى اللغة العربية، والتى جاءت بعده وسارت على

دربه، أو أفادت منه، وترجمت دراسة لغرسية غومث تناولت جانبًا من هذه القضية، وأكملت الجوانب الأخرى التى لم يتعرض لها المقال.

ثم وقفت عند شاعرية ابن حزم، وأهمية الطوق كمصدر لتأريخ الحياة الأدبية فى قرطبة، إلى جانب ما يقدم من معلومات أخرى ضافية، اجتماعية وسياسية، والمرأة فى قرطبة الخلافة من خلاله، ولحياة مؤلفه نفسها. وتلك هى الخطوط العامة للدراسة، وما أريد أن أقف عندها تفصيلا، وفى الفهرسة آخر الكتاب ما يغنى.

* * *

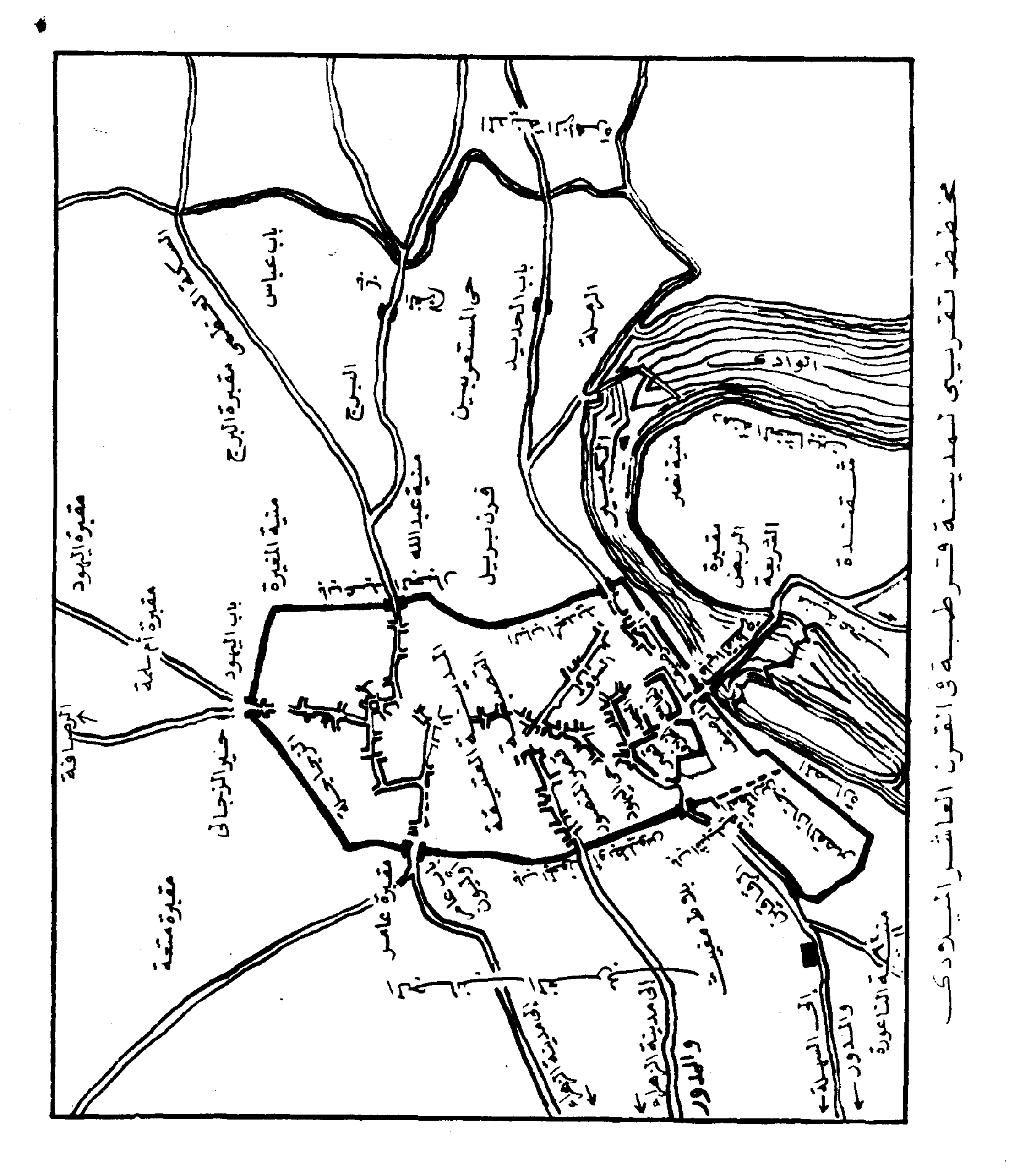
أنهيت هذه الدراسة مع بداية الصيف، ثم حملتها إلى المواطن التى عاش فيها ابن حزم منذ ما يزيد على ألف عام، أمضيته بين ولبة وإشبيلية، وقرطبة والمرية وشاطبة وميورقة، وغيرها. وفى ضوء ما رأيت على الطبيعة وحياة الناس، وفيها ما لم يتغير أصلا أو ما تغير قليلا، وما استلهمت من روح التاريخ، واستهديت من حدسى بين هذه المعالم، صححت وراجعت، وأضفت وحذفت، فكانت هذه الصفحات.

قلت وأنا أقدم الطبعة الأولى من تحقيقى «لطوق الحمامة»، إن النص والدراسة التى سوف أعدها مستقلة عنه، كمقدمة له، تربط بينهما أقوى الوشائج، ولا يقرأ أحدهما بمعزل عن الآخر. وأعيد هذه السطور هنا مرة أخرى، إبراء لذمتى، لأن فى هذا ما يفسر ذاك، والعكس صحيح أيضاً.

ومن الله الجزاء ومنه التوفيق.

قرطبة – الأندلس شعبان ١٣٩٦ هـ
أغسطس ١٩٧٦ م

الطاهر أحمد مكى



مخطط تقريبي لمدينة قرطبة في القرن العاشر الميلادي

قرطبة على أيام ابن حزم

● **السكان :**

حين زحف **مغيث الرومى**، غلام الوليد بن عبد الملك، يريد قرطبة عام ٩٢ هـ = ٧١١ م، وحاصرها حتى فتحها، لم يدر بخلده، ولا بخلد أحد ممن كانوا معه، أن هذه المدينة الصغيرة القابعة فى سفح جبل العروس، نصف همجية ونصف متبدِّية، يمكن أن تصبح فى مدى قرنين ونصف من الزمان، كبرى مدن الأندلس، موطن الإمارة، وحاضرة الخلافة، تنافس بغداد، وتطاول القاهرة، وتكسف ما حولها من مدائن، وتبلغ شهرتها الخافقين، فتصبح موضع الإعجاب من راهبات منقطعات فى دير منعزل بألمانيا، وتقول عنها الراهبة الشاعرة السكسونية **روز فيتا Hroswita** فى قصيدة لها: «جوهرة العالم الساطعة، مدينة جديدة ورائعة، فخورة بقوتها، شهيرة بمباهجها، مزهوة بما تملك من خير وفير».

ليس من غرضى، ولا فى نطاق بحثى، أن أعرض لقرطبة فى طفولتها وتطورها على امتداد القرنين الثامن والتاسع الميلادين، وغاية ما أطمح فيه أن أعطى صورة فحسب، لجوانبها المختلفة، خلال القرن العاشر الميلادى، حين طرق ابن حزم أبوابها وليدا.

كانت قرطبة القرن العاشر الميلادى مدينة كبيرة، يتجاوز سكانها المليون عددا، تتحدث العربية، إلى جانب لغات أخرى، وتدين بالإسلام إلى جوار المسيحية واليهودية، ويسكنها أقوام ينتمون إلى أصول مختلفة.

كان هناك **العرب**، مضريون أو يمنيون، جاءوا قديماً مع **موسى بن نصير**، أو مع **بَلْج بن بشر القيسى** أو بعده، أو فى أفواج قليلة العدد أيام **عبد الرحمن الداخل**. وانتشروا فى كل الأندلس، وأورد لنا **ابن حزم** معلومات مستفيضة عن منازلهم فى كتابه **«جمهرة أنساب العرب»** واتخذ عدد منهم مكانه إلى جانب الإمارة أو الخلافة، ولم تكن أعدادهم فى المدينة كبيرة، ويمكن القول أنهم كانوا أقل عددا من أية طائفة أخرى، ويتولون الوظائف الهامة، وعكف بعضهم على التجارة، وقلة تدير من العاصمة مزارعها الواسعة فى الريف، وحافظوا على أصولهم التى انحدروا منها، وحرصوا على

أن يتميزوا بألقابهم العربية، وظلت ذكريات قبائلهم حية فى حكاياتهم وسمرهم، وهى خصائص أخذت تختفى مع الزمن، ونتيجة الزواج المختلط، فقد جاء العرب فرادى عادة، وكان النصف الثانى من بيوتهم، زوجة أو جارية أو عشيقة، إيبيريًا فى الأعم الأغلب، ومن ثم بدأت «الأندلسية» تأخذ طريقها إلى وجدانهم إحساساً، فأصبح الفرد منهم يحس بأنه قرطبى، قبل أن يكون مخزوميًا أو قرشيا. وبدأ ثقلهم السياسى يضعف مع **عبد الرحمن الناصر**، فقد كان ميالا إلى قيام سلطة مركزية قوية، ورأى **المنصور بن أبى عامر** بعده خطر قيام طبقة تعتمد على الدم وحده طريقًا إلى النبل، فقرر أن يهبط بهم إلى حيث بقية الناس، وقضى نهائيًا على نظام الجند القبلى، وأحل مكانه مفهومًا جديدا يجعل العصبية للأندلس.

وكان هناك **البربر**، من زناتة أو صنهاجة، وهم أول من دخل الأندلس، واحتملوا صدمة الفتح الأولى، واتصلت هجراتهم إليه، لقرب بلادهم منه، وتشابه مناخ أوطانهم به، وكثرة القلاقل السياسية عندهم، حتى فاقوا العرب عددا، وأورد لنا **ابن حزم** فى كتابه «**جمهرة أنساب العرب**» فصلا عنهم أسماه: «بيوتات البربر فى الأندلس»، ونجد عنهم معلومات وافرة فى **تاريخ ابن خلدون**. وقد اتجه معظم البربر إلى الريف، وامتزجوا بالسكان الأصليين، ولعبوا دورًا هامًا فى نشر الإسلام، وآثرت قلة منهم البقاء فى العاصمة، تعمل فى المهن المتواضعة، على حين سمت بآخرين مواهبهم، فتبوأوا أعلى المناصب، وباشروا نفوذا سياسيًا أو علميًا أو أدبيًا مرموقًا. لقد عرف القرن العاشر منهم فى قرطبة أبناء **يحيى بن يحيى الليثى**، كبير فقهاء المالكية، **ومنذر بن سعيد** شيخ الخطباء وإمام عبد الرحمن الناصر، **وابن دراج القسطلى** شاعر المنصور بن أبى عامر. وحافظ بعضهم على نسبه البربرى، واصطنع آخرون لهم نسبًا عربيًا، على ما سنرى.

أما الكثرة الغالبة من السكان فى **قرطبة**، فممّن وجدهم المسلمون لحظة الفتح، ويعودون إلى أصول مختلفة، لاتينية وقوطية وإيبيرية وسلتية وحتى أفريقية وفينيقية، وقد أطلق على من أسلم منهم لحظة الفتح اسم «**المسالمة**»، وعلى أبنائهم اسم «**المولّدون**»، وكان منهم الحرفيون وصغار التجار ورجال الأعمال، وبعضهم كان يعمل فى المزارع التى حول قرطبة، وهم العنصر الأكثر فعالية فى الاقتصاد، لأنهم أعرف من غيرهم بالبلد، وأكثر احتمالا لأجوائه وجوائحه. وقد دعمت الدولة فى سياسة بعيدة النظر هؤلاء المسلمين الجدد وحمتهم، وفتحت أمامهم باب الأمل والعمل واسعاً وعريضاً، لكى

يعملوا ويثروا ويحتلوا مكانتهم فى المجتمع، وبرزت من بينهم مواهب عظيمة، وحرص الكثيرون منهم، كالبربر، على أن يصطنعوا لهم نسبًا عربيًا، عن طريق الزواج والمصاهرة، أو الولاء، أو باصطناع نسب مزيف، وثمة متخصصون فى صنع أشجار النسب يصنعونها ويبيعونها لمن يريد، هروبًا من ماضيهم غير الإسلامى، وثنيًا كان أم مسيحيًا أم يهوديًا. وكان بينهم من يتعصب لطائفته، وقد كتب **أبو عامر أحمد بن غرسية**، وأصله من الباسك، رسالة فى فضائلهم والدفاع عنهم.

وقد احتفظ عدد كبير من هؤلاء المولدين بأسماء أسرهم القديمة، واتخذوا منها ألقابًا، فلدينا **ابن بشكوال** Ibn Pascual صاحب كتاب **«الصلة»**، **وبنو قومس** Banu Comes **وبنو مرتين** Banu Martin ، **وبنو غرسية** Banu Garcia ، وآخرون كثيرون. وبعضهم عرّب اسمه اللاتينى، فأصبح Felix يدعى سعيدًا، و Victor يدعى الظاهر، وأخذت الأسماء اللاتينية المستمدة من التوراة الشكل العربى، فاسم Moises أصبح موسى، و Jesuis عيسى، وهكذا.

ثم **السود والصقالبة**، وكانوا أقل عددًا من العرب والبربر، والسود أقل من الصقالبة، وهما على النقيض لونًا. ويطلق على الرقيق القادم من بلاد السودان اسم العبيد أو السودان، ولا صلة للتسمية بما يطلق الآن على جنوبى وادى النيل، وإنما تعنى تلك المناطق التى تمتد من جنوب المغرب وما وراءه من غربى إفريقية ووسطها. وقد اتخذ منهم الخلفاء حرسهم الخاص، وبلغوا عددًا لا بأس به، وبخاصة فى عهد **الحكم الثانى**، وأصبحوا يكونون جانبًا من المهرجانات العامة، بين فرسان ومشاة، وبخاصة فى البيعة، وأكثر منهم **المنصور بن أبى عامر**، لأنهم اشتهروا بالقوة والاحتمال، والقدرة على العدْو، وحتى أن **البريد** ويطلق عليه فى لغة الأندلس **الرقاص** كان وقفاً عليهم، وكان يتبع المنصور فى كل حملاته الحربية، يحمل أوامره إلى مرءوسيه فى العاصمة أو بقية الكور.

ولا يزال أحد شوارع قرطبة يحمل اسمهم مترجمًا حتى يومنا هذا: زقاق السود Calleja de Negros.

والسوداوات كن أكثر عددًا من الرجال، ويتمتعن بشهرة عالية فى الأعمال المنزلية، وكان الرجال يقدرون فيهن صفات أنثوية لا يجدونها فى غيرهن، وكان اللون الأسود لأبناء من آباء بيض شائعًا بين الطبقة الحاكمة والمقتدرة، «وإنه لشىء يشرف هؤلاء

المسلمين أنهم لم يعرفوا التفرقة العنصرية بسبب اللون أبدًا، لا فى العصر الوسيط، ولا فى فى أيامنا هذه».

وكان **الصقالبة** خصيانًا فى أكثر الأحوال، ويعملون فى حرس الخليفة، والطريق مفتوح أمامهم إلى المناصب العليا، وإلى أن يصبحوا فى مرتبة الرجال الأحرار، رغم أنهم جاءوا إلى الأندلس رقيقاً، وبينهم من احتفظ بلغته، ومن اعتزل المجتمع، وحافظوا على خصائصهم، واتخذوا لهم موقفًا خاصًا، رغم أنهم أسلموا، وفتحوا قلوبهم للمجتمع الذى يعيشون فيه، وعندما سقطت الخلافة أصبحوا عنصرًا مستقلا فى مواجهة العناصر الأخرى، وتميزوا بروح التضامن فيما بينهم. وفى البدء كان يطلق لفظ الصقالبة على الذين يؤتى بهم من وسط أوربا، ويقوم **اليهود** على خصائصهم فى مدينة **بجانة**، وكل سكانها من اليهود، وكان يهود فرنسا يباشرون المهنة فى مدينة **«فردان»**، ويربحون من ورائها أموالا طائلة، وفيما بعد أطلق الاسم على كل الرقيق الأبيض اللون، حتى أولئك الذين يؤتى بهم من جنوب فرنسا أو شمال الأندلس.

وكان للأسيرات القادمات من بلاد الإفرنج، فى جنوب فرنسا، أو من مقاطعات قطلونية والباسك وغاليسية فى شمال الأندلس، حظوة كبيرة فى قرطبة، لأنهن بيضاوات البشرة، شقراوات الشعر، زرقاوات العيون، ومن بينهن كان الأمراء يختارون عشيقاتهم المدللات، فإذا أنجبت الواحدة منهم صارت أم ولد، أى حرة. وقد مارست الجوارى نفوذاً كبيراً فى الحياة السياسية، ولم يكن اتخاذهن وقفاً على الأمراء، وإنما شاع ذلك فى بيوت الخاصة، وأعلى الطبقة الوسطى، من كبار الموظفين، ورجالات الدولة، وأبناء البيوتات. وتميز هؤلاء الجوارى بالثقافة والرقة والصقل، وأدين دورًا بالغ الأهمية كأمهات، وأعطين المجتمع الأندلسى طابعه الخاص، ولعبن دورًا كبيرًا فى تحسين مكانة المرأة فى الأندلس. ويحمل شارع فى قرطبة اسم شارع الرقيق، أو الجوارى Las esclavas حتى يومنا.

هذه العناصر على اختلافها كانت تأخذ طريقها، تدريجا، نحو اندماج كلى، سهّله ومهّد له، عقيدة واحدة كانت تظل الناس جميعًا، وتحدد لهم أنماط السلوك فى حياتهم العامة والخاصة، دون أى تميز طبقى أو عنصرى. ويمكن القول، إن القرن العاشر الميلادى، فى النصف الثانى منه تقريبًا، وفى ظل السلام الوارف الذى بسط **عبد الرحمن الناصر** ربوعه على الأندلس، تمت عملية المزج بين العناصر الأصلية والوافدة، وكنت

إذا سرت فى الشوارع، أو تجولت فى الأسواق، تلتقى بأناس ألوانهم مختلفة، شقر وسمر وبيض وسود ومخلطون، يعيشون فى وئام مع بعضهم، ومع الذميين من الكاثوليك واليهود، «ونجم عن اختلاط الأجناس وتجاور الديانات، جو سمح جميل، إنسانى وشفاف، هو الجو الحضارى نفسه الذى نعرفه فى بغداد كما تصورها قصص ألف ليلة وليلة، خالصًا من كل ما يرتبط بالشرق فى أذهاننا، من جلافة يشوبها الغموض».

فى هذا القرن كانت **الخلافة الفاطمية فى المغرب، والعباسية فى بغداد،** تدفع بالأندلس دفعًا نحو الانطواء على نفسه، فكلاهما كان خصماً سياسيًا عنيفًا، ومن ثم كان اهتمامه بالوحدة الفكرية للعالم الإسلامى فاترا، وبدأ يتكون فى وجدانه الأندلسى شىء غامض، وإحساس ذاتى مبهم، من المبالغة أن نقول عنه إنه قومى، لأن مثل هذا التعبير يتجاوز ما أحس به الأندلسيون، ولا يتناسب وطبيعة العصر، ويمكن تحديده بأنه إحساس بوحدة الأمل والغاية والحياة بين سكانه، وبعزلة جغرافية شعورية عن بقية العالم الإسلامى، ومع شدة العداء السياسى من الفاطميين والعباسيين أخذ هذا الاتجاه شكلا أكثر قوة ووضوحًا، وبدأ الأندلسى، إيبريًا من شبه الجزيرة، أو قادمًا من المغرب، أو مهاجرًا من المشرق، يحس بشخصيته الأندلسية، ويعبر ابن حزم عن هذا المعنى تعبيرًا قويًا فى بيت من الشعر:

ويا جوهرَ الصين سُحْقًا فقد　　غنيت بياقوتة الأندلس

لقد بدأ الأندلسيون يستشعرون أندلسهم وطنًا، يتعبدون به دومًا، يتغزلون فيه شعراء حين يكونون على بساطه، ويحنون إليه وَجْدًا حيم يكونون بعيدين عنه. وليس مُهمًا بعد ذلك أنهم لم يعرفوا كيف يدافعون عنه فيما بعد. ذلك أن الأندلسى كان كثير الكلام وجدِلاً، قوى الإحساس بالطبيعة وشاعرا، قادرًا على التمتع بالحياة، ولكنه كأى متحضر تنقصه الخشونة التى تجعل منه قادرًا على الصمود والنضال.

وكان هناك **المستعربون،** وتطلق عليهم المصادر العربية، نصارى الذمة، أو العجم، أو مجرد كلمة نصارى، وتطلق عليهم المصادر اللاتينية: المستعربون، أخذا من كلمة مستعرب Mozarabes مضافا إليها أداة الجمع فى اللاتينية، وهم أولئك الذين ظلوا على كاثوليكيتهم، ولكنهم فيما عدا ذلك شاركوا المسلمين الكثير من عاداتهم وثقافتهم وألوان حياتهم، ولا نستطيع أن نستنتج عددهم، ومن الواضح أنه كان يقل مع الزمن بفضل تقدم الإسلام، وباستثناء رؤسائهم الدينيين، فإن المصادر العربية قلما تتحدث

عنهم. وبينهم من كان يتمتع بوضع اجتماعى ممتاز، ولم يكونوا يتعرضون لأية مضايقات من الخليفة، أو من المنصور بن أبى عامر عندما أصبح حاجبا، ولا من الخاصة، وبرهنوا من جانبهم على إنضمامهم للمجتمع، وحاولت الدولة أن تكسب ثقتهم، ولكن ما إن نمت القوى الكاثوليكية فى الشمال حتى اهتز ولاؤهم، وأصبح مجاملة وتقية وانتظارًا أكثر منه إخلاصًا.

وقد استقلوا بشئونهم الدينية، وأصبح لهم رئيس ينتخبونه من بينهم ويعيّنه الخليفة، يدعى **قومس** Comes ، وقاض ينظر فى أمورهم الخاصة، يعرف باسم **«قاضى العجم»**، وكان لهم كنائس فى داخل المدينة، وعدد آخر خارجها، تضم كل واحدة منها ديرًا، وفى هذا القرن ألغى القرار الخاص بحظر دق أجراس الكنائس، وكانوا يؤدون طقوسهم الدينية فى بهرج يشد إليه فضول حتى أولئك المسلمين الطيبين من العامة، ووصف لنا **ابن شهيد**، فى رسالته **«التوابع والزوابع»**، انطباعه عن دير زاره، ورغم أن بعض المسلمين كان يتهم رجال الدين الكاثوليك بأنهم ليسوا طيبين، وأن بعض الأديرة تحولت إلى حانات للشراب، وأمكنة لممارسة الحب، لا يمكن القول بأنهم جميعًا، وبأن الأديرة كلها كانت كذلك. وأيًا ما كان الأمر فإن مثل هذا الإتهام لم يكن بسبب أية متاعب للمستعربين.

وبعض هؤلاء المستعربين كان على ثقافة عالية، وموضع ثقة الخليفة، وكان **ربيع بن زيد**، .واسمه المسيحى Recemmundo يستخدم اللاتينية والعربية بمستوى واحد، وقد اتخذ منه **الناصر** سفيرًا متجولا له. فأرسله إلى **أوتون الأول** Otoni ملك جرمانيا، ثم إلى **القسطنطينية وسورية** للحصول على مواد يحتاج إليها فى بناء مدينته **الزهراء**، ولكى يضفى عليه احترامًا زائدًا فى سفارته عينه أسقفاً لمدينة **إلبيرة**، وهى وظيفة شرفية، فلم يكن لديه فى الواقع وقت ليباشر وظيفته هذه. وكان **الحكم الثانى** يقدر معارفه الفلسفية والفلكية، وله ألّف ربيع بن زيد كتابه **«الأنواء»**. وكان المستعربون طبقات اجتماعية مختلفة، يقف على قمتها النبلاء الذين ينحدرون من القوط، ثم الطبقة العليا وكانت وقفًا على رجال الدين، ويأتى العبيد فى نهاية السلم، وكان المسيحيون واليهود شأنهم كالمسلمين يمتلكون الرقيق.

وكان فى قرطبة **يهود**، معلوماتنا عن نشاطهم فى القرن العاشر محدودة للغاية، وما وصلنا من أخبار وفيرة عنهم يعود إلى القرن التالى، ولقد وجدت عنتًا فى الوصول

إلى معرفة عدد من اليهود كان يعرفهم ابن حزم، وتتردد أسماؤهم فى «طوق الحمامة». ومع ذلك يمكن القول أنهم كانوا يكونون جالية كبيرة، تقطن حيًا خاصًا بها، يقع بين شارع القنطرة وقصر الخلافة، ويحمل اسمهم. وأن أحد أبواب المدينة كان يطلق عليه اسم باب اليهود، وأن الربض المجاور له يحمل اسمهم أيضًا، ويبدو رغم صمت المؤرخين أنه حى يهودى آخر يختلف عن الأول، وربما كان موطن الأغنياء منهم.

وقد سكن **اليهود** الأندلس قبل مجيء المسلمين، وساندوهم فى حركة الفتح، واعتنق بعضهم الإسلام، وظلت غالبيتهم على دينها، وفيما بعد جاء يهود آخرون من أفريقيا وآسيا، وقد تركوا أحرارًا تماماً فى حياتهم الدينية، وكانت لهم بِيَعُهُم داخل المدينة، ولهم مجلس شورى يرعى شئونهم يسمى «**الجماعة**». ورئيس هو الصلة بينهم وبين السلطات الإدارية، ورئيسهم فى عهد **عبد الرحمن الناصر**، وهو الوحيد الذى نعرف عنه شيئًا ذا قيمة فى هذه الفترة، **حسداى بن إسحاق بن شبروط**، كان طبيبًا للخليفة، ومن مستشاريه المقربين، ويسفر له لدى ملوك الشمال المسيحيين، وإليه يرجع فضل إقامة الدراسات التلمودية فى قرطبة وازدهارها، على حين كانت تخبو فى المشرق، وبدأ اليهود يصوغون لهم تشريعاً خاصاً وقوانين، وأخذ الشعراء ينشدون الشعر العبرى، ويتخذون من العروض العربى قالبًا يصبون فيه أشعارهم العبرية.

وفيما قبل القرن العاشر حاول **اليهود** أن يتمردوا، وأن يغذوا الحركات الثائرة، أو ينضموا إليها، ولكنهم سرعان ما أدركوا أن هذه ليست مهمتهم، وأن التآمر والدسائس ودفع الآخرين إلى الثورة، والتمرد على الحكومة، لن يؤدى إلى شىء، فآثروا السلامة، وانصرفوا إلى أعمالهم. وعندما جعل **الناصر** من نفسه خليفة، ومن **قرطبة** عاصمة الخلافة، وغرق الناس فى الترف، ووسعت الحياة كل عامل، انصرف اليهود إلى جمع الثروات الكبيرة، وآثروا أن يربحوا ثقة الدولة، وكانوا يعملون فى تجارة المجوهرات، والذهب والفضة والرقيق، والسوق السوداء، والرهونات والصياغة، والربا، وفى التزييف أحيانًا، ويعملون مترجمين وأطباء وصيادلة، وفى التنجيم والفلك، وبعض وظائف الإدارة، وخاصة ما اتصل منها «بخزانة المال».

- **الطبقات الاجتماعية :**

اندمج سكان قرطبة عنصريًا، ولكن الطبقية الاجتماعية ظلت قائمة على النحو الذى كانت عليه فى بقية العالم الإسلامى، فقد كان هناك **الأحرار والموالى**. وفى نطاق

الأحرار هناك **الخاصة**، أو الطبقة العليا بلغة العصر الحديث **والعامة**، أو الجماهير كما نقول فى ايامنا هذه.

تتكون طبقة «الخاصة» من أبناء الأسر العربية، وبخاصة أولئك الذين يرتبطون من قريب أو بعيد بنسب مع الأسرة المالكة، ويطلق عليهم أحيانًا «بنو هاشم»، أو **«أهل قريش»**، إشارة إلى أصولهم النبيلة، ويتلقون رواتب من بيت المال إلى جانب أملاكهم الخاصة، وكانوا موضع احترام كبير من عامة الشعب، وبعيدون عن المناصب العامة، ويتولى شئونهم نقيب لهم، هو صوتهم والصلة بينهم وبينم الخليفة. وتأتى مكانتهم فى الحفلات الرسمية أو العامة، أو الأعياد الدينية، أو استقبال السفراء، قبل الوزراء وكبار الموظفين، ويليهم رجال القضاء، وعلى رأسهم قاضى الجماعة، ثم كبار الموظفين، ويعدون من الخاصة، إلى أى عنصر انتموا. ومنذ نهاية القرن التاسع الميلادى بدأ كثيرون ممن كونوا ثروات طائلة، قديماً أو حديثًا، يشترون وضعًا اجتماعيًا أفضل، يدفعون ثمنه ذهبًا، لكى ينتسبوا فى هذه الطبقة ذات الأهمية الاجتماعية وكانت تتمتع بامتيازات مادية محدودة، ومعنوية أكبر، ولها الحق فى معاملة خاصة من موظفى الدولة. وعلى اية حال فقد كانت طبقة متجددة، ومحدودة العدد، وغير مستقرة، لأن عمليات الإقطاع والمصادرة تتم فجأة، وتخضع لأهواء الحاكم دواماً.

كان **«أبناء البيوتات»** أوضح عناصر هذه الطبقة فى القرن العاشر، وهم الذين كانوا يتوارثون الوظائف الكبرى منذ القرن التاسع، ويحتكرون الإدارة المركزية فى العاصمة، وتميز من بينهم خمسة، أصولهم شرقية هم: **بنو عبدة، وبنو حُدَيْر، وبنو شُهَيد، وبنو عبد الرءوف، وبنو فُطَيْس**، وأبناء الأسر الثلاثة الأولى تتردد أسماؤهم كثيرًا فى **طوق الحمامة**، وفى القرن العاشر على أيام الناصر، سوف تلحق بهم بيوت أخرى، لموظفين كبار، أو موال محدثين، نجحوا فى مهمات وكلت إليهم. من طراز **بدر بن أحمد** الذى انتصر على **أوردنيو الثانى Ordonio II ملك ليون، فى موقعة متونية Mitonia** وكان يتولى الحجابة للناصر منذ أصبح أميراً إلى أن توفى خليفة، وخلفه فى بعض مناصبه إبناه: **عبد الله وعبد الرحمن**. وظهر عدد من الفتيان الصقالبة، أمثال: **درى، وأفلح، وطرفة، وجعفر**، ويظهرون فى الوثائق تحت اسم **«أبناء الخلائف»**، وبدهى أنهم أصبحوا أحراراً قبل أن يعهد إليهم بالوظائف العالية، والتى ارتفعت بمستواهم إلى أشهر البيوتات العربية القديمة، والتى أحست على التأكيد بأن شيئًا تتوارثه قد انتزع منها فجأة.

وفيما بعد، فى خلافة **الحكم الثانى** وابنه الضعيف **هشام الثانى**، سوف نلتقى **بالحاجب المصحفى، والمنصور بن أبى عامر، وأحمد بن سعيد بن حزم**، والد ابن حزم صاحبنا.

جرت العادة أن يحمل كبار الموظفين لقب وزير، وأن يتلقوا الراتب المقرر له، وكانوا إلى جانب ذلك يجمعون ثروات طائلة، من الضياع الواسعة، والعقارات الهامة، والجواهر الغالية، وكان الخليفة يسأل الذين تطول أعناقهم فجأة عن مصادر ثرائهم، وبعضهم لا ينتظر حتى يسأل، وإنما يسبق الأحداث فيقدم بعض ما جمع إلى الخليفة، أو بيت المال، وكلاهما كان واحداً.

ثم تأتى **الطبقة الوسطى**، ويتحدث عنها المؤرخون عرضاً ولماماً، وتجىء طبقاً لنظم المراسم فى آخر القائمة، ويطلق عليهم اسم «الأعيان»، وهم أغنياء الأحياء، وكبار تجار الأسواق، ممن استطاعوا أن يرتفعوا بمستواهم فى سلم الطبقات الاجتماعية، ومعظمهم من المولدين. ولا نستطيع فى ضوء النصوص التى بين أيدينا تحديد الدور الذى قامت به هذه الطبقة فى حياة العاصمة، ولكن الأقرب إلى التصور أن الأغنياء منهم كانوا يحاولون أن يقفزوا إلى مرتبة الخاصة، ولم يكن للبقية دور حتى يكون لهم وضع خاص.

وكانت **الطبقة الدنيا**، أو العامة كما تسميهم المصادر القديمة، وقل ما تتحدث عنهم، تتكون من الحرفيين والعمال، وكلها من البربر أو المولدين أو الموالى، إلى جانب المستعربين واليهود، وفى مدينة كقرطبة، تجرى الأموال بين يدى الخاصة أنهاراً، كان على هذه الطبقة أن تتحمل ضير المجتمع وقسوة الحياة، وأن ترزح تحت أعباء ضرائب باهظة كانت تفرض عليها، وكانت تقوم بينهم وبين الدولة هوّة سحيقة من سوء الظن وعدم الثقة، لأن الغرم يقع عليهم دائماً، وكانوا دواماً، وربما على حق، مادة معدة للإنضمام إلى أية ثورة أو تمرد أو عنف، ووراء أى قائد أو دعوة، وظلوا يخضعون دائماً لرقابة مشددة من الدولة، ودرج الأمير أو الخليفة على أن يتملق عواطفهم عند توليه السلطة، يؤكد أمنهم، ويخفف الضرائب عنهم، وقد يعفيهم عما تأخر منها.

- **اللغـــة :**

هذه الجماهير المتدفقة عبر شوارع قرطبة، أو الهاجعة فى بيوتها، أو المتحلقة فى الكتاتيب والمساجد، أو العاملة فى المصانع والحقول، أى اللغات كانت تتحدث؟.

خارج عن قصدى أن أتتبع العربية فى زحفها وراء راية الإسلام المندفعة، وأن ألـم بخصائصها، وما أصابها من تحوير أو تحريف أو تطور، إنما أريد أن أقصر نظرتى على نهاية القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر، أى الفترة التى سبقت أو عاصرت أو تلت ابن حزم، وهى فى الوقت نفسه الفترة التى بلغت فيهـا الحضـارة الأندلسية قمـة توهجهـا.

كانت اللغة **العربية الفصحى** اللغة القومية، ولأنها لغة ثقافة، ووعاء حضارة، لم تجد على بطحاء شبه الجزيرة الإيبيرية لغة أخرى تدخل معها فى صراع، أو تقاوم زحفها، ولأنها لغة القرآن فرضت نفسها لغة للإدارة أيضًا. وأصبحت لغة الحديث فى اجتماعات الأصدقاء المثقفين، وفى «الصالونات» الأدبية، وتحرير الرسائل، والوثائق الرسمية، وفى الإبداع الأدبى شعرًا ونثرًا، ولغة التعليم بنوعيه، المبتدىء والعالى على السواء، وفى العلاقات الدولية، ومع المشرق بخاصة، أفرادًا أو على مستوى الدول، وكان التمكن منها شرطًا لتولى أى من المناصب العامة، والتفوق فيها الطريق الوحيد إلى النبل المكتسب والوظائف العليا، ومن ثم كان على الأندلسيين من غير المسلمين، يهودًا أو مستعربين، أن ينبغوا فيها إذا أرادوا أن يجدوا لهم مكانًا مرموقًا تحت شمس الخلافة، ونعرف من بينهم أدباء وشعراء كانوا يكتبون فيها شعرًا جميلاً ونثرًا راقيًا. ويعبر عن هذا الواقع زفرة أرسلها **ألفارو مطران قرطبة**، عام ٨٥٤ م، أى قبل الفترة التى نعرض لها بنحو قرن كامل، ولما يمض على الفتح الإسلامى غير مائة وأربعين عامًا، يقول: «من الذى يعكف اليوم بين أتباعنا من المؤمنين على دارسة الكتب المقدسة، أو يرجع إلى كتاب أى عالم من علمائها، ممن كتبوا فى اللغة اللاتينية؟ من منهم يدرس الإنجيل أو الأنبياء أو الرسل، إننا لا نرى غير شبان مسيحيين هاموا حبًا باللغة العربية، يبحثون عن كتبها ويقتنونها، يدرسونها فى شغف، ويعلقون عليها، ويتحدثون بها فى طلاقة، ويكتبون بها فى جمال وبلاغة، ويقولون فيها الشعر فى رقة وأناقة. يا للحزن! مسيحيون يجهلون كتابهم وقانونهم ولاتينيتهم، وينسون لغتهم نفسها، ولا يكاد الواحد منهم يستطيع أن يكتب رسالة معقولة لأخيه مسلمًا عليه، وتستطيع أن تجد جمعاً لا يحصى يظهر تفوقه وقدرته وتمكنه من اللغة العربية».

وكانت **البربرية**، بلهجاتها المختلفة، تتحدث فى الأعوام الأولى من الفتح، وحتى زمن متأخر نسبيًا، مع الجنود البربر، والمهاجرين من شمال إفريقية، وكانوا أكثر عددًا

من العرب، ويذكر **ابن القوطية** فى كتابه: «**افتتاح الأندلس**»: أن **عبد الرحمن الداخل** «ركب مع ثقات من مواليه ورجاله ونفر من العسكر، فسمع البربر يتكلمون فى العسكر بالبربرية، فدعا بمواليه من البربر، قال لهم: خاطبوا بنى عمكم وعظوهم، وأعلموهم أنه إن تغلب العرب وقطعوا دولتنا فلا بقاء لهم معهم، فلما أظلم الليل دنوا من العسكر، وخاطبوهم بالبربرية». ولكنها ما لبثت أن تقهقرت أما العربية، ولا نبلغ المرحلة التى نحن بصددها من تاريخ الأندلس حتى نجدها قد تلاشت تماماً، فيما عدا كلمات قليلة ليست بذات أثر، من أسماء بعض الأطعمة أو الملابس، ولو أنها سوف تعود فيما بعد، ودون أن نترك أيضاً أثراً يذكر، مع بعض دول الطوائف ذات الأصل البربرى، ومع المرابطين والموحدين.

وكانت هناك **اللغة اللاتينية**، لغة رجال الدين من المستعربين، يعرفونها إلى جانب ما يعرفون من العربية الفصحى والعامية، والرومانثية ويطلق عليها اللاتينية الواطية، لأنها تختلف عن اللاتينية الأدبية فى تراكيبها وصوتياتها ومفرداتها ودلالاتها، وتتباين مناطق وعصوراً، وتأثرا باللغات القديمة فى المناطق التى عاشت فيها، وما وصلنا فيها من أدب قليل للغاية، لأنها لم تكن لغة ثقافة، وإنما تستخدم فى الطقوس الدينية، وفى الوثائق الإدارية فحسب، ولم تكن مفهومه لغير رجال الدين، وقد اضطر **سعيد المطران**، أو Juan Hispalense كما يرد فى المصادر اللاتينية، إلى شرح الكتاب المقدس باللغة العربية ليسهل فهمه على عامة المستعربين، وفيما بعد تُرجمت التوراة نفسها، وتحتفظ مكتبة مدريد الوطنية بمخطوطة تضم ترجمة عربية للقوانين الكنسية كُتبت عام ١٠٤٩ م، وإذا عرفنا أن الكتاب وضع خاصة لكبار رجال الكنيسة أدركنا المستوى الذى انتهت إليه اللغة اللاتينية فى الأندلس.

وكان عامة المستعربين، ومعظم المسلمين، وجل اليهود، يتكلمون **الرومانثية**، أو يعرفونها، أو يلمون بشىء منها، إلى جانب الفصحى وعامية أهل الأندلس، وهى لغة انحدرت من اللاتينية العامية، أو اللاتينية الواطية، وابتعدت عنها كثيراً، وأخذت فى كل منطقة تطوراً خاصًا، صوتًا واشتقاقًا وتركيبًا، وسوف تصبح فيما بعد اللغات اللاتينية الحديثة، وهى الإيطالية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية والقطلونية والبروفنسالية والرومانية (نسبة إلى رومانيا الحديثة)، وما تفرع عن هذه من لهجات، ويطلق عليها المؤرخون الأندلسيون اسم: لسان العجم، أو العجمية، أو الليطينية قليلا. وقد عجب **ابن حزم** فى

كتابه «**جمهرة أنساب العرب**»، من أن بنى بَلِيّ لا يتحدثون الليطينية، لا نساؤهم ولا رجالهم. وبعض جمل منها كان يتردد فى مجالس الخليفة ترّوحاً وتخففًا، ويجرى على ألسنة المتخاصمين والشهود فى مجالس القضاء. وهى تمثل مصدرًا هامًا لعامية أهل الأندلس، على نحو ما سيجىء. غير أنها رغم هذا كله لم تكن لغة الحياة اليومية، فقد حاصرتها عامية أهل الأندلس، ودفعت بها إلى ركن قصى لا تتجاوزه، فى أروقة الكنائس، أو الحياة الخاصة للمستعربين، أو بين قلة منهم مثقفة أو منعزلة أو تسكن مناطق نائية، ويرى **مينندث بيدال**، أنه لا يمكن الجزم بأن المستعربين فى القرن العاشر وما بعده، قد احتفظوا بلغتهم الرومانثية أداة تخاطب، أو لغة أدب.

وعرف العصر عدداً من كبار المفكرين اليهود فى قرطبة، وفى غيرها، وفيه بدأت الدراسات اليهودية تزدهر، ومع ذلك لا يمكن القول بأن **اللغة العبرية** كانت لغة ثقافة أو محادثة لأحد. صحيح أن عدداً محدوداً من علماء اليهود كان على معرفة بها، ولكنها معرفة المتخصص الراغب فى الدراسة، أكثر منها معرفة المتمكن يجعل منها محملا لأفكاره أو مشاعره، أو أداة وصل بينه وبين الآخرين.

ومن المؤكد أن **الصقالبة**، وجاءوا من أمكنة عديدة من وسط أوربا، كانوا يعرفون لغاتهم الأصلية أو مفردات منها، وأن أدوات النطق عندهم تكونت على نحو يترك أثره فى نطق اللغة التى سوف يتحدثون بها. ورغم أن الكثرة الغالبة منهم كان يؤتى بهم أطفالا، ويربون على إتقان اللغة العربية وإجادتها، فإن عددًا منهم ليس بالقليل، كان يجىء فى سن فتية لا يتأتى معها أن يتعلم اللغة العربية بسهولة، وكان جهلهم بها يقيم بينهم وبين عامة الناس سوراً عاليًا من العزلة، فلا يشاركون غيرهم فى حديث أو حوار، فكان يطلق عليهم اسم «**الخرس**». لكننا لا نعرف أنهم تركوا أثرا واضحا، او غير واضح، فى أى من لغات الأندلس: العربية أو العامية أو الرومانثية، أو حتى الإسبانية فيما بعد، ولو أن **ديوان ابن قزمان**، وكتب فى عامية أهل الأندلس بعد ذلك بقرن من الزمان، يضم عددًا كبيرًا من ألفاظ غير عربية، الجانب الأكبر منها من أصل رومانثى، ولكن عددا من المفردات يمكن – ظنا – أن يكون مصدره هؤلاء الصقالبة، لأننا لا نعرف له معنى ولم نتوصل له إلى أصل يمكن أن يُرد إليه.

وإلى جانب هذه اللغات كلها عرف الأندلس عربية عامية، ذات دائرة أوسع منها جميعاً، ولها خصائص متميزة، وسوف تعرف باسم «**عامية أهل الأندلس**»، وجاءت

نتيجة طبيعية لقلة العنصر العربى، وللزواج المختلط، فكل العرب الذين وفدوا على الأندلس، إلا ما ندر، جاءوا رجالا، وتزوجوا فيه من إسبانيات، أو تسرَّوْا من الجوارى ما وسعتهم الحال، وكان عدد الجوارى كبيرًا، وينتمين فى جنسيات مختلفة، ومن مناطق متنوعة فى الأندلس نفسه، ففيهن القادمات من قطلونية، أو الباسك، أو جليقية، أو من جنوب فرنسا، ويطلق عليهن فى المصادر القديمة اسم «**الفرنج**»، وكن مرغوبات ومحبوبات، لبياض بشرتهن، وشقرة شعرهن، ويمثلن الأغلبية، إلى جانب قلة من الصقلبيات أو السودانيات، وكانت الجارية التى تجهل العربية، وتطلب للمتعة، أغلى ثمنًا من غيرها.

والرجل مع زوجته، أو جاريته، فى لحظاتهما الودود، لا يتحدث الفصحى ولا يسمعها، يعبر عن عواطفه بلغة مفهومة لمن معه، وتجسّد هى مشاعرها فى لغتها الأصلية، أو فى لغة هجين، لأن الكتب والثقافة والتعليم لا تمدها، ولا غيرها ممن على شاكلتها، بألفاظ هذه الأحاسيس، إنما يتعلمها الفتى من أنداده، وتنقلها الفتاة عن أترابها، ذلك إلى جانب مفردات البيت المتصلة بالطعام والشراب. والأم تلقن هذه الألفاظ وما تحب من لغتها لأطفالها، فتأتى لغة الأبناء، على الأقل فى المرحلة التى تسبق المدرسة، خليطًا من لغة الأب ومن لهجة الأم.

وإذا تجاوزنا **الجوارى**، فإن **الباعة وأصحاب المهن الصغرى**، وكلهم ليسوا بعرب، تخلّف فى نطقهم، وفى معجمهم اللغوى، الكثير مما ورثوا، ومن الرومانثية، ومن ثم فإن **عامية الأندلس** كانت خليطاً من ألفاظ عربية فى مجملها، فى صورتها الصحيحة أو تطورت نطقا ودلالة، ومن كلمات رومانثية تمثل نسبة عالية، قد تبلغ حد الثلث منها، ومن ألفاظ بربرية أو من لغات أخرى قليلة للغاية، وليست بذات أهمية، وكانت هذه اللغة معروفة للناس جميعًا، عربًا وبربرا وإسبانا، مسلمين ويهودا ومستعربين، ولكل من يعيش فى قرطبة، إنها لغة الحياة اليومية فى البيع والشراء، والسمر والتوادد، والتخاطب بين عامة القوم، ولم يصلنا من هذه اللغة، أو اللهجة إن شئت الدقة، فى الفترة التى نعرض لها، نصوص تعين على تحديد ملامحها، ولكن **ابن حزم** أشار إلى بعض هذه الملامح، ويرى أن البربر لعبوا دورًا حاسمًا فى التحريف البنائى والصوتى الذى أصاب اللغة العربية فى الأندلس، ويقول **المقدسى**، وهو جغرافى غير أندلسى من القرن العاشر الميلادى، إنه التقى فى مكة بحجاج أندلسيين، «**ولغتهم عربية، غير أنها منغلقة، مخالفة**

لما ذكرنا في الأقاليم، ولهم لسان آخر يقارب الرومي». أما هذه العربية المنغلقة، فهي عامية أهل الأندلس، وأما اللغة التي تقارب اللسان الرومي (أي اليوناني) فهي الرومانثية. ويمكن القول إجمالا أن هذه العامية، إذا استثنينا الكلمات الرومانثية التي اختلطت بها، تشبه في صوتياتها، والجانب الأكبر من دلالاتها، عامية أهل المغرب والجزائر، في أيامنا هذه، إلى حد بعيد.

كان يمكن لهذا التيار العامي أن يودي بالعربية، لولا أنه أدى في الوقت نفسه إلى رد فعل معاكس، فكانت عناية الدولة والمجتمع الراقي والمثقفين بالفصحى كبيرة، فالخلفاء ورجال الدولة يقربون من يحسن العربية، ويتنافسون هم أنفسهم في إجادتها، ويغدقون العطاء على الشعراء والكتاب، ويحرص هؤلاء من جانبهم على إلتزامها، ويبالغون في مراعاة القواعد، والتأنق في التعبير، ومن ثم ازدهرت الدراسات اللغوية، وعرف الأندلس عدداً من كبار النحاة، **كابن مالك صاحب الألفية، وأبي بكر الزبيدي صاحب «الواضح في النحو»**، وغيرهم. وعُرفت الدارسات الخاصة بمقاومة اللحن، وتصحيح النطق، وإرشاد الناس إلى الصواب.

- **العمران :**

تحتل قرطبة بوصفها عاصمة الأندلس المكانة الأولى في المصادر التاريخية والجغرافية، غير أن التفصيلات التي تقدمها لنا هذه المصادر عن تخطيط المدينة والحياة فيها قليلة للغاية، والكتاب الوحيد الذي نستخلص من عنوانه أنه عني بهذا الجانب، وهو «كتاب وصف قرطبة» لمؤرخ الأندلس الكبير أحمد بن محمد **الرازي** (ت ٣٤٤هـ = ٩٥٥م)، وفيه تفصيلات وافية عن شوارعها وقصور الأعيان فيها، ضاع ولم يصلنا، ولقد أوقف **المقري** الجزء الثاني من كتابه **«نفح الطيب»**. طبعة الشيخ محيي الدين، على مدينة قرطبة، وحشد فيه نصوصا كثيرة، كاملة أو مبتسرة، جغرافية وتاريخية وأدبية، غير أن المؤلف وهو مغربي، وحرر كتابه في القاهرة، ويتحدث عن مجتمع أندلسي قد اندثر، لا يقدم لنا، إذ حذفنا الأشعار والتكرار وما لا صلة له بالموضوع، إلا معلومات قليلة للغاية. وحاضر المدينة، وزرتها مرارا، صورة مشوهة لما كانت عليه في ماضيها، نعم إن بعض المعالم لا تزال قائمة، وبخاصة تلك التي تقع على شاطىء الوادي الكبير، كالمسجد الجامع، والرصافة، وبقايا أطلال القصر الأموي في السهلة، أو سفح الجبل، أو مدينة الزهراء، كما أن السور الذي كان قائمًا حول المدينة في القرن العاشر يمكن

تحديد معالمه كاملة. إن قرطبة المعاصرة، مبانى وسكانًا، جزء صغير عما كانت عليه فى عصر الخلافة، لقد تلاشت أحياء وأرباض كاملة برمتها، وأصبح ما حول قصر الناصر فى مدينة الزهراء أعشابا مخضرة، ومراعى للثيران.

كانت قرطبة القرن العاشر صنو بغداد، فيما يرى ابن حوقل، ولم يجد لها فى مصر أو الشام شبيها، ويختلف المؤرخون المعاصرون فى عدد سكانها، فبعضهم يتجاوز به المليون، ويهبط به آخرون إلى مائة ألف، وفى غيبة الوثائق كل شيء محتمل، ولو أن الرقم الأدنى يبدو غير معقول، لأن قرطبة الآن تضم من السكان مائتى ألف ونيفا، وكان امتدادها مدينة، ومركزها عاصمة، يجعل منها فى العصر الوسيط أضعاف ما هى عليه الآن. وإذا استخدمنا الأرقام، وما لدينا منها كاف لإلقاء ضوء على حجم المدينة، قلنا: كان بها ٣٨٧٧ مسجدا فى رواية، و٢٨ ربضا، و٩١١ حماما، وطبقاً لإحصاء تم بأمر المنصور بن أبى عامر فى نهاية القرن العاشر، كان فيها ٢١٣,٠٧٧ دارًا يسكنها العامة، و٦٠,٣٠٠ بيت يسكنها الخاصة وكبار الموظفين، و٨٠,٤٥٥ دكانًا، ولا يدخل فى هذه الأرقام البيوت المؤجرة، ولا الحمامات ولا الفنادق، وسبعون دارا للكتب.

وكان يطلق على هذا الجانب القديم من قرطبة اسم **«المدينة»** مرسلا، أو **«المدينة العتيقة»** أو **«القصبة»**، ويحيط به سور يُرمم من حين لآخر، وتقوم عليه عدة أبواب، أهمها: **باب القنطرة**، ويقوم على مقربة من المسجد الجامع، ومن قصر الخلافة، ويربط المدينة بربض شقندة، وكان **الحكم الأول** (٧٩٦-٨٢٢م) قد أمر بهدمه وتحويله إلى مقبرة، بعد أن تزعم سكانه ثورة عليه عرفت باسم **«فتنة الربض»**. **وباب الوادى أو الجزيرة**، وفيما يقول **البكرى** كان عليه تمثال لمريم العذراء، **والباب الجديد**، **وباب طليطلة**، ويطلق عليه أيضاً **باب رومية**، على حين كانت العامة تسميه **باب عبد الجبار**، نسبة إلى عبد الجبار الخطاب مولى الخليفة المشرقى مروان بن الحكم. والباب الرابع فى الشمال الغربى ويسمى **باب ليون أو باب طليرة أو باب اليهود**، واستقبح بعضهم هذا فكانوا يطلقون عليه باب الهدى، والأبواب الأخرى توجد فى الجانب الشرقى، وهى: **باب عامر، أو باب الجوز**، ويسمى **باب بطليوس أيضاً**، **وباب إشبيلية أو العطارين**، وعلى مقربة منه كان يوجد مصنع سك العملة، ويطلق عليه اسم **«دار الضرب»**. وكانت عدة دور الرعايا والسواد الذين يسكنون داخل السور ١١٣ ألف دار، حاشا دور الوزراء وأكابر الناس والبياض.

غير أن المدينة، وبخاصة منذ القرن التاسع، بدأت تفيض بسكانها نحو أحياء جديدة بين الجانب الأيمن والمنطقة التى تبدأ من باب عبد الجبار وتمتد حتى الكولية، وتسمى الشرقية، أو الجانب الشرقى، ومازالت تعرف باسمها العربى حتى يومنا هذا فى شكله الإسبانى الحديث Ajarquia ، (فى الإسبانية القديمة Axerquia) ، ومنها يبدأ الطريق الموصل إلى مدينة الزاهرة التى بناها المنصور بن أبى عامر.

وفى أقدم مخطط وصلنا لمدينة قرطبة، ورسم عام ١٨١١ م، نلتقى بعدد من المعالم العربية وبخاصة ما اتصل منها بالحى التجارى مثل: **القيصرية**، وهى سوق الأقمشة، وتتفرع منها على الطريقة القديمة شوارع: الجزارين، والخبازين، والخياطين، والصفارين. ونلحظ أن حى الشرقية الحديث احتفظ بعدد من أسماء الشوارع العربية، فى صورتها العربية أو مترجمة إلى الإسبانية، وترتبط بنشاط تجارى أو صناعى كان يشتهر به الشارع فى قرطبة العربية. فهناك شارع الوراقين Librerias ، والخلاّلين Vinagreros ، والحبّالين Los Cordoneros ، والخياطين Alfayatas ، وزقاق الحدادين Herradores وأسماء أخرى كثيرة. وبقى القليل فى صورته العربية، كالمحور الذى تلتقى عنده عدة شوارع صغيرة ويسمى الزُنَيْقَة Azonaica ، أو ميدان المغرة Acequia ، وشارع الساقية Acequia ، وزقاق عائشة calleja Aixa ، وغيرها.

وكأية مدينة إسلامية فى العصور الوسطى لها حى وسيط يشغله أرباب التجارة، ويرتبط بشوارع تتصل بأبواب المدينة، وبأحياء أخرى يعمل فيها أصحاب الحرف ويعيشون أيضاً، وإلى جوار السور، حيث يتيح الخلاء أرضاً واسعة لمن يريد، تسكن الطبقة العليا فى بيوت متسعة أكثر منها مرتفعة، تطوقها حدائق غناء، ومع ازدياد السكان بدأ الناس يبنون بيوتهم خارج الأسوار، على نحو ما أشرنا، وبدأ ما أطلق عليه اسم «**الربض**»، وهى كلمة أخذت طريقها إلى اللغة الإسبانية لفظاً ومعنى، مع تحريف يسير، فأصبحت Arrabal، والكلمة مستخدمة فى لغة الحياة اليومية حتى يومنا، وقد ينتقل السور مع الحى الجديد، وقد تتعدد الأرباض، على حين أن الأصل، وهو ما بين الأسوار القديمة، ظل يعرف باسم المدينة، ومع الزمن أصبح كل ربض مدينة مستقلة، له حياته ومتطلباته الخاصة، وأورد لنا **ابن بشكوال** قائمة بأرباض قرطبة، وكانت تبلغ فى روايته ستة وعشرين، وقد اندثرت هذه الأرباض اليوم، وقامت على أنقاضها مزارع وحدائق. ولم يكن امتداد المدينة يخضع لتخطيط من الدولة، وإنما ترك للمبادأة الشخصية.

ويخترق المدينة شارع كبير، طويل وعريض، يطلق عليه اسم: **«السكة الكبرى»** أو **«المحجة العظمى»**، وسوف يصبح مثل هذا الشارع من معالم قرطبة وغيرها من مدن الأندلس، كبرت أم صغرت، وحتى الآن، بعد أن ترجم حرفيًا إلى اللغة الإسبانية فأصبح Calle mayor . ويطلق على الشوارع غير الرئيسية اسم **«زقاق»**، ويؤدى الزقاق وهو متعرج وضيق إلى **«درب»**، ويكون هذا مسدود عادة فى نهايته، وانتقل اللفظ بصورته العربية إلى الإسبانية Adarve . ومجموعة الشوارع تصبح **«حومة»** أو **«حارة»**، ودخلت هذه إلى لغة الرومانثية فى صورة مصغرة على الطريقة الإسبانية Harella . وتحمل الحارة أو الحومة اسم المسجد الخاص بها، والذى يؤدى فيه سكانها الصلاة. ويتوسط الشارع مجرى مركزى محدد، ومغطى أحيانًا، تصب فيه المياه القذرة، ومياه المطر، ويقوم على تنظيفه عمال من قبل الدولة، يدقون الأجراس قبل عملهم تنبيها للمارة كى يبتعدوا، أما الزبالة فكان موكولا أمرها لسكان الحى أنفسهم، ويستأجرون من يحملها خارج المدينة. وكان فيها أميال من الطرق المرصوفة، التى تضاء من بيوت تقوم على جانبى الشارع، وذلك «على حين لم تكن تتمتع بمثل هذا لندن أو باريس حتى بعد سبعة قرون من ذلك التاريخ، وبعد ذلك بقرون كان الذى يجرؤ على الخروج من عتبة بيته فى باريس فى يوم مطير يغوص فى الوحل إلى عقبيه».

وكانت **قرطبة**، شأنها فى ذلك شأن أية مدينة أندلسية كبرى، تضم خارج أسوارها حدائق واسعة، يطلق عليها اسم: **«الشريعة»**، مخضرة وذات خمائل، وتستخدم لأغراض عديدة، ففى جانب منها يقام السوق الأسبوعى، وفى آخر مصلى لإقامة الصلوات فى الفضاء، وبخاصة فى الأعياد والحفلات الدينية، وإلى جانبها **«الحور»**، طريق ممتد تحفه الأشجار العالية، ويتخذه المتنزهون والعشاق والمتبطلون ملتقى لهم، وخارج أسوار المدينة كانت المقابر أيضاً، وعليها يتردد السكان رجالا ونساء، ليزوروا مقابر أسلافهم، ولتكون قبل ذلك وسيلة الالتقاء، حيث يلتقى الأصدقاء، وتتبادل السيدات آخر الأنباء والإشاعات، وحيث تتاح الفرصة للعشاق أيضاً.

وكان للخاصة، أو الطبقة العليا، بيوت ريفية، تقوم وسط جنان ممتدة وعامرة، يطلق عليها اسم **«المنية»**، وإذا كبرت جداً واتسعت أطلق عليها اسم **«حير»**، وتفتح عادة فى وجه الراغبين من عامة الشعب، وأشهرها فى قرطبة **«حير الزجالى»**، وتملكه أصلا أسرة بربرية، وتميز بأنه كان يفتح فى وجه العامة من المثقفين والأذكياء وأصحاب الذوق

الرفيع فحسب، ونعرف من هذه البيوت الفاخرة **«منية نصر»**، نسبة إلى الفتى الصقلبى نصر، وكان خصيا، وموضع ثقة عبد الرحمن الثانى، وبعد موته المأسوى صادرها الأمير محمد، ومنحها زرياب المغنى ليسكن فيها، وحفظ لنا ابن حيان فى كتابه **«المقتبس»** قصيدة ليحيى الغزال يسجل فيها الحادث والمناسبة، وفيها أيضًا كان ينزل السفراء القادمون فى مهمات لدى عبد الرحمن الناصر.

وخارج المدينة تقوم **«المشافى»** للمرضى الذين يستعصى علاجهم، أو ببطئ، أو مصابين بأمراض معدية، فى حى قائم بنفسه يطلق عليه: **«ربض المرضى»**، ويقع قريبًا من **«منية عجب»**، وتقوم عليها جماعات متطوعة إشرافًا وإنفاقًا، مما تتلقاه من أهل الخير، أو مما يوقف عليها من مال أو أرض أو عقار.

ومن معالم قرطبة **«المسجد الجامع»**، ولا يزال قائماً بعد ألف عام من بنائه، يطاول الزمن، ويقاوم المحن، والإلمام بتاريخه، والوقوف عند أوصافه، يخرج بنا إلى إطناب ليس هذا مكانه. وقد ترك لنا **الشريف الإدريسى**، وهو أندلسى من **سبتة**، وتوفى عام ٥٦٠هـ = ١١٦٦م، وصفًا له، شاملا ودقيقًا، فى كتابه: **«نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق»**، كما أن **المقرى** جمع فى كتابه **«النفح»** نصوصاً عديدة متصلة به[1].

وعندما يهبط المرء من أعلى المدينة، سالكاً طريق **«المحجة العظمى»**، ويمر بين قصر الخلافة والمسجد الجامع، ينتهى به الأمر إلى **القنطرة** القائمة على نهر الوادى الكبير، وهى قديمة وشهيرة، ويقال إن الإمبراطور الرومانى أغسطين أول من أمر ببنائها، وما تزال قائمة حتى يومنا هذا.

وعلى جانبى النهر كانت تقوم النواعير، والطواحين التى تعمل بقوة اندفاع الماء، وأمكنه الصلاة فى الهواء الطلق، ومكان متسع يعلق فيه المحكوم عليهم بالصلب.

- **المهن والحرف :**

فى القرن العاشر، وتحت مظلة شاملة من الأمن والسلام، لكل الأرض وكل الناس، بلغت قرطبة قمة الإزدهار الاقتصادى، وتحولت المدينة إلى خلية عاملة تقوم على

---

(١) وانظر أيضا: فون شاك، الفن العربى فى أسبانيا وصقلية، ص ٢٢ وما بعدها الطبعة الأولى، ترجمة د. الطاهر أحمد مكى، دار المعارف ١٩٨٠ . وصدرت طبعته الثانية ١٩٨٥ .

التخصص فى المهن، والتعاون فيما بينها فى الوقت نفسه، فكانت هناك مهن كثيرة، وحرف متعددة، تجعل الحياة أكثر سهولة ويسراً وإمتاعاً.

كانت هناك **أفران عامة** وكثيرة، توجد فى كل شارع مهما صغر، وأحصيت فى قرطبة المعاصرة خمسة شوارع يحمل كل منها اسم فرن Horno مضافاً إلى صاحبه أو منشئه، ويرسل الناس بخبزهم إليها، ولكل فرن صبى معين يمر بالبيوت فى ساعة معينة، يحمل منها الخبز عجينًا ويعود به مستويا، ويتلقى أصحاب الأفران أجرهم عجينا، فيصنعونه خبزا، ويبيعونه بدورهم لمن لا عجين عنده. وفى كل شارع يتميز بالحوانيت الخاصة ببيع الطعام والشراب، من خضرى وجزار وفاكهى وبقال وعطار وسماك، وإلى جانبهم من يقوم بالطبخ أو الشواء، أو عمل الحلوى، لمن يحب وعلى مرأى من طالبه، وما يجرى فى الشارع موضع رقابة كاملة من الدولة، نظافة وصنعة وسعرا.

وتنظم الدولة **صناعة النسيج** والاتجار فيه وتراقبها، وكانت تحتل جانبًا هامًا من نشاط الناس ومن اتساع المدينة، فتشغل حيًا كبيرًا يسمى **«الطرازين»**، وتفتح فى أطوارها المختلفة، من نسج وصبغ وتطريز وتفصيل، الباب واسعًا أما آلاف العمال، ومثلهم من الصبيان الراغبين فى التعليم والتدريب. وجمهرة العاملين فيها من المسلمين المولدين، ومن المستعربين المسيحيين. وكانت الأقمشة تباع نسيجاً لمن يحب، أو ملابس جاهزة، وكان لها سوق خاصة بها يطلق عليها اسم **«السقاطين»**، وهى لفظة انتقلت إلى الإسبانية لتؤدى المعنى نفسه، وما زال سوق «السقاطين Zactin» قائماً فى غرناطة. وزرته مرارا، تجدد النسيج، وتعددت الألوان، وتغيرت أنواع الملابس، ولكن الحى حياة وتقاليد لم يبعد كثيراً عما كان عليه بالأمس. وكانت الرسوم متأثرة فى جانب منها بالرسوم الفاطمية، أو القبطية المصرية، وقد غزا النسيج المصرى قرطبة، وشاع فيها، وعرف باسم **«القباطى»**.

وعلى هذا النحو من الاتساع كانت **صناعة الجلود**، صياغة وعملا، وبلغت فى قرطبة شهرة عالمية فى العصر الوسيط، حتى أن الكلمة الفرنسية الخاصة بصانع الأحذية Cordonnier أخذت من لفظ قرطبة فى صورته الفرنسية Cordoue ، وتخضع هذه الصناعة بدورها لرقابة الدولة، وتعكس فى أشكالها وألوانها، فضلا عن الدقة، قدرًا من الترف المصقول الذى كان لدى القادرين والأغنياء وعامة الناس.

وكانت **الملابس الملكية**، وما تحتاجه دار الخلافة، والهدايا التى يمنحها الأمير أو الخليفة، تتم فى مصانع خاصة، متصلة بالقصر، يطلق عليها **«دار الصناعة»**، وترسم وتزخرف فى عناية بالغة، ويكتب عليها بأحرف من ذهب اسم الأمير، أو الخليفة، المهدى لها.

وبلغت **صناعة الفخار** إلى جانب صناعة الزجاج، قدرًا عاليًا من التقدم، وعثر فى حفائر مدينة الزهراء على بقايا منه تؤكد هذا التقدم، وأول من اكتشف أسرار صناعة الزجاج قرطبى من القرن التاسع، **عباس ابن فرناس**. وهو شاعر أيضًا، وأشرف بنفسه على إقامة مصنعه وأفرانه فى قرطبة.

ومع نهاية القرن العاشر بدأت قرطبة تمثل مكانة عالمية تفوق بيزنطة فى **صناعة الجواهر**، من عقود وخواتم ومعاصم مرصعة، وفى تزيين الجلود، وصناعة التماثيل من العظم والعاج والخشب.

ولم تكن فى قرطبة مصانع كبيرة للورق أو الرق، وكانت تعيش منها على ما تنتجه المصانع الكبرى التى أقيمت فى شاطبة jativa قريبًا منها، وكان الورق ميسورًا ورخيصًا، والنوع الجيد منه يسمى الشاطبى، ولا تزال شاطبة حتى اليوم مركزًا هامًا لصناعة الورق فى إسبانيا.

ولا يمكن أن نرسم صورة صادقة للمناخ الذى عاش فيه صاحب «طوق الحمامة». ما لم نتحدث عن **سوق الرقيق**، وليس هنا مكان دراسة الظاهرة نفسها، وكانت من معالم المجتمع الإنسانى حتى وقت قريب. فقد كان فى قرطبة، كما كان فى غيرها من كبريات المدن، سوق للرقيق تسمى **«المعرض»**، يعرض فيها الرقيق من رجال وإناث للبيع. وفيما يتصل بالإناث هناك صنفان: المتميزات ويطلق عليهن اسم **«مرتفعات»** و**«وحش الرقيق»**. والبيضاوات منهن كن يعرضن طبقاً لمصدرهن: الصقلبيات، ويؤتى بهن من وسط أوربا، والإفرنجيات وهن القادمات من جنوب فرنسا، وإيطاليا، ومنطقة قطلونية فى شمال شرقى الأندلس، والغاليسيات، أو الجليقيات فى المصادر القديمة، وموطنهن شمال غربى الأندلس، والبربريات. على حين يطلق اسم «السودانيات» على كل السوداوات، ولم يكن هؤلاء بأقل إحتراماً من البيضاوات، فقد تميزن فى أعمال البيوت، والشىء نفسه يمكن أن يقال عنهن كعشيقات، والإفرنجيات، والصقلبيات

القادمات حديثًا، ولما يزلن يجهلن لغة وتقاليد من اشتراهن، أغلى ثمنًا من غيرهن. ويطلق اسم «قينة» على التى تجيد الغناء والرقص، ولما كان المجتمع القرطبى يهفو للشعر الجيد، ويطرب للموسيقى الجديدة، ويهتز للرقص الرفيع، أكثر مما يعنى بألوان الفنون الأخرى، فقد عظم شأن الجوارى الموهوبات المتعلمات وسمت قيمتهن. وقد كثر عددهن فى قصر الخلافة، ومارسن نفوذًا قويًا فى الحياة الخاصة للأمير أو الخليفة، والعامة للدولة، وكان يؤتى بهن فى البدء مدربات من المشرق، وفيما بعد، حين أقام زرياب عددًا من معاهد الموسيقى فى الأندلس، كان الإعداد يجرى فى قرطبة نفسها.

- **الحياة الخاصة :**

وتقيم الأسرة فى بيت، والأب صاحب الكلمة فيه، وداخل البيت لا صلة له بالشكل الخارجى، فإذا كان المظهر الخارجى متواضعاً، فإن الداخل يعكس قدرا كبيرا من الرفاهية والترف، ويعامل الزوج زوجته باحترام شديد، والعكس صحيح، وبخاصة أمام الأبناء، وهؤلاء يوقرون أباهم، لا يقتربون منه إلا بقدر، ولا يتحدثون فى مجلسه إلا بإذن، وعندما تسكن الأم مع ابنها المتزوج تصبح المسئولة عن اقتصاد البيت ونفقاته. وتعدد الزوجات نادر بين الفقراء والطبقة الوسطى، ويحدث أحيانًا حين لا تكون الزوجة جذّابة أن يشترى الزوج جارية بيضاء أو سوداء، تعاون فى أعمال البيت، وترضى رغائبه حين يحب، ويمكن أن ينجب منها، وتصبح أم ولد، ولا يجوز للرجل أن يبيعها حينئذ، وتحصل على حريتها يومًا بعد موت زوجها. ومنذ زمن مبكر جدًا يعرف الأطفال بالدقة ما تعنى العلاقة الزوجية، فإذا بلغوا سن الحلم، كان نضجهم العاطفى كاملا، وليسوا فى حاجة إلى أية إثارة.

ويقوم الأب بشراء متطلبات البيت، وحين يذهب إلى عمله تتنفس الأسرة الصعداء، وتستأجر البيوت المقتدرة خادمًا، ومن بين الوثائق التى وصلتنا صورة لعقد بين أسرة وخادم، يحدد الحقوق والواجبات: كان عليها العجن والخبز وعمل الطعام، والنظافة وترتيب الأسِرَّة، وإحضار الماء، وغسل الملابس، والخياطة، ويدفع أجرها سنويًا إلى جانب الغذاء والإقامة والملابس.

أما فى بيوت الخاصة فنلتقى، طبقًا لمستوى الزوج الاقتصادى، بعدد من الزوجات، وسحابة من الجوارى، سود وبيض، وحاشية من الخصيان تحت رئاسة **«قهرمان»**، وثمة رئيسة للخدم فى بيوت العلية تسمى **«قهرمانة»** يعمل تحت إمرتها الخادمات والطباخات

والحاضنات وكان يطلق على الأخيرات اسم «الرشيدات»، ويتوزعن على بيت متسعك كثير الحجرات ممتد الحديقة، وفى غيبة الأب تسمع المناقشات الصاخبة بين هذا العديد من البشر، على حين يلعب الأطفال فى الأبهاء أو الحديقة، ولكن ما إن يصل رب البيت حتى يسترد المنزل هدوءه كاملا، هدوء يمزقه من حين لآخر خطو الخدم الأصم، أو وشوشة النوافير الناعمة، أو هديل الحمام الغرد. إنها اللحظة المخصصة للراحة، أو الاسترخاء، أو المتعة. والجانب المخصص للأسرة لا تكاد تقع عليه عين الغريب، فمقابلات الزوج لأصدقائه، أو العمل، أو مع الباعة، تتم فى غرفة توجد عند مدخل البيت، ومخصصة لمثل هذه المقابلات. والبيت مملكة تكاد تكون مستقلة، وتبلغه أخبار الشارع، وما يجرى فى البيوت الأخرى، من فضائح وجديد فى الأزياء، موشاةبالزيادة والأكاذيب.

وتجرى الحياة فى البيت رتيبة، يومًا وراء آخر، عمل وتنظيف، وتهيئة كل وسائل الراحة لربّه أولا، ولمن فيه أخيرًا، وكلهم سعداء، لا أحد يشكو سوء الحظ،ومن حين لآخر تقوم الزوجة بعمل ما يدفع الحسد أو الشياطين عن البيت. وقل ما تخرج الأسرة للنزهة، فلديها بستانها وكثيرًا ما تخرج لزيارة أصدقائها، وإلى الهواء الطلق فى الأعياد الدينية والقومية، وتقوم بزيارة أسبوعية للمقابر للصلاة على أرواح الذاهبين من الأهل وتذهب مرة أو مرتين إلى الحمام، إذا لم يكن لديها حمام خاص، وهى فرصة ذهبية للسيدات لكى يلتقين، ويتبادلن آخر الإشاعات، سويًا وبعيدًا عن أية عين أو رقابة.

وتتركز الأحداث الهامة فى حياة الأسرة فى ثلاثة: الزواج والإنجاب والموت. وفى الحدث الأول يكون الإحتفال كبير وبهيجًا فى بيت العروس، ويتكلف نفقات طائلة، مما أدى إلى حملة قوية من الفقهاء على ذلك النمط، وتشغل حفلات الزواج أسبوعًا كاملا، وترك لنا ابن حزم فى كتابه «الطوق» وصفًا لحفلة كهذه جرت فى الشارع، وهو منظر يسعد المارة، والفارغين من العمل وما كان أكثرهم فى قرطبة. وتتم عملية الوضع على يد القابلة، وتُستدعى الطبيبة فى الحالات المستعصية، وكانت تتقاضى أجرًا عاليًا. وتقوم على الطفل حاضنةخاصة فى بيت أبيه، إذا كان مقتدرًا، وفى حالات كثيرة يعهد به إلى قروية تحمله إلى الريف، ويبقى معها حتى الفطام، ووصلتنا عقود تحدد الشروط الواجب توافرها فى الحاضنة وأهل الطفل، فكان على الأب أن يدفع للحاضنة راتبًا شهريًا وملابس، وعليها إرضاع الطفل ونظافته جسمًا وملبسًا، وتقام

«العقيقة» فى اليوم السابع، وتأخذ شكلا يرتبط بمستوى الأسرة الاقتصادى، حينئذ يحلق شعره للمرة الأولى، ويأخذ الطفل اسمه، ويستخدم مصغرًا تدليلا له، وتأصلت هذه العادة فى الأندلس، وتخلفت بعد جلاء الإسلام والمسلمين عنه، فهى شائعة حتى يومنا هذا، وغالبًا ما يطلق عليه اسم جده، أو الجد الأعلى للأسرة، أو اسم أشهر شخصية فيها. وفى هذا اليوم تعطى له كنيته أيضًا، وحين يكبر سوف ينادى بها فى الأسرة أكثر مما ينادى باسمه. ويطلق على الفتاة اسم إحدى شهيرات الإسلام فى أيامه الأولى، وكنية أيضًا تنادى بها، مثل: أم كلثوم؛ أم الحكم، وهكذا. ومنذ القرن العاشر بدأت قرطبة تتخلى عن هذا التقليد المشرقى لتعطى أسماء وصفية للفتيات الحرائر، وكانت قبل وفقًا على الجوارى فأصبح لدينا أسماء مستمدة من الزهور، ونعرف **للمنصور بن أبى عامر** ثلاث بنات كانت أسماؤهن: **بهار، ونرجس، وبنفسج.**

وكانت حفلات الإعذار للذكور كبيرة، والعادة أن يجمع المقتدر اقتصاديًا عددًا من الأطفال من المستوى الاجتماعى لطفله، أو دونه، لكى يعذروا معه، وتتم الحفلة للجميع، ويتولى نفقاتها بمفرده.

وعلى العكس، كان **تشييع الموتى** ودفنهم يتم فى ظروف بسيطة، وطبقاً لأحكام المذهب المالكى، ويدفن فى أقرب مقبرة إلى بيته، وبعضهم كان يعد شاهدا يوضع على قبره، لا يضاف إليه غير تاريخ الوفاة واسم المتوفى ويتضمن بعض الآيات القرآنية المناسبة، ودعوة لمن يقرأه أن يطلب الرحمة لصاحبه وأن يقرأ الفاتحة لروحه، ويضم متحف قرطبة الآن عدداً من هذه الشواهد.

ولا يتميز البيت، عادة، فى خارجه عن بقية البيوت حوله سواء أكان فى شارع عام أم درب نافذ، وللبيت باب بمفتاح من خشب غالبًا ومن حديد قليلا، ويفتح فى أسطوان، أو سقيفة، ومنها يمتد ممر ينتهى إلى صحن البيت، وتوجد فيه بئر وأشجار ومظلة، وتطل عليه قاعتان كبيرتان، ويحتوى البيت على مرفق، ومطبخ متسع يؤدى إلى الصحن، ويتكون البيت، بعامة، من دورين على الأقل. ولا يضم، غالبًا، غير أسرة واحدة، والفقراء جدا قد يضطرون إلى تأجير بعض غرفه، أو يشاركون فيه أسرًا أخرى، وهو أمر نادر، ويصبح موضع تندر وعتب وتعيير من الجيران.

ومنازل الطبقة الوسطى متسعة، وتبنى فى الأحياء المفضلة، ويتوسطها صحن رحب، يضم ما يشبه أن يكون حديقة صغيرة من الزهور والرياحين، وأشجار الفواكه أحيانًا،

وتمتد عبره قنوات لتوزيع المياه التى تستخرج من البئر، على حين تمتد مجـار أخـرى بعيدة عن الأولى ومغطاة، تحمل المياه القذرة إلى مستودعها الذى يوجد فى منتصف الشارع.

وبيوت الطبقة العالية تفصل بينها جنان واسعة، والممتد منها يسمى «حيرا»، وهذه الجنان مثمرة، ومثلها **«المنيات»** القائمة على ضفاف النهر الكبير.

وفى أى بيت توجد حجرة استقبال، تضم أثاثًا يسهل نقله مـن غرفـة إلى أخـرى، والأرض مغطاة بالحصر فحسب، أو بالحصر وفوقها السجـاد، تبعًـا لمستـوى الأسرة، وتغطى الجدران بأقمشة منسوجة من الصوف، عليها مناظر جميلة وتسمى «الحائطى»، وتحتها ديوان قليل الإرتفاع، فوقه المراتب وعليها الوسائد معتمدة على الحائط، محشوة قطنًا، ومزخرفا ظاهرها بالرسوم، وفوق المراتب تتناثـر المخـدات المـدورة، والأرائك المتخذة من الجلد، ويستخدمون المقاعد ذات الحشايا، وتضم حجرة النوم سريرًا عليه فراش مغطى، وألحفة محشوَّة صوفًا.

ويضم مطبخ كل بيت خزين أغذية، من دقيق وزيت وعسل، وفواكه جافة، ولحوم مقدّدة، ويحفظ فى أوان من الزجاج أو الفخار.

وتضاء البيوت بالشموع والقناديل، وتستخدم الثريات فى بيوت الأغنياء، وتتم التدفئة فى الشتاء عن طريق إجراء الماء الساخن عبر الحجرات، فى أنابيب مـن الفخـار، على حين يستخدم الآخرون المواقد العادية، أما فى الصيف فيواجهون الحر بـرش الصحـن جيدًا بالماء، وأكثر من مرة فى اليوم.

وترك لنا الأندلسيون أكثر من كتاب فى الطبخ، وتتحدث عن مطابخ ثلاثة: أندلسى، ومسيحى، ويهودى. وطرائقه متعددة ومعقدة، وتخضع المائدة لنظام صارم، فلابـد أن يكون هناك تناسق بين الألوان التى تقدم، ويقوم على إعـداد الطعـام فى بيـوت الطبقـة الراقية طباخون محترفون من السود غالبًا، وتزخر المائدة بألوان عامرة من الحلوى، ما بين محشو بالزبد أو اللوز، واشتهر من بينها نوع مـن الفطيـر المحشو جبنـا، ويسمى «المجبَّنات»، وكان لذيذا وشائعا، واحتل من الشعر الأندلسى مكانا، وتخلف فى الإسبانية إعدادا ومادة واسما **Almojabanas** ، ويصفها ابن الأبار:

بنفسى مُثلجاتٍ للصـــدور لهـا سـمّتَان من نَـارٍ ونـورِ
حوامــل وهى أبكارٌ عـذارى تُزفُّ على الأكفِّ مـع البكورِ
كبرْدِ الطـلِّ حين تُذاقُ طعمًا وفى أُحشائهـا وَهَجُ الحـرور
لهـا حـالان بين فمٍ وكفٍ إذا وافتك رائقــة السـفور
فتغرب كالأهلـة فى لهـاةٍ وتطلـع فى يمين كالبـدور

وعلى المائدة يستخدمون الملاعق، ويشربون الماء معطرا بالزهر أو الورد، ويأكلون الفواكه كثيرا من عنب ورمان، وبطيخ وتفاح.

وفيما يتصل بالملابس كثير منها مشترك بين الرجال والنساء، فكلهم يرتدى فوق البدن قميصًا من الصوف أو القطن، وسراويل (دخلت اللغة الإسبانية فى صورة Zaraguelles) طويلة وضيقة، ولا تتجاوز الركبة، ويمكن أن تحل الجلابية البيضاء محل القميص، وهو مزخرف إلى حد كبير. وتضاف «المحشاة» فى الشتاء على هذه الملابس الخفيفة، للرجل والنساء، وهى فرو ثقيل يتخذ من جلد النعاج أو الأرانب، ويلبس فى شكل جلباب. والأطفال من الجنسين ملابسهم على هذا النحو، ويضعون جوارب فى أقدامهم وتتخذ من الصوف، وتصل إلى الركبة، ويأتى فوقها الحذاء، خفا فى الشتاء وصندلا فى الصيف، ويسمى هذا فى الأندلس «القرق»، ودخلت الكلمة إلى الإسبانية فى صورة Alcorque . ويميز غطاء الرأس الرجلَ من المرأة، فالأول يغطى رأسه بكوفية أو شاشيّة، على حين تضع المرأة على وجهها خمارا.

ويرتدى أبناء الطبقة العالية الملابس الحريرية المطرزة، وتصنع من الحرير الطبيعى، وبلغ نسجه حدًا عاليًا من الإتقان، نافست به قرطبة بقية بلاد العالم، ومنه تصنع ملابس الحفلات، والجلاليب الراقية، ذات النسج الرقيق الشفاف. وبدأوا يستخدمون القلانس والطواقى، إلى جانب الطرطور، وسوف يقلدهم فى صنيعهم هذا بلاط مملكة ليون المسيحية فى الشمال. وثمة ملابس أخرى ذات ترف ووجاهة، ترتديها الطبقة العالية، وأبرزها الجبة، وانتقلت إلى الإسبانية فى صورة Algupa ، والدراعة، وتخلفت فى الإسبانية adorra، والمحشية Almexias . وسوف يتلاشى لباس الرأس تدريجيًا، لتصبح العمامة، ابتداء من القرن الحادى عشر، وقفًا على رجال الدين من العلماء والقضاة، وبعض هؤلاء ردّها لباسا. وكان البرنس، وتخلف فى الإسبانية فى صورة Albornoz ،

فى هذه الفترة، وحتى مجئ المرابطين، وفقًا على نساء الطبقة العالية عندما يسافرن على ظهور الخيل أو البغال. وكان **زرياب المغنى**، حين جاء الأندلس، فى الربع الأول من القرن التاسع الميلادى، قد أحدث ثورة فى عالم الأزياء، إلى جانب الموسيقى، ومراسم تناول الطعام، وطريقة تصفيف الشعر للرجال والنساء، فقد جعل لكل فصل من السنة ملابسه الخاصة به، طبقًا لمكانه من الحر أو البرد. فالملابس البيضاء للصيف، وجعل له بدءًا عيد «العنصرة» فى الأندلس، ويجىء فى الأيام الأولى من شهر يونيو، ويمتد حتى أول أكتوبر، والملابس الملونة لبقية العام، وجعل منها للربيع «جباب الخز والملحّم والمحرر والدراريع التى لا بطائن لها، لقربها من لطف ثياب البياض الظهائر، التى ينتقلون إليها لخفتها وشبهها بالمحاشى ثياب العامة»، وأن يلبسوا فى الخريف «المحاشى المروية، والثياب المصمتة وما شاكلها من خفاف الثياب الملونة ذات الحشو، والبطائن الكثيفة، وذلك عند قرص البرد فى الغدوات»، فإذا قوى البرد ودخل الشتاء «ينتقلون إلى أثخن منها من الملونات، ويستظهرون من تحتها إذا احتاجوا إلى صنوف الفراء»، وكان اللون الأبيض شعار الحزن عند بنى أمية الأندلسيين، فلما اتخذ ملبساً للصيف تراجعت عنه الناس إلى السواد.

- **الحفلات والأعياد والملاهى :**

وتحتفل الأسر كلها بالأعياد الدينية، عيدى **الفطر والأضحى**، وكان الصوم شائعا، إلا أولئك الذين لديهم رخص دينية، وإذا جاء رمضان فى الصيف، وقرطبة حارة، ترك أثره فى الحياة العامة للناس، فهم يصحون من نومهم متأخرين، ويخلدون إلى الراحة ساعة الظهيرة حين يشتد الحر، فإذا غربت الشمس، وأفطر الناس، عادت الحياة إلى الشارع بكل صخبها: تفتح المتاجر، وتظل كذلك حتى ساعة متأخرة من الليل، ويبدأ الباعة المتجولون من حملة المشروبات الباردة وغيرهم فى الطواف، وتضاء المساجد ليلة القدر على نحو خاص، وتمتلىء بالعباد الخاشعين، ومعها يتهيأ الناس للعيد، وللعودة إلى الحياة العادية.

وفى عيد الأضحى يحرص الناس، كل الناس، أغنياء وفقراء، على التضحية بكبش، وكسوة الأولاد بملابس جديدة، وتتم صلاة العيد فى الهواء ويؤم المصلين قاضى الجماعة، أو صاحب الصلاة، وتضم الرجال وكثيرًا من النساء، وبعدها يعود الجميع إلى المدينة لتبادل التهانى.

ولم تعرف قرطبة حتى نهاية القرن العاشر الاحتفال بالمولد النبوى، ذلك شيء سوف يجيء فيما بعد، ولكنها كانت تحتفل، وعلى نحو بهيج، بعيدى **«النيروز»** و**«المهرجان»**، ويشاركهم فى هذا مواطنوهم المستعربون، و**«النيروز»** فى أصله اليوم الأول من العام الشمسى فى فارس، ومنذ اتخذه العالم الإسلامى عيداً دخلته تغييرات كثيرة، وكان يحتفل به في الربيع، في اليوم المعتدل منه، دون أن يرتبط ذلك بأول العام الجديد، وليس فيما بين أيدينا من مصادر ما يحدد تاريخ هذا اليوم فى الأندلس. أما المهرجان، ويطلق عليه عيد العنصرة أيضًا، فيقع فيما بين اليوم السادس واليوم الرابع والعشرين من شهر يونية. وكانت الأعياد، وبخاصة عند العامة، أمرًا مرغوبًا فيه لكسر رتابة الحياة اليومية.

وتزدحم الشوارع، ويجد فيها الكسالى والمتبطلون فرصتهم لمتابعة السائرين، وتأمل ما هو جديد، على حين يحاول الباعة فى الشوارع القريبة من **«القيصرية»** ومن **«السقاطين»**، أن يجذبوا إليهم الزبائن، بأصواتهم العالية، ونداءاتهم المسجوعة، لحضور المزاد. وتلتقى فى الميادين العامة بأهل المدينة، والقادمين إليها من الريف للشراء أو البيع، أو لأشياء أخرى، يلتفون حول **«مهرج»** تخفىَّ فى شكل قروى، وراح يقلد حركاته البسيطة والساذجة، حين يواجه المدينة للمرة الأولى. وهناك من يعرضون ألعابهم على أنغام الموسيقا، و«البهلوانات»، والشعراء الجوالون، ومن يعرضون خيال الظل، ومن يقرأون الطالع، ومن يقصون الحكايات، أو التواريخ، أو شيئًا من السنة، بصوت مرتفع. ويختلط ذلك مع أصوات السقائين، وبائعى البخور وموزعيه، واللصوص، والقوادات. وقد يضطرب الأمن حين يقوم شجار بين اثنين، أو حين يكتشف واحد سرقة حافظة نقوده، ولكن ظهور واحد من رجال الشرطة كاف لكى يعود الهدوء ويتوزع الجميع.

وفى يوم الجمعة حيث تخرج النساء إلى المقابر، وفى نزهاتهن الأسبوعية، فإن الطريق إليها وإلى الحدائق يكون غاصًا بأناس من الجنسين، وكلها تعبر القنطرة إلى ربض شقندة، ويلبس الفتيان خير ما عندهم، ويبحثون عن المغامرات، ويداعبون الفتيات الوحيدات بالكلمات الحلوة، أمر يشبه ما عليه حال قرطبة اليوم. وفى هذا المكان التقى **الشاعر يوسف الرمادى** بصاحبته **«خلوة»**، وجرى بينهما حوار أورد لنا ابن حزم فى كتابه «الطوق» جانبًا منه. ومع غياب الشمس يعود الجميع إلى بيوتهم، فإذا أقبل الليل لا يسمع فى الشارع غير وقع أحذية الجنود الثقيلة، وخطى المتخلفين والساهرين.

وكان الفضاء المتسع خارج المدينة معدًا، إلى جانب عرض المحكوم عليهم بالصلب، لإستعراض الجيوش فى المناسبات العامة، كقدوم سفير، أو سفر الخليفة على رأس حملة، وتقام هذه فى الطريق الموصلة إلى مدينة الزهراء وكان ظهور الفرسان بملابسهم الزاهية، على خيولهم الأصيلة، فى خوذاتهم القوية، تنعكس عليها أشعة الشمس فتعطى ألف لون ولون، يثير فى الناس الحماسة والبهجة والإطمئنان.

وكان من المتع العالية فى مجتمع قرطبة صيد الطيور والأرانب الجبلية، ومن المهارة أن تصطادها قبل أن تنفق ليمكن الإفادة منها، فتذبح ثانية بطريقة شرعية، وتباع فى المدينة، ويعد الصيد هواية محببة للأمير وحاشيته فى الجبال والوديان المحيطة بقرطبة، ويتم الصيد بالصقور، وكانت تربيتها وبيعها تجارة رابحة، ويقوم على أمرها فى قصر الخلافة فتى يعنى بها، يدعى «**صاحب البيزرة**»، وتركت المهنة أثرها واضحًا فى اللغة الإسبانية، ففى جنوب البرتغال قرية تحمل اسم «البيزرة Alvayazere».

وكان هناك الصيد بالكلاب فى المناطق الوعرة المخضرة، ذات الأشجار الملتفة والجبال العالية، وبخاصة تحت سفح الجبل، حيث تعقد حفلات صيد كبرى، تصاد فيها الخنازير البرية والغزلان والأيول، يطلقون عليها فصائل من الكلاب السريعة تثيرها، وتدفع بها حيث ينتظرها الصيادون. ويمضى العاهل القرطبى، أحيانًا، أيامًا متصلة فى الصيد، وهو أمر كان موضع نقد العامة وإعتراضتهم.

ومن الألعاب المحببة للخاصة أيضاً لعبة الصوجان، وهى قريبة من لعبة «البولو» الحديثة، والنرد، وسباق الخيل، والشطرنج وجاء به زرياب من المشرق، ولقى رواجًا كبيرا بين أهل قرطبة، وأصبح من مظاهر الرقى الثقافى، وكان القمار رغم تحريمه معروفًا، ومعلوماتنا عنه قليلة للغاية بوصفه عملا محرمًا، ونعرف من أوامر المنع أن لعبة النرد كانت شائعة، وكان النساء يلعبن القرق.

- **مباهج الحضارة وأمراضها :**

وفى هذا القرن بدأت قرطبة تعانى الكثير من أمراض الحضارة، ويكفى أن نلقى نظرة على كتاب «**الطوق**» لنجد **ابن حزم** يقص علينا الكثير مما يجرى دون حرج أو إنكار، ودون أن يلاحق الأحداث بالسب واللعن، كما هى عادة الفقهاء، يذكر ما عرف فى بساطة، كما لو كان شيئًا عاديًا، لا مهرب منه ولا حيلة فيه. لقد فاضت رغبات الناس

الجنسية، وتجاوزت ما هو مقبول عرفًا وعادة، ولم يعد حب المرأة، رغم شيوعه ويسره، كافيًا وحده ليوقف اندفاعهم، من أى وسط كانوا وإلى أية طبقة انتموا، عن اتجاه تنحرف فيه العاطفة عن مسارها الطبيعى، أعنى الشذوذ الجنسى.

وكان الحديث عن الغلمان والتغزل بجمالهم شانعاً يتعدى الشعراء إلى الحياة، ويعرض له المؤرخون دون إنكار أو تشنيع، ولست أعتقد أن كل الذين تحدثوا عن الغلمان كانوا يمارسون هذه العادة الشاذة، ولو أنه، فى الوقت نفسه، لا يمكن أن نقلل من شيوع الظاهرة وخطورتها. وتخلو المصادر من إشارات إلى أحداث وقعت من عامة الناس، وهو أمر طبيعى، فالتاريخ الوسيط قلما يتوقف أمام هذا القطاع من المجتمع، وعلى النقيض، يقدم لنا قائمة طويلة بشخصيات هامة فى شتى مجالات الحياة فى قرطبة، أورد لنا «**ابن حزم**» فى كتابه «**الطوق**» مثلا صارخًا لها: قصة «**أحمد بن كليب**»، وسنعرض لها فى دراسة خاصة، وهى قصة تمس شخصية هامة، أسريًا وثقافيًا واجتماعيًا، فى المجتمع القرطبى، وشاعت حتى بلغت المشرق فأوردها **ياقوت الحموى**، (ت ٦٢٦هـ - ١٢٢٩م)، فى كتابه «**إرشاد الأريب**»، وجاء بها فى تفصيلات وافية **داود الأنطاكى**، (ت ١٠٠٧هـ - ١٥٩٩م) فى كتابه: «**تزيين الأسواق بتفضيل أشواق العشاق**»، وكان ضحايا هذه الفعلة الشنيعة، عادة، من الخصيان وصغار الموالى، فى قصور الأمراء وبيوت الأشراف، ولم تكن قرطبة أيضاً تخلو من فتيان مخنثين، يقدمون خدماتهم لأفضل طالب، وأعطانا **ابن عبدون** وصفًا للمخنث فى رسالته عن الحسبة بأنه «الذى يقلد النساء فى ملابسه وصوته».

وعرفت المدينة بيوت «**الحظوة**»، وزبائنها من دهماء المدينة، ومن الريفيين الذين يهبطون العاصمة للبيع أو الشراء أو لقضايا أخرى، وتسكن العاملات فيها الخانات، ويدفعن ضرائب للدولة، وتسمى الواحدة منهن فى لهجة الأندلس «**خراجية**»، ويطلق على بيوت الدعارة نفسها «**دار الخراج**» ويسميها ابن عذارى «**دار البنات**». ولا تكاد المصادر تشير إلى شىء يتصل بانحراف العاطفة عند المرأة، وممارستها الحب مع امرأة أخرى، وقياسا يمكن أن نتصور أن هذا حدث، وكتب الفقه الأندلسى المفصلة تشير إليه، وتراه محرماً، ولا نعثر له على صدى فى دواوين الشعراء، أو كتب المؤرخين، باستثناء أبيات من الشعر أنشدها **أبو الصلت، أمية عبد العزيز الدانى**؛ المتوفى عام ٥٢٩هـ - ١١٣٤م، وفيها عرض للمساحقة مباشرة. وكان الصمت فيما يبدو لى تحرجاً

وليس جهلا، لأن **العماد الأصفهانى** فى كتابه **«خريدة القصر وجريدة العصر»** أتى بهذه الأبيات فى القسم الخاص بالمغرب، وحين طُبع هذا القسم للمرة الأولى فى تونس فى أوائل هذا القرن، حذف منه الطابعون هذه الأبيات.

وكان الحصول على النبيذ والشراب حتى السكر ميسورا، ومنذ القرن التاسع الميلادى أصبح ربض شقندة يضم سوقاً نافقة للنبيذ، يستأجرها واحد من المستعربين، وقد أغلق مدة ثم أعيد فتحه، لما يدره على الخزانة العامة من دخل، وكان يمد الحانات المسموح بها، والتى تعمل فى خفاء، بما تحتاج إليه من أنواعه المختلفة، ويتردد على الحانات المستعربون المسيحيون والمسلمون غير الطيبين، ونفهم من إشارات الشعراء أن ثمة حانات كانت تقوم على مقربة من الأديرة المسيحية خارج المدينة، يقدم فيها الطعام والنبيذ أيضاً. ومن الشائع أن يتردد على هذه الحانات المخنثون، والنساء من ذوات السمعة السيئة، يقضين الليل مع نشوة الكأس وفى حمياها، وكان ذلك موضع هجوم دائم من الفقهاء، وملاحقة مستمرة من رجال الشرطة، وظل الصراع عنيفًا بين سلطان هؤلاء وذكاء الشاربين، ويتعرض الشارب للمتابعة والعقاب حين يكون الأمر علانية، ويمس الأخلاق العامة، ويعذّر من يضبط سكرانًا بالحد الشرعى المعروف، غير أن المتابعة لا تمتد لما يجرى فى البيوت، بيوت العامة والخاصة على السواء، فهى بمنأى عن الملاحقة والرقابة. وكان المقتدرون فى قصورهم، أو بيوتهم الريفية فى ضواحى العاصمة، يستطيعون بلا خوف، ودون حد، أن يمضوا مع أهوائهم شرابًا ونساء حتى الثمالة. ولعل جانبًا من المجتمع، إلى جانب ضرورات البيئة، كان يجد مندوحة فيما شهر عن أبى حنيفة النعمان أنه أباح شرب النبيذ، وأوجز **ابن عبد ربه** صاحب **«العقد»** هذا الاتجاه فى بيت من الشعر:

دينـنـا ، فى السماع ، دينٌ مديـــ   ـنى ، وفى شربنا الشراب عراقى

وفى مجتمع لم يعرف المسرح كان الرقص والموسيقى والغناء من أكثر مباهج الحياة شيوعًا فى قرطبة القرن العاشر، وإذا صدقنا الشعراء، أو حتى جانبًا مما يقولون، لم تكن هناك حفلة ولا جمع ولا مهرجان لا يضم هذه الألوان الثلاثةوترك لنا **ابن حزم** فى **«الطوق»**، **وابن بسام** فى كتابه **«الذخيرة»** وصفًا تفصيليًا شائقًا لبعض الحفلات التى كانت تقام فى بيوت الخاصة، فى قرطبة وغيرها، حفلات ما يكاد المدعوون فيها ينتهون من تناول الطعام على أنغام الموسيقى حتى يبدأ الغناء والرقص، والعازفون من الرجال

والنساء، ولكن الفرق الجيدة الممتازة لم يكن يقدر على نفقاتها غير كبار الموسرين. وشُهرَتْ من بين أنواع الرقص العديدة رقصة يرتدى فيها الراقصات ملابس الغلمان، ويمتطين خيولا صغيرة من خشب، معلقة بأطرافها أقبية، وطبقًا لنظام معين تأخذ الرقصة شكل معركة حقيقية، يكرون ويفرون ويحاولون. ولم يكن الأمراء يترددون، أحيانًا، فى حضور حفلات أكثر بساطة: مجرد راقصة بالصاجات، تتلوى على أنغام بوق، ويطلق على هذه الحفلات اسم «سمر»، وبقى لها الاسم حتى أيامنا هذه، وأخذ صورة Sambra، ويحمله اليوم أعرق وأرقى مكان للرقص التقليدى فى **مدريد**.

واشتهر من بين الراقصات أولئك القادمات من مدينة **قادس**، ولراقصاتها شهرة تاريخية عريقة، ولهن من قديم قدرة فائقة على التشكيل والإثارة. وقد أشار إليهن فى قصائده الشاعر الرقيق، الماجن والأنيق، اللاتينى اللغة، الإسبانى الموطن، **مرسيال**Marcial ، المتوفى عام ١٠٤ للميلاد، ونعرف منه أن هؤلاء الراقصات كن موضع إعجاب **روما** عاصمة الإمبراطورية على امتداد القرن الأول الميلادى، وأن **قادس** كانت تدفع بأعداد منهن على الدوام إلى **روما**، فيلقين الحفاوة والحب، وأصبحت رقصاتهن موطن التقدير والإعجاب، رقصات تحرك نوازع الرغبة، وتضل أقوى الرجال عفة فى **روما**. وتحدث عنهن أيضاً الشاعر اللاتينى **جوفينال** Juvenal ، المتوفى قريبًا من عام ١٢٥ ميلادية، ووقف طويلا عند جمال غنائهن، وإثارة رقصاتهن. وفى العصر الذى نعرض له، شهرت مدينة **أبذة** Ubida ، فى كورة **شاطبة**، على مقربة من **قرطبة**، «بالرواقص المشهورات بحسن الإنطباع والصنعة، فإنهن أحذق خلق الله».

● **الثقــافة :**

باستثناء حالات نادرة يكون فيها الأب دون أن ينتسب فى أية طبقة اجتماعية، وفى ظروف بائسة للغاية، فإن الأب يقدم لأطفاله، بنين وبنات، تعليمًا ابتدائيًا منذ صغرهم، إذا كان ميسورًا يأتى لهم بالمدرس إلى البيت، وإلا أرسل بهم إلى «الكتاب» الأقرب إلى مسكنه، وتخضع هذه المدارس الابتدائية نظريًا لإشراف «المحتسب». وقل ما كان يزورها فعلا. ويجمع المعلم، أو المؤدب، عددًا محدودًا من الأطفال فى مكان صغير، مفتوح على الشارع، يطلق عليه اسم «المصرية»، يدرس لهم بأجر برنامجًا معروفًا، غير مكتوب، تحدده التقاليد، وبعقد محترم منه ومن ولى الطفل. وفى هذه المرحلة يحفظ الطفل جانبًا من القرآن الكريم، ويحفظ قصائد من الشعر، ومقتطفات من النثر، ويدرس

شيئًا من النحو، وقليلا من الحساب، والكتابة والقراءة على الطريقة «الجملية»، ويبدو أنها لم تكن مقبولة من الكافة، لأن **ابن خلدون** فيما بعد سوف يبسط آراء المعارضين لها ويفندها. ويدفع الأجر للمعلم، فى كتّابه أو جاء إلى البيت، طبقًا للعقد، ويكون سنويًا، ويتضمن المادة أو المواد المطلوب تعليمها، وشكل التعليم، والزمن المخصص لها، وشروط دفع النفقات، من مال يدفع آخر العام، أو مواد غذائية من دقيق وزيت تدفع شهريًا، ومن العادات المتأصلة أن تقدم الهدايا للمعلم فى عيدى الأضحى والفطر، وأخرى أجل وأكبر حين يختم الطفل القرآن. ويتردد على بيوت القادرين، غالبًا، أكثر من معلم لتربية أطفالهم. وأحيانًا يقع الإتفاق على إكمال العمل، يقوم المعلم بتعليم الصبى، مقابل أجر معلوم، مادة معينة، أو مواد متعددة، وفى هذه الحالة يلزم ولى الأمر أن يقدم تقريرًا وافيًا عن عقلية الصبى وقدراته الذهنية.

ورغم أن التعليم أهلى، كانت المدارس المجانية كثيرة، ينفق عليها من ربع الحوانيت والعقارات والأراضى التى أوقفها **الحكم الثانى**، وآخرون غيره. وأسهم الشعب بدوره، يجمع الهبات، ويدعم المدارس، بعيدًا عن رقابة الدولة وتدخلها فى النظم أو المناهج، ما دامت لا تستهدف نشر أفكار ضارة بأمن المجتمع وهدوئه. وقد تحقق فى **قرطبة** المثل الأعلى الذى نطمح إليه: أن يكون التعليم الابتدائى مجانًا وإجباريًا، مجانًا لأن العاجزين لم يكونوا يحرمون منه لعجزهم، وإجباريًا بضغط من المجتمع نفسه، دون حاجة إلى أمر يصدر أو قانون يشرع، لأن التجار وأصحاب الحرف والمصانع يرفضون أن يقبلوا فى حوانيتهم عمالا لا يعرفون القراءة والكتابة حتى ولو كنت مهنهم لا تحتاج إليها. فإذا بلغ الطفل سن الحلم إنتقل إلى مصنع أو متجر ليعمل، أو يواصل تعليمه العالى إذا سمحت له ظروفه بذلك.

ونعنى بالتعليم العالى ما تجاوز المواد التى تدرس فى التعليم الابتدائى، ولقد يكون فى وصفنا له «بالعالى» تجوّز، لأننا بإزاء مرحلة ليست لها خطط رسمية تحدد المناهج أو الوسائل، وإنما يحضر الطالب المواد التى تعجبه، على الأستاذ الذى يطمئن إليه، ويقرأ فى الكتاب الذى يراه نافعًا ومفيدًا، ويتعمق فى درسه بالقدر الذى يسمح له به ذكاؤه ورغبته وإمكاناته، ومن الصعوبة بمكان أن نحدد على نحو دقيق: متى يبدأ التعليم العالى ومتى ينتهى، وليس من الممكن كذلك تحديد المادة، أو المواد، التى يبدأ طلاب التعليم بدراستها: القرآن، أو الرياضيات، أو الطب، أو اللغة، أو الأدب، فقد كان الطلاب

أحيانًا يجمعون بين أكثر من مادة فى الوقت نفسه، ولكن يمكن القول أن الطلاب كانوا يبدأون دراسة النحو والتعمق فيه، ليعينهم على فهم بقية المواد الأخرى، وتليه دراسة المواد الدينية، من فقه وحديث وتفسير وأصول.

وكان هناك الطلاب المنتسبون، إذا صح لنا أن نستخدم هذا المصطلح العصرى جدا، وهم الذين لا تمكنهم ظروفهم من حضور الدرس، فيعتمدون على الكتاب، وإذا وثقوا من أنفسهم تقدموا للأستاذ ليجيزهم. ويعتمد الطلاب على ذواكرهم كثيرًا، وكان فيهم من يحفظ آلاف القصائد من الشعر، ومن يحفظ كتاب **«الأغانى» لأبى الفرج الأصفهانى** كاملا، وفيه تتعدد الروايات وتتشابه ولا رابط بينها، ويتنوع محتواه من شعر ونثر وحكايات، ومن يحفظ **القرآن** لا يغيب عن ذاكرته حرف واحد منه، ومن يحفظ موطأ **مالك**، أو **مدونة سحنون**، أو **ديوان المتنبى**، أو كتاب **الكامل للمبرد**، نعم، وكان فى الأندلس من يحفظ هذا دون حاجة إلى أن يكون عالمًا أو متخصصًا، ويقص علينا **ابن بشكوال** أنه كان فى سوق قرطبة باعة عنب وتين يستطيع الواحد منهم أن يقرأ من الذاكرة أمامك كتاب **«معانى القرآن» لأبى جعفر النحاس**. أما أولئكم الذين لا تواتيهم ذواكرهم فيشعرون بخيبة أمل مريرة، ويحاولون ما استطاعوا أن يزيدوها حدة بالأدوية، وأشهر هذه شراب «البلاذر»، ويتخذ من ثمار شجرة هندية، يصفه الأطباء، ويتناوله القادرون، ليجعل ذواكرهم أشد حدة، وأصفى صفحة. وفيما بعد أسرفوا فى الحفظ، وأقلوا من التفكير، وكان ذلك، فيما لحظ **ابن خلدون**، وراء تدهور الثقافة والعلم فى أخريات أيام الأندلس، لأن المعرفة لا تتقدم بالحفاظ عليها، وإنما يتعهدها إنماء وتجديدا.

وكان العمل بالتعليم العالى مناط تقدير المجتمع واحترامه، ويرفع العاملين فيه إلى مستوى كبار القوم، ممن جاءهم الجاه وراثة، وأساتذته فى مستوى بقية الوظائف الكبرى عسكرية أو مدنية، كالولاة والقضاة والقادة. ولكنها مهنة تميزت بأنها مفتوحة الأبواب أمام كل ذكى، وكان يعمل فيها من ينتسبون إلى طبقة الخاصة حبًا فى العلم، وطلبًا للمزيد من الجاه، والقادمون من تحت، يجدون فيها الأمن والحماية والطريق إلى الشهرة. وعادة تلتقط الدولة خيرة الأساتذة وترشحهم للمناصب العالية، جلبًا لرضى العامة، وكسبًا لثقتها، فلم تكن هناك أحزاب ولا صحافة ولا مجامع علمية ولا برلمان يلمع فيها الناس، وتظهر الكفاءات.

ومن جانب آخر، لم يكن لدى الأدباء، وكبار الكتاب، فى وقت لم تكن عرفت فيه الطباعة، من وسيلة لنشر آرائهم وأفكارهم غير أن يجدوا لهم حلقة فى المسجد الجامع، وهى دروس لم تكن تجذب الطلاب والشباب فحسب، وإنما كانت تتجه إليها صفوة المجتمع القرطبى. ويقص علينا أحد تلاميذ **أبى وهب عبد الأعلى**، يقول: «كان أستاذى يقيم قريبًا من مقبرة قريش فى قرطبة، فى بستان له يقوم هو نفسه على غرسه، وذات يوم بعد أن قدّم طعام الغذاء لتلاميذه، جاء من يطلب الإذن بالدخول، وكان القادم الوزير **هاشم بن عبد العزيز**، وأقرب الناس إلى الأمير، وقد رحب به الأستاذ، وعندما دخل وجدنا نتناول خضرًا مطبوخة، وهى مما غرس فى الحديقة، وقد ارتبك صاحب البيت قليلا قبل أن يدعوه، خشية أن يكون الطعام دونه، ولكن هاشما بادره، ألا تدعونى لمشاركتهم، أو تخاف أن آتى على المائدة بأجمعها؟، فقال: هى دونك!، فرد: ولماذا، فشمر على ساعده، واقتحم المائدة معنا، وبعده انتحى به جانبًا، فاستشاره فى بعض القضايا الفقهية وتلقى رأيه، وعندما خرج هممت بالوقوف تحية، ولكن الأستاذ أشار إلىّ فى قسوة أن أجلس، وبعد أن ودعه عاد فعتب علينا فى شدة أننا أسرفنا فى الأدب والمجاملة، ولم نكن عاديين.

وكانت هناك شروط معينة يجب توافرها فى الأستاذ أولها العلم، ويحرص الأستاذ على أن يحصله بكل جهد ممكن له: يذهب إلى المشرق ليدرس هناك، وكان تعبير **«وله رحلة»** يعادل فى لغتنا الحديثة «عائد من بعثة»، وموضع زهو من صاحبه، وتقدير من المجتمع، ونلتقى به وصفًا لعدد من العلماء الكبار، وأن يختلف إلى مجالس كبار العلماء فى قرطبة، والقادمين من المشرق بخاصة، وأن يحرص على اقتناء، أو على الأقل دراسة، ما يؤلف من الكتب لحظة صدورها. وحين استقامت الحياة الثقافية، وتكونت شخصية الأندلس، وأحس بذاته، استغنى عن الرحلة، وعن الأستاذ الوافد، بل أقسم عالم من **إشبيلية** أن يذهب إلى **القاهرة**، وأن يجلس فى صحن **الأزهر** وأن يدرس **«الكتاب»** **لسيبويه**، ليثبت أن الأندلسيين لم يعودوا دون المشارقة تمكنًا من العلم، واستيعابًا له.

والصفة الثانية التقوى، والعالم غير التقى لن يجد طلابًا يجلسون إليه ويتلقون العلم منه، وكلما كان الأستاذ مالكى المذهب كان إقبال الطلاب عليه أشد. وكثيرون من الأندلسيين ذهبوا إلى المشرق، ورأوا مذاهب فقهية أخرى، تحمسوا لها، وعادوا على

أمل أن يبشروا بها، فلما عرف الطلاب منهم هذا انصرفوا عنهم واحدًا وراء آخر، فبقوا وحدهم لا يجدون من يستمع إليهم.

وإلى جانب العلم والتقوى ثمة صفات أخرى يود الناس والطلاب أن تكون مما يتحلى به المعلم، منها الصدق، واستقامة العادات. وعليه أن يكون فى درسه لطيفًا واجتماعيًا، سخيًا فى الشرح والتعليق والتفسير، لا يحجب عن طلابه شيئًا، وأن يكون منهم بمنزلة الأب أو الأخ الأكبر، وكان الأساتذة كذلك بعامة، فتميزت علاقاتهم بطلابهم بعطف حنون، ومودة صادقة.

وليس سهلا أن يصبح المرء أستاذًا معترفًا به، وله طلابه، إلا بعد أن تتقدم به السن فى المهنة، أو يبلغ شأوًا كبيرًا من الشهرة والذيوع فى وظيفة عامة ذات طابع ثقافى، قاضيًا أو مفتيًا أو مشاورًا أو واليًا. وليس ثمة سن معينة يتقاعد عندها الأستاذ، والطلاب وحدهم هم الذين يقررون، فإذا تبينوا فى أستاذهم خرف الشيخوخة، أو طفولتها، بدأوا يفارقونه، وحينئذ يحيل نفسه إلى التقاعد. ولم يكن للأساتذة زى محدد، ولكن الأجلاء منهم يضعون الطيلسان على رءوسهم، وكان ابن حبيب، الفقيه المالكي الكبير، يذهب إلى الدرس في أحسن أزيائه، وهي من نسيج يمنى، على حين يرى آخرون إن أفضل زى يرتديه الأستاذ أن يكون فى رأسه شىء يقوله للطلاب. ويزاول الأساتذة إلى جانب التدريس مهنًا أخرى، تدر عليهم رزقًا يعينهم على الحياة، ويلقى الواحد منهم طلابه فى بستانه أو حانوته أو مصنعه، وآخرون يلقون دروسهم فى المسجد الجامع أخرة اليوم، بعد صباح جاهد من أجل لقمة العيش. وقبول الأجر من الطلاب لا يلجأ إليه الأستاذ إلا عند الضرورة القصوى، وطلبه، أو قبول الهدية، أمر مخجل على أية حال[1].

- **الحياة الدينية :**

ظلت قرطبة بمنأى فى المجال الدينى عن الحركات المتطرفة من إلحاد وزندقة، وعن الدعاوى غير السنية من خوارج وشيعة، وليس من الممكن القول أن الدين كان يحتل مكانة هامة، لأن الدين كان الحياة نفسها، عنه تصدر، وبه ترتبط كل مظاهر الحياة الاجتماعية. ويلتزم القرطبى بما يلتزم به أى مسلم، فى أى مكان، فالإسلام عقيدة

(١) درس هذا الموضوع تفصيلا وعلى نحو شامل، العلامة خوليان ريبرا، فى كتابه «التربية الإسلامية فى الأندلس»، وقد ترجمناه إلى اللغة العربية وصدر عن دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤ ، ط . الثانية ١٩٩٣ .

وفكرًا وطقوسًا لا يتأقلم فى جوهره، وليس ممكنًا أن نتحدث عن إسلام قرطبى أو أندلسى، وربما تميزت قرطبة عن غيرها بأن حماستها للإسلام وحرصها عليه كان عفويًا وشديدًا ومستمرًا.

كانت حماسة الناس للدين قوية، وحرصهم على أداء شعائره حادًا، وأشدهم حرصًا أولئك **الإيبيريون** الذين أسلموا مع الفتح أو بعده، ثم **البربر**، ويأتى **العرب** أخيرا. وصنع الإسلام من هذه العناصر مجتمعًا متماسكًا، وهو ما كانت تفتقده بلاد إسلامية أخرى، ومن هنا كان الرحالة المشارقة يؤخذون، حين يطأون أرض قرطبة، بما عليه من أسلام خالص، ومن تقوى خاشعة، عند غالبية الناس. وكان المجتمع، إزاء دين بلا كهانة، يقوم على حراسة معتقداته، ولا يتهاون أبدًا فيما هو جوهرى منها، ولم تكن «**الحسبة**» فى أى بلد بأكثر احترامًا وهيبة كما كانت عليه فى قرطبة. وكانت حرية الأديان مطلقة، ومحترمة، ويتم اعتناق الإسلام أمام القاضى ويسجل فى وثائقه، ويقر فيها المرء بأنه اعتنق الإسلام بإرادته وحريته وبإيمان مطلق منه، ودون ضغط أو تدخل من أحد، وأنه يلتزم بقواعده، ولكن عقوبة التحيّف على الإسلام صارمة، وكان الإتهام بها يخفى وراءه أحيانًا أهدافًا سياسية أو شخصية.

وحرص الأندلسيون على **الحج**، وتقلع بهم السفن من **المرية** أو **بلنسية** أو **دانية**، وهى ثغور لا تزال قائمة ومزدهرة حتى يومنا هذا، تبحر وعليها أعداد كبيرة من رجال ونساء، وتلقى رحالها فى **الإسكندرية**، لكى يتجه الناس منها إلى **القاهرة** ، وقد يتوقفون فيها أيامًا طويلة، للعلم أو للتجارة أو السياحة. على حين يأخذ الفقراء طريقهم برًا عبر شاطئ **شمالى أفريقية** حتى يبلغوا **مصر**، وهى رحلات أخذت شكلا جماعيًا، فى قوافل كبيرة، منذ نهاية القرن التاسع، ومن يتخلف عن الحج لسبب أو لآخر يمكن أن ينيب عنه من يقوم به بدلا منه، وفيما وصلنا من وثائق صورة عقد بين حاج وموكله، والمناسك التى عليه أن يضطلع بها. وكان الحج شائعًا بين العامة والفقراء ورجال العلم، فهم يهدفون إلى أن تكون لهم معه رحلة علم، ومن هنا فنحن لا نعرف إلا قلة بين الخاصة أدت الحج، ولم يؤده أى من الأمراء أو الخلفاء لأسباب سياسية خالصة، ولا نعرف أن **ابن حزم**، صاحبنا، أدى الحج، رغم دفاعه الشديد عن الإسلام وأصوله، وقدرته المالية، فى أوائل حياته على الأقل، ولعله أناب من يضطلع به نيابة عنه، أو وجد لنفسه مندوحة فيما أحاط به من ظروف.

وقد أصبحت **قرطبة** موطن **المذهب المالكى**، وأصبح الاتجاه الغالب فيها، تبنته الدولة، وعليه الفتوى، وأغلقت أبوابها فى وجه المذاهب الفقهية الأخرى، وأعرض علماؤه عن النظر إلى غير المالكية من المذاهب، واعتبروا معرفتها أمرًا لا جدوى فيه، ووقفوا بالفقه المالكى، عندما أورد **مالك** وكبار تلاميذه وأصحابه من بعده، يدورون حوله دون أن يتقدموا به خطوة، ولم يتيحوا لأنفسهم حرية الدرس أو الإجتهاد إلا فى حالات نادرة، حين يصطدمون بما هو شائع ويصعب تغييره، فيجدون لهم مندوحة فى باب **«العرف والعادة»**، وهما من روافد التشريع عند المالكية. وإن المرء ليستطيع أن يؤلف مجلدات تستغرق أسماء الفقهاء الذين برزوا من علماء المذهب فى تلك الفترة. ويهمنا أن نشير من بينهم إلى **أبى الوليد الباجى**، سليمان بن خلف ابن سعد بن أيوب بن وارث التجيبى، فقد كان خصما فكريًا لدودًا **لابن حزم**، وجرت بينهما محاورات عنيفة، وأثنى عليه ابن حزم ثناء بالغًا. وألف **الباجى** عددًا من الكتب فى الفقه المالكى، وفى علم الأصول، وفى الحديث. وكان **موطأ الإمام مالك**؛ وشرح **«المدونة» لسحنون القيروانى**، من أوائل الكتب التى يدرسها المالكية، وأكثرها رواجًا.

وفى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى جاء **قاسم بن محمد بن سيار بالمذهب الشافعى** من المشرق، وانصرف إلى نشره عن طريق الدرس والتأليف، وكان يلقى دروسه فى المسجد الجامع، ووجد رعاية من **الأمير محمد الأول**، الذى عينه مؤلفه الخاص حماية له من علماء المالكية، وعاش المذهب الشافعى فى الظل طوال أيام **عبد الرحمن الناصر**، لأن ابنه **الأمير عبد الله**، وكان شافعيًا، اتهم بالاشتراك فى مؤامرة لخلع أبيه الناصر، لأنه بايع ابنه الحكم بولاية العهد دونه، وقد فشلت المؤامرة، ولقى عبد الله حتفه على يد أبيه، وكان لذلك أثره السيئ على المذهب الشافعى فتوقف نشاطه حتى أيام الحكم المستنصر، الذى كان يحسن وفادة القادمين إلى الأندلس من أهل الأدب المشارقة، وبينهم عدد من شيوخ المذهب الشافعى، فانتعش المذهب الشافعى من جديد، ولكنه انكمش ثانية فى عهد **المنصور بن أبى عامر**، وكان حاكمًا واقعيًا، فرأى من صالحه أن يجارى فقهاء المالكية ليكسب تأييدهم، وفيما بعد سوف يصبح **ابن حزم** واحدًا من أتباعه، قبل أن يتحول إلى المذهب الظاهرى.

ودخل **المذهب الظاهرى** الأندلس فى الوقت الذى دخل فيه المذهب الشافعى تقريبًا، على يد **عبد الله محمد بن قاسم بن هلال** (ت ٢٧٢هـ = ٨٨٥م)، واجتهد

رغم أنه شافعى فى نشر المذهب الظاهرى، ويبدو أنه لم يوفق كثيرًا فيما رمى إليه. وتعرض الظاهرية لمثل ما تعرض له الشافعية من مضايقات علماء المالكية، وأول شخصية ظاهرية نلتقى بها، ذات مقام وتأثير، **منذر بن سعيد البلوطى**، وتلقى أصوله فى رحلة له إلى المشرق، وظل عليه حتى وفاته عام ٣٥٥هـ - ٩٦٦م، ثم ضعف صوت الظاهرية إلى أن عاد قويًا مع **ابن حزم** العظيم.

ومع وصول كتب **الجاحظ** إلى الأندلس، وشيوعها على نحو خفى بين مجموعة من المثقفين، عرفت قرطبة عددًا محدودًا من **المعتزلة**، ولكننا فى النصف الثانى من القرن العاشر لا نكاد نعثر لهم على أثر، والذين جاءوا الأدلس من الخارج لنشر هذا المذهب أبعدوا منه، مثلا وصل قرطبة أبو الطيب **ابن أبى بردة**، عام ٣٦١هـ = ٩٧١م، وأحسن **الحكم الثانى** استقباله، كواحد من كبار علماء الشافعية على أيامه، ولكن ما إن علم أنه من المعتزلة حتى أصدر قرارًا بإبعاده، ولكن **ابن حزم** يقول لنا إن وادى بنى توبة كان كله معتزليًا. وربما ارتبطت فكرة المعتزلة بالزهد، لقد كان الطريق الوحيد، فيما يرى **أسين بلاثيوس**، أمام الذين يرغبون أن يبشروا بأفكارهم دون أن يعرضوا أنفسهم للإضطهاد والملاحقة أن يزهدوا وينسكوا فى «الروابط» لأن هذه الخلوات تمتعت بمهابة جليلة لدى الحكام والفقهاء والعامة، وكانت تقع خارج المدينة، فى الجبال أو الغابات، وتجرى الحياة فيها على نحو زاهد ويطلق على سكانها اسم: زاهد أو ناسك أو عابد أو صوفى. وآخرون من الزهاد ظلوا بين العامة وتميزوا بالتقشف، واحتقار الترف، وإهمال الأناقة، وعاشوا حياة رقيقة، يمتهنون أعمالا متواضعة، ويشاركون فى الجهاد.

وكان الفيلسوف **ابن مسرة** أوضح شخصيات هؤلاء العباد، وأقام خلوة له فى جبل قرطبة، على مقربة من العاصمة، وعرف **بالجبلى**، وفى ثياب زاهد خاشع بدأ يتأمل أفكار المعتزلة، ويبنى لنفسه فلسفة جديدة، راح يبشر بها بين عدد محدود من تلاميذه، وفى البدء، بتأثير من حياته المستقيمة، ونسكه الصادق، وتقواه الخاشعة، كسب إلى جانبه قلوب القرطبيين، ثم بدأ الهمس: إنه معتزلى، يبشر بمذهب فلسفى جديد، بينه وبين الإلحاد خطوة واحدة. وأحس **ابن مسرة** بالهمس، وبما يجرى حوله وخطورته، فرحل إلى المشرق، وأدى فريضة الحج، وبعده عاد إلى خلوته، وباشر حياته الزاهدة ودروسه، وضيّق الحياة ودع الدنيا عام ٣١٩هـ = ٩٣١م وقد مهد الطريق لفكر فلسفى حر، ومن

بعده واصل تلاميذه إشاعة فكره، ونشر كتبه، ولم يصلنا منها شيء، ولكنى فى زيارتى المتعددة للرباط عاصمة المغرب، وجدت أن مخطوطة الجزء الخامس، من كتاب **«المقتبس» لابن حيان**، ولما تنشر[1]، وتوجد فى خزانة القصر المالكى، تضم نصوصًا كثيرة، ذات فائدة قصوى فى توضيح مذهب ابن مسرة وتحديد مساره.

وفى أواخر **خلافة الناصر**، أو على التحديد عام ٣٥٠هـ = ٩٦١م، نشر **فقيه قرطبى**، **محمد** بن يبقى **بن زرب**، دحضًا لآراء ابن مسرة، ومنحه الخليفة، مع الزبيدى، أبو محمد بن الحسن، سلطات واسعة لمحاصرة فلسفة ابن مسرة. **فأمر ابن زرب** باعتقال كبار تلاميذه، وأكرهم على رفض أفكارهم على ملأ من الناس، وأمر بكتب ابن مسرة التى كانت معهم فأحرقت علانية، على مرأى منهم، أمام أبواب المسجد الجامع. وقد خفت حدة الملاحقة فى عهد **الحكم الثانى**، ولكن ما إن ولى **المنصور بن أبى عامر** الحجابة، وعين **ابن زرب** قاضيًا، حتى اشتدت الملاحقة من جديد، وأغضى المنصور عينه عنها استجلابًا لرضى الفقهاء والعامة، وكان من ضحاياها **عبد الملك بن منذر ابن سعيد البلوطى**، صاحب خطة الرد، وكان معتزليًا مثل أبيه، القاضى والإمام والخطيب على عهد الناصر. ويبدو أن عبد الملك، وأخوته **عبد الوهاب والحكم**، حاولوا أحياء **مذهب ابن مسرة** وخلوته، وكوّنوا فى بجانة مجموعة من المؤمنين به، وقد حكم عليه بالإعدام والصلب. وأورد لنا **ابن حزم** قصة صلبه فى كتابه **«الطوق»**.

- **الأدب** :

وفى هذا القرن شاعت الأعمال الأدبية المشرقية فى الأندلس، فقد أدخل أحمد بن محمد **بن هارون البغدادى**، وجاء **قرطبة** يتجسس للعباسيين، كتب ابن **قتيبة**، وأدخل **فرج بن سلام** وكان مهتما باللغة والشعر والطب وتربطه **بالجاحظ** صداقة وطيدة، كتاب **«البيان والتبيين»**، ورسائل وكتبا أخرى للجاحظ أيضًا، وأدخل **عثمان بن المطنة**، وكان يعمل مؤدبًا لأولاد الأمراء، وعاش فى الشرق مدة، **ديوان أبى تمام**، وكان معجبًا بشعره، ويعطى **«العقد الفريد» لابن عبد ربه** صورة صادقة لثقافة الأندلسيين المشرقية فى هذا العصر، وما كانت عليه من شمول وعمق.

---

(١) نشر المستشرق الإسبانى بدور شلميته هذا الجزء أخيرا فى مدريد.

ولم يحدث أن اهتم خليفة بالثقافة كما اهتم بها **الحكم الثانى**، وكان نفسه عالمًا موسوعيًا، يمضى ساعات طويلة فى مكتبه يقرأ، وقلمه فى يده يعلق على ما يقرأ، وقلما تجد له كتابًا فى خزانته، من أى فن كان، إلا وله فيه نظر، يكتب فيه بخطه، إما فى أوله أو آخره أو تضاعيفه، نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به، ويذكر أنساب الرواة له، ويأتى من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده، لكثرة مطالعته، وعنايته بهذا الفن. ومن حين لآخر يدعو العلماء والفقهاء إلى قصر الخلافة فى قرطبة، أو إلى قصور آل مروان فى مدينة الزهراء، وبخاصة فى سهرات رمضان، لمطارحات ومناقشات أدبية وعلمية جادة، تمتد فى كثير من الأحيان حتى الفجر.

وكانت مكتبة **الحكم الثانى** تضم ٤٠٠,٠٠٠ مجلد، وتشغل مكانًا فسيحًا فى قصر الخلافة، ويحكى **ابن حزم** فى كتابه **«جمهرة أنساب العرب»**، نقلا عن **تليد الخصى**، وكان على خزانة العلوم: أن عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، وفى كل فهرسة خمسون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير.

وكان له ورّاقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف، ورجال يوجههم إلى الآفاق باحثين عنها. ومن وراقيه ببغداد **محمد بن طرخان**، ومن أهل المشرق والأندلس جماعة، وبعث إلى **أبى الفرج الأصفهانى** القرشى المروانى ألف دينار عينًا ذهبًا، وخاطبه يلتمس منه نسخة من كتابه الذى ألفه فى الأغانى، وما لأحد مثله، فأرسل إليه من نسخة حسنة منقحة قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق، أو ينسخه أحد منهم.

وكانت المكتبة تسير على نظام دقيق وراقٍ للغاية، وتضم أقسامًا مختلفة، أحدها للنسخ، ويعمل فيه مهرة الخطاطين، من فتيات وفتيان، وشهرت من بينهن **لبنى** كاتبة الخليفة نفسه، وكانت أديبة شاعرة، نحوية عروضية، رائعة الخط، بصيرة بالحساب، مشاركة، ولم يكن فى قصر الخلافة أنبل منها، على حد تعبير **ابن بشكوال** فى كتابه **«الصلة»**، وتميزت من بينهن أيضًا **فاطمة بنت زكرياء** بن عبد الله الكاتب، **المعروف بالشبلارى** وكانت كاتبة جزلة، وخطاطة ماهرة، وعمرت طويلا، فعاشت أربعة وتسعين عامًا. كتبت فيها مئات الكتب الطوال. وكان هناك قسم للمراجعة والمعارضة يراجع ما خط الناسخون، ويعمل فيه صفوة من علماء اللغة، أمثال: **الرباحى الجيانى، وأبى الفضل بن هارون الصقلى، وعباس بن عامر الصقلى**، ويشرف عليه اللغوى الجليل

أبو على القالى، صاحب كتاب **«الأمالى»**، إلى جانب قسم للتجليد والتذهيب والزخرفة، يعمل فيه أندلسيون، وآخرون جاء بهم الخليفة من بغداد وصقلية.

وكان قسم النسخ لا يتوقف عن الكتابة، ينسخ من الكتاب الجيد عشرات النسخ، يحتفظ بها فى المكتبة للمترددين عليها، أو يهديها الخليفة لأصفيائه، أو لكبار العلماء والأدباء، أو يوقفها على مكتبات المساجد، أو على حلقات الدرس للراغبين فيها من الطلاب من العاجزين عن النسخ أو الشراء. وإهداء الكتب النادرة إلى الخليفة أقصر الطرق، وأحبها، إلى قلبه.

ولم يكن الخليفة استثناء فى هذا الإتجاه، فنحن نعرف عددًا كبيرًا من المكتبات الخاصة، ومن هواة الكتب، لا تبلغ قدر مكتبة الحكم، ولكنها مكتبات كبيرة بمقياس ذلك العصر، وكل عصر، ولنأخذ لها مثلا مكتبة قاضى الجماعة بقرطبة، أبى المطرف عبد الرحمن **بن فطيس**، فقد جمع «من الكتب فى أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس، مع سعة الرواية والحفظ والدراية، وكان يملى الحديث من حفظه، فى مسجده، وله ستة وراقين ينسخون له دائمًا، ورتّب لهم على ذلك راتبًا معلومًا، ومتى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه للإبتياع منه، وبالغ فى ثمنه، فإن قدر على إبتياعه، وإلا إنتسخه منه ورده إليه». وكانت **عائشة بنت أحمد** ابن محمد بن قادم القرطبية حسنة الخظ، تكتب المصاحف والدفاتر، وتجمع الكتب، وتعنى بالعلم، ولها خزانة علم كبيرة حسنة، ولها غنى وثروة تعينها على المروءة.

ولم يقف الأمر عند الخاصة من الناس، فكان البسطاء أيضًا يعنون بأن تكون لهم مكتباتهم فى بيوتهم، فى ضوء ما تسمح به إمكاناتهم، ويقدمونها على مظاهر الحياة الأخرى. ولدينا معلومات عن صاحب كتّاب يدعى **ابن حزم** (غير صاحبنا مؤلف طوق الحمامة طبعًا)، يعلم الأطفال فيه، بمساعدة ابن له يقوم على الصبيان، وابنة تقوم على الفتيات، وما يوفره يشترى به كتبًا، وفى ساعات الفراغ يقوم على نسخها، ورغم تواضع حاله كانت مكتبته منظمة، فيها كتب قيمة، وأحيانًا نادرة، أتى بها فى رحلة كانت له إلى المشرق وتتميز بالضبط والدقة والإفادة منها يتردد عليه العلماء والطلاب[١].

(١) لمزيد من التفصيل يمكن العودة إلى «المكتبات وعشاق الكتب فى أسبانيا الإسلامية» فى كتاب «التربية الإسلامية فى الأندلس»، تأليف خوليان ريبيرا، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٣.

ولكن هواية الأندلسيين الكبرى كانت تتركز فى الأدب، والشعر منه بخاصة، وبلغ فى هذه الفترة أوج سمته الجمالى، وعرف هذا العصر حشدً هائلا من الشعراء، أنشأ لهم **المنصور بن أبى عامر** ديوانًا خاصًا بهم، يسمى **«ديوان الندماء»**، مهمته ترتيب الشعراء طبقات، وبذل العطاء لهم على مستوى أقدارهم فى الشعر، وكان على رأس هذا الديوان واحد من كبار نقدة الأدب، ولقد صحب المنصور فى بعض غزواته أربعون شاعرا، من كل طبقة، ليسجلوا ما يرون شعرا.

من طليعة الشعراء فى هذا العصر **ابن عبد ربه** (ت ٣٢٨هـ – ٩٣٩م) صاحب كتاب **«العقد الفريد»**، وبهر القلوب بمدائحه، وغزله ينبىء عن ذوق وحساسية تفوق ما فى مدائحه. **وابن هانئ الإشبيلى** (ت ٣٦٢هـ – ٩٧٢م) وما لبث أن غادر الأندلس إلى المغرب، ومات وهو فى طريقه إلى **مصر**، ليلحق فيها **بالمعز لدين الله الفاطمى**، ويقول عنه **ابن خلكان**: **«إنه أشهر المغاربة على الإطلاق، وهو عندهم كالمتنبى عند المشارقة»**، وكانا متعاصرين، **أما المعرّى فقد شبه شعره الضحم الرائع بأنه «رحى تطحن قرونًا»**. وكان **ابن دراج القسطلى** (ت ٤٢٢هـ – ١٠٣٠م) أعظم الشعراء فى قرطبة على أيام **المنصور بن أبى عامر**، وكان كاتبًا له، **وللحكم الثانى قبله**، وهو من أصل بربرى، ذاع صيته، وأثنى عليه **ابن حزم**، وكان واسع العلم، قادرًا على المديح، يملك زمام الصناعة، يجوِّد شعره، ويتكلف أحيانًا، فجاءت بعض أشعاره عسيرة الفهم. **ويوسف بن هارون الرمادى** (ت حوالى ٤١٣هـ = ١٠٢٢م)، والرمادى ترجمة حرفية لكنيته فى اللغة الرومانثية أبو جنيش، وبها كان يدعى أيضًا، لأن كلمة جنيش Ceniza فيها تعنى الرماد، وهو من كبار الشعراء، ويقارن **بالمتنبى أيضًا**، وكان تلميذًا **لأبى على القالى**، وجمع بين تمكنه من الشعر القديم، ومن الأنماط الشعبية المستحدثة فى وطنه، وأعنى بها الموشحات. وجمع بين رقة الشعر وخفة الظل، وفخامة الأسلوب، وأورد له **ابن حزم فى «طوق الحمامة»** قصة حب رومانسية جميلة. واشتهر من بين الشعراء الأمراء حفيد لعبد الرحمن الناصر يلقب **«بالطليق»، أو الشاعر الشريف**، (ت ٤٠٠هـ = ١٠٠٩م) وبرع فى مقطعات النسيب الرقيق، وكان طليعة شعراء الأندلس فى الزهريات[(١)].

(١) انظر ترجمة الشاعر الطليق فى كتاب شعراء الأندلس والمتنبى، تأليف غرسية غومث وترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى، دار المعارف، الطبعة الخامسة، القاهرة ١٩٩٢ .

وبرع من شعراء هذا العصر أيضًا **أبو عامر بن شهيد** (ت ٤٢٦هـ = ١٠٣٥م). وهو من بيت عريق، وكان صديقًا ودودًا **لابن حزم**، واحتل فى العاصمة مكانًا مرموقًا بشعره الجزل، ورسائله الفكاهية، وتتراءى لنا فى شعره أحيانًا، لمحات ذات وقع حديث، وخلّف لنا رسالة **«التوابع والزوابع»**، وصلتنا فى جانب منها، وفيها يصور رحلة شاعر إلى الجنة، فسبق بذلك **المعرى ودانتى الإيطالى** فى هذا الموضوع.

وكان الشعر يجرى على ألسن النساء، وبرع نفر منهن فيه، مثل: **عائشة بنت أحمد**، وعشقت أحد أبناء **المنصور** وتولعت به، **ومريم بنت أبى يعقوب الفيصولى**، وكانت زاهدة ورعة، واسعة العلم بالأدب. وبينما الفتن تجتاح قرطبة، وشمس الخلافة توشك على الغروب، اجتاح العاصمة حديث فتاة أميرة، تنحدر من أصلاب خليفة، **ولادة بنت المستكفى** (ت ٤٨٤هـ = ١٠٩١م) صبية وجميلة، ذكية وشاعرة ومتمردة، تجعل من قصرها منتدى الشعراء، ومجمع الأدباء، وملتقى علية القوم، تحب وتجاهر، وتعبر عن عواطفها فى صراحة، ويهيم بها الوزير الشاعر **ابن زيدون**، فتصله وتسعد معه، وما تلبث أن تهجره، وكيدًا له تصل غيره، فيندب حظ قلبه معها بقية حياته. كانت **ولادة**، فيما يقول **ابن بسام**: «فى نساء زمانها واحدة أوانها، حضور شاهد، وغزارة أوابد، حسن منظر ومخبر، وطلاوة مورد ومصدر. وكان مجلسها فى قرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء على حلاوة عشرتها، ولكنها على سهولة حجابها، وكثرة منتابها، تخلط ذلك بعلو نصاب، وكرم أنساب وطهارة أثواب». غير أنها «لا تخلو من نزق وطيش، فقد اطرحت التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل، لقلة مبالاتها، ومجاهرتها بلذاتها».

وقد عمرت **ولادة** حتى جاوزت الثمانين عامًا (ت ٤٨٤هـ = ١٠٩١م) دون زواج، مع ما كانت عليه من جمال باهر، وعراقة نسب متصل، ومواهب فنية عالية، وتقف المصادر القديمة عند الظاهرة، تقدم لمحات عنها، دون أن تمضى بها حتى النهاية، تفسيرًا وتفصيلا. ويراها الباحثون المحدثون أمرًا غير طبيعى، فيقول عنها **غرسية غومث** إنها «امرأة رجلة، بالغة الظرف والأناقة»، ويرى أ.ر. **نيكل**، ومن بعده **هنرى بيريس**، أن صلاتها **بمهجة بنت التيان** القرطبية الشاعرة كانت مريبة، وفى القليل الذى روى من أخبارهما ما يدعم الاتهام. وإلى هذا المنحنى يذهب الأديب العراقى الأستاذ

عبد الرزاق الهلالى، ويتهمها الأستاذ **على عبد العظيم** بالسادية ويمضى وحده فى هذا الاتجاه.

ومهما يكن القول، فإن هذه الفتاة الشاعرة المتمرِّدة؛ أثرت الحياة الأدبية والاجتماعية فى قرطبة، وأوجدت نمطًا أدبيًا جديدًا، دفعت به إلى سطح الحياة، وكان قبلها يأخذ طريقه وراء الظاهر جبانًا وخفيًا.

وفى مطلع هذا العصر بدأت قرطبة تتغنى بالموشحات، ولو أن موشحات عصر الخلافة ضاعت كلها، وضاعت معها طفولة هذا الفن الجميل الذى أبدعه الأندلسيون، على غير احتذاء، فى عالم الفن والشعر.

• **المؤرخون :**

وشهد هذا العصر من المؤرخين الكبار **ابن القوطية**، أبو بكر بن عمر (ت ٣٦٧هـ= ٩٧٧م) صاحب كتاب **«تاريخ افتتاح الأندلس»**، ويغلب على ظن المستشرق الإسبانى **خوليان ريبيرا**، وقد ترجم الكتاب إلى اللغة الإسبانية، أن الكتاب ليس من إنشاء ابن القوطية،ولعله أن يكون سماعًا دوّنه بعض من كان يحضر دروسه من طلابه المولعين بالأخبار، وكان ابن القوطية نحويًا أيضًا، وكتابه فى **تصريف الأفعال** أول كتاب وصلنا فى الموضوع. وكان **عريب بن سعد** (ت ٣٦٩هـ = ٩٨٠م) قرطبيا من أصل نصرانى، أسلم آباؤه، وتلقى تعليمًا طيبًا، واتخذه **الحكم الثانى** كاتبًا له، وقد اختصر **تاريخ الطبرى**، وأضاف إليه أخبار المغرب والأندلس، وكان إلى جانب اشتغاله بالتاريخ طبيبًا.

وأعظم مؤرخى هذا العصر على الإطلاق أبو مروان حيان بن خلف القرطبى، ويلقب **بابن حيان** (ت ٤٦٩هـ = ١٠٧٦م)، ومؤلفاته لا تقل عن خمسين مؤلفًا، وأحدها ويسمى **«المتين»** فى ستين مجلدًا، ولسوء الحظ لم يصلنا من مؤلفاته هذه إلا أجزاء متناثرة من كتابه **«المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس»**.

ويقول عنه المستشرق الهولندى **رينهارت دوزى**: «يمتدح العرب فى كتب ابن حيان صدق الرواية بقدر ما يعجبون بجزالة لغته، ورنين عبارته. وأنا أؤيدهم فى هذا كل التأييد، ولا أتردد فى القول بأن كتبه لو بقيت لألقت على تاريخ الأندلس الغامض ضياء باهرة، ولصوّرته لنا أحسن تصوير، ولوجدنا أنها تبلغ من الروعة مبلغًا يجعلنا نستغنى بها عن غيرها من الكتب التى تتناول تاريخ هذه العصور. إن **ابن حيان** سيال

الأسلوب، ومع ذلك لا يتعثر فى الإطناب والقعقعة اللفظية، كما فعل غيره من أصحاب الروايات المسهبة التى لا تنتهى. إنه ليسوق التاريخ مساق من يبدى رأيه وحكمه فيما يعرض من القضايا، ويبحث عن أسباب الأشياء، ويناقشها عن علم وفهم وذكاء، كما سيفعل من بعده مؤرخون نقدة **كابن سعيد وابن خلدون**. ويمتاز **ابن حيان** إلى ذلك بأسلوب صاف ناصع، لا يهبط إلى الركاكة التى تثير السخط، ولا يقع فى التقصح والإسراف فى قعاقع الألفاظ، ورغم التزامه السهولة لا يهمل جانب الجمال فى أسلوبه، ويبعث فى كلامه دائمًا حماسة وغنى وطابعًا غالبًا من الجد. نعم، إنه يلجأ فى بعض الأحيان إلى التشبيهات وضرب الأمثلة. ولكنه – رغم امتيازه بفصاحة القدماء – لا يولع بما أولع به معاصروه. ونخرج من هذا كله بأننا لا نجد من بين مؤرخى العرب إلا القليلين ممن نستطيع أن نقارنهم به ولن نجد بينهم من نقدمه عليه».

وانصرف عدد من المؤرخين إلى كتابة السير، ووضع المعاجم فى طبقة معينة من الرجال، وأول من نلقى منهم: **الخشنى**، أبو عبد الله محمد بن الحارث (ت ٣٦١هـ= ٩٧١م)، وهو قيروانى قدم الأندلس، وولاه **الحكم الثانى** خطة المواريث فى **بجانة**، وبعد وفاته استقر فى **قرطبة** يعيش على بيع العطارة، وألف كتبا كثيرة عن الفقهاء والمحدثين، واشتهر بكتابه **«تاريخ قضاة قرطبة»**، وألفه فيما يبدو بإيحاء من **الحكم** نفسه، ونشره **خوليان ريبيرا** لأول مرة فى مدريد عام ١٩١٤م، وترجمه إلى الإسبانية، ويضم من الفوائد ما يجعله أهم مصدر لدراسة الحياة الاجتماعية فى الأندلس، وقد كتبه وتحت يده مادة طيبة من الوثائق المحفوظة فى دار الخلافة، وسجلات القضاة، والأوراق الخاصة لبعض الأفراد. وأهم من ذلك كله ما أخذه من الروايات والأخبار التى كان الناس يتناقلونها، منها ما يحكى فى قصر الخلافة وبيوت السروات، ومنها ما يتناقله الجمهور والقصاص فى طرقات قرطبة وأرباضها وأحيائها التى يحتشد فيها أصاغر الناس. وبعضها أخذه من أفواه أهل الأدب والدين والعلماء والفقهاء مما كان يجرى فى حلقات دروسهم، وبعضها الآخر اختلقه نفر من الساخطين على النظام السياسى والاجتماعى القائم، ومنها ما هو صدى لما كان يتحدث به أولئك المولعون بنقد رجال الدين والأتقياء، ومنها ما هو ترجمة عربية لروايات كان الناس يتناقلونها فى لغتهم العجمية أو العامية الدارجة أو صياغة جديدة لها. كل هذه العناصر تتجمع وتتألف منها مادة الكتاب دون أن يضيف إليها المؤلف من عنده إلا قليلا. إنه كتاب يضعنا فى قلب قرطبة القرن

العاشر، وأخباره مصوغة فى قالب من الواقعية لا يبلغ إلى تصويرها كتاب من كتب الأدب أو التاريخ. وهو يحدثنا عن أشياء تافهة، ويصور لنا مشاهد مبتذلة، لاجلال فيها، ولا صلة تربطها بغيرها، وهذه الروايات المرسلة على عواهنها تعين على دراسة المظاهر الاجتماعية، مما لا يذكره أو يعنى به غير هذا الكتاب.

ومنهم **ابن الفرضى**، أبو الوليد عبد الله بن محمد (ت ٤٠٣هـ = ١٠١٢م)، من أهل قرطبة، وكان فقيهًا ومحدثًا وخطيبًا وشاعرًا،وجماعًا للكتب، ودرس فى القيروان والقاهرة ومكة والمدينة، وعرض له **ابن حزم فى «طوق الحمامة»** واستشهد فى داره على يد البربر، عندما اقتحموا قرطبة وانتهبوها، ولم يعثر على جثته إلا بعد أربعة أيام، وقد تحللت وتعفنت، فوورى التراب دون أن يغسل أو يكفن، وضاع بعض ما ألفه مثل كتابه: **«تاريخ شعراء الأندلس»** وبقى لنا منها كتابه الذائع الصيت: **«تاريخ علماء الأندلس»**.

- **العلوم :**

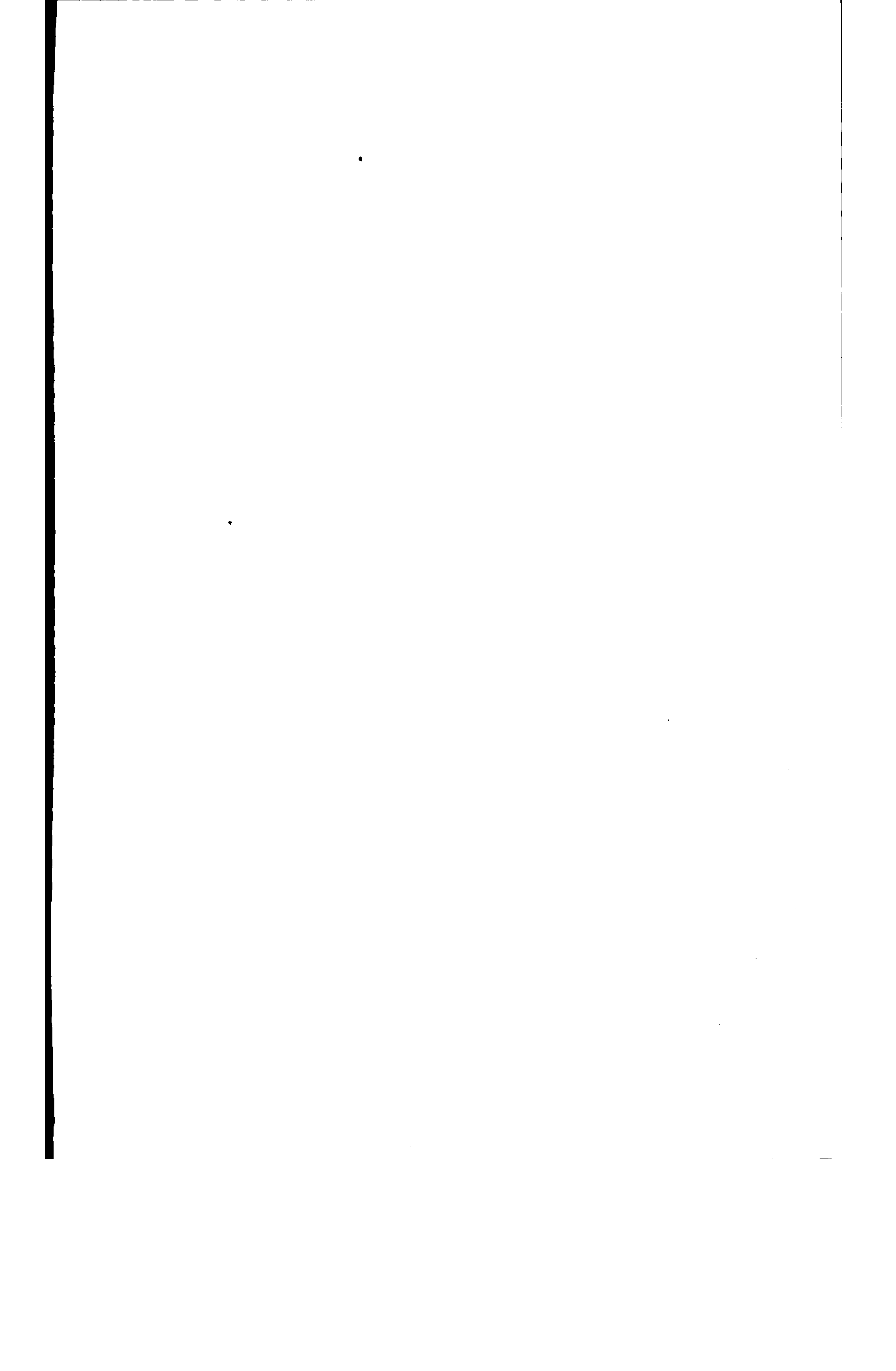
ولقيت الدراسات الفلكية فى النصف الثانى من القرن العاشر عناية تامة، وكان فلكيو الأندلس، مثل نظرائهم فى المشرق، يؤمنون بتأثير النجوم، واعتبارها سببًا فيما يحدث من شئون هامة بين الميلاد والموت على سطح الأرض، وكان الفلك يستخدم فى تحديد قبلات المساجد، وتعيين مواقيت الصلاة على امتداد العام، والاستيثاق من مواعيد الأهلة، ولم يكن مسموحًا بالتنبؤ وقراءة الطالع، ومع ذلك كانت الجماهير، من وراء ظهر الدولة، تقبل على أدعياء الفلك، من المنجمين والعرافين ومن يستخرجون الفأل، والمتنبئين والسحرة وصناع الأحجبة. وكان الفلكيون يعملون فى الكيمياء أيضًا، وقد ازدهرت دراسة الفلك على يد **مسلمة المجريطى** (ت ٣٩٨هـ = ١٠٠٨م)، تحت **الحكم الثانى**، وعرض له **ابن حزم فى «طوق الحمامة»**، وإلى جانب الفلك كان أستاذًا فى العلوم الرياضية، ومن بينها فن مساحة السطوح، وإليه يعود الفضل فى إدخال **«رسائل إخوان الصفا»** إلى الأندلس.

وأزهر **علم الطب** فى قرطبة إزهارا عظيمًا، وفى منتصف القرن العاشر الميلادى أرسل إمبراطور بيزنطة، **قسطنطين السابع**، سفارة إلى **عبد الرحمن الناصر**، كان بين ما حملته من الهدايا نسخة مكتوبة بالإغريقية من كتاب ديوسقوريدس **Dioscorides**

فى الطب، ولـم يكـن فى قرطبـة مـن يعـرف الإغريقيـة، فسأل النـاصر الإمبراطـور أن يبعث إليه واحدًا من العارفين بهـا وباللاتينيـة، فـأرسل إليـه الـراهب نيقـولا لكـى يقـوم بتحديد أنواع النباتـات الـواردة فى الكتـاب وأنجـز ذلك العمـل بمعاونـة لجنـة بينهـا: **حسداى بن شبروط**، الذائع الصيت، **وأبو عبـد الله الصقلى**، وكان عارفًا باليونانيـة ويتحدث بها، ولـه إلمـام بتـركيب العقاقيـر، **وعبد الرحمن بـن إسحـاق** بن الهيثـم، **ومحمد بن الكتـانى**، وعلى رأسهـم **أبو القـاسم الزهـراوى**،وعدد آخر مـن الأطبـاء وعلماء النباتات وكان لمعرفة الأندلسيين بهذا الكتـاب أثـر حـاسم فى تطـور دراسات الطب والنبات، وتميز الذين عملـوا فى ترجمـة الكتـاب كأطبـاء فيمـا بعـد، فى بـلاط **الحكم الثانى، والمنصور بن أبى عامر**.

وأعظم أطباء ذلك العصر، من غير شك، أبو القاسم خلف الزهراوى، نسبة إلى مدينة الزهراء الشهيرة فى قرطبة، ويعرف فى اللاتينية باسم Abulcasis (ت ٤٠٣هـ = ١٠١٣م)، وطار ذكره شرقًا وغربًا بالبراعـة فى الجراحـة، وتعتمـد شهرتـه على مؤلفـه المسمى: **«التصريف لمن عجز عـن التأليـف»**، أى العون لمـن ليست لـه قـدرة على استيعـاب المؤلفات الضخمة، ولخص فى القسم الأخير منه المعلومات الجراحية التى كانت سائدة فى عصره، واهتم المؤلف بالآراء الخاصة بكى الجروح، وتفتيت «الحصوة» فى داخل المثانة، وأهمية التشريح والفحص الدقيق. وكان هذا الجـزء، ونشر فى اللاتينيـة بـاسم الجراحة، فى البندقية عام ١٤٩٧، وفى بال عام ١٥٤١، وفى اكسفورد عام ١٧٧٨ ، أهم وأذيع كتاب فى تاريخ الطب كله، وارتفع به الزهراوى فى أعين النـاس إلى طبقـة أبقراط وجالينوس، وهو أول مؤلف جعل الجراحة علمًا قائمًا بذاته، مستقلا عن الطب، وأقامها على أساس من العلم بالتشريح، وتضمـن رسومًـا لـلآلات الجراحيـة التى كـان يستعملها العرب، أو نقلوهاعن غيرهم.

فى هذا الجو من الحضارة المصقولة، والثقافة المزدهرة، ولد ابن حزم ونشأ، وتفاعل معها، غلامًا يافعًا، وصبيًا دارسًا، وشابًا قلقًا، ورجلا يعمل بكل ما أتيح له لكى يوقـف انحدار الخلافة وتلاشيها !.



شاهد عصر !

لا أحد يختار اللحظة التى يولد فيها !

وقُدّر لابن حزم أن يجيء إلى الحياة فى أشد لحظات الأندلس قساوة ومأساة وحسما. شهد شمس الخلافة تنحدر نحو المغيب، وقاوم ما استطاع لكى يبقى عليها، ورآها تتناثر مزعاً، وتقوم على أنقاضها دويلات صغيرة، يحكمها أمراء صغار، سوف يدخلون التاريخ تحت اسم: «**ملوك الطوائف**». وعاصر فوضى هؤلاء الملوك وصَغارهم، ورأى دولهم تنتحر فى بطء، وتسرع نحو الهاوية فى بلادة. وعبثاً نجد جواباً لسؤال يتردد فى الخاطر أحياناً: ماذا لو عاش ابن حزم فى غير هذه الأعوام، لو جاء قبلها بقرن، أو تأخر به القدوم بعدها بزمن؟. المؤكد أن حياته وسط هذه الأحداث شاهدا، ومشاركته فيها مؤثرا، جعلت منه قمة الفكر الإنسانى فى مطلع القرن الحادى عشر، فى الشرق والغرب، فى العالمين الإسلامى والمسيحى على السواء. كان سياسياً ورجل دولة، شاعراً وكاتباً ومؤرخاً، مفكراً وفيلسوفاً، وفقيهاً جدلا، لدد الخصومة، عنيف الحوار.

ولن أمضى مع حياة ابن حزم تفصيلا، لقد درسها فى عمق ورزانة وتأن المستشرق الإسبانى، العالم الفيلسوف «**ميجيل أسين بلاثيوس**»، فى كتابه: «**ابن حزم القرطبى**»، وقد أنهيت نقله إلى العربية، وسأدفع به إلى المطبعة قريباً، وفيه الغناء، كل الغناء، لمن يطلب المزيد. وسأكتفى هنا بالملامح البارزة، التى تعيننا على فهم إبداع ومحتوى وإشارات «**طوق الحمامة**»، وكان مقدرا لهذه الدراسة أن تكون مقدمة له.

- **أسرة من المولّدين :**

ينحدر ابن حزم من أصول ليست واضحة تماماً، وأشدها احتمالا، وهو أمر غير مؤكد، أنه ينتسب فى أسرة من المولّدين، أى أنه ينحدر أصلا من الأجناس التى وجدها المسلمون لحظة الفتح. ولا يمكن الجزم بأصول هذه الأسرة، هل هى لاتينية أو قوطية، أو من بقية الأجناس التى مرت بشبه الجزيرة واستقرت فيها من الأفارقة والفينيقيين والسلتيين. ولا يمكن الجزم كذلك بالديانة التى كان عليها أسلافه، أهى الكاثوليكية أم ديانات أخرى، أم الوثنية، وكان لها عُبَّاد فى القرى النائية لحظة الفتح الإسلامى. وخارج

عن العلمية – طبعا – أن يقال: إنه كان إسبانيا، بالمعنى العلمي أو القومي للمصطلح في عصرنا الحديث، فالقومية الإسبانية لا يمكن أن نذهب بها، في أشد الاحتمالات، إلى أبعد من أخريات القرن الثالث عشر.

وليس للأسرة تاريخ عريق في الإسلام، فلم تكن مع السابقين إليه لحظة الفتح، أو ماتلاها من أعوام. كانت كملايين آخرين، من صغار الفلاحين في القرى النائية، تمضي حياتها هينة متثائبة، بلا آلام ولا أحلام ولا أمجاد. تعيش من الزراعة، على أرض لها، في ضيعة صغيرة، كانت تسمى على أيام ابن حزم منت لشم Montlisam ، وأخذت في الإسبانية المعاصرة صورة منتيخر Montijar أو بدون الراء الأخيرة، في مقاطعة ولبة Huelva جنوب غربي الأندلس.

ولم تكن الحياة في هذه المنطقة سهلة ولا ميسرة، ولا تزال حتى يومنا. محدودة الموارد في الزراعة، قليلة الصناعة، لا يكاد إنتاجها من الحبوب يكفي فلاحيها، على حين تزداد العاصمة قرطبة ثراء وتقدما، وتصبح الحياة فيها أمنية تستهوي عامة الناس وبسطائهم، وتداعب آمال كل طامح، وبخاصة أحلام أسرة ترغب، وتعمل جاهدة، في تحسين واقعها الاقتصادي، فترك **سعيد**، جد **ابن حزم** صاحبنا، **ولبة** حيث يقيم، وجاء إلى العاصمة، ولا نملك معلومات وافية عن حياة سعيد في قرطبة، والقليل الذي وصلنا منها غامض ومتناقض، ولدينا أخبار وفيرة عن ابنه **أحمد**، والد أبي محمد عليّ موضع درسنا.

كان **أحمد**، فيما يبدو، فطناً ودودا، مثقفاً أديباً، مستقيماً عاقلا، مقتصداً وماهراً في شئون المال، بارعاً في مواجهة المواقف السياسية المتناقضة، ذا طموح يقظ، قادراً على كبح جماحه عند الضرورة، مسالماً دائماً، ومسلحاً بكل هذه الصفات بدأ يشق طريقه ليكون له في مناصب الدولة نصيب. وفي هذا الوقت كانت منتديات قرطبة تتهامس حديث نجم يمضي صعدا بلا توقف، فتى من أبناء الأقاليم يدعى **المنصور بن أبي عامر**. كان مثل **سعيد ابن حزم** ريفياً، هبط قرطبة ذات يوم، ضائعاً مغموراً يبحث عن المجد، ويؤمل أن يلقاه في عاصمة الغرب الإسلامي، ولكنه على العكس من سعيد، ينتمي في أسرة عربية عريقة، ولو أن معلوماتنا أيضاً عن أيامه الأولى قليلة وغامضة.

ولم يكن **المنصور** فرداً في طموحه وصعوده، كثيرون كانوا يرقبونه، وعلى نية أن يتبعوه، وقد بدأ دم جديد يتدفق في شرايين الدولة، فأتى على الأسوار العالية التي أقامها

أبناء البيوتات العريقة، وكانت المناصب الكبرى وقفاً عليهم، سنة جارية، وتقليداً محترماً. وهكذا وجد **أحمد** طريقه إلى مناصب الدولة، ربما لأنه كان مولى لبنى أمية، وهذه تحسب له، وأكيداً لأنه أشاع الثقة فيمن حوله، بقدرته وحنكته. ومع البداية واصل سيره قدما، ونجهل خطواته الأولى، ولابد أنه كان ذا دهاء سياسى رفيع، ليظل وفيا للخليفة **هشام المؤيد**، وموضع ثقته ورعايته، دون أن يثير فى أعماق **المنصور**، وكان الحاكم الفعلي أو فى طريقه ليصبح كذلك، روح الشك والخوف، بل حاول المنصور أن يربحه، وأن يضمه إلى جماعته.

وقد ترك **أحمد** منزله، لأول مرة، فى **بلاط مغيث**، فى الجانب الغربى من قرطبة، إلى «**منية المغيرة**» فى الجانب الشرقى من المدينة، مكان قريب من **الزاهرة**، المدينة التى بناها المنصور لتكون مقراً لحكمه، وعظمت فيه ثقة **المنصور**، فجعل منه وزيره. يقول **ابن الأبار** فى كتابه «**إعتاب الكتاب**»، نقلا عن **ابن حيان**: إن **المنصور** «استوزره قبل سائر أصحابه، في سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة (= ٩٩١م) فى خلافة **هشام المؤيد** بالأندلس واستخلفه أوقات مغيبه على المملكة، وصيَّر فى يده خاتمه».

تلك هى الأسرة التى ولد بينها ابن حزم، أسرة ثرية من طبقة الخاصة الوليدة، طبقة كبار الموظفين، تعيش فى ترف ورفاهية، وفى مستوى حياة أعلى طبقات المجتمع القرطبى، ويضغط عليها فى طيات النفس أمران غير ظاهرين: تواضع الأصل، ولا إسلامية السلف، وكان عليها أن تتحرر منه، وأن تتغلب عليه، وفى أشجار النسب متسع، وهو طريق سلكه قبلهم، ومن بعد، آخرون كثيرون. والأمر الثانى: الولاء الموزع بين هشام المؤيد ولى نعمته، والمنصور راعيه.

- **طفولة بين الحريم :**

ولد أبو محمد، على بن أحمد بن سعيد بن حزم، فى قرطبة، صبيحة الأربعاء آخر يوم من رمضان عام ٣٨٤ هـ = ٧ من نوفمبر ٩٩٤ م. وطبقاً لما يرويه ابن حزم نفسه، فى مواضع مختلفة من كتابه «طوق الحمامة»، صريحاً أحياناً، ومواريا أحياناً أخرى، نعرف أنه أمضى طفولة رخية وضعيفة وكسولة، طفولة ابن وزير، يشب فى أبهاء القصر، وتحت رعاية الخدم، وبين مناغاة النساء، من القيان والجوارى والإماء، على أيديهن نشأ، ومعهن تربَّى، ولم يعرف غيرهن من الرجال حتى حد الشباب، وكن حاضناته وأستاذاته، علّمنه القرآن، وروّينه الشعر، ودرّبنه فى الخط، ومنهن تعلم أشياء أخرى

ليست أقل نفعاً، ولكنها مؤذية فى سن الطفولة. لقد أظهرنه، فى سن مبكرة على أسرار الحياة الجنسية، ومناورات القصور، وحيل النساء. فنشأ صبيا سريع التأثر، كثير المرض، ملحوظ العصبية، متوقد الذكاء، مطبوعاً على الغيرة، سيىء الظن بالمرأة وقد خبرها عن قرب، وأشرف من أسرارها على غير قليل.

أقصى ما عرف من العالم فى صباه شوارع **«منية المغيرة»**، حى كبار موظفى البلاط، الملاصق لقصر **الزاهرة**، فى نزهات أغلب الظن أنها لم تكن طويلة، ولم يكن فيها وحيدا، وربما قادته قدماه إلى قصر **المنصور** نفسه، وكان ابن أبى عامر ودوداً جداً مع الأطفال، يهش لرؤيتهم ويسعد بمحضرهم. ولم يشر **ابن حزم** إلى شىء من هذا فى مؤلفاته، ولكن صديقه وتوأم روحه، **أبو عامر بن شهيد**، قص علينا بعض ما حدث له، فى رسالة جميلة، كتبها فيما بعد رجلا، إلى **المؤتمن** عبد العزيز بن عبد الرحمن بن **أبى عامر**، وقد أصبح أمير بلنسية، وأورد لنا **ابن بسام** فقرات طوالا منها فى كتابه **«الذخيرة»**. يتحدث ابن شهيد عن صلته بالمنصور طفلا فيقول: «إنى نشأت فى حجره، وربيت فى قصره، وارتضعت ثدى كرائمه، واعتجرت رداء مكارمه، واغتذيت من فيه، أكلا زقّنيه، وماءً علّنيه، فصرت من أفراخ نعمائه الحمر الحواصل، ولحقت بأخوة أبنائه الغر العباهل».

وكان ابن شهيد ندا لابن حزم، ويكبره بعامين فحسب، وينتمى فى أسرة عربية عريقة، كان أبواهما موظفين كبيرين، وزيرين فى قصر الحجابة، وعلى نفس المسافة من المنصور، فليس مجازفةإذن أن نتصور أن ابن حزم، كابن شهيد، كان يتردد على قصر الحجابة، ويحظى بحنان المنصور، والطريق إليه أيسر من الوصول إلى الخليفة الوقورالمحتضر، وقد دفنه المنصور حياً.

• ثوار وعباد جمال :

فى عام ٣٩٢ هـ = ١٠٠٢ م، تحققت رغبة **المنصور** العظيم أن يموت فى ساحة الوغى، وأن يلقى الله مجاهدا، أثناء عودته من حملة قام بها على قشتالة، وهى الحملة الخمسون من حملاته العسكرية، وطبقاً لوصيته دفن حيث لفظ نفسه الأخير، فى **مدينة سالم**، ومعه الغبار الذى تجمع على درعه أثناء حملاته المتعددة، وكان يحتفظ به لهذا الغرض، وعلى قبره هذا الشاهد:

آثــاره تُنبيك عـن أخبــارهِ   حتى كأنّك بالعيـــان تـراه
تا للّهِ لا يأتى الزمـانُ بمثله   أبداً ولا يحمى الثغور سـواهُ

وتولى الحجابة بعده ابنـه **عبد الملك المظفر**، ومعه أمّلت الأندلس خيراً كثيـراً، وبخاصة فى أيامه الأولى، وكان **ابن حزم** فى الثامنة من عمره، يطل على العالم قلقاً، ويشق طريقه إلى الحياة فى خطى محسوبة، وتعكس مواقفه نضجاً مبكراً، فى بيتهم بدأ غرامياته الأولى مع جواريهم، وقرأ أوليات المعارف من فقـه ولغـة وأدب، ولقى كبـار الأساتذة في قرطبة، يجيئون إليه أو يذهب إليهم، أساتذة يمثلون كل الأفكار، من أشد الناس ورعاً وتصوفاً وزهداً، إلى أكثرهم جرأة وتحرراً وتمرداً. وخلال ذلك بـدأ ينمّى صداقاته، مع صبيان وفتيان من سنه، صداقات عمرت طويلا، وأخذ بعضها شكلاً حميماً.

وفى الثانية عشرة من عمره، فى عيـد الفطـر لعـام ٣٩٦ هـ، نلتقى بـه فى مجلس الحاجب المظفر، يشارك فى سماع المهنئين من الشعراء بالعيد، ولا يقف به الأمر عند هذه المجالس الرسمية، وإنما يتجاوزها إلى الحرم نفسه، فهو يحدثنـا فى **«الطوق»** أن **ضنا العامرية**، كريمة **المظفر**، اقترحت عليه أن يصنع لها أبياتاً من الشعر، اقترحت عليه أفكارها، لتصنع لها لحناً، وتجعل منها صوتاً يغنى.

ولم يتجه **ابن حزم** إلى دراسة الفقه جاداً ومتمكناً إلا شاباً مكتمـلا، فى السادسة والعشرين من عمره، على ما يقول هو، حين أخطأ فى صلاة الجنازة على شخصية هامة، فكان موضع سخرية الحاضريـن، وقـد شك **غرسية غومث** فى الخبر، ورآه لونـاً مـن المداعبة، لأن ابن حزم يجب أن يكون قد درس الفقه وعلم الكـلام مبكـراً، ولا أرى تناقضاً بين الأمرين، لأن الدراسة النظرية لا تعنى عدم الخطأ، والعبادات العملية – وصلاة الجنازة ليست مما يصلى كل يوم أو حتى كل شهر – تلعب فيها الممارسة دوراً أكبر من القراءة والدرس، وإشارة ابن حزم إلى أنه بدأ دراسة الفقه لا تعنى أكثر من أنه راجع ما قرأ، وتعمق فيما درس، واستحضر ما كان غائباً من تفصيلات.

وأياً ما كان الأمر، فقد اختار **ابن حزم** فى هذه الفترة المبكرة من شبابه، أن يكون واحداً فى رفقة من الأصفياء، ربطت بينهم صداقة وطيدة، أقلية من العشاق المصقولين، تنتمى إلى أعلى طبقة فى المجتمع القرطبى، عرض **ابن حزم** لبعضهم فى **«طوق الحمامة»**، وأثنى عليهم كثيراً، يتميزون بالأناقة، ويرتدون أفخم الثياب، فى أحدث الأنماط، يفتنهم

الجمال، وتستهويهم الطبيعة، تطربهم الموسيقى، ويفضلون الأدب، ويتبعون فيه منهجاً ثورياً. كان هؤلاء الفتية، كما تخيلهم غرسية غومث، «يرتدون ملابس بيضاء، ويحاورون بين أروقة بيضاء، يغرمون بالأوز، ويعشقون النساء الشقراوات».

كان هؤلاء الفتيات من الخاصة فى قرطبة يقفون عند نماذج الأدب المشرقى، يعرفونها، ثم يطرحونها، ويحاولون أن يرتفعوا إلى مستواها. كانوا باختصار يقرأون كثيراً، ويتمثلون ما يقرأون، ويرحلون عبر العالم واقعاً أو قراءة، ثم يبدعون أخيراً. لقد التزموا منهجاً وسطاً، ينأى عن التحلل الهابط، ويتجاوز التقليد المميت، ويزاوج بين حداثة الفكرة، ودقة الصياغة، وحرية الاختيار، وهى القواعد التى جعلت منها الخلافة طابع المجتمع فى قرطبة، وكان الأدب الجديد يطمح أن يكون فى مستوى الحياة وموائماً للتطور السياسى حوله، وكما يحدث عادة، جاء ذلك متأخراً. وحين تهاوى نظام الخلافة بغتة، أطبق على هذا الأدب بين خرائبه، ولما يعط إلاّ قليلا جدًّا من ثماره، ثمار مبكرة، وكثرتها غير ناضجة، ولكنها شهية من الطراز الأول.

كان أبو عامر بن شهيد رأس هذه الجماعة، مواضعة وعرفاً، وترك لنا فى رسالته «التوابع والزوابع»، وهى أول رحلة علمانية فى التاريخ إلى عالم الآخرة، ما يمكن أن نعده دستور الجماعة. لقد صحب الكاتب شيطانه إلى عالم الأرواح، والتقى هناك بشياطين كبار الشعراء، جاهليين وإسلاميين وعباسيين، وبعض الكتاب، فأنشدوه أشعاراً لأصحابهم، وأسمعهم شيئاً من شعره، وعرض على نوابغ الكتاب بعضاً من رسائله. وخلال الرحلة ينقد مجتمعه، وما يفتقده فيه، ويعرض آماله، وما يطمح أن يكون عليه.

فهو يأسى لقرطبة تتحدث لكنة أعجمية، تؤدى بها المعانى تأدية المجوس والنبط، ليس لسيبويه فى كلاهما عمل، ولا للخليل إليه طريق، ولا للبيان عليه سمة، ويشكو قوماً من المعلمين فى العاصمة، «وممن أتى على أجزاء من النحو، وحفظ كلمات من اللغة، يحنون على أكباد غلاظ، وقلوب كقلوب البعران، ويرجعون إلى فطن حمئة، وأذهان صدئة، لا منفذ لها فى شعاع الرقة، ولا مدب فى أنوار البيان، سقطت إليهم كتب فى البديع والنقد فهموا منها ما يفهمه القرد اليمانى من الرقص على الإيقاع، والزمر على الألحان، فهم يصرفون غرائبها فيما يجرى عندهم تصريف من لم يرزق آلة الفهم، ومن لم تكن له «آلة الصناعة»، ويكتب أبياتا ينافس بها الشعراء المشارقة، ويؤكد أن الأدب الجيد يعتمد على الموهبة، قبل أن يقوم على سعة الثقافة، أو مراعاة قواعد

النحو، وأن «أول أدوات الكاتب العقل، ولا يكون الكاتب غير عاقل». ويعنى بالعقل الذكاء فى لغتنا المعاصرة والأدب هبة من الله، لا يعلّمه أستاذ، ولا يلتقط من كتاب، والشاعر يولد ولا يصنع، وشر الفن ما كان وسطاً، «لا يحسن فيطرب، ولا يسيء فيلهى»، وهى قاعدة جريئة فى الأدب العربى وليس دونها جرأة فى تلك الأيام ما رآه من أن «لكل عصر بيان، ولكل دهر كلام، ولكل طائفة من الأمم نوع من الخطاب، وضرب من البلاغة، لا يوافقها غيره، ولا تهش لسواه».

وتوفى **ابن شهيد** عام ٤٢٦هـ = ١٠٣٥م، إثر داء عضال، عاني مرارته زمناً، وتحمل عناءه صابراً، وخلفه **ابن حزم** فى رئاستها، وكان له دائماً صديقاً وفياً ومخلصاً، فسار على النهج نفسه، واحترم تقاليد الجماعة وأسلوبها.

- **أزمة الخلافة :**

قبل أن تعطى هذه المدرسة الأدبية ثمارها، أو إذا شئنا الدقة قبل أن يخط **ابن حزم** أى كتاب مهم له، إذا استثنينا المقطعات الشعرية وبعض الرسائل الأدبية، وقبل أن يتولى أية وظيفة سياسية فى مستوى تكوينه وطبقته الاجتماعية، تفجرت الحرب الأهلية فى قرطبة، وعكرت بعنف صفو الحياة المصقولة، والهادئة، لهؤلاء القرطبيين من عشاق الفن والجمال، وسوف أدرس هذه «الفتنة» وما كان لها من نتائج بالغة السوء فى فصل خاص، ويكفى أن أشير هنا لماما، وفى إيجاز شديد إلى ما أحدثته فى أسرة ابن حزم، وفى حياته نفسه، ليبقى خيط الأحداث متصلا.

لقد توفى **العامرى الثانى، الحاجب عبد الملك المظفر**، فى ١٦ من صفر ٣٩٩هـ= ٢٠ من أكتوبر ١٠٠٨م، فولى الحجابة بعده أخوه **عبد الرحمن الملقب بشنجول**، وكان مجرداً من المواهب. فاغتيل فى قرطبة بعد شهور من توليه الحجابة، فى ٣ من رجب ٣٩٩هـ = ٣ من مارس ١٠٠٩م، وعُزل **هشام الثانى** عن الخلافة، وبويع بها **محمد المهدى**، وأعفى **أحمد بن سعيد** من مناصبه، وترك **«منية المغيرة»** حى كبار موظفى البلاط، قرب ربض الزاهرة، وقد أتى عليه الثائرون هدماً وتخريباً، وعاد إلى سكنهم القديم فى بلاط مغيث، ليواصل الحياة هادئاً، وبعيداً عن صخب السياسة، واستطاع أن يحتفظ ببعض ماله من هيبة، وسنلتقى به فى العام نفسه، فى ٢٧ من شعبان ٣٩٩هـ = ٢٦ من أبريل ١٠٠٩م، يشهد المسرحية المحزنة، لدفن **هشام الثانى**، المزيف طبعاً، وكان معه ابنه على صاحبنا، وترك لنا وصفاً صادقاً ومؤثراً لما حدث.

يقول في سياق كلام له عن صلب المسيح وقتله: «وقد شاهدنا نحن مثل ذلك، وذلك أننا إندرأنا للجبل، لحضور دفن المؤيد هشام بن الحكم المستنصر، فرأيت أنا وغيرى نعشاً فيه شخص مكفن، وقد شاهد غسله شيخان جليلان حكمان من حكام المسلمين، ومن عدول القضاة، في بيت، وخارج البيت أبى رحمه الله، وجماعة عظماء البلد، ثم صلينا فى ألوف من الناس عليه، ثم لم يلبث إلا شهوراً نحو السبعة حتى ظهر حيا، وبويع بعد ذلك بالخلافة، ودخلت عليه أنا وغيرى، جلست بين يديه، ورأيته، وبقى ثلاثة أعوام غير شهرين وأيام».

وفى ١٠ من ذى الحجة ٤٠٠هـ = ٢٣ من يوليه ١٠١٠م، اغتيل **المهدى** بعد خلافته الثانية، وبويع ثانية **هشام الثانى**، بعد أن قيل للناس أنه مات ودفن، وبعد أن شهدوا جنازته وصلوا عليه، وكان الظن أن يعود بنو حزم إلى سابق عهدهم، ومكانتهم القديمة، غير أن الأمور سارت على النقيض لأن لعبة السياسة المعقدة، والموقف الحذر الذى سار عليه **أحمد بن سعيد**، حتى ذلك الحين، جعله يصطدم مع **القائد الصقلبى واضح**، محسوب الخليفة، فلاحقه وسجنه وصادر أمواله. وحينئذ رأت الأسرة، وقد تمزقت بقايا العامريين، أن لها الحق، مع غيرها، فى أن تغضب وأن تقاوم، فاشتركت فى عمل لمناهضة الصقالبة، ولكن المؤامرة فشلت، وجلبت على أحمد بن سعيد مصائب كبيرة.

ومع هذه الفتن اجتاح الطاعون قرطبة، وعاث فيها، وفقد **أحمد** ابنه **أبا بكر** ضحية له، فى شهر ذى القعدة عام ٤٠١هـ = يونية ١٠١١م، وبعد عام كامل توفى **أحمد** نفسه صريع هذه الأحداث، فى ٢٨ من ذى القعدة ٤٠٢هـ = ٢٣ يونية ١٠١٢م، **ولعلى** صاحبنا ١٨ عاماً لما تكمل، وكان عليه وهو فى هذه السن الطرية، وفى عنفوان تعاسة أسرته، أن يواجه الموقف، وأن يدير دفة الأحداث.

وبقيت كوارث أخرى أشد هولا، ففى نهاية شهر شوال ٤٠٣هـ = مايو ١٠١٣م، استسلمت عاصمة الخلافة للبربر، ودخلها سليمان المستعين خليفة للمرة الثانية، وليبقى شهرين فحسب، ومعه نهبت قرطبة فى قسوة، وانتهكت الحرم، وعمت الاغتيالات والمذابح، واجتاح التدمير، بلا حساب، كل الأحياء، وأتى البربر على بيت ابن حزم فى بلاط مغيث كاملا، على نحو ما قص علينا فى صفحة من النثر الجميل، فى كتابه «طوق الحمامة»، وكان على ابن حزم أن يهاجر إلى المرية فى ١ محرم سنة ٤٠٤هـ = ١٣ يولية سنة ١٠١٣م.

- **منفى ومتآمر :**

فى وسط هذه الدوامة من الفوضى والتمزق، كان يحكم المرية **خيران**، صقلبى من فتيان العامريين. ووصلها ابن حزم رفقه صديقه **أبى بكر محمد ابن إسحاق**، وأمضيا فى البدء أياماً هادئة، بعيدين عن القلاقل، فالمدينة أموية الولاء، لما تزل – اسمياً – تحت سيادة الخليفة، وأصبحت قبلة العامريين والأمويين الفارين من قرطبة. وأمضى فيها ابن حزم أعواماً ثلاثة لم يتوقف عن تحصيل المعرفة، وعن تكوين صداقات جديدة، ففيها كما يحدثنا فى «الطوق» اتصل بطبيب يهودى، يدعى إسماعيل بن يونس، يتردد على دكانه، ويجلس إليه فى لمة من الأصحاب، ولسوء الحظ فإن معلوماتنا عن الطبيب معدومة، لا نعرف عنه شيئاً إلا إشارة ابن حزم هذه.

ولكن **خيران** ما لبث أن رأى مستقبله السياسى فى أن يتخلى عن الولاء لبنى أمية، وأن يؤازر **على بن حمود** الإدريسى فى الاستيلاء على قرطبة، فدخلها فى زفة فى ٢٢ من محرم ٤٠٧هـ = ١ من يولية ١٠١٦م. وأصبحت **المرية** مدينة علوية لا أموية. وبربرية لا صقلبية، ولم يعد **خيران** ينظر بعين الرضا إلى هذين الشابين الرفيقين المثقفين، يؤمنان بحق بنى أمية فى الخلافة، حفاظاً على الشرعية، وتمكيناً لهيبة الدولة، ولا يقبلان فى هذا مساومة، فاعتقلهما بتهمة التآمر، وهى تهمة ربما كانت محتملة، ولو أن **ابن حزم** أنكرها على أية حال، وما لبث أن نفاهما.

ومنفيان فى **حصن القصر** Aznalcazar ، قرية توجد فى مقاطعة مالقة، أو مرسية، غير التى تحمل الاسم نفسه الآن قريباً من سان لوكر San Lucar سمعا من يتحدث عن ثورة قام بها أموى يطالب بالخلافة، فى أرض **بلنسية** شرقى الأندلس، وأنه أعد جيشاً سوف يزحف به على **قرطبة** لملاقاة بنى حمود، ليجمع الشمل، ويعيد الخلافة، ويوحّد الدولة، فلم يتردد لحظة، **ابن حزم** وصاحبه **أبو إسحاق**، وكانا فى ميعة الشباب، من التوجه شرقاً إلى بلنسية فى أول سفينة يجدان بها مكاناً.

كان المطالب بالخلافة فى هذه المرة شاباً من أحفاد **عبد الرحمن الناصر**، يدعى **عبد الرحمن بن عبد الملك**، اكتشفه وحرضه على الثورة **خيران الصقلبى** صاحب المرية، بعد أن نسى أمسه وغيرّ جلده، وأصبح رسوله إلى **منذر التجيبى** صاحب سرقسطة، والذى وقف إلى جانبه، وزاد فطلب له العون من حليفه **كونت برشلونة**، وفى ١٠ ذى الحجة ٤٠٨هـ = ٢٩ من أبريل ١٠١٨م تجمع الجيش والأعوان فى

شاطبة، وبويع **عبدالرحمن** بالخلافة وتلقب **بالمرتضى**. ولم تستطع قرطبة وقد طال بها الشوق إلى أمجاد الأمس الزاهر، ونفذ صبرها فى انتظار من يطالب بالخلافة، أن تتحمل المزيد من المعاناة والألم، فاغتالت **على بن حمود** فى ١ من ذى القعدة ٤٠٨هـ = ٢٢ من مارس ١٠١٨م، فجثم على صدرها أخوه **القاسم**.

وبينما قرطبة تطوى الضلوع على ثورة صماء، وكراهية غير مكتومة لبنى حمود تحرك المرتضى نحوها على رأس جيشه، عن طريق **جيان**، وكان **ابن حزم**، فيما يرجح، ضمن هذا الجيش، وكانت عاصمة الخلافة مهيأة لاستقبال الخليفة، وكل الظروف تجعل من النصر أملا ممكن التحقيق، لولا خيانة **خيران ومنذر** فى اللحظة الحاسمة. لقد ظن كلاهما، فى البدء، أن **المرتضى** سوف يكون مجرد لعبة فى أيديهما، ظلاً يحكمان من ورائه، فلما وجداه ذا شخصية قوية، قادرة على اتخاذ القرار المناسب فى اللحظة المناسبة أضمرا له الغدر، ومن موقعهما مستشارين وحليفين قدما له نصيحة قاتلة: من الأفضل له، قبل أن يتقدم إلى العاصمة، أن يقضى على **بنى زيرى**، من بربر صنهاجة، وقد استقروا فى كورة **إلبيرة**،واتخذوا من **غرناطة** عاصمة لهم، وكان على رأسهم حينئذ الأفريقى العجوز الداهية، **زاوى بن زيرى**، الذى لم يهزم أبداً، والذى اضطر بعد قليل، وفى قمة مجده، أن يتنازل عن رياسته، وأن يعود إلى إفريقية ليموت هناك مسموماً. وقد التقى الجيشان، وتحدثنا مصادر كثيرة عن نتيجة المعركة، دون أن يقدم لنا أى منها تاريخاً لها، محدداً ودقيقاً.

لقد هجم **البربر** بشراسة على جيش **المرتضى**، وفى اللحظة الحاسمة تخلى عنه **خيران ومنذر**، فتمزق جيشه شر ممزق، وهرب المرتضى نفسه إلى **وادى آش**، وفيها اغتالته عصابة مأجورة من المرية، على حين توزع القتل والهرب والأسر جيشه، وكان **ابن حزم** من بين الأسرى، وطبقاً لما يذكره فى كتابه **الطوق**، كان أثناء الأحداث قد تسلل إلى قرطبة سراً، فى شوال من عام ٤٠٩هـ = فبراير من عام ١٠١٩م للقيام باستطلاع الموقف السياسى، وجس نبض المدينة على التأكيد.

وبعد أن أفلت **ابن حزم** من الأسر البربرى انسحب إلى **شاطبة**، نفس المكان الذى تحرك منه جيش المرتضى التعيس فى ساعة نحس، وفى **شاطبة**، بين عامى ٤١٢ و ٤١٣ - ١٠٢٢م، فيما يحتمل، حرر **كتابه «طوق الحمامة**، وله من العمر ٢٨ سنة،

استجابة لرغبة صديق له من المرية، كتب إليه يقترح عليه أن يصنف له رسالة فى الحب، ثم جاءه فيما بعد شخصاً إلى شاطبة ليراه، ونزل معه فى داره مدة إقامته بها.

• **بريق انتصار :**

لم تطل فترة خلافة **بنى حمود** فى قرطبة، **وكانت أشبه** بجملة بين قوسين فى تاريخ الخلافة الطويل، على حد تعبير غرسية غومث، فقد ضعف **أمر القاسم بن حمود**، واضطرب الحبل فى يده، وتسلط عليه البرابرة حتى احتقروه، وأراد هو أن يخلص من سلطانهم فأحل السودان مكانهم، واتخذ منهم جنده، وأخذ يضرب أولئك بهؤلاء، فتآمر البربر عليه، بمعاونة **يحيى وإدريس** ابن أخيه، فترك قرطبة، وهرب إلى إشبيلية عام ٤١٢هـ-١٠٢٢م. وتولى الخلافة مكانه **يحيى** الذى انصرف عنه السودان والبربر جميعاً، فآثر السلامة، وترك قرطبة كما تركها عمه من قبل، فى ٢١ من جمادى الآخرة سنة ٤١٣هـ = ٩ من سبتمبر عام ١٠٢٣م. وبينما المحن تطوق قرطبة من كل جانب، بدأت تحاول شيئاً بَنَّاءً إلى أقصى حد، وجديداً لم تألفه العاصمة من قبل، إذا لم نقل ثورياً فى عالم السياسة المضطرب: أن ينتخب الشعب الخليفة فى المسجد الجامع، طبقاً لأسمى قواعد الشريعة الإسلامية وأدقها، وأن يجىء الخليفة مختاراً لا وارثاً، ولا معيناً من سابقه، ولا مفروضاً بقوة السلاح. وهو تقليد يحدث للمرة الأولى منذ قيام دولة بنى أمية فى الأندلس.

لم تكن سلطة الخلافة الفعلية فى هذه اللحظة تتجاوز أحواز المدينة، وماذا يهم؟... ألم يحدث شىء شبيه بهذا حين انحصر سلطان العاصمة فى عصر الأمير عبد الله، وتحمل القرطبيون المهانة، فى انتظار أيام مجيدة جعلت من قرطبة مصدر القوة والجلال والثقافة، على أيام عبد الرحمن الناصر، والحكم الثانى، والمنصور بن أبى عامر؟. إن الأمل آخر شىء يمكن أن يفقده الإنسان العظيم.

وفى ١٦ من رمضان سنة ٤١٤هـ = ٢ من ديسمبر عام ١٠٢٣م، وقع الاختيار على واحد من بين الأمراء الأمويين الثلاثة: **سليمان بن المرتضى وعبد الرحمن بن هشام، وعلى بن محمد العراقى**، ولم يكن أحد بدءا يفكر فيه على الإطلاق، اختاروا عبد الرحمن بن هشام، خامس الخلفاء الذين حملوا هذا الاسم، وتلقب **بالمستظهر**. وكان الخليفة الجديد على حداثة سنه؛ كما يصفه **ابن حيان**: «لبقاً ذكياً؛ يقظاً لوذعيا؛ لبيبا أديباً؛ حسن الكلام؛ جيد القريحة؛ مليح العبارة؛ يتصرف فيما شاء من الخطابة؛

بديهة وروية؛ ويصوغ قطعا من الشعر مستجادة، ولم يكن فى بيته يومئذ أبرع منه منزلة، وكان قد نقّلته المخاوف، وتقاذفت به الأسفار، فتحنك وتخرج وتمرن فيها».

كان **المستظهر** يطمح أن يعيد إلى الخلافة بهاءها، وإلى قرطبة أمجادها، فأحاط نفسه بخيرة الأدباء على أيامه، وجلهم ينتمون إلى جماعة المثقفين الذين أشرنا إليهم من قبل. فكان بينهم **ابن حزم**، وابن عمه **أبو المغيرة عبد الوهاب**، **وأبو عامر بن شهيد**، والشاعر البارع **حسان بن مالك**، والكاتب الرائع **ابن برد**. ولكن هذا الاتجاه أحقد عليه الشيوح، ومحترفى السياسة، والمنتفعين بالمصائب، فمضوا يألبون عليه العامة، ويثيرون الفتن والدسائس بين الخاصة، ويبيعون الأحلام للطامعين، فلم يستطع أن يبقى فى الحكم أكثر من شهر ونصف، فقد أعدم فى ٣ من ذى القعدة سنة ٤١٤هـ = ١٧ من يناير عام ١٠٢٤م، وبذهاب الخليفة استقر **ابن حزم** فى السجن من جديد.

- **خيبة أمل، وتغيير الطريق :**

فى هذه اللحظة أشرق ذكاء ابن حزم وضيئا، ليقنعه بأن العالم السياسى الذى ينتمى إليه، وناضل من أجله، انتهى تماماً، مات ولا سبيل إلى بعثه، وقد احتاجت قرطبة إلى سبعة أعوام كاملة بعده لتقتنع بالنتيجة نفسها. وعندما خرج من السجن، والإحساس بالخيبة يملأ داخله، قرر أن يتخلى بطريقة نهائية وحاسمة عن ممارسة السياسة، فنبذ الوزارة واطرحها اختياراً، وأقبل على قراءة العلوم، وتقييد الآثار، من شريعة وفلسفة وتوحيد وتاريخ، وظل موصول السبب بها حتى فى أحلك لحظات حياته، رجل دولة أو مغامراً أو لاجئاً، «ونال من ذلك ما لم ينل أحد قبله بالأندلس»، والشيء الوحيد الذى لم يتخل عنه، وما كان بوسعه أن يفعل لأنه يحمله فى دمه، هو روح المخالفة والأصالة والجرأة، ورافقت حياته دائماً. لم يستطع أن يكون تقليدياً مالكى المذهب، ورأى كبار علمائه فى مرات كثيرة، كما هو شأن كبار الفقهاء ورجال الدين عادة، وفى كل مكان إلا ما ندر، يتحالفون مع السلطان، ويلتقون مع كبار الموظفين، ويغيرون مواقفهم على النحو الذى يرضى الحكام، فأصبح المذهب المالكى بفضلهم هو السائد فى قرطبة، تعليما وشعائر وفتوى. وحوّم حول المذهب الشافعى قليلا، وأقام عليه زمنا، ورآه أكثر توفيقاً وتعادلا، رغم قلة أتباعه، ومناهضة الدولة لأوليائه، ثم انصرف عنه، فقد وجده يلفظ أنفاسه، وانتهى به المطاف فقيهاً ظاهرياً، قبل عام ٤١٩هـ = ١٠٢٩م، وكانت

له من قبل صلات بالمذهب، ورفقة مع السائرين على دربه، وصلات أدبية، على الأقل، مع علمائه.

وفى مسجد قرطبة الجامع، إلى جوار أستاذه الظاهرى، **أبى الخيار** مسعود بن سليمان ابن مفلت الشنتريني، أخذا يدرّسان أصول المذهب الظاهرى، مع آخر أيام الخلافة، وقد أصبحت هذه شكلا مهلهلا، حوالى أعوام ٤١٨ - ٤٢٠هـ = ١٠٢٧ - ١٠٢٩م. وقد اتهم علماء المالكية، والجمهور من ورائهم، الأستاذين الجليلين بأنهما خطر على العقيدة، ويفسدان تديّن الشعب، فاستشار صاحب المدينة فى أمرهما **هشاما الثالث**، آخر خليفة أموى، وربما قبل أن يدخل المدينة ليمارس سلطاته، وتقرر منعهما من تدريس المذهب الظاهرى. ومن تلك اللحظة أصبح **ابن حزم** عالماً ثائراً، غير مرغوب فيه، يواجه وحيدا التخلف والتقليد والجمود، وتزييف نصوص الشريعة لخدمة الأقوياء، وبدأ يبشر بفكر إسلامى راق، وفلسفة مستقيمة، ولم تفتر حميته أبدا، رغم كل المصاعب الجمة التى تعرض لها. ومع هذه المرحلة الجديدة من حياته سوف تقل معلوماتنا عنه كثيراً، وسوف تصبح كتبه مصدرنا الوحيد لكتابة تاريخ حياته فيها.

- **جهد ثقافى عملاق :**

حتى ولو أخذنا فى الاعتبار أنه عَمّرنسبياً، فإن ما قام به فى حقل الدراسات الإسلامية كان فرداً وعملاقاً ومتميزاً، ويقول **عبد الواحد المراكشى**، فى كتابه «**المعجب فى أخبار المغرب**»، وألفه فى ظل الموحدين، وهم يناهضون المالكية، فجاءت أخباره بعيدة عن التعصب، قريبة إلى الواقع، إن ابن حزم كان أكثر أهل الإسلام تصنيفا، وإنه «صنف فى الفقه والحديث والأصول والنحل والملل، وغير ذلك من التاريخ وكتب الأدب، والرد على المخالفين له، نحواً من أربعمائة مجلد، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة، وهذا شىء ما علمناه لأحد ممن كان فى مدة الإسلام قبله، إلا لأبى جعفر محمد ابن جرير الطبرى»، وبعض هذه المجلدات كما نعرف رسائل صغيرة، ولو أن ذلك لا يقلل من جهد المؤلف ولا من قيمة الرسالة، ومحال أن نقف فى هذه العجالة عندالمؤلفات محللين، ونحيل الراغبين فى هذا إلى الدراسة القيمة التى قام بها **ميجيل أسين بلاثيوس** لهذه المؤلفات فى كتابه العظيم عن «**ابن حزم القرطبى**»؛ وقد نقلناه إلى اللغة العربية؛ وسوف يصدر عن قريب. ولقد أرى؛ ويرى غيرى معى؛ أن الأمر رغم

ذلك يحتاج على المدى البعيد إلى جهد آخر متأن فى ضوء ما عثر عليه من مخطوطات جديدة؛ وما نشر له أخيراً من تراث.

يكفى أن نقف هنا عند كتابه «**طوق الحمامة**»، وسنعرض له تفصيلا فيما بعد، وأن نشير من بين أعماله إلى مؤلفاته ذات الأهمية القصوى فى الفكر الإنسانى، على امتداد كل العصور، ولم تذهب به الأحداث. ويأتى فى مقدمتها كتابه المسمى «**الأخلاق والسير فى مداواة النفوس**»[1]، وقد أجمل **أسين بلاثيوس** وصفه بقوله: «إنه أشبه بيوميات دون فيها ابن حزم ملاحظات أو اعترافات تتصل بسيرة حياته، دون ترتيب يقصد به إلى التربية والتعليم، ولم يراع فى تنسيقها منطقا. ونحن إذ نقرؤه نجد فيه الوقائع كما سجلها رجل يقظ، دقيق الملاحظة، أثناء تجاربه الواسعة، وصاغها فى قالب مبادئ عامة وحكم، وأعظم قيمة لهذا الكتاب، وألفه ابن حزم وقد اعتزل الناس فى قريته منت لشم، وصدر عن نفس يشوبها التشاؤم والتصوف، أنه يقدم لنا صورة حقيقية وحية لنفسية مسلمى الأندلس فى القرن الحادى عشر، وقواعد الأخلاق التى كانت مرعية فى مجتمعهم، إلى جانب الفقرات التى تتصل بحياة ابن حزم نفسه».

ثم كتابه «**الفصل فى الملل والأهواء والنحل**»، وهو تاريخ نقدى للأديان والفرق والمذاهب، غنى بمادته وأفكاره، وحاول فيه ابن حزم أن يوفق بين العقل والعقيدة، فسبق **ابن رشد** فى ذلك بقرن من الزمان، ويعرض لشتى مذاهب الفكر البشرى فى موضوع الدين، من الإلحاد المطلق لا يؤمن أصحابه بشىء، إلى إيمان العوام يصدقون كل شىء. ويرى أن خير العقيدة ما أخذ طريقاً وسطاً بين العقل والنقل، مما يطابق تمام المطابقة المذهب الظاهرى الذى كان هو نفسه عليه.

وخلف لنا **ابن حزم** مادة طيبة فى التاريخ، يهمنا أن نشير من بينها بخاصة إلى كتاب «**جمهرة أنساب العرب**»،وهو أحسن قائمة بأنساب العرب فى الغرب الإسلامى، ولمن يدرسون تاريخ الإسلام فى المشرق والأندلس وكتاب «**نقط العروس**»، وهو رسالة موجزة عن تاريخ الخلفاء والحكام فى المشرق والأندلس، وفيما يبدو كان نقاطاً وضعها ابن حزم لينشىء حولها كتاباً مطولا. وله رسالة فى «**بيان فضل الأندلس وذكر علمائه**»، وجاء **المقرى** بنصها كاملا فى «**نفح الطيب**»، وحررها ابن حزم رداً على رسالة تلقاها

---

(١) صدر عن دارالمعارف بالقاهرة بتحقيقنا، الطبعة الثانية اقاهرة ١٩٩٢ .

ابن عمه، **أبو المغيرة عبد الوهاب** بن أحمد بن عبد الرحمن ابن حزم، من أديب القيروان **ابن الربيب التميمي**، أبو على الحسن بن محمد بن أحمد، وربما كانت الأولى فى تاريخ الأدب الأندلسى، وأول محاولة للإشادة بأمجاده، ورغم قصرها جاءت شاملة بما ألف الأندلسيون فى صنوف الآداب والعلوم.

ولابن حزم مؤلفات أخرى، فلسفية وفقهية أو فى علم الكلام، أو التاريخ، أو الأدب الخالص، وأحيل القارئ بشأنها إلى الكتاب الذى أشرت إليه فى بداية الكلام.

• **فى مواجهة العواصف :**

أنجز **ابن حزم** هذا العمل العملاق وهو يواجه أعتى العواصف والأعاصير، هدفاً لكل ألوان الحقد والكراهية والتآمر، اضطهده صغار ملوك الطوائف، وكلهم صغار، واتهمه رجال الدين بالمروق، فلم تلن له عريكة، ولاوهن منه عزم، وبقى وحده، ومعه قلة مؤمنة صابرة من أصحابه وتلاميذه، يواجهون المحنة فى صلابة، جباهم عالية، وقامتهم مرتفعة، يحركون الأفكار الجامدة، وينيرون العقول المظلمة، ويهزون مسلمات كثيرة متخلفة، ومن هنا فإن الجانب الأكبر من مؤلفاته الفقهية والعقائدية وُلِدَ كلاماً يقال، جدلا عنيفاً مع خصومه، وإدانة صريحة لهم، وكانوا يتمتعون برعاية الدولة وحمايتها.

كان ابن حزم مجادلا لا يكل، جاد الكلمة، عنيف المناظرة، واحتفظ جانب كبير من إبداعه بحرارة الحوار وحدّته، وكان فى حيويته هذه، فى القرن الحادى عشر، مدرسية Scolastique ، حية ومتوهجة، تفوق «مدرسية» المسيحيين فى أوربا، وقد أفرغوا الحوار من محتواه، ودفعوا به جملا باردة، لا روح فيها، مماحكة خواء، ورغم أنها بداية من عصرها الثانى، مع الدم الجديد الذى تدفق إليها من الفلسفة الإسلامية عبر الأندلس، ومع **توماس الأكوينى**، شهدت فترة ازدهار وحياة، إلا أنها كانت تهم العلماء وحدهم، وقليلا ما تتجاوز آثارها قاعة البحث، أما فى قرطبة القرن الحادى عشر، فكانت تهم الجمهور كله، ويتابع صداها شغوفاً. لقد تميزت «مدرسية» قرطبة، بشدة الإيقاع، وأصالة المحتوى، وحرية المنهج، والدفء والتجدد والبساطة، ومشاركة عامة الناس على نحو ما.

لقد عاين **ابن حزم** من ألوان الظلم ما أنضب فى أعماقه معين الرقة واللين، وشاهد من مساءات السياسة ما نفّره منها، وأوذى فى نفسه وكرامته، فاعتزل الدنيا مُحاصَراً ووحيداً فى قريته **منت لشم**، من بادية **ولبة**، يواصل رسالته بنفس القوة التى بدأ بها حياته، شاباً واعداً ومناضلاً عنيداً «يبث علمه فيمن ينتابه بباديته تلك، من عامة المقتبسين منه، ومن أصاغر الطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة، يحدثهم ويفقههم ويدارسهم، ولا يدع المثابرة على المعلم، والمواظبة على التأليف، والإكثار من التصنيف، حتى كمل من مصنفاته فى فنون العلم وقر بعير. لم يعد أكثرها عتبة بابه، لتزهيد الفقهاء طلاب العلم فيها، حتى أحرق بعضها بإشبيلية، ومزقت علانية ولا يزيد مؤلفها ذلك إلا بصيرة فى نشرها، وجدالا للمعاند فيها، إلى أن مضى لسبيله».

فى رسالة **ابن حزم «فضائل أهل الأندلس»** فقرة كأنما عنى بها نفسه، رغم أنه كتب الرسالة فى زمن مبكر نسبياً، ولا يستطيع الدارس لحياته أن يمر بها دون أن يقف عندها. يقول: «أزهد الناس فى عالم أهله، وقرأت فى الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال: «لا يفقد النبى حرمته إلا فى بلده».. «ولا سيما أندلسنا، فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم، الماهر منهم، واستقلالهم كثير ما يأتى به، واستهجانهم حسناته، وتتبعهم سقطاته وعثراته، وأكثر ذلك مدة حياته، بأضعاف ما فى سائر البلاد. وإن أجاد قالوا: سارق مغير، ومنتحل مدع. وإن توسط قالوا: غث بارد، وضعيف ساقط. وإن باكر الحيازة لقصب السبق قالوا : متى كان هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفى أى زمان قرأ ؟ ولأمه الهبل !

«وبعد ذلك إن ولجت به الأقدار أحد طريقين، إما شفوفاً بائناً يعليه على نظرائه، أو سلوكاً فى غير السبيل التى عهدوها، فهناك حمى الوطيس على البائس، وصار غرضاً للأقوال، وهدفاً للمطالب، ونصباً للتسبب إليه، ونهباً للألسنة، وعرضة للتطرق إلى عرضه، وربما نحل ما لم يقل، وطوق ما لم يتقلد، وألحق به ما لم يفه به، ولا اعتقده قلبه، وبالحرى وهو السابق المبرز، إن لم يتعلق من السلطان بحظ، أن يسلم من المتالف، وينجو من المخالف. فإن تعرض لتأليف غُمِزَ ولمز، وتعرض وهمز، واشتط عليه، وعظم يسير خطبه، واستشنع هينَ سقطه، وذهبت محاسنه، وسترت فضائله، وهتف ونودى بما أغفل، فتنكسر لذلك همته، وتكل نفسه، وتبرد حميته، وهكذا عندنا نصيب من

ابتدأ يحوك شعرا، أو يعمل بعمل رياسة، فإنه لا يفلت من هذه الحبائل، ولا يتخلص من هذه النصب إلا الناهض الفائت، والمطفف المستولى على الأمد».

• **محافظون ومجددون :**

هذا الموقف من رجل كان أستاذ نفسه، حاد الذكاء، موسوعى الثقافة، صلب العزيمة بلا حدود، عنيف المواجهة دون مثال، لعب دوراً هاماً فى تطوير الفكر الأندلسى، وزعزعة المسلمات الأساسية للثقافة السائدة، والرسمية فى الوقت ذاته. لقد احتضن الأندلس حتى القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر الميلادى، لونين من الثقافة، يسيران فى خطين متوازيين دون أن يلتقيا: المحافظون وهم الكثرة الغالبة، والمتحررون، وكان المحافظون وأعنى بهم علماء المذهب المالكى السائد فى الأندلس، وقفوا بنشاطهم الثقافى عند حد التشريع العملى، لا يتجاوزونه إلى مشاكل الثقافة المتصلة بالعقيدة نفسها، واتهموا كل من يتعلم فى المنطق بالزيغ، وكل تفكير عقلى فى مسائل الدين بأنه زندقة. وكان الاتجاه الثانى بين قلة مثقفة، ولكنها لا تطمح، ولا ترى لها مصلحة فى مواجهة المحافظين أو الدخول معهم فى خصام، وارتضت لنفسها أن تقف منهم ساخرة ومتجاهلة.

وقد ظل المالكية حتى القرن السادس الهجرى يقاومون الأشعرية، ولكنهم تركوا الأرسطوطالية تتحرك فى حرية، وقد وصلنا كتاب **«تقويم الذهن» لأبى الصلت الدانى»**، أمية بن عبد العزيز، المتوفى عام ٥٢٨هـ = ١١٣٤م، وهو رسالة فى المنطق، وتوجز آراء **أرسطو**. وكان **ابن حزم** علماً فرداً، واتجاهاً متميزاً، ولم يكن مالكياً ولا أشعرياً، ولا زاهداً ولا أرسطوطاليسيا، بل واتهمه **ابن حيان** بأنه لم يفهم أرسطو، ومحدود الأتباع كظاهرى، ولكنه بذل جهداً فائق النظير، لكى يقيم جسراً بين العقيدة والمنطق.

ومهما يكن من أمر، فقد نضجت شخصية ابن حزم واستكمل عدته، ومكّنت له الأحداث من صقل مواهبه، وزادته اعتداداً بنفسه، فمضى فى طريقه، يتمرد على التقاليد القائمة، ويثور على الجمود الدينى، ويهاجم المذاهب المختلفة، فقهية وكلامية، مسلمين وغير مسلمين، مهاجمة عنيفة متصلة، كلما أتيحت له الفرصة، بالمناظرة فى المجالس، وبتأليف الكتب والرسائل، واتسم جدله بقوة الحجة، ونصاعة البيان، وقوة الدليل، ولكنه وقد ملك لساناً ذربا، مسلحاً باللغة المواتية، حتى قال عنه الصوفى الأندلسى **ابن العريف**: «لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان» لا يقف عند البيان والبرهان والإقناع، وإنما يحتد

فى أحايين كثيرة، فيتجاوزها إلى التسفيه والتكفير والتفسيق، وهى حدة تعود فى جانب منها إلى عصبية مزاجة، واعتلال صحته طفلا، ولا أراها مما يعاب عليه جملة، فهى تأتى منه غالباً فى موضعها، وقولة الحق تحتاج دائماً من المؤمن بها إلى صوت مرتفع لتوقظ نائماً، وتنبه غافلا. يقول عن نفسه:

«ولقد أصابتنى علة شديدة، ولّدت علىَّ ربوا فى الطحال شديداً، فولّد ذلك على من الضجر، وضيق الخلق، وقلة الصبر والنزق، أمراً حاسبت نفسى فيه، إذ أنكرت تبدل خلقى، واشتد عجبى من مفارقتى لطبعى، وصح عندى أن الطحال موضع الفرح إذا فسد تولد ضده».

وهكذا انصدع ما بين ابن حزم وعلماء عصره، وكان منه ما أسماه ابن حيان «أنه يجهل سياسة العلم»، وجعلها مصدر معظم أخطائه. ونحن نكتب عن حياة عظيم مرت على وفاته أكثر من ألف عام، وعاش فى بيئة جد مختلفة، يستحيل علينا أن نجزم، أو حتى نرجح، ما كان عليه أن يتبعه من سياسة فى ملاقاة معاصرية.

• مناظرات وملاحقة :

لا نعرف كما أشرنا من قبل، شئياً دقيقاً وموثقاً عن الأعوام الأخيرة من حياة ابن حزم، نعم، نعرف أنه أصبح مثقفاً عنيداً، أخا سفر، جوّاب آفاق، يتنقل بين دول الطوائف المختلفة، يحاور العلماء، ويجادل الفقهاء، ويناظر أهل الكتاب، وفى عنف دائماً، كما هى عادته، صنع ذلك فى قرطبة والمرية وطليرة وميورقة، وربما فى مدن أخرى لم يصلنا خبرها. وفى **ميورقة** وجاءها لاجئاً بعد عام ٤٣٠هـ = ١٠٣٩م، وجد الحماية والتقدير فى شخص عاملها الوزير الكاتب أبى العباس، **أحمد بن رشيق**، وكان مولى لبنى شهيد، وتأدب فى قرطبة. ووجد أيضاً مزاحمة شديدة فى شخص قرطبى آخر مثله، أصغر منه سناً، **أبو الوليد الباجى** من كبار فقهاء المالكية، وكان قد رحل إلى المشرق، ولبث فى رحلته هذه ثلاثة عشر عاماً، لقى فيها كبار العلماء فى الفقه والحديث وعلم الكلام، «فبرع فى الحديث وعلله ورجاله، وفى الفقه وغوامضة وخلافه، وفى الكلام ومضايقه»، وكان إلى هذا، كابن حزم، أديباً يقول الشعر، ويحسن تدبيج الكلام.

ولما عاد من رحلته وجد **ابن حزم** مجادلا، وصاحب مذهب متميز، تسد شهرته الأفق، وخصومه من الفقهاء وغيرهم ضائقون به أشد الضيق، وعاجزون عن ملاقاته أبلغ

العجز، ففرحوا بمقدم **أبى الوليد الباجى** إلى **ميورقة**، وأثاروه على ابن حزم، رغم ما بين الرجلين من إعجاب متبادل، وانعقدت بينهما المناظرات فى الفقه، وفى علم الكلام أيضاً، وكان أبو الوليد مقدم الأشاعرة فى الأندلس، وابن حزم خصما لدوداً لهم، وليس ثمة شك فى أن ابن حزم وجد فى مناظره لوناً جديداً من العلماء لم يعهده من قبل، وسوف يعترف فيما بعد، فى رسالته عن «فضائل أهل الأندلس»: «لو لم يكن لأصحاب المذهب المالكى، بعد عبد الوهاب، إلا مثل أبى الوليد لكفاهم».

لم يتوقف الذين عجزوا يوماً غن مواجهة ابن حزم فى ساحة الجدل والمناظرة عن الكيد له، والدس عليه، عند سلطات الجزيرة، فلم يجد بداً من تركها، وما من أحد فى ملوك الطوائف يرغب فى أن يستضيف بأرضه عالماً مزعجاً، لا بسبب آرائه الدينية فحسب، وإنما لاتجاهاته السياسية أيضاً، فقد ظل **ابن حزم** متمسكاً بشرعية الخلافة الأموية، لم يتزحزح عن رأيه أبداً، حتى عندما أصبحت نظرية مجردة لا صلة لها بالواقع، ولا مطمح أن تعود، ولكنه لم يشارك فى اللعبة السياسية المعقدة التى كانت تجرى على أيامه هذه، ولم يحتضن فكر أية جماعة معارضة، وفى رسالته **التلخيص لوجوه التخليص**، وجاءت رداً على سائل يطلب الرأى عنده فى قضايا كثيرة، منها سؤال عن الموقف الذى يجب على المرء أن يتبعه «من أمر هذه الفتنة، وملابسة الناس بها، مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض»، وكانت إجابة ابن حزم: «فالمخلص لنا فيها الإمساك للألسنة جملة واحدة إلا عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وذم جميعهم، فمن عجز منا عن ذلك رجوت أن تكون التقية تسعه»، ولقد ذم ملوك الطوائف جميعهم فى رسالته هذه، وحمل عليهم فى غير هوادة: «وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن فى شىء من أندلسنا هذه، أولها عن آخرها، محارب لله تعالى ورسوله وساع فى الأرض بفساد، والذى ترونه عياناً من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التى تكون فى ملك من ضارهم، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التى يقضون على أهلها، ضاربون المكوس والجزية على رقاب المسلمين، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين فى أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله». ونحن «نراهم يستمدون النصارى فيمكنوهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى إلى بلادهم»، «وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً، فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس، لعن الله جميعهم، وسلط عليهم سيفاً من سيوفه».

ولم يرحم طائفة من الفقهاء على أيامه، وعلى أياً منا أيضاً، فتاواهم معدة، وأقلامهم مشرعة، يدعمون بها الطغاة خوفاً، ويبررون لهم المظالم طمعاً، ويسبحون بحمد الحاكم ملقا، ويشغلون عامة الناس عن الجاد من أمور الدنيا، بغير العاجل من شئون الآخرة، «فلا تغالطوا أنفسكم، ولا يغرنكم الفسّاق والمنتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، المزينون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم».

وأقسى هجوم خص به ملكا من الطوائف، كان موجهاً ضد **أمير غرناطة، باديس ابن حبوس** الذكى الدموى الداهية، رأس البربر، وخليفة زاوى بن حبوس الذى قضى على محاولة **المرتضى**، على نحو ما أشرنا، وأخذ **ابن حزم** سجينا، ذلك أن **باديس** جمع فساد بقية ملوك الطوائف وزاد عليه بأن اتخذ وزيره الأول، ومستشاره الأمين، من **اليهود، ابن النغريلة** الشهير الذى مكن لأبناء قومه من رقاب المسلمين، فسيطروا بعون منه على الاقتصاد والإدارة، ثم أخذته العزة بالإثم «فألف كتاباً قصد فيه، بزعمه، إلى إبانة تناقض كلام الله عز وجل فى القرآن اغتراراً بالله تعالى أولا، ثم بملك ضعفة ثانياً، واستخفافاً بأهل الدين بدءاً، ثم بأهل الرياسة فى مجانة عوداً». وقد رد عليه **ابن حزم** قوياً وعنيفاً فى رسالته: **«الرد على ابن النغريلة اليهودى»**، فنقض آراءه، وفنّد حججه، وبين مساوىء قومه، وأراد لصوته أن يكون عالياً وقاسياً ليبلغ ملك غرناطة، ودون أن يذكره بالاسم حمل عليه ناقداً ومهدداً ومستنهضاً: **«إن أملى** لقوى، وإن رجائى مستحكم، فى أن يكون الله تعالى يسلط على من قرب اليهود وأدناهم، وجعلهم بطانة وخاصة، ما سلط على اليهود، وهو يسمع كلام الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم». «وإن من فعل ذلك لحرى أن يشاركهم فيما أوعد الله تعالى فى توراتهم، فى السفر الخامس، إذ يقول لهم تعالى: «سآتيكم، وستأتى عليكم، هذه اللعنة التى أصف لكم، فتكونون ملعونين فى مدائنكم وفدادينكم، وتلعن أجدادكم وبقاياكم، ويكون نسلكم ملعوناً، وتكون اللعنة على الداخل منكم والخارج».

هل قنع ابن حزم بهجومه ؟

فى كتاب **«الذخيرة» لابن بسام**، فقرة مثيرة، نقلها عن المؤرخ القرطبى العظيم **ابن حيان**، جاءت خلال حديثه عن الهزيمة المريعة التى أوقعها **باديس ابن حبوس**، أمير

غرناطة، **بزهير الصقلبي أمير المرية** وفيها أن باديس ظهر على قوم من وجوه رجال زهير، فعجل على الفرسان والقواد بالقتل، واشتمل الأسار على حملة الأقلام، وفيهم وزيره التياه **أحمد بن عباس** الجارّ لهذه الحادثة، قيد إلى باديس وصدره وصدور أصحابه تغلى عليه، بما أوقد من هذه النائرة، فأمر بحبسه ليستخرج منه مالا، وشفاؤه الولوغ فى دمه، وعجل عليه بعد دون أصحابه من حملة الأقلام، عف باديس عن دمائهم من بين أصحاب السيوف إلا من أصيب منهم فى الحرب، وأطلق ابن حزم والباجى وغيرهما». ويرى غرسية غومث أن الإشارة هنا تنصرف إلى ابن حزم صاحبنا، وقد ارتبط بالمرية دائماً، ولعله أراد أن يثأر لأسره الأول فوقع فى الأسر الثانى، وكان برفقة أبى الوليد الباجى، مناظره اللدود والعنيد فى مناظرات ميورقة. بينما يرى الأستاذ الجليل، الدكتور طه الحاجرى، فى كتابه «ابن حزم صورة أندلسية» وقد وقع على النص قبل أن تقع عليه عين المستشرق الإسبانى، والتفت إليه، أنها تنصرف إلى أبى المغيرة.

كان عداء ابن حزم لباديس أمير غرناطة، ورأس البربر فى الأندلس، عنيفاً وحاداً وله ما يبرره، ولكنه لم يلق به، وهو رجل مبدأ لا يحيد عنه، فى أحضان الحزب المعارض لباديس، وهم **بنو عباد فى إشبيلية**، مع ما كانوا عليه من سخاء وترف بعامة، ومع رجال الفكر بخاصة. وكانوا بحق، قادة الجانب العربى فى معركة التزاحم بين الأجناس المختلفة، وسادة المنطقة التى استقر فيها بيت آل حزم من قديم، وبها تراثهم وديارهم، ورغم ذلك كله، أدار لهم ابن حزم ظهره، إنه صلب العقيدة، طاهر السيرة، يرى الخلافة شرعة، وفى بنى أمية شرعاً، لا يساوم ولا يتراجع ولا يتأول، ولا يرتضى أنصاف الحلول، وكان **المعتضد أمير إشبيلية**، وحكم من ١٠٤٢م إلى ١٠٦٩م، كقرينه أمير غرناطة، دموياً قاسياً يأخذ بالظنة، ويخفر الذمة، ويبلغ فى المثلة، فلم «يثبت له قائم ولا حصيد ولا سلم عليه قريب ولا بعيد»، ولا بد أن رأى ابن حزم فيه كان كرأيه فى باديس. ونجهل التاريخ أو الظروف التى أمر فيها أمير إشبيلية بتمزيق كتب ابن حزم، وحرقها علانية، وفيها نظم ابن حزم أبياته الشهيرة عندما بلغه أمرها، والتقطها كل الذين أرخوا له:

دعونى من إحراق رق وكاغدٍ	وقولوا بعلمٍ كى يرى الناسُ من يدرى
فإنْ تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذى	تَضمّنه القرطاسُ، بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلّت ركائبى	وينزلُ إنْ أنزلْ ويدفنُ فى قبرى

• **هزيمة دون كيشوتة :**

وحيداً ضد الجميع، وضد كل شيء، وأشد مرارة وتشاؤماً من مواطنه كيشوتة الإسبانى، بطل رواية سرفانتيس الشهيرة، وعاش على الأرض نفسها، بعده بخمسة قرون، وذهب كلاهما ضحية أحلامه، وقد حدد لنا ابن حزم منهجه فى كتابه «**الأخلاق والسير فى مداواة النفوس**»: «لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها، وليس ذلك إلا فى ذات الله عز وجل وفى دعاء إلى حق، وفى حماية الحريم، وفى دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالى، وفى نصر مظلوم، وباذل نفسه فى عرض الدنيا كبائع الياقوت بالحصى». و«إنى لا أبالى فيما أعتقده حقاً من مخالفة من خالفته، ولو أنهم جميع من على ظهر الأرض، وإنى لا أبالى موافقة أهل بلادى فى كثير من زيهم الذين قد تعودوه لغير معنى، فهذه الخصلة عندى من أكبر فضائلى التى لا مثيل لها».

لقد دافع عن الإسلام الحق بعنف، عقيدة وسلوكاً ومنهجاً فى الحياة. ودعا إلى سلامة الباطن، وخلوص النية، واستقامة العمل، وناضل عما يؤمن به دون هوادة، وفى كل مكان، وأثار على أعدائه حرباً شعواء متصلة. دافع عن الإسلام فى وطنه بين أهله، وبعيداً عنه خارج حدوده بالموعظة الناصحة، والشروح الكاشفة، والمواجهة الحاسمة عند الضرورة، حين نظم نقفور فوكاس إمبراطور بيزنطة، مزهوا بانتصاراته، قصيدة ذم فيها الإسلام، وبعثها إلى الخليفة المطيع فى بغداد، تولى ابن حزم الرد عليه، بقصيدة أبان فيها فضائل الإسلام، وكشف عن تناقضات المسيحية، وأرسلها إليه، وأورد لنا السبكى نصها فى كتابه «طبقات الشافعية».

وظل حتى آخر رمق من حياته يدافع عن شرعية الخلافة الأموية فى الأندلس، وقد اختفت إلى الأبد، وشديد القناعة بأن «نوار الفتنة لا يعقد»، وكان يحس بأنه لم يخلق لعصر الطوائف، وظل يبشر بمذهبه الظاهرى وسط المتاعب والصعاب، وفى مواجهة الجميع، ويقاوم نفوذ اليهود وسيطرتهم على الاقتصاد والسياسة، على نحو ما فعل مواطنه **أبو إسحاق الإلبيرى**، وكان شاعراً وفقيهاً، ودفع بقصيدته الرائعة مسلمى غرناطة موطنه، إلى الثورة على مظالم يهودها، فانتقموا منهم، وأتوا على نفوذهم، فى يوم عاصف مريع[١].

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن نضال أبى إسحاق الإلبيرى ضد يهود غرناطة، يمكن العودة إلى «القصيدة التى فجرت ثورة» فى كتابنا: دراسات أندلسية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠ .

وانتهى المطاف بابن حزم وحيداً، فكراً وإحساساً ورفقة، شبحاً لعصر مضى، وكان عليه أن ينسحب إلى ديارهم الأولى فى قرية منت لشم، من وديان ولبة، فى تاريخ نجهله لسوء الحظ، رفقة أولاده فحسب، ولم يحدثنا عن أسرته القريبة أبداً، فى كل ما كتب، ومع عدد قليل للغاية من تلاميذه الأوفياء.

أية مشاعر حزينة كانت تغمره، وهو يعود إلى قريته فى الريف مهزوماً، مغلوباً على أمره، قريته التى خرج منها جده قبل جيلين فقط، مغموراً ينتسب فى أسرة اعتنقت الإسلام من قريب، وصنع لها والده مجداً مؤثلا، يومها كتب فى **«الأخلاق والسير»**: «أشبه ما رأيت بالدنيا خيال الظل، وهى تماثيل مركبة على مطحنة خشب تدار بسرعة فتغيب طائفة وتبدو أخرى» ولم يتوقف هناك عن العمل، مضى فى قريته يؤلف كتبه، ويحرر رسائله، ولو أنها على حد تعبير **ابن حيان**: «لا تتجاوز عتبة داره»، وأوضحها كتابه «الأخلاق والسير فى مداواة النفوس». وهو سلسلة من الاعترافات سجلها وله من العمر ٦٩ عاماً شمسياً، أو ٧٢ عاماً قمرياً، وتوفى يرحمه الله فى ٢٨ من شعبان ٤٥٦هـ= ١٥ من يولية ١٠٦٣م :

كأنك بالزوّار لى قد تنادروا — وقيل لهم أودى علىُّ بنُ أحمد
فياربَّ محزونٍ هناك وضاحكٍ — وكم أدمعٍ تذرى وخدٍ مخدّد
عفا الله عنى يوم أرحلُ ظاعناً — عن الأهل محمولا إلى بطن ملحد
وأتركُ ما قد كنت مغتبطاً به — وألقى الذى آنستُ دهرا بمرصد
فواراحتى إن كان زادى مقدَّماً — ويانَصبى إنْ كنتُ لم أتزود

- **تلاقى النقيضين :**

درج الباحثون على تقسيم حياة **ابن حزم** الأدبية إلى مرحلتين هما، فيما يرى **أسين بلاثيوس**: «واحدة حتى الثلاثين من عمره، والأخرى منهما حتى موته». وفى الأولى وقف حياته على الأدب والسياسة، وفى الثانية ترك السياسة ليتفرغ لدراسة الشريعة والعقائد، وهى تفرقة يمكن أن تكون مقبولة كتبسيط نظرى فحسب، لأن المرحلتين تعايشا واقعاً على امتداد حياته ولهذا ألقينا على حياة ابن حزم كلها نظرة شاملة، ودون

ذلك ليس ثمة مجال لالتقاط نفسيته شاباً، ومعرفة الكثير من إشارات طوق الحمامة، وإدراك عدد من فقراته يتوقف على الإلمام بها.

ويرى **غرسية غومث**، ودون أن أمضى معه إلى نهاية الطريق، أن تلاقى الأضداد فى شخصية ابن حزم، وازدواجية الصوت عنده، وتجاور اللطف والخشونة، والرقة والعنف، والنبل والعامية، دون أن يذوب أحدها فى الآخر، يجعل منه شخصية محببة لنا (الضمير يعود على الإسبان)، لأنها تضعه إلى جوار عدد من قمم الأدب الإسبانى فى عصره الذهبى، أولئك الذين يتجلى فيهم مزاج الشخصية الإيبرية واضحاً، مثل الشاعر القرطبى **جونجرة** Gongora (١٥٦١-١٦٢٧)، والموسوعى **كيبدو** Quevedo(١٥٨٠-١٦٤٥)، ونستطيع أن نذكر آخرين كثيرين، ليس بينهم ثرفانتيس مؤلف الرواية العالمية الخالدة دون كيخوته وأعطانا المثل رائعاً، ولا يتكرر، كيف تلتقى متناقضات سلالتنا الجذرية فى تركيب إنسانى ومفهوم، حلو وحزين، وإلى ذلك، وفى خط مواز له، يمكن أن نضيف الشموخ الإسبانى، وأعطانا ابن حزم خلاصته فى بيت شعرى ينضح خيلاء، وفى مرات كثيرة اتخذت منه رمزا للإسلام الإسبانى:

أنا الشمس فى جوِّ العلومِ منيرة   ولكنَّ عيبى أنَّ مطلعىَ الغـــرب

- **ثائر على الدوام** :

كان ابن حزم متمردًا وثائرًا فى شبيبته الأدبية، وفى شيخوخته العلمية، وحتى آخر رمق من حياته، مع ظلال مختلفة، توائم كل فترة، وقليلون سبقوه فى أفكاره، وأقل أولئك الذين ساروا بعده على طريقه، وحتى أبناؤه أنفسهم كانوا عاديين، وتخلصوا من نير الأدب، والتصقوا بعصرهم، وأشهرهم **الفضل أبو رافع**، وأصبح وزيراً لبنى عباد فى إشبيلية، وشاعرهم المدّاح، ولشدّ ما كرههم أبوه!، واستشهد فى معركة الزلاقة وفيها انتصر المرابطون، وثأروا لهزيمة المسلمين فى طليطلة، ولقد تبعه إلى قريته عدد قليل من الطلاب، ولكن المدرسة الظاهرية، وتحديد أسين بلاثيوس لها فى دراسته لابن حزم لا يعلى عليه، ظلت موضع الملاحقة حتى فى الغرب، لم يبق لها غير حياتها الذاتية بالكاد. وأما الثناء النسبى الذى حظى به ابن حزم فى عصر الموحدين، والتقدير الذى حظى به من علماء عباقرة، كالغزالى، وابن عربى، وابن رشد، فيعود أكثره إلى ظروف

سلبية «كمعارضتهم لفقهاء المالكية، أو إلى توافقات عقلية فى المقام الأول، أكثر مما يعود إلى تقبلهم لآراء ابن حزم، وشق عليهم من بينها مناهضته العنيفة للأشعرية. والحق أن معظم الدارسين على أيامه، وبعدها، حاول أن يرسل به إلى زوايا النسيان، لأنه هاجم الجميع، ولم يقف بهجومه عند المسلمين، لقد هاجم، وبعنف كالعادة، اليهود والمسيحيين، واستطاع هؤلاء فيما بعد أن يردوا له الصاع صاعين حين مضى إلى رحاب الله، وبدأ عصر الترجمة فى الأندلس المسيحى، فلم يأخذ اسمه طريقه إلى أوربا فى تلك الفترة، ولم يصبح فى قامة علماء كانوا دونه، كابن رشد وموسى بن ميمون، فخفت اسمه، وتلاشت سيرته، وظلت مؤلفاته تحت الأرض لا يعرفها إلا عدد قليل للغاية، وظل كذلك إلى أن اخترعت المطبعة العربية، وازدهر عصر الاستشراق، وأفلتت الدراسات الأندلسية فى إسبانيا من قبضة التعصب، واستردت القاهرة قيادتها الثقافية للعالم العربى.

وإنه لمثير حقًا، أن العداوة البالغة، لهذه الشخصية العملاقة فى تاريخ الأدب الأندلسى، أسهم فيها رجال الدين المتخلفون فى العالم الإسلامى المعاصر واضطلع بالجانب الأكبر منها العلم الأوربى، واشترك فيها عدد غير قليل من الإسبان، فظل اسم ابن حزم موضع جدل كبير ونقاش حاد، ولكن أحدا لم يستطع أن يشجبه أبدا. وعلى الرغم من كل شىء تقاسمته ألقاب جليلة وكريمة: أحسن شاعر، وأحسن فيلسوف، وأحسن متكلم، يثق فيه علماء البلاغة، ويجله رجال الأدب، ويحترمه المثقفون.

كان واحدا من أعظم عمالقة الفكر الإنسانى على امتداد تاريخه الطويل!

فتنة البربر

قُدِّر لابن حزم أن يشهد غروب شمس الخلافة، وأن يشهد مع غروبها ألوانًا من الانهيار السياسى والخلقى، ومن المظالم والجور، ما لا مثيل له، وأن يعيش سنوات حُمِّلت من الخيانة والهوان والأحزان والأدران، فوق ما حملته حياة المصريين قبل ومع هزيمة ٥ يونية من عام ١٩٦٧م. ولا يمكن فهم إبداعه وما ينضح به، ولا أسلوبه وما اتصف به من حدة، ولا مرمى فلسفته واتجاه أبحاثه، ولا مثله العليا وطباعه ومزاجه، إلا إذا أدركنا حقيقة تلك الأيام، وكانت أقسى مما خط أى مؤرخ، وأشد هولا من تصوير أى خيال، وهى أحداث دخلت التاريخ تحت اسم: فتنة البربر أو البرابر، وشغلت الربع الأول من القرن الحادى عشر الميلادى، وقد عرضنا لها من قبل إشارة وإجمالا عند دراستنا لحياة ابن حزم، ما اتصل منها بنشاطه السياسى، وما أسهم فيه رأيًا وتدبيرًا وعملاً. ونأتى الآن على هذه الأحداث، من البدء وتفصيلا.

- **من الخلافة إلى الحجابة :**

ورث **عبد الرحمن الناصر** عندما تولى الإمارة عام ٩١٢م دولة تحكمها الفوضى والحروب الأهلية، مزقتها الفتنة والفرقة، موزعة بين عدد من الرؤساء ينتمون إلى مختلف العناصر، فتخطى الصعاب وتغلب على المشكلات، وجعل منها خلافة، عام ٩٢٦م، لها من السلطان والقوة، والغنى والثروة، والترف والحضارة، والعلم والثقافة، ومن المهابة والخوف عند جيرانها، مالم تبلغه يومًا قبله ولا من بعد.

وبعد أيام مجيدة، امتدت حتى بلغت ٤٩ عامًا، ما بين إمارة وخلافة، توفى الناصر فى ١٦ أكتوبر عام ٩٦١م، وخلفه ابنه الحكم الثانى، بوصاة منه، وتميز بثقافة واسعة، لا يجاريه فيها واحد من أسلافه، مكتبته أحب مكان إليه فى قصره، ومجالسة العلماء والأدباء أقرب إلى قلبه من حوار القواد وحديث الحروب، فازدهرت الثقافة على أيامه، واتسع قلبه لعامة شعبه، فكان ودودا رحيما محبًا للسلام. وعلى أيامه بدأ ينمو حوله ما نسميه فى أيامنا بمراكز القوى، من خصيان وصقالبة وجوار، وعرب وبربر ومولدين، ويهود وآخرين. وعندما لفظ آخر أنفاسه فى ٥ من فبراير عام ٩٧٦م، لم يكن حوله

غير الخصيين **فائق وجؤذر**، وفيما عداهما كانت قرطبة، والأندلس بأسره، يجهل أن الخليفة قد رحل إلى جوار الله. واحتفظا بالسر إلى أن يختارا الجماعة التي ينضمان إليها، وكان هذان الخصيان غليظين، في خلقهما ذعارة، وفي سلوكهما جفوة، وطالما شكا الناس منهما.

وكان **الحكم الثاني** قد أخذ البيعة، في العام الذي توفي فيه، لابنه **هشام** وليًا للعهد من بعده، فبويع بالخلافة بعد كثير من المؤامرات والدسائس ولكنه كان طري السن، ضعيف العقل، محدود الذكاء، خور العزيمة، فأخذ الأقوياء من حوله يتقاتلون على السلطة، وكان الفوز حليف فتى عربي من الأزد، دخل القصر موظفًا بسيطًا، وما لبث أن استرعى أنظار السيدة **صبح** زوجة الحكم الثاني، وأم الخليفة هشام الثاني، جارية من الباسك اسمها في لغتها Aurora ، ذكية وطموح، قوية الشخصية، وذات تأثير بالغ على الخليفة، فاختاره قائمًا على أموالها، بعد أن أعجبت به فكرًا ومظهرًا، بين آخرين كثيرين تقدموا للوظيفة، وتوثقت الصلة بينهما فتجاوزت الوظائف والأموال، لتصبح علاقة حب، عميق وحنون.

كانت **صبح** وراء **المنصور** في بدء حياته، رأيًا ودعمًا ومالاً، لكي يصرع في طريقه إلى السلطة خصومه الأقوياء واحدا وراء آخر، حتى أصبح حاجب الخليفة، أو رئيس الوزراء في لغتنا المعاصرة. وحقق بغيته كاملة حين أرسل بالخليفة ابنها، غضًا وطريًا، عديم الخبرة والتجربة، إلى عالم النسيان، داخل قصر في ضواحي العاصمة، لا يزور ولا يزار إلا بإذن من رئيس الوزراء، وقلة من الناس في العاصمة تعرفه اسمًا أو شخصًا، ومع ذلك فالجميع يحبونه ويوقرونه، لأنه رمز الدولة والسلطة الشرعية فيها ولأن الخليفة العظيم: الحكم الثاني. وقد دفع المنصور في طريقه إلى السلطة الثمن غاليًا، تجاوز ذكرياته مع صبح وعارضها، وأعدم ابنا له تآمر عليه. والحق أن المنصور، رغم أخطائه العديدة، ومنها ما سار فيه على خطى الناصر، من اتخاذ البربر والصقالبة، والمأجورين والمرتزقة، وإقصاء العرب، أعطى الأندلس ما أعطاه لها عبد الرحمن الناصر قبله، من الهدوء والوحدة، والثراء والهيبة، مما تجاوز الأمم المجاورة وبلغ الخافقين.

وفي ربيع عام ١٠٠٢م قام المنصور بآخر حملة حربية له، وكانت غاية أمانيه أن يموت مجاهدا، ويحس في أعماقه بأن رغبته سوف تتحقق يومًا، ومن ثم فهو يحمل معه دوامًا كفنه، وقد خاطته بناته، واشتراه من حر ماله، مال جاءه إرثًا من أرضهم

القديمة، وكان يرى أن بقية ثروته وما يملك ويقبض من راتب يختلط فيها الحلال بالحرام، ويحمل معه التراب الذى تجمع على ملابسه فى غزواته، ليدفن معه، فلا يدخل النار من أغبرت قدماه جهادا فى سبيل الله. وفى **مدينة سالم توفى**، فى ١٠ من أغسطس عام ١٠٠٢م، وفيها دفن عملا بوصيته: أن يدفن حيث يموت[١].

وقد ولى ابنه **عبد الملك** الحجابة، أو إن شئت الحكم، من بعده، وعلى عادة الخلفاء اتخذ **المظفر** لقبا له، وواصل سياسة والده، ولكن الأندلس كان يشهد تغيرًا جذريًا فى حياته، لقد حل الصراع الطبقى محل الصراع العنصرى، وظهرت اتجاهات جديدة فى الدين والسياسة، وطفت على السطح الظواهر العامة التى تسبق أية ثورة ظهرت قديمًا، أو حتى فى أيامنا هذه، والتى ستودى بالخلافة بعد قليل: سخط عام وعميق، وفساد حقيقى يمتد واقعًا أو تصوّرا إلى الطبقة الحاكمة، وثروات ضخمة تظهر فجأة دون مقدمات، ولا يملك أصحابها من المؤهلات أو رأس المال شيئًا، إلا صلات مريبة بالحكام، أو من يتصل بهم من زوجات وبنين وبنات وموظفين، وشيوع من يحكمون فى الظلام، أو من وراء ستار، أو بالتعبير السياسى الحديث، أولئك الذينيحكمون وليسوا مسئولين لا دستورًا ولا عرفًا، ومكاسب قليلة، براقة وخادعة، تسكر الحاكم، وتذهب بعقله، وتغرس فيه الغرور بدل التأمل، ومحاولات غير جادة وفاشلة لوقف ذلك كله. ثم تنفجر الأرض عن تنظيم سياسى خفى، يأتى ينظام جديد غير متوقع لأولئكم الذين يفكرون فى التغيير أو قاموا به.

- **المهدى يتولى الخلافة ويقضى على العامريين :**

ولم تطل أيام **المظفر**، شهد طلائع الثورة، وإمارات التغير، ورحل فى زهرة شبابه قبل أن يطحنه ثقلها، عام ١٠٠٨م، وقدر لأخيه **عبد الرحمن الملقب بشنجول**، وأمه من الباسك مثل هشام الثانى، أن يتولى الحجابة فى سن طرية، لا يتجاوز العشرين عامًا، ويفتقد كل الخصائص والمزايا التى كانت لأبيه أو أخيه من قبل، وربما لهذا أقدم على مالم يقدم عليه واحد منهما: حدثته نفسه بأن يصبح ولى عهد الخليفة هشام الثانى، وتحدث بهذا لخاصته، فأثارت محاولته بنى أمية، وعامة أهل قرطبة، فانتهز أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر، ويدعى محمد بن هشام **بن عبد الجبار**، وكان **المظفر** قد قتل

(١) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة ص ٨٩ ، هامش رقم ١١ بتحقيقنا الطبعة الرابعة دار المعارف ١٩٨٥.

والده، فرصة أن **عبد الرحمن شنجول** فى غزوة ضد ألفونسو الخامس ملك ليون، فقاد ثورة استولى بها على قصر الخلافة، وفى مواجهة الأحداث، وليحتفظ هشام الثانى بحياته، أقال عبد الرحمن شنجول من الحجابة، وتنازل عن حقه فى الخلافة، ووليها محمد، واتخذ لنفسه لقب **المهدى بالله**، ولما بلغ الخبر عبد الرحمن «قفل إلى الحضرة مدلا بمكانه، زعيما بنفسه، حتى إذا قرب من الحضرة تسلل عنه الناس، من الجند ووجوه البربر ولحقوا بقرطبة، وبايعوا المهدى»، ثم اعترضه منهم، من قبض عليه، واحتز رأسه، فى ٤ من مارس ١٠٠٩م، وحمله إلى المهدى، فصلب وإلى جواره قائد حرسه يلعنه ويلعن نفسه، وذهبت دولة العامريين:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولـــم يسمر بمكة ســـامر

سعدت قرطبة بالنصر الأموى، وكانت العامة أكبر سعادة، رأت فيه، وهى أشد اندفاعًا نحو الغضب أو البهجة، طريقًا أفضل، نحو غد أسعد، على حين تحفظت الطبقة الوسطى، وقد أحست بآلام ونتائج الثورة، قبل أن تقف بجانبها، وربما راودها أن طغيان العامريين، وأعطى الازدهار الاقتصادى والمجد العسكرى، أفضل بكثير من الفوضى، ومن حكم هؤلاء الجند المستبدين، يثقلون عواتقهم بالضرائب والمظالم.

وإذا كان المهدى قادرا على أن يأمر بالنهب، فقد كان غير قادر على منعه، ولما كان يتوقع ما سيحدث فقد أمر بنقل الأشياء الثمينة من مدينة **الزاهرة** مقر العامريين إلى قرطبة، ولكن الخبثاء سبقوه ونهبوا كل ما فى القصور وما حولها حتى الأبواب، على امتداد أربعة أيام كاملة، ولم يستطع الخليفة أن يصنع شيئًا لوقف النهب، أو لم يجرؤ فى الحقيقة، وقد تردد قليلا، ثم اندفع يأخذ بحظه من الغنائم، ورغم أن الجماهير سبقته إليها، كان نصيبه منها كثيرا: مليونًا ونصف مليون دنانير من الذهب، ومليونين ومائة ألف دراهم من الفضة، وبعد ذلك بزمن عثر على صناديق فيها مائتا ألف دينار ذهبى، وعندما أفرغت القصور من محتوياتها أضرمت فيها النيران، وعادت المدينة الجميلة كومة من الخرائب والأنقاض.

ولم ترد الجماهير، وهى التى صنعت الثورة، أن يكون حكامها من القواد القدامى، أولئك الذين كانوا من شيعة المنصور وجنده، فجاء محمد **المهدى** بقواد من الشعب،

من الطبقة الوسطى، أطباء ونساجين وجزارين وسراجين، وبدا الأندلس بلدًا ديمقراطيًا لأول مرة فى تاريخه، لقد أفلتت السلطة من يد العامريين ومن طبقة الخاصة على السواء.

وفى البدء بدا كل شىء وكأنه يسير تبعًا لرغبة المهدى، لقد رفعه شعب قرطبة إلى الخلافة، واعترف به البربر، وتلقى رسالة ولاء من واضح أقوى الصقالية، وحاكم الثغر الأدنى، ولما تمض على مصرع عبد الرحمن شنجول غير خمسة أيام، ولم يكن المهدى يتوقع منه ولاء سريعًا، لأن واضحًا يدين بمركزه وثروته للمنصور بن أبى عامر، والد عبد الرحمن، ولهذا أسرع المهدى فالتقط القفاز، وأرسل إليه أموالا، وملابس شرف، وجوادا، وبراءة بتوليته على كل الثغور.

والتفت كل الجماعات، فى الظاهر على الأقل، حول الحكومة منذ اللحظة الأولى، ولو أن الإجماع واقعًا أقل قوة وتماسكًا مما يبدو للعيان، كان تيار الثورة يندفع من وراء ظهر السلطة، فقد أدرك الناس سريعًا أن ذهاب العامريين لا يعنى أن الأمور استقرت، والمظالم انتهت، والمفاسد توقفت، وليس ثمة ما يُشتكى منه فى ظل الحكم الجديد. ولم يكن المهدى يتمتع بالذكاء أو الفضيلة، قاس ودموى وأحمق وغارق فى الملذات، وزاد فأخرج العامريين من قرطبة، وفصل أعدادا كبيرة من العمال واستغنى عن خدمات جمع كبير من الصقالبة، وأغضب الأتقياء لأنه قل ما يخرج من القصر، وفيه يمارس نزواته، واشتدت ثورة هؤلاء حين علموا أنه يقيم حفلات ساهرة، يبلغ الموسيقيون فيها مائة، ما بين عازف على العود أو الناى، صنيع شنجول من قبل، وهو ما بغّض الناس فيه. وأطلقوا عليه اسم «السكير»، واتهموه بأنه خرب البيوت، ومزق الأسر، ونهب الممتلكات، مثل ما كان يفعل سابقوه، وهكذا بدأ يدفع بالرأى العام كله إلى صفوف المعارضة.

لقد أصبح ضده الشعب والصقالبة والأتقياء، وكل الناس الطيبين، ولم يصنع شيئًا يستبقى به البربر، واختاروا جانبه بإرادتهم ، ولم يكن لهم فى الجانب الآخر مكان، لأن سكان العاصمة يكرهونهم من الأعماق، ولم ينسوا لهم أبدا أنهم كانوا العمد التى قام عليها الطغيان العامرى، ولولا مالهم من العصبية لاستأصلهم الناس. وأمرهم المهدى، ربما تملّقا لسكان قرطبة، ألا يركبوا ولا يتسلحوا، ورد بعض رؤسائهم عن باب القصر، ولم يكن ذلك حالهم فى ماضى الأيام. وأحس البربر، رغم قوتهم، أنهم لم يعودوا يمثلون شيئًا فى الدولة، وأن قصورهم نهبت دون أن تحاول الشرطة حمايتهم، فمضى

وفد منهم، على رأسه **زاوى بن زيرى**، لمقابلة الخليفة، وشكوا له ما أصابهم، فخاف موقفهم، واعتذر إليهم، وقتل من اتُهم من العامة فى أمرهم. وما لبث أن شُفِىَ من رعبه، وعاد من جديد يظهر بغضهم، ويجاهر بذمهم.

كان **المهدى** يقدر خطر البربر تمامًا، رغم مايكنه لهم من بغض، وأشد ما يخشاه أن يصبح اسم **هشام الثانى**، الخليفة المعزول، راية تلتقى عندها كل الجماعات التى أساء إليها، عامدا أو دون قصد. ففكر واهتدى إلى حل وسط، ألا يقتل أسيره، وأن يكتفى بإعلان موته. وفعلا فى ٢٦ أبريل ١٠٠٩م توفى مسيحى، أو يهودى، كبير الشبه بهشام، فأمر المهدى بحمل جثته إلى القصر سرا، وأظهره لأشخاص يعرفون هشامًا، وسواء أكان الميت صورة دقيقة من هشام أم لم يكن، فالذين شهدوا قبضوا، وأعلنوا أن هذه جثة هشام الخليفة السابق، ودعا المهدى بالفقهاء وعلية القوم، وصلى على الميت صلاة الجنازة، ودفن فى مقابر المسلمين، فى جلال ملكى يليق بخليفة سابق، بينما هشام الحقيقى سجين فى أحد قصور وزرائه.

- **الثورة على المهدى :**

وبعدها ظن الخليفة أنه يستطيع أن يصنع أى شىء، فأودع السجن فى مايو واحدا من أبناء عبد الرحمن الناصر، متقدماً فى السن، يّدعى سليمان، دون أن يعرف السبب، وترك الناس يتحدثون عن رغبته فى قتل عشرة من رؤساء البرر، فتجمع هؤلاء بزعامة **هشام بن سليمان**، وبايعوه بالخلافة واتخذ لنفسه لقب **الرشيد**، وأشار ابن حزم إلى ثورته فى طوق الحمامة، وقد استطاع أن يجمع حوله سريعًا سبعة آلاف مقاتل، من المناوئين للمهدى، ومضى بهم إلى فحص السرادق، شمال قرطبة، وهناك انضم إليهم البربر، فسار بهم جميعاً إلى قصر المهدى، وقد أخطر الخليفة بالثورة وهو غارق فى ملذاته، وانتزع منها بقوة لكى يواجه الأمر، فأرسل يسأل: ماذا يريدون؟. ورد هشام الرشيد: أنت وضعت والدى فى السجن، وأجهل مصيره. فأطلق الخليفة فى الحال سراح سليمان، وظن أن الجماهير سوف تقنع وتنصرف، وخدع نفسه، لأن هاشمًا أرسل إليه يسأله أن يتنازل عن الخلافة.

وأراد المهدى أن يكسب الوقت، فتظاهر بالرغبة فى التحادث مع هشام، وطال الحوار، ونفد صبر البربر والعمال، فانطلقوا يعملون دون انتظار لنهايته، نهبوا حوانيت

سوق الحرس وأحرقوها، وحينئذ حمل القرطبيون السلاح، دفاعًا عن بيوتهم لا عن الخليفة، وجاء الجنود لمساعدتهم، واستمرت المعركة يومًا بأكمله، وفى صباح الجمعة ٣ من يونية، فر البربر نجاة بأنفسهم، فى فوضى منقطعة النظير، وقد لاحقهم القرطبيون حتى ضفاف وادى أرملاط على حين احتل آخرون منازلهم، وأخذوا نساءهم، وأسر هشام ووالده، وأمر الخليفة المهدى بقطع رأسيهما.

وما لبث البربر أن عادوا إلى تنظيم صفوفهم، وأقسموا أن يثأروا لهزيمتهم، أقوياء وشجعان لكن مهارتهم محدودة، غير أن **زاوى بن زيرى** كان معهم لحسن حظهم، وينتمى فى قبيلة صنهاجة، وكانت تحكم جانباً من أفريقية عاصمته القيروان، وهى أكثر تحضرا، وأشد ذكاء من بقية أخوتهم، وقد فهم زاوى أن من الضرورى قبل أى شىء البحث عن منافس فى مستوى الهدى، لإعطاء التمرد طابعًا شرعيًا، فبحث بين أحفاد عبد الرحمن الناصر عمن يصلح لهذه المهمة، فوقع على **سليمان بن الحكم** بن سليمان، **حفيد عبد الرحمن الناصر**، وابن أخ هشام الرشيد، وعرض على رفاقه أن يبايعوه خليفة، فعارض بعضهم، لأن سليمان رجل طيب، ليست لديه الإرادة ليكون رئيس جماعة، ولا التجربة ليصبح قائد جيش، ورفض آخرون أى رئيس عربى، ولكن زاوى أقنعهم فاستجابوا له، وبايعوا سليمان، واتخذ لقب المستعين، ومنذ البدء لم تكن له أية سلطة على البربر، واختاروا قوادهم دون مشورته، ولم يكن بالنسبة لهم غير أمير أموى أعارهم اسمه ليعملوا فى ظله.

ورحل البربر إلى **وادى الحجارة**، واحتلوا المدينة، وعرضوا على **واضح** أن يعملوا معًا، وأن يفتح لهم أبواب **مدينة سالم**، ولكن واضحًا رفض، وتلقى إمدادات من المهدى فهاجمهم، وطاردوه، ولم يسعدوا بانتصارهم طويلا، لأن واضحًا قطع عنهم التموين، وخلال أسبوعين لم يكن لديهم ما يأكلونه غير الحشائش، ولمواجهة هذا الحصار أرسلوا جماعة منهم إلى **شانجة، كونت قشتالة**، يطلبون تدخله، ويعرضون عليه تحالفهم، إذا رفض المهدى وواضح الصلح معهم.

وعندما وصل السفراء إلى قصر الكونت وجدوا سفارة من **المهدى** سبقتهم إليه، تسوق بغالا وخيولا وهدايا أخرى، ووعدوه بالتنازل له عن عدد من القلاع والحصون إذا أسرع إلى مساعدة خليفة قرطبة، وسبحان مغير الأحوال، لقد أصبح خلفاء قرطبة

يتلقون الأوامر من أمراء المسيحيين فى الشمال، فيما يتصل بأخص شئونهم، وما يتوقف عليه مستقبل بلادهم !

كان **شانجة** يعرف أخبار جيرانه جيدا، وأدرك أن بقاء المهدى مرتبط بخيط رفيع، فوعد البربر بأن يقف إلى جانبهم، إذا وعدوه بأن يتنازلوا له عن القلاع والحصون التى وعد المهدى بأن يتنازل له عنها، فوافقوا، حينئذ صرف شانجة رسل المهدى، وأرسل إلى معسكر البربر ألف ثور، وخمسة آلاف خروف، وألف عربة محملة بالأغذية، وأعد البربر أنفسهم فورا ليبدأوا حملتهم، وعندما انضم الكونت شانجة إليهم، أخذوا طريقهم إلى مدينة سالم، وعندما وصلوا أسوار المدينة حاولوا ثانية أن يكسبوا واضحاً إلى جانبهم، لم ينالوا منه أكثر مما نالوا من قبل، واعتقدوا بحق أن عليهم ألا يضيعوا وقتهم فأخذوا طريقهم نحو قرطبة، فى شهر يولية من عام ١٠٠٩م، فتبعهم واضح وهاجمهم، واضطر بعد أن فقد الكثير من رجاله أن يلوذ بالفرار عائدا إلى قرطبة.

علم **المهدى** بسير البربر نحو قرطبة، فجند كل القادرين على حمل السلاح، ولم ينتظر وصول العدو، فخرج يبحث عنه، والتقى الجيشان فى **قنطيش**، فى ٥ من نوفمبر ١٠٠٩م، وكانت نتيجة المعركة هزيمة مروعة للقرطبيين، كانوا حشدا غير مدرب ولا منظم، ما بين شيخ ضعيف وحدث غر، فاستطاع ثلاثون فارسًا من البربر أن يقتحموا صفوفهم، فولوا هاربين لا يلوى بعضهم على بعض، ووضع البربر السيف عليهم، وقتلوا منهم خلقًا عظيمًا، وغرق كثير منهم فى الوادى، وفنى الجميع بسقوط بعضهم على بعض، ودخل البربر أرباض قرطبة، وبات الناس على سطوح دورهم فى وجل وخوف.

- **سليمان المستعين يتولى الخلافة :**

وأدرك **واضح** فى الحال أنهم خسروا كل شيء، فانسحب مع فرسانه نحو الشمال، ولاذ **المهدى** بقصره، وبعد قليل حاصره البربر، فظن أنه ينجو بنفسه، إذا رد الخلافة لهشام الثانى، فأخرجه من السجن، وأقعده فى مكان حيث يراه الناس، وأرسل القاضى **ابن ذكوان** إلى البربر ليقول لهم: إن هشاماً المؤيد لما يزل حيًا، وأنه يعترف به خليفة، وليس هو إلا حاجبًا له، وضحك البربر من الرسول ومن الرسالة، وردوا عليه: سبحان الله ياقاضى، يموت هشام بالأمس، وتصلى عليه أنت وغيرك، واليوم يعيش، وترجع إليه الخلافة!. وخلال المفاوضات كان القرطبيون يرتعشون لمجرد رؤية **سليمان المستعين** ومعه البربر يهددون أسوار مدينتهم، فخرجوا للقائه واعترفوا به خليفة.

وبينما سليمان يأخذ طريقه إلى داخل العاصمة، ارتكب البربر والقشتاليون كل الجرائم التى تخطر على البال، وأفلت المهدى واختفى فى قرطبة، وطلب شانجة من سليمان أن يوفى له بوعده فى التنازل عن القلاع والحصون، واعتذر سليمان بأنها ليست فى يده الآن، ووعده للمرة الثانية بأن يتركها له حين تصبح ملكه، وحينئذ غادر كونت قشتالة قرطبة مع جنوده، فى ١٤ نوفمبر ١٠٠٩م، وقد جمعوا ثروات طائلة، مما نهبوا من أملاك القرطبيين.

وخلال ذلك وصل المهدى إلى طليطلة، فاستقبله أهلها فى حفاوة، فتبعه سليمان وارسل إلى أهل طليطلة من يحذرهم غضبه إذا استمروا فى تمردهم عليه، ولم يستجيبوا له، وتحاشى أن يقتحم هذه القلعة الحصينة، فتجاوزها إلى مدينة سالم، على وهم أنها سوف تسقط يومًا، وخلال سيره انضم إليه عدد كبير من الصقالبة، فاستولى على مدينة سالم دون قتال، لأن واضحًا أخلاها له، ولجأ إلى طرطوشة، ومن هناك كتب إلى سليمان أنه يعترف به خليفة طالما تركه باقيًا فى منصبه، أراد بموقفه هذا أن يكسب وقتًا، وأن يفلت من ملاحقة سليمان، وكان له ما أراد.

وحين أطلقت يد واضح تحالف مع أمراء قطلونية ووعدهم بكل ما يريدون ورحل إلى طليطلة مع جيشه، وجيش آخر من القطلان، انضموا إلى المهدى فيها، وساروا جميعاً إلى قرطبة، ثلاثون ألف مسلم وتسعه آلاف مسيحى، وحين علم سليمان استنفر أهل قرطبة للقائهم، فأظهروا العجز، وجبنوا، وطلبوا منه معافاتهم، وآثر البربر أن يكون لهم وحدهم شرف تحقيق النصر، والتقى الفريقان فى قرية عقبة البقر، على مسافة غير بعيدة من قرطبة، فى النصف الأول من شهر يونية عام ١٠١٠م وقد وضع البربر سليمان فى ساقة الجيش، وجعلوا معه خيلا من المغاربة، ونصحوه ألا يترك موضعه حتى ولو وطئته الخيل، ثم تقدموا، فحمل القطلان عليهم حملة شديدة، فتراجع البربر لهم ليتمكنوا منهم، فلما رأى سليمان خيل الإفرنج خرقت صفوف البربر، قدر أنهم هزموا فولى هاربًا، على حين كر البربر على العدو، فقتلوا من القطلان سبعين قائداً وأميرهم، ولما رأى البربر سليمان فارق موضعه انحازوا إلى الزهراء، وأخرجوا عيالهم وأموالهم، وفر سليمان إلى شاطبة واقتحم عامة قرطبة مدينة الزهراء، فنهبوا ما وجدوا فيها، ودخلوا الجامع ونهبوا حصره وقناديله، ومصاحفه وسلاسل قناديله، وصفائح أبوابه.

• المهدى يصبح خليفة من جديد :

ودخل المهدى قرطبة، وتعرضت المدينة السيئة الحظ لنهب شامل من القطلان، كما نهبها البربر والقشتاليون قبل تسعة أشهر، وأخذت له البيعة خليفة للمرة الثانية، وكان هشام المؤيد أول من بايعه. ثم خرج يلاحق البربر، وقد انسحبوا نحو الجزيرة الخضراء، والتقى معهم عند التقاء وادى آره بالوادى الكبير، على مقربة من رندة، وفى المعركة حقق البربر نصرا ثأروا به لهزيمتهم فى موقعة **عقبة البقرة** وهُزِمَ جيش المهدى، وقُتلَ عدد كبير من القواد الصقالبة، وأكثر من أربعة آلاف من القطلان، ولقى عدد كبير من الجنود حتفهم غرقاً فى مياه الوادى الكبير.

وعاد المهزمون إلى قرطبة، وبلغ الغيظ بالقطلان مبلغه، فأرادوا أن يثأروا لهزيمتهم من عامة الناس، فقتلوا كل أولئك الذين يشبهون البربر على نحو ما، وكل من اراد أن ينتقم من شخص صاح فيه هذا بربرى، فيقتلونه دون أن يسألوه، وأخذ جندى قطلونى ابنة رجل من البادية جميلة، وعرف أبوها، فحمل شكواه إلى **واضح**، وقال إنها ليست بربرية، فرد عليه، دعك من هذا، ما إلى ردها إليك من سبيل، وعلى ذلك عاهدناهم، فمضى الرجل باكيًا إلى الجندى وحمل إليه ٤٠٠ دينار ذهبى يفتدى بها ابنته، فأخذها منه ثم قتله.

وطلب منهم **المهدى** أن يعودوا إلى قتال البربر من جديد فامتنعوا، وزعموا أن ما خسروه من الرجال لا يسمح لهم بالعودة إلى القتال، وتركوا قرطبة فى يوم ٨ يولية، ورغم كل السوء الذى ارتكبوه، حزن أهل قرطبة لرحيلهم، حتى أنهم أخذوا يتبادلون العزاء جزعًا وخوفًا من عودة البربر بعدهم. وبدأ المهدى زحفه نحو البربر، ولكن جيشه فقد أهميته بعد رحيل القطلان، وبعد مراحل من سيره تغشاه رعب قاتل، وامتلأ داخله خوفًا من البربر، فعاد إلى العاصمة من جديد، ينتظر العدو فيها، وأمر بحفر الخنادق حولها، ولكن القدر أراد له أن يسقط قتيلا بيد الصقالبة، لا بيد البربر.

لقد كان **واضح** إلى جانب **المهدى**، ولكن صقالبة آخرين، مثل خيران وعنبر، ظلوا فى الجانب المعارض، وقد أدركوا أخيرًا أن عليهم أن يتحدوا إذا أرادوا أن يحققوا مطامحهم ويستولوا على السلطة، وقرروا أن يلتفوا من جديد حول **هشام المؤيد**، ولتحقيق مخططهم تولى واضح إثارة السخط بين أهالى قرطبة، فأرسل الإشاعات تدق كل باب عن حياة خليفة لا يفيق من السكر، بين ملذاته ونسائه، وأنه يهاجم علنًا فوضى الجند

واعتداءاتهم، ويرضى عنها سرا، بل ويحضهم عليها. وعندما أتت الإشاعات على ما بقى للخليفة من شعبية وهيبة، سارع خيران وعنبر وقواد آخرون من الصقالبة كانوا يعملون فى جيش سليمان بتقديم خدماتهم للمهدى وما إن دخلوا قرطبة حتى بدأوا يعملون على إسقاطه، وفى يوم الأحد ٢٣ من يولية ١٠١٠ طاف الصقالبة شوارع قرطبة على خيولهم يصيحون: «يحيا هشام المؤيد»، ثم أخرجوه من سجنه ووضعوه على العرش.

فى تلك اللحظة كان المهدى يأخذ حمامه، وعلم بما حدث، فطار إلى القاعة وجلس إلى جانب هشام، لكن عنبر شده بقوة، وحمله ليكون فى مواجهته، وقد أنبه هشام فى مرارة، وعاتبه على ما ارتكب فى حقه، وما عانى بسببه، ثم أخذه عنبر من ذراعه، وشده إلى المنصة ليقطع رأسه، فأمسك المهدى بيده المشرعة، وفى اللحظة نفسها سقطت عليه سيوف صقالبة آخرين.

لقد اعتلى العرش بمؤامرة، ومؤامرة أخرى أنزلته عنه، وعن الحياة.

• **هشام المؤيد يعود إلى الخلافة :**

واصبح **الصقالبة مع هشام الثانى**، ضعيف ومحاصر، أكثر من أقوياء، وتولى **واضح** منصب الحجابة، وحاول أن يحكم الأندلس على نحو ما فعل من قبل سيده **المنصور ابن أبى عامر**، ولم يدرك أن الظروف تغيرت كثيرا، وأنه ليس المنصور. ولم يجد فى البدء معارضة من سكان العاصمة، وعُرضت رأس المهدى فى الشوارع دون أن تُسْمع همهمة واحدة، فليس ثمة من يحن إلى أيام الطاغية، وداعب الأمل واضحًا فى أن البربر سوف يعترفون بالخليفة الذى رد إليه تاجه، وأقنع نفسه بهذا، وكان واهمًا !

وعندما بعث إليهم برأس المهدى يطلب منهم الولاء لهشام غضبوا، وتدخل سليمان لحماية من حملوا الرسالة حتى لا يفتكوا بهم، وبكى سليمان نفسه، فاضت دموعه غزيرة، حين رأى رأس ابن عمه، فأخذها ونظفها، وأرسل بها إلى **عبيد الله، ابن المهدى**، وكان قد اتخذ من طليطلة مقامًا.

وجد **واضح** البربر على غير ما توقع، وعرف أن له أعداء فى العاصمة نفسها، وأن بعض الأمويين لا يرضون حكم الصقالبة. ويرون مصلحتهم فى أن يؤيدوا سليمان، وقد أرسلوا إليه سرا أن يعود إلى العاصمة، وحددوا له يوم ١٢ من أغسطس، وأنهم سوف يسلمونه المدينة، ووعدهم سليمان بتحقيق رغبتهم. وعرف **واضح** المؤامرة،

أعلمه بها خيران وعنبر، فاعتقل المتآمرين، وعندما وصل سليمان إلى أسوار المدينة فى اليوم المحدد، واجه هجومًا عنيفًا فارتد القهقرى سريعًا.

وظن واضح أن الهزيمة أضعفت البربر، فعاد يفاوضهم من جديد، دون أن يحقق شيئًا، وفي الوقت نفسه كان سليمان يطلب عون شانجة ملك قشتالة، وحليفه القديم، ووعده بأن يتنازل له عن عدد من الحصون والقلاع على الحدود بينهما كان المنصور قد استولى عليها. ووجد الكونت الفرصة مواتية لتوسيع رقعة مملكته دون حاجة إلى القيام بحملات حربية ضد الأندلس، فأرسل إلى واضح بأن يتنازل له عن هذه الحصون والقلاع، وكانت فى قبضته، وإلا فسوف يساعد البربر. ولم يجرؤ واضح على اتخاذ القرار وحده، فدعا القاضى والفقهاء والعدول، وأبلغهم برسالة شانجة، وطلب منهم الرأى. وأخرس الخوف من رؤية البربر، ومعهم القشتاليون لمساعدتهم، الإحساس بالشرف القومى فى أعماق هؤلاء السادة، فكان رأيهم: أن يستجيب لمطالبه!. وفى شهر سبتمبر، أو أغسطس عام ١٠١٠م، وقّع معاهدة مع شانجة، تنازل له فيها عن أكثر من مائتين، بين قلعة وحصن، واتخذ بقية أمراء الشمال من المسيحيين الحادث مثلا يحتذى. إنهم يستطيعون بشيء من التهديد والصخب أن يأخذوا ما يريدون من حصون وقواعد، فأرسل لهم كونت آخر يطلب منهم بدوره أن يتنازلوا له عن عدد من الحصون والقلاع وإلا إنضم لسليمان والبربر، فلم يجرأوا على أن يرفضوا له طلبًا. ولقد ساءت حال القرطبيين بعد العامريين، وكان عليهم أن يحنوا رءوسهم أمام أعداء دينهم، وأن يعانوا من نزوات الحاكم، صقلبيًا أو بربريًا، وأن يتعرضوا للنهب والمظالم من أولئك وهؤلاء، وباختصار أن يتحملوا كل النتائج التى تعرض للشعوب حين تذهب إلى الثورة، وتلقى بنفسها فى أتون الفتن دون أن يكون لها هدف واضح محدد ودون أن تدفعها أفكار سامية عظيمة !

ضرب البربر الحصار على قرطبة على امتداد شهر ونصف، نزلوا ربضى شقندة وفج المائدة، يغيرون على العاصمة ويقتلون، وواضح وجنده خلف السور لا يتجاوزونه شبرا، وأصاب الناس ضيم مروع فى الأنفس والأموال، وزاد الحال سوءا تفشى المرض والوباء. ثم توجهوا إلى الزهراء، وأصبحوا سادتها بعد حصار دام ثلاثة أيام فحسب، لأن قائدا خان واجبه، وسلمهم أحد أبواب المدينة، فى ٤ نوفمبر ١٠١٠م، وبدأت المذبحة فى الحال، قتلوا حرس المدينة بأجمعه تقريبًا، ولجأ سكانها إلى المسجد،

ولكن حرمته لم تمنع البربر من اقتحامه، وأتوا ذبحًا على جميع من فيه، دون تفرقة بين الشيوخ والشباب والنساء والأطفال، وبعد أن نهبوا المدينة أشعلوا فيها النار، ومن ذلك اليوم تحولت هذه القصور، أفخم ما عرفت أوربا فى العصر الوسيط وما بعده، وحتى أيامنا، إلى أكوام من الخرائب والأنقاض، وخرّب **واضح منية الرصافة**، حرقًا وتدميرًا، وكانت من أجمل ضواحى قرطبة، وقد خيِّل إليه أن البربر سوف يقتحمونها فسبقهم إلى نهبها وتدميرها.

ولم يتوقف **البربر** عند العاصمة، فأخذوا يغيرون خلال الشتاء على ما حولها، ينهبون ويحرقون ويخربون ويقتلون، ومنعوا دخول الأغذية إلى العاصمة، ويرسل إليهم **واضح** كتائب من الفرسان فلا تلقاهم خوفًا، وإنما ينهبون ما فضل منهم فى القرى والأقاليم ويعودون. ونزح أهل الأرياف إلى العاصمة أفواجًا، خوفًا من البربر، وصاروا أكثر من أهلها، ومات أكثرهم جوعا بها، أو مقتولا بخارجها، وفنيت مواشيهم، وكان من الصعب إيواءهم فمات أغلبهم جوعًا، بعد أن «أكل الناس الدم من مذابح البقر والغنم، وأكلوا الميتة والجيف، وكان قوم فى السجن فمات منهم رجل فأكلوه، ومع هذه المحن كانوا يشربون الخمر ظاهرا، وأصبح الزنا مباحًا، واللواط غير مستور، ولا ترى إلا مجاهرا بمعصية».

وكانت الحكومة فى النزع الأخير، وباع واضح الجانب الأكبر من **مكتبة الحكم الثانى**، ليحصل على شىء من المال، وبدأ الناس ينزحون إلى السواحل والبوادى، ووقعت أكثر المدن أهمية فى يد البربر، وتعرض سكانها لما تعرض له سكان الزهراء، وتحولت القرى إلى صحارى مجدبة، وتمضى بك السبل أيامًا وأيامًا قبل أن تلقى كائنًا حيًا، فى طرق كانت من قبل عامرة بالذاهبين والعائدين.

- **البربر والشقاء يطوقون قرطبة :**

وفى صيف عام ١٠١١م، أناخ الشقاء بكلكله على الأندلس بعامة، وقرطبة بخاصة، وأخذ ينمو من جوانبه ويشتد، فاجتاحها الطاعون، وحدثنا عنه ابن حزم فى «طوق الحمامة»، وأن أخاه ذهب ضحية له، وبدت المدينة التعسة كما لو كانت سعيدة بآلامها، فهى تزيد النار التهاباً، والشقاء ضراما، بما تختلف فيه، وتكاتفت الطبيعة على تكثيف آلامها، فتدافعت السيول، وفاض نهر قرطبة، على امتداد أيام ثلاثة، فهدم من قرطبة وأرباضها نحو ألفى دار، وما لا يحصى من المساجد والقناطر، ومات فيه نحوا من

خمسة آلاف ردمًا وغرقًا، وذهبت أمتعة الناس وأموالهم، وهدم أكثر السور، وردم كثيرا من الخندق، ونسب الجنود إلى واضح أنه سبب الشقاء الذى يعانون، وأدرك آخرون أنه بيت النية على الهروب، وأخذ القائد الصقلبى ابن وداعة وكان على شرطة المدينة ويكره واضحًا من أعماق قلبه، يغذى هذا السخط، وأهين واضح علانية، وحين أحس بضعف موقفه عهد إلى رجل يعرف بابن بكر أن يحمل رغبته فى السلام إلى سليمان، فأثار عمله أقوى موجة من الغضب، وعندما عاد ابن بكر من سفارته تلقفته السيوف دون أن يتيحوا له فرصة إعلان الرد الذى تلقاه، اغتالوه بمرأى الخليفة ومرأى واضح، واحتزوا رأسه، وطافوا به البلد، وحينئذ قرر واضح أن يلجأ بين البربر. ولكن الجند بقيادة ابن وداعة اقتحموا عليه القصر فى ١٦ أكتوبر ١٠١١م، وعاتبوه على ما تكلف من الأموال، وما عزم عليه من مصالحة البربر، ثم قام إليه ابن وداعة فضربه بالسيف، وحمل عليه القوم، واحتزوا رأسه، وطافوا به الشوارع على رأس رمح، كالعادة، وألقوا جسده فى الرصيف، إلى جانب جثتى المهدى وابن عسقلاجة.

ومر عام ونصف قبل أن يجىء البربر، لينتزعوا من الصقالبة ومن القرطبيين متعة الاغتيال المتبادل، وعبر هذه الفترة اشتد ابن وداعة على أهل الريف، وهابه الجند وغيرهم، ودفع بالفقهاء درجات إلى الوراء ودعا إلى الجهاد، ولم يعد لدى القرطبيين أى شك فى المصير الذى سوف ينتظرهم على يد البربر، فازدادوا كراهية لهم، وتعصبوا عليهم، وقتلوا كل من أتى على ذكر الصلح معهم، قتلوا فى الحال رجلا من وجوه أهل العلم قال فى المسجد الجامع: اللهم أصلح علينا، وقتلوا آخر فى المكان نفسه قال: إن الله أحب الصلح وأمر به. ومثل ذلك كثير.

ثم وقع فى أيدى القرطبيين محارب بربرى ممتاز، فى شهر مايو من عام ١٠١٢م، حباسة بنى ماكسن، كان قد نزل عن جواده ليستريح بعد معركة ساخنة، فأرسل فيه صقلبى سهمًا، وأطبق عليه صقلبيون آخرون وأخذوه أسيرا، وحين عرفوه شفوا غلهم منه، لطالما احتقرهم وأكثر القتل فيهم، احتزوا رأسه وأرسلوا به إلى القصر، وتركوا جثته لعبث العامة، سحلوه فى الشوارع، ومثلوا به، مزعوه قطعًا، ثم أسلموه إلى النيران، وحاول أخوه حبوس أن يسترد جثته فلم يستجيبوا له، وقد حزن عليه البربر جميعًا، وعزموا على أن يثأروا له، وضاعفوا من قوتهم، ولكن اليأس أمد القرطبيين بقوة خارقة، وقادهم ابن وداعة فى هجوم قوى، واضطر البربر إلى رفع الحصار، وعرف أيضًا كيف يصدهم عن إشبيلية، وسرعان ما ظهر البربر أمام سوار العاصمة من جديد، وعلى الرغم

من مقاومة القرطبيين المستميتة، استطاعوا أن يعبروا الخندق، وأن يستولوا على الجانب الشرقى من المدينة، ولكن الحظ، وللمرة الثانية، اتخذ جانب القرطبيين، فأرغموا أعداءهم على الرحيل عن الحى الذى استولوا عليه، وكان هذا آخر انتصار لهم، ففى يوم الأحد ١٩ من أبريل ١٠١٣م، اقتحم البربر المدينة من الباب المقابل لربض شقندة، لأن قائدًا خائنًا باع لهم نفسه وأسلمهم الباب.

ودفعت قرطبة ثمن مقاومتها أنهارًا من الدماء، لقد انسحب منها الصقالبة عندما فقدوا الأمل، واندفع البربر عبر الشوارع فى صياح حاقد ومرعب، ينهبون هنا، وينتهكون الأعراض هناك، ويغتالون فى كل مكان، وذهب كثيرون من الطيبين والشيوخ ضحية الغضب الأعمى: **قتل سعيد بن منذر** شيخ متهالك، اشتهر بالورع والتقوى، وكان خطيب المسجد الجامع منذ أيام **الحكم المستنصر**، وقتل **مروان بن يحيى** من أسرة بنى حدير الشهيرة، وكان قد فقد عقله نتيجة اخفاقه فى حب له، وقتل **ابن الفرضى** صاحب **تاريخ علماء الأندلس**، وقاضى بلنسية أيام المهدى، وكان قد سأل الله الشهادة فى آخر حجة له فاستجاب الله دعاءه، وبلغ الضحايا من الكثرة عددا كبيرا، حتى أن أحدا لم يفكر فى عددهم، أو يعط لهم رقمًا. وجاءت الحرائق حارة متوهجة، ساطعة الضوء، تلقى بأنوارها على هذه المشاهد المرعبة، واتخذت لها وقودا من أعظم القصور فخامة وترفًا، من بينها قصور ابن حزم وآله، وقد بكاها شعرًا ونثرًا فى صفحة رائعة من كتابه « طوق الحمامة ».

- **سليمان المستعين خليفة للمرة الثانية :**

وبعد يومين من احتلال المدينة دخل سليمان قصر الخلافة، وجاء القرطبيون الذين أفلتوا من سيوف البربر صدفة، واصطفوا فى طريقه، يطل الرعب من عيونهم، وجرحى فى أعماق قلوبهم، «متلقين له» ومسلمين عليه، فأنشد متمثلا:

إذا مــا رأونى طالعــاً من ثنية   يقولون: من هذا ؟ وقد عرفونى
يقولون لى: أهلا وسهلا ومرحبًا   ولو ظفروا بى ســاعة قتلونى

وجئ بهشام المؤيد، فاعتذر لسليمان، وتبرأ من الخلافة، خلع نفسه، وسلم الأمر إليه، وغاب عن الناس خبره، قيل قضى عليه عند دخوله القصر، وقيل فر. واستقر البربر بدءا فى مدينة الزهراء، وسكنوا القصور التى أفلتت من قبضة النيران، وبعد ثلاثة شهور

فاضت بهم، فزحفوا على العاصمة، وحكم على القرطبيين بالنفى، باستثناء الذين يقيمون فى المدينة، وفى الجانب الشرقى، وصودرت أملاكهم لصالح المنتصرين، «ولحق بيوتات قرطبة معرة فى نسائهم وأبنائهم».

منذ بداية الفتنة أعلن عدد من الولاة استقلالهم، وجاء استيلاء البربر على قرطبة ضربة قاصمة لوحدة الخلافة الأندلسية، ولم تعد سلطة الخليفة تتجاوز خمس مدن: قرطبة وإشبيلية ونبلة وأكشنبة وباجة. وغاض الأمل فى أن تتحسن الحال، وبدأ البربر يتمتعون بالثروات التى نهبوها فى قرطبة وغيرها من المدن، ولم يكن **سليمان المستعين** نفسه محاربًا، رغم أنه اضطر إلى الحرب على امتداد أربعة أعوام كاملة، ومن سخرية القدر أن يكون رئيس هذه العصابات الشرسة التى مزقت الخلافة أميرًا مستقيمًا، حلوًا كريمًا، يهوى الأدب، ويقرض الشعر، يذوب صبابة ويتغزل عفًا، ولديه من هدوء النفس، وفراغ البال، وسط هذا البلاء ما يتيح له أن يعارض أبيات هارون الرشيد الشهيرة:

ملك الثلاثُ الآنساتُ عنانى ... وحْللنَ من قلبى بكلِّ مكان
مـالى تطاوعنى البريةُ كلهـا ... وأطيعهنَّ وهـنَّ فى عصيانى
ما ذاك إلاّ أن سلطانَ الهوى ... وبه قوينَ، أعز من سلطانى

وأن يسبقه مغنى ونغمًا فى أبيات طويلة يصفها ابن بسام بأنها «تشعشعت بها الكؤوس، وتهادتها الأنفاس والنفوس»:

عجبًا يهـابُ الليثُ حـدَّ سنانى ... وأهـابُ سحرَ فواترِ الأجفـانِ
وأقـارعُ الأهـوالَ لا متهيّبًا ... منها سـوى الإعراض والهجران
وتملّكتْ نفسى ثلاثٌ كالـدمى ... زُهْـرُ الوجـوهِ نواعـمُ الأبـدان
ككواكب الظلْماء لُحْن لنـاظرى ... من فـوق أغصـان على كُثْبان
حاكمت فيهنّ السـلو إلى الرضى ... فقضى بسـلطانٍ عـلى سـلطانى
هذى الهلالُ، وتلك بنت المشترى ... حُسْنًا ، وهذى أخت غصن البـان
فأبحـنَ مـن قلبى الحمى وتركننى ... فى عـز ملكى كالأسير العـانى
لا تعذلـوا ملكًا تذلل فى الهوى ... ذل الهـوى عـز وملْكٌ ثانى
مـا ضـرَّ أنى عبدهُـنّ صبابـةً ... وبنـو الزمانِ وهـن من عُبْدانى
إن لـم أُطع فيهنّ سـلطان الهوى ... كَلفًا بهـنّ فلستُ مـن مـروان

لقد كانت غايته فيما أسهم به أن يخفف من قسوة العاصمة، ولكن فساد قواته وسوئها، وشهد مظالمها دون أن يستطيع لها دفعًا، جعلت منه شخصًا بغيضًا إلى الأندلسيين، لا يرون فيه غير إنسان زنديق وغاضب، وضعه البربر ومسيحيو الشمال على عرش الخلافة، وكان القرطبيون يحتفظون لكلا الإثنين ببغض عميق.

وبعد أعوام ثلاثة، فى ١ من يولية ١٠١٦م، استيقظت قرطبة على ضجيج غاز جديد:

- **على بن حمود وحلفائه :**

ينتسب **على** فى أسرة **إدريس الأول**، مؤسس أسرة الأدارسة فى المغرب وتبربرت أسرته بعد إقامة فى المغرب تجاوزت المائتى عام، حتى أن العربية استدارت فى لسانه، وكان حاكمًا شبه مستقل على مدينتى طنجة وسبتة، على حين يحكم **القاسم**، أخوه الأكبر، **الجزيرة الخضراء**، ولم تكن مطامع على تقف عند حد، وحدثته نفسه أن يسعى إلى الخلافة، ولكى يبلغها تحالف مع الصقالبة وانضم إليه جانب كبير من البربر كان يرى فى **سليمان** إنسانًا طريًا، عاريًا من المواهب العسكرية، وهى الشىء الوحيد الذى يقدرونه، ووجدوه فى على، فهم يحترمون فيه شجاعته وفروسيته، وينظرون إليه كواحد منهم.

جاء **على** فى جموعه، وخرج **سليمان** للقائه، وكانت الدائرة عليه، وسيق أسيرًا إلى جانب أخيه وأبيه، وكان المنتصرون يطمعون فى أن يجدوا **هشامًا المؤيد** على قيد الحياة، وقد سئل عنه سليمان فتبرأ من دمه، ودعا علىّ بهم، فضرب عنق سليمان بيده، وأخيه من بعده، ثم أبيهما الشيخ، وكان تقيًا صالحًا، بعيدا عن السياسة، لم يتشبث بشىء من الدنيا. وحاول علىّ فى البدء أن يكون معتدلا، وأخذ جانب الأندلسيين، رغم أنه نصف بربرى، يستمع إلى شعرائهم مهتما، على قلة ما يفهم مما يقولون، ويثيبهم سخيًا، وجلس بنفسه لمظالم الناس، وهو مفتوح الباب، مرفوع الحجاب، للوارد والصادر، يقيم الحدود مباشرا بنفسه، ولا يحابى أحدا من أكابر قومه، ويعارض بشدة ما يقوم به البربر من نهب، ويعاقب بقسوة على الجرائم ضد الممتلكات العامة مهما صغرت، وأراد أن يعيد للقرطبيين ما أخذه منهم البربر، ولكن طموح **خيران** دفع به إلى أن يغير موقفه.

وفى الأيام الأولى أخلص خيران لعلى، وكان فى مقاطعته المرية يعاقب ويعتقل أولئك الذين يأخذون جانب الأمويين، ومن هؤلاء **ابن حزم** على ما يقص لنا هو نفسه فى

كتابه **«طوق الحمامة»**، ولو مضى **خيران** فى طريقه هذه، ووقف عند قدره، لربما أسهم فى استتباب الأمن وعودة النظام ولكنه طمح فى أن يمثل دور **المنصور بن أبى عامر**، ولكن عليًا رجل لا يقنع بما قنع به هشام المؤيد، وخيران يعرف ذلك جيدا، ومن ثم عزم على أن يعيد الأسرة الأموية ويحكم باسمها، فبحث عن مطالب منها بالخلافة، ووجده فى شخص **حفيد عبد الرحمن الأوسط**، ويحمل اسمه، ويقيم فى **بلنسة** ووعد جماعة من الأندلسيين بتأييده، ومن بينهم **المنذر** حاكم سرقسطة، وحليفه **ريموندو كونت برشلونة**. وعرف علىّ أن رفاقه باعوه، وأن شعب العاصمة يؤيد عودة بنى أمية، فقسا عليهم، ورمى بهم بين أنياب البربر، وأباح لهؤلاء أن يتصرفوا فى قرطبة أحرارا، كما لو كانت بلدا عدوا فتح عنوة، وأعطاهم المثل من نفسه، فصب على القرطبيين ضروبًا من التنكيل والمغارم، وانتزع السلاح منهم، وهدم دورهم، وقبض أيدى الحكام عن إنصافهم، وأغرم عامتهم، وتوصل إلى أعيانهم بقوم من شرارهم، فتحوا له أبوابًا من البلايا أهلكوا بها الشعب، وتقربوا إليه بالسعاية، وفاضت المدينة بالشرطة والجواسيس والوشاة، وأصبح نصف السكان يتجسس على النصف الآخر، وباع كثيرون أنفسهم للحاكم، وساد العاصمة رعب أسود، وتزامل الفجور والمظالم، ولزم الناس البيوت، وتطمرّوا فى بطون الأرض، وقل ظهورهم بالنهار، وخلت منهم الأسواق، فإذا دنا المساء، وقل الطلب، انتشروا تحت الظلام لبعض حاجاتهم.

واعتقل الأعيان، وصادر أموالهم، وامتهن بعضهم بالضرب، وفدوا أنفسهم فأمر بإطلاق سراحهم، فلما أحضرت دوابهم للركوب استولى عليها، وأمرهم أن يعودوا إلى بيوتهم راجلين، وأقسم أن يدمر قرطبة بعد أن يخليها من أهلها أو يقضى عليهم، واعفاه الموت من أن يبر بقسمه، لأن ثلاثة من غمار صقالبة القصر، كانوا قبل فى خدمة الأمويين، ويتمتعون بثقة على ورعايته، قرروا أن يضعوا لطغيانه غير المحتمل حدًا، فقتلوه ليلا وهو فى حمامه، وأراحوا قرطبة منه، وتردد البربر بين مبايعة ابنه حاكم سبتة، وأخيه القاسم والى إشبيلية، واستقر رأيهم على هذا الأخير، وبايعه الناس بعد ستة أيام من موت أخيه.

- **مبايعة عبد الرحمن المرتضى :**

دعا **خيران ومنذر** أنصارهم إلى اجتماع كبير عقدوه فى بلنسية يوم ٣٠ ابريل، ومثل الفقهاء جانبًا ملحوظًا فيه، وقرر المؤتمر أن تكون الخلافة بالانتخاب واختاروا

عبدالرحمن الرابع، وتلقب **المرتضى**، وكان يقيم فى **بلنسية**، وبعد أن اتخذوا القرار رحلوا إلى غرناطة فى طريقهم إلى **قرطبة**، وعندما وصلوا إلى أسوار المدينة تبادل **المرتضى وزاوى ابن زيرى** حاكم غرناطة رسائل عنيفة، وانتهيا إلى أن يكون السيف حكمًا بينهما. وعبر الطريق أدرك **خيران ومنذر أن المرتضى** ليس الشخص الذى يبحثان عنه، ولم يكن حق الأمويين فى الخلافة يعنيهما كثيرا، إنهما يقاتلان من أجل أموى يحكمان باسمه، **والمرتضى** دون ما يطمحان، بل وكان يملى عليهما آراءه، فبيّتا النية على الغدر به، ووعدا **زاوى** بأن يتخليا عنه فى اللحظة التى تبدأ فيها المعركة، ولم يقدما على جريمتهما منذ البدء، وقاتلا أيامًا، ولم يستطيع **زاوى** أن ينتصر فطلب منهما الوفاء بما عاهداه عليه، فاستجابا له، وأسلماه سيفيهما ولم يوافق القواد على خيانتهما، وغضب كثيرون، ومن هؤلاء **سليمان بن هود** وكان قائد الفرقة المسيحية فى جيش **المنذر** وتبعهما البعض، وانهزم جيش **المرتضى** بعد أن كان قاب قوسين من النصر أو أدنى، وكان **ابن حزم** رفقة جيش المرتضى، ووقع أسيرا، وقاتل المرتضى حتى بعد أن تخلى عنه الجانب الأكبر من قواته، ودافع فى شجاعة نادرة وأوشك أن يقع فى أيدى أعدائه ثم أفلت هاربًا، ووصل إلى وادى آش، وهناك دس عليه **خيران** من قتله غدرًا.

- **القاسم بن حمود فى قرطبة :**

انتهى خيران بانهيار حزبه، وبجبنه وعار خيانته، ولم يعد الصقالبة فى حالة تسمح لهم بجمع جيش، وأصبح البربر أعداؤهم سادة جنوب شرقى الأندلس، وحاولت قرطبة أن تأسو جراحها، تأمل أن تعيش فى ظل سلطة أقل طغيانًا وأكثر سلامًا فقد كان **القاسم ابن حمود** يؤثر السلامة ويميل إلى الراحة، ولم يضف إلى آلام القرطبيين وتعاستهم مزيدًا، وأراد لهم أن ينسوا خلافاتهم القديمة فاستقدم **خيران** وصالحه، وأعطى **زهيرًا**، صقلبيًا آخر كان واليًا عن مرسية، مقاطعات: جيان وقلعة رباح وبياسة.

كان **القاسم** شيعيًا، أو على الأقل على صلة بالشيعة، ولكنه لم يظهر ذلك، ولا غيّر على الناس عادة ولا مذهبًا، وأمّل الناس معه شيئًا من الهدوء، وكان يعرف أن شعب العاصمة لا يحبه، فترك ذلك للزمن يخفف منه أو يأتى عليه.

وكان يشك فى البربر، فبحث عن التأييد بين جماعات أخرى، اشترى السود الذين كانوا فى خدمة البربر والصقالبة، وكوّن منهم جيشًا يحرسه، وعهد إلى رؤسائهم بالأعمال الهامة، فغضب البربر، وعرف ابن أخيه **يحيى** كيف يركب روح السخط فيهم،

وزحف بهم إلى قرطبة وأزاح **القاسم** عنها، في عام ٤١٢هـ = ١٠٢١م، وعين نفسه خليفة، وتلقب **المعتلى**، واستقر فيها بعد صراع مرير مع أبناء عمومته، ثم تركها ولحق بمكانه من مالقة، ثم رده القرطبيون ثانية وقتل فيما بعد، وهو يحاصر إشبيلية يوم الأربعاء ٨ من المحرم عام ٤٢٧هـ = ١٠٣٥ وانهزم والبربر معه.

وظن القرطبيون أن الأمر خلص لهم، فاتفق رأيهم على رد الأمر لبنى أمية، وفى شهر نوفمبر ١٠٢٣م تألفت اللجان، وبدأت المناقشات، ووضع الوزراء أمام الشعب ثلاث شخصيات ليختار الخليفة من بينهم: **سليمان بن عبد الرحمن الرابع** الملقب بالمرتضى، **وعبد الرحن بن هشام** بن عبد الجبار أخا المهدى، و **محمد بن عبد الرحمن العراقى** وظن الزعماء أن سليمان، ووضع اسمه على رأش القائمة، سيكون الخليفة المختار، فأعد الوزير **أحمد بن برد** وثيقة البيعة باسمه، وكان سليمان دون ما تصور أتباعه بكثير، وعبد الرحمن فوق ماظنوا وتخيلوا.

- **مبايعة عبد الرحمن المستظهر :**

كان **عبد الرحمن** لبقًا ذكيًا، وأديبًا لوذعيًا، في العشرين من عمره، ليس فى بيته يومئذ أبرع منه منزلة، نقّلته المخاوف، وتقاذفته الأسفار، فتحنّك وتخرّج وتمرّن فيها، وقد نفاه الحموديون أيام دولتهم، وسرعان ما عاد إلى قرطبة سرًا، فشاهد الفتن الحادثة بين البرابرة وأهلها، وهمّ فيها بالوثوب، وبث دعاته إلى أهلها، فلم يصح له شيء مما أراد، وأنكر الوزراء المدبرون أمره، فتجردوا لطلبه وطلب دعاته، وسجنوهم ولم يخرجوا من السجن إلا بعد يوم جلوس صاحبهم عبد الرحمن هذا للإمارة، وقد أدرج اسمه فى قائمة المرشحين لأن غضبه يثير عددا من القرطبيين، ولم ير فيه الذين يدبرون الخطط منافسًا مخيفًا لسليمان، وربما ارتفعوا به فى أكثر تقدير إلى مستوى محمد العراقى، ولم يكن هذا يتمتع بأية شعبية.

أما وقد وثق الوزراء من النصر فقد دعوا الخاصة والجند والعامة إلى اجتماع يعقد فى المسجد الجامع لاختيار الخليفة، وفى اليوم المحدد جاء **سليمان** أولا صحبة الوزير **عبدالله بن مخامس**، فى ملابس فخيمة، وعلى وجهه ابتسامة وضيئة، واثقًا من اختياره، وتقدم إليه أنصاره فأجلسوه على مرتبة لا تصلح لأحد سواه. ثم أقبل **عبد الرحمن** فى خلق عظيم من الجند والعامة. وقد تكنّفه أميرا الدائرة **محمود وعمير** فى رجالهما، شاهرين سيفيهما أمامه، وما أن تجاوزوا عتبة المسجد حتى نادوا به خليفة وسط التكبير

والهتاف، فأسقط فى يد الوزراء، وخذلتهم حيلهم، ولم يكونوا يتوقعون شيئًا كهذا، ودخل **عبد الرحمن** المقصورة فبويع لوقته، واستدعى **سليمان**، وجيء به مبهوتًا، فقبّل يده وهنأه فأجلسه إلى جانبه، ثم وافى **محمد العراقى** أيضًا فقبّل يده وبايعه، وتمت البيعة لعبد الرحمن فى اليوم الرابع من شهر رمضان سنة ٤١٠هـ = ١٠١٨م، وحينئذ محا الوزير **ابن برد** اسم **سليمان** من وثيقة البيعة، ووضع مكانه اسم عبد الرحمن الخامس وتلقب **بالمستظهر**.

- **الثورة على الخليفة :**

كان **عبد الرحمن** يعتمد على الشباب الصاعد من أبناء الخاصة، فاختار وزراء له **ابن حزم**، وابن عمه **عبد الوهاب**، وكانا فيما يقول **ابن حيان** المؤرخ القرطبى الكبير «من أكمل فتيان الزمان فهمًا ومعرفة ونفاذًا فى العلوم الرفيعة»، **وأبا عامر بن شهيد** الشاعر الكاتب. وهؤلاء رغم ما يتمتعون به من مواهب غير شعبيين، وليسوا محببين إلى الفقهاء والمحافظين لارتقاء سلوكهم، وتحرر أفكارهم، واحتقارهم للعادات المتخلفة، ولم يغفر له أنصار **سليمان** لعبته، وانتصاره عليهم، ونقمت عليه طوائف أخرى اعتقاله أقاربه من بنى أمية ومن بينهم الذين كانوا مرشحين معه لتولى الخلافة.

ومن جانب آخر ساءت الحالة الاقتصادية، وأغاض الشقاء الشامل كل بوادر الأمل، وعمت البطالة، وأصبح عامة الناس على استعداد فى أية لحظة أن يأتوا بفئوسهم على بناء المجتمع القديم، واتخذوا من **محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر** رئيسًا لهم، ورأوه أحق بالخلافة من غيره، رغم أن اسمه لم ينطق به أحد ولا جرى فى خاطر، لأنه إنسان عادى، بلا مواهب ولا ثقافة، ولا يعرف من الحياة غير الموائد الحافلة والنساء الجميلات، ويرى فى نفسه غير ما يرى فيه الآخرون، فنقم لأن الخلافة تجاوزته، وبيّت النية على الثورة، ودفع إليها بالعامة، وكان قريبًا منها، يخالطها ويتودد إليها، فهى ترى فحشه تقوى، وجهالته حنكة، واستهتاره تحررا، وفتح شهيتهم للسلب والنهب، وكل ما حولهم يجعل منها حقًا مقررًا.

وانضم الخاصة إلى العامة بعد موت **سليمان**، جمع بينهما **ابن عمران**، شخصية خطرة، كان فى السجن، ورد إليه محمد الخامس حريته فى لحظة تقوى مفاجئة، ورغم أن أصحابه حذروه منه: «إن مشى ابن عمران فى غير سجنك باغًا بتر من عمرك عامًا!». وبدأ ابن عمران يستميل رؤساء الحرس فاستجابوا له بسهولة، لأنهم ناقمين على الخليفة،

فقد وصلت فرقة بربرية إلى قرطبة لتقدم خدماتها إلى الخليفة، قبل إطلاق سراح ابن عمران بيومين، ولأنه أحس بالخطر يحدق به من كل جانب وفى كل لون، فقد أكرم مثواهم، وأنزلهم دار الملك، فأثار ذلك غيرة رجال الحرس، وزادهم ابن عمران إثارة، ونزل بهم إلى العامة يقولون: «نحن الذين قهرنا البرابرة وطردناهم من قرطبة، وهذا الرجل يسعى فى ردهم إلينا، وتمكينهم من نواصينا».

ورغم أن عبد الرحمن لم يكن قد صنع شيئًا بعد، فقد اجتاحت العامة القصر، وحرروا الأشراف الذين كانوا فى سجنه، وفهم الخليفة أنهم يريدون رأسه فطلب النصح من وزرائه، ولكن هؤلاء كانوا بدورهم يفكرون فى حياتهم، وربما فى الجماعة التى من الأفضل لهم أن ينضموا إليها، وانتصرت الأنانية فى أعماق الكثيرين، فتركوا الخليفة لقدره، وتسللوا عنه واحدا وراء آخر، وسرعان ما أدركوا أنهم خدعوا أنفسهم فقد كانت السيوف بالأبواب تنتظر رءوس الخارجين منهم دون تمييز.

وأراد عبد الرحمن أن يخرج من باب الحمام فأظهر له الحراس سيوفهم وأشبعوه سبًا، فعاد القهقرى، وترجّل عن فرسه، وتجردّ من ثيابه، حتى بقى فى قميصه واستخفى فى موقد الحمام ففُقِد شخصه، على حين أخذ العامة والحرس يطاردون البربر فى كل مكان لجأوا إليه، وبدأ الموت يحصد هؤلاء دون رحمة أو هوادة، فى القصر أو الجامع، «وفُضح حريم عبد الرحمن، وسبى العامة أكثرهن، وحملوهن إلى منازلهم علانية، وجرى عليهن مالم يجر على حرم سلطان فى مدة تلك الفتنة».

وانتصر **محمد**، وبويع خليفة، وتلقب **المستكفى**، فى ٨ من يناير ١٠٢٤م، وقام **محمد وعمير** على رأسه بالسيوف مقامهما بالأمس من ابن عمه عبد الرحمن، وأمر **محمد** بالبحث عن عبد الرحمن فى كل مكان، فوجدوه أخيرا فى أبزن الحمام قد انطوى انطواء الحية فى مكان حرج، فأخرج فى قميص مسود بحال قبيحة، وجىء به إلى المستكفى فبطش به بعض الرجالة القائمين على رأسه، فتهلهل وجه ابن عمه، وأخذ فى تدبير سلطانه.

كانت إمارة المستظهر إلى أن قتل سبعة وأربعين يومًا، لم تنتشر له فيها طاعة، ولا التأمت عليه جماعة، ولا تجاوزت دعوته قرطبة، وكانت سنة يوم قُتلَ ثلاثا وعشرين سنة هجرية.

وكان على حداثة سنه ذكيًا يقظًا، لبيبًا أديبًا، حسن الكلام، جيد القريحة، مليح البلاغة، يتصرف فيما شاء من الخطابة بديهة ورواية، ويصوغ قطعًا من الشعر مستجادة، وكان فى وقته نسيج وحده، ختم به فضلاء أهل بيته الناصريين، فلم يأت بعده مثله، وأورد لنا ابن بسام فى القسم الأول من ذخيرته طائفة من أشعاره قالها فى «حبيبة» بنت **مشنف** من سليمان بن الحكم وكان يحبها، وحاول خطبتها من أمها فلوته، وهى أشعار جيدة ورقيقة، وتعكس نفسًا شاعرة حقًا.

وحاول **المستكفى** أن يصبح شعبيًا، فتلقى جميع الناس بالإيناس، واستمالهم بالأهوية، ورأى المال عزيزا فظن البشر الرخيص يقوم مقامه، فكان يقول للناس أجمعين: ارتعوا كيف شئتم، وتسموا من المناصب ما أحببتم، فتسمّى بالوزارة فى أيامه مفردة ومثنّاة أراذل الناس، وأخابث النظار، وزعانف الكتاب والخدمة، وأخذ الفقهاء أيضا بحظهم من هذه المناصب وجاءوا فى ذلك بطامة لم تسمع فى الأعصر الخالية، فأخطأوا وألحقوا بالدين وصمة، وفتنوا بالمناصب العالية، وشدوا أيديهم عليها، واضطربت قرطبة بكثرة ما أصبح فيها من المردة، وقبض **المستكفى** على جماعة من بنى عمه وحاشيته، ومستشارى سلفه، وفيهم ابن حزم، وابن عمه، وسجنوا بالمطبق، وعاجل ابن عمه **عبد العزيز العراقى** فخُنق، وأمسى ميتا، ونعاه إلى الناس فلم يخف عليهم إغتياله. وهرب آخرون حتى لا يواجهوا نفس المصير، ومن بين هؤلاء أبو عامر بن شهيد، لجأوا إلى مالقة، وفيها استثاروا حاكمها **يحيى بن حمود** لكى يضع حدا للفوضى السائدة فى قرطبة.

وفكر يحيى طويلا، وقبل أن يقرر اندلعت الثورة فى العاصمة فى مايو ١٠٢٥م، واتفق الملأ على خلع المستكفى، ونصحه الحرس بأن يهرب فاستجاب لهم، وخرج على وجهه وقد لبس ثياب الغانيات متنقبا بين امرأتين لم يميز بينهما لمرانه على التخنيث (التعبير لابن حيان!)، وخرج عن قرطبة فمات بأقليش، فكانت دولته سبعة عشر شهرا، صعابا نكدات سودا مشوهات، ففيها استؤصل بقية قصور الناصر بالخراب، وطمست أعلام قصر الزهراء، واقتلع نحاس الأبواب، ورصاص القنى، وغير ذلك من الآلات.

وكان المستكفى على أهل قرطبة محنة وبلية، غفلا عطلا، مجبولا على الجهالة، عاطلا من كل فضيلة، عضته الفتنة فأملق حتى استجاز الصدقة، ولم يلحقه الاعتقال على امتداد أيام الفتنة تحقيرا لأمره، فكان يقصد أهل الفلاحة أوان ضمهم لغلاتهم

يسألهم من زكاتها تكليما ومخاطبة، وكان معروفًا بالتخلف والركاكة، مشتهرا بالشرب والبطالة، سقيم السر والعلانية، أسير الشهوة، عاهر الخلوة، والجانب الوحيد الذى دخل التاريخ من بابه هو أنه والد ولادة، الشاعرة الأديبة وصاحبة «الصالون» الأدبى الشهير فى عاصمة الخلافة.

• **آخر خليفة أموى :**

خلت قرطبة من أى خليفة أو أمير أو حاكم على امتداد ستة شهور، نعم كان هناك مجلس للدولة، ولكن حكمه أقرب إلى السوء منه إلى الصلاح، وما كان لموقف كهذا أن يدوم طويلا، فالنهاية تقترب، النظام القديم يغرق، والجديد فى طور التجربة، على حين يرى القرطبيون فى الخلافة أنها الشكل الوحيد القادر على إنهاض الدولة من كبوتها، ولكن من الذى يستطيع أن يقيمه؟ وأين الأمير الأموى الصالح؟. لقد حاولوا واختاروا أفضل أموى فى هذا البيت، عبد الرحمن الخامس، ومع ذلك فشلت المحاولة، لا بديل إذن عن أمير يعتمد على قوات أجنبية، يمنع السلب والنهب والاغتيال، ويفرض الأمن والنظام ويحمى هيبة الدولة، وليس بين الأمويين من يتوفر على هذه القوات، ففكروا أن يعيدوا الخلافة إلى الحموديين وإلى يحيى بن على بن حمود بالذات، وبدأوا المفاوضات معه، وكان يقيم فى مالقة، فقبل عرض القرطبيين دون أن يتحمس له كثيرا، وربما داخله شىء من الشك، فقرر أن يبقى حيث هو، وأرسل إلى قرطبة قائدا بربريًا مع فرقة من الجنود فى نوفمبر ١٠٢٥م.

وأظهرت الحوادث فيما بعد صدق حدسه، فكره سكان العاصمة حكم الأفارقة سريعًا، وأعاروا أسماعهم لصقالبة الشرق، خيران والى المرية، ومجاهد والى دانية، وكانوا يرسلون إليهم: إذا أردتم أن تتحرروا فسوف نساعدكم، ولم تذهب وعودهم عبثًا. وفى شهر مايو ١٠٢٦ زحف هذان القائدان إلى العاصمة فى جند كثير، وثار القرطبيون، وعزلوا قائد يحيى، وقتلوا من جنوده، وفتحوا الأبواب لخيران ومجاهد، وعندما بدأ الحديث عن الحكومة اختفى كلاهما. خاف خيران من حليفه فخانه وأسرع عائدا إلى المرية، وظل مجاهدا وقتًا فى قرطبة، وما لبث أن غادرها دون أن يعيد الخلافة، وبعد رحيله قرر مجلس الشورى أن يتولى ذلك بنفسه، رغم أن التجارب السابقة أثبتت

فشل المحاولة، لأن أى أمير أموى يلقى بالخلافة على رأسه، وسط الجماهير الساخطة، دون أن تدعمه قوات أجنبية، مقضى عليه بالفشل مسبقًا.

ومع ذلك رأى المجلس بإيعاز من على بن جَهْوَر أقوى الأعضاء نفوذا، أن يقدم الخلافة لهشام، الأخ الأكبر **لعبد الرحمن الرابع المرتضى**، وكان يقيم فى حصن **البونت** لاجئًا منذ وفاة أخيه. وفى شهر أبريل ١٠٢٧م بايعه أهل قرطبة، وتلقب **المعتضد**، أو **المعتمد** فى رواية، ومرت سنوات ثلاث قبل أن يستطيع التغلب على الصعوبات التى تحول دون وصوله إلى قرطبة، ظل خلالها يتنقل من مدينة إلى أخرى، وفى ١٨ ديسمبر١٠٢٩م وصلت الأنباء بأن **هشاما** سوف يدخل المدينة، فخرج الجند لاستقباله، وعلت الأصوات مرحبة به، وامتلأت الشوارع التى سوف يمر بها بالجماهير، تؤمل فيه أن يقيم حكومة قوية قادرة. وما أسرع ما تلاشى الأمل، لقد دخل العاصمة فى زى تقتحمه العين، وهنًا وقلة، وعدم رواء وبهجة، وعددا وعدة، فوق فرس دون مراتب الملوك، بحلية مختصرة، عار من أية هيبة، يسير هونًا، والناس يهنئونه ولا يعلمون ما سبق لهم من المكروه به، لأنهم يتوقعون أن تنتهى الفوضى معه.

ولكن **هشاما الثالث** لم يخلق لمثل هذه الآمال العظيمة، فهو طيب ورقيق الحاشية، كسول ومتردد وضعيف، لا يقدر غير لذائذ المائدة، وأدرك الذين اختاروه أنهم أخطأوا الاختيار، وما لبث الجند أن ثاروا عليه وخلعوه وأُخرج من القصر مع حشمه، والنساء حاسرات عن وجوههن، حافية أقدامهن، إلى أن دخلوا الجامع الأعظم على هيئة السبايا، فأقاموا هنالك أياما يتعطف عليهم الناس بالطعام والشراب، إلى أن أُخرجوا عن قرطبة، ولحق **هشام** ومن معه بالثغور، ولم يزل يجول بينها إلى أن لحق بابن هود وكان متغلبًا على سرقسطة وماردة وأفراغة وطرطوشة، فأقام عنده إلى أن مات فى ديسمبر من عام ١٠٣٦م، ولم يكن لموته أى صدى فى قرطبة أو فى غيرها من المدائن من باب أولى!

«وبخلعه انقطعت الدولة الأموية من الأرض، وانتثر سلك الخلافة بالمغرب، وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف، وانتثر الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالى بالجهات، واقتسموا خطتها، وتغلب بعض على بعض، واستقل أخيرا بأمرها منهم ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم، ولاذوا بالجزى للطاغية (ملك المسيحيين فى الشمال)،

أن يظاهر عليهم أو يبتز ملكهم، وأقاموا على ذلك برهة من الزمان، حتى قطع إليهم البحر ملك العدوة، وصاحب مراكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتونى فخلعهم وأخلى منهم الأرض»[١].

سقطت الخلافة، ومعها أخذت حياة ابن حزم وجهة أخرى، على نحو ما أشرنا إليه فى حياته، لوّنت فكره بظلال قاتمة، ومزجت مشاعره بأحسيس مريرة، رغم أنه تخلى عن السياسة والوزارة، وعكف على الدرس والقراءة والتأليف والحوار وطلابه.

(١) المقرى، نفح الطيب، جـ ١ ص ٤٣٨ ، طبعة د. إحسان عباس.

ابن حزم قمة إسبانية

[للمؤرخ الأسباني: سانتشث البرنس]

شهد ثورات قرطبة، وجاءت نتيجة حتمية للاستبداد العامرى، ورأى الحروب الأهلية التى تلتها، وعاش فى إسبانيا ممزقة، تناثرت دويلات تحمل اسم **«الطوائف»**، وفيها صب التيار الذى تكون خلال حكم **المنصور بن أبى عامر**، وكان مستبدا، وعمل والد ابن حزم وزيرًا له. ومن ثم قدر لابن حزم أن يواكب فترة حرجة، شهدت انهيار الخلافة القرطبية، وانحدار الأندلس تاريخيا. وكما يحدث فى أحايين كثيرة عبر التاريخ، بلغ التطور الثقافى خلال المرحلة السابقة أوجه فى عصر الطوائف، وهو أشد حيوية وأقل صقلا، ومعا حدث الانحدار السياسى والتفوق الفكرى. وفى قلب إسبانيا هذه، ممزقة ومشرقة، رفرفت شخصية العلامة القرطبى خفاقة وعالية، ويمكن أن تقارن بأعظم قمم الفكر الإسبانى على امتداد كل العصور.

كان **ابن حزم** متكلمًا وفيلسوفا، فقيها وباحثًا، لغويا ومؤرخًا، شاعرًا وناثرًا، عالم نفس وأخلاق، ورجل فكر وعمل، سياسيًا وحالما. ويمكن أن يوضع إلى جانب أعظم كبار المفكرين والشعراء فى العصور الوسطى. ولو قُدر له أن يكتب فى اللغة اللاتينية أو الرومانية لبلغ اسمه من الذيوع والشهرة ما بلغه **دانتى**، أو **القديس توماس الإكوينى**. ولكن على العكس، ومن الضرورى أن نصرح به، استطاع أن يبلغ هذه المرتبة العملاقة لأنه كان إسبانيًا مستعربا، ولو كان غربيًا خالصًا في الأيام التى قدر له أن يعيشها لكان من الصعوبة البالغة بمكان أن يبلغ القمة التى حلّق فوقها فكره، لأن الثقافة الأوربية خلال النصف الأول من القرن الحادى عشر، واتسمت بالفجاجة، كان ممكنًا أن تدمر القدرة الخالقة عند حفيد الإيبيريين الإسبان القدامى، أبناء فرضة نهر ولبة Huelva .

إن المعادلة الجبرية بين السلالة والأرض والوعاء الثقافى والتوتر التاريخى والحياة العائلية، وكلها تلعب دورًا حاسمًا فى ازدهار شجرة العبقرية، معقدة للغاية، ولأنها اكتملت حول ابن حزم استطاع أن يصبح على نحو ما كان عليه، ولهذا نستطيع أن نفهمه فحسب إذا وضعناه وسط سلالته، وعدنا به إلى أجواء عصره، وتسربنا إلى أعماق شخصيته.

• **العناصر الإسبانية فى ابن حزم :**

لقد حاول كبار المستشرقين تحليل هذه العناصر، وتميز المستشرقون الإسبان من بينهم على نحو رائع، وبخاصة **ميجيل أسين بلاثيوس، وإميليو غرسية غومث**. ولن أحاول اكتشافه الآن، وأنا أرزح تحت أعباء سنين طالت، لأن ذلك يكاد يدفع بى إلى حالة من الوجد أمام أعماله، أو يدعنى تستحوذ علىَّ حماسة مبتدىء خطرة، وكلاهما - الوجد والحماسة - أفسدا الفكر الجاد لبعض المدركات التاريخية فى كتب ابن حزم، وفى الاعترافات التقية المتأخرة للمفكر الأندلسى العظيم. ومنذ أن نشر أسين **بلاثيوس** شيخ المستشرقين الإسبان المعاصرين، ترجمته لكتاب: **«الأخلاق والسير فى مداواة النفوس»** عام ١٩١٦[١]، والجزء الأول من دراسته عن ابن حزم وكتابه: **«الفصل فى الملل والأهواء والنحل»** ونشره عام ١٩٢٧ - وما أكثر الأمسيات التى شهدت فيها أسين يترجم الكتاب، ويسود الصفحات البيض، فى مكتبه من شارع أنتشا Ancha ! - أحسست بالأهمية المتزايدة لهذه الشخصية الإسبانية المسلمة المنقطعة النظير، وإحدى أفكاره عن الحروب الأهلية: **«نوار الفتنة لا يعقد!»** باشرت تأثيرًا حاسمًا على موقفى من صراع الأخوة المتقاتلين فى الحرب الأهلية الأخيرة، ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ، والتى مزقت وطنى فى قسوة. وتوارد فى ذهنى تفكير ابن حزم عنها، وهو مصيب للغاية، وجرى به قلمى فى مقدمة كتابى: **«حول أصول الإقطاع»** وكتبته فى مدينة بوردو بفرنسا، بينما الإسبان يتقاتلون فى وحشية قليلة النظير. وفيما بعد، عندما أعددت كتابى عن **«إسبانيا الإسلامية»** كان على أن ألتقى مع ابن حزم من جديد، واعترتنى دهشة قوية عندما تأكدت لى إسبانية مزاجه وشغلنى الأمر مشتاقا، فعرضت له فى عدد من المحاضرات، وفى مقالين أو ثلاثة.

وأحد كتب ابن حزم، هو **«طوق الحمامة»** تُرجم إلى عدد من اللغات الأوربية الحديثة: الإنجليزية والروسية والفرنسية والإيطالية، والإسبانية أخيرا[٢]. وهذه السلسلة من الترجمات تؤكد الاهتمام الذى أثاره الكتاب فى عصرنا خارج دائرة المستشرقين والعاكفين على الدراسات. لقد استطاع القرطبى، علامة عصر الطوائف، أن يصبح معاصرا، وأن يشد انتباه قطاعات عريضة من المهتمين بالظواهر الأدبية، والمغرمين

---

(١) نشرت دار المعارف كتاب الأخلاق والسير بتحقيقنا مع مقدمة وافية، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٩٢.
(٢) وقد ترجم إلى اللغة البولندية عام ١٩٨٠.

بالمشكلات التاريخية. لقد احتل ابن حزم المقام الأول من اهتمام المفكرين والمؤرخين والمثقفين والباحثين، وحتى من ذوّاقة الأطعمة الممتازة العارفين، بين الآداب القديمة على امتداد كل العصور، وهو ما يبرر اهتمامى بشخصه وبمؤلفاته، ومع ذلك فلن أحلل لا هذا ولا ذاك. إن اهتمامى - كمؤرخ - ينصب على انصهار واستمرار ما هو إسبانى فيه، وشدّنى إليه ما يثيره من سؤال حين نضعه داخل النّمط الحيوى لشبه الجزيرة الإيبيرية، وارتباطه به، ارتباطات نستطيع أن نقول إنها تلتقى مع إسبان آخرين من عصور متفاوته جدا، جاءوا قبل هذا القرطبى المسلم، أو بعده، بألف عام، وكتابه عن الحب يمكن أن يقرأه اليوم ملايين الغربيين فى لغاتهم القومية. وثمة مشكلة مسبقة تعترض طريقتى، طرحها، وعرض لها على طريقته أورتيجا إى جاسيت.

لقد شَرُفت ترجمة **«طوق الحمامة»** إلى الإسبانية ودراسته التى قام بها **غرسية غومث**، بمقدمة للأستاذ العظيم **أورتيجا إى جاسيت**، وحاول فيها أن يقدم تفسيرا جديدا للعصور الوسطى، وكان قادرا بعمق نظرته، وحدة ذكائه، على أن يرى بوضوح، وسط الضباب الذى يحول بين الآخرين، وأنا أحدهم، وبين تأمل أسرار التاريخ والحياة، وأن يحدد مبدعًا مرحلة ذات نتائج مأسوية بالغة الخطورة فى حياة أوربا، على نحو ما فرضتها العصور الوسطى، وكان الأمر، مع ذلك، مجازفة خطيرة، وأورتيجا وحده يستطيع المغامرة بمواجهتها فى لطف وفى نجاح فيما قدم لنا، وليس مهما أن يكون نظرية لا تقبل الهجوم، وهو نفسه حدد لنا العلم منذ أعوام بأنه مصباح ينير المشكلات موضع النقاش، ولكنها أفكار كثيرة خصبة، على المؤرخين أن يضعوها فى حسابهم فى قابل الأيام.

- **إسبانيا ثمرة اللقاء بين المسيحية والإسلام :**

لقد حدّد أورتيجا فكرته الجديدة عن العصور الوسيطة، يقول: «العصور الوسطى الأوربية لا تنفصل فى الحقيقة عن الحضارة الإسلامية، لأنها تقوم بالدقة على التعايش، إيجابًا وسلبا فى الوقت نفسه، بين المسيحية والإسلام فوق رقعة مشتركة تشربت بالحضارة الإغريقية الرومانية» ولقد كتبتُ هذه الكلمات التى تشير إلى العصور الإسبانية منذ ما يقرب من ربع قرن، فى مقال لى بعنوان: «إسبانيا والإسلام» ونشرته فى مجلة الغرب Occidente التى أسسها أورتيجا إى جاسيت، ودعمها على امتداد أعوام طويلة، وانتهيتُ فيه إلى أن إسبانيا برزت ثمرة اللقاء بين المسيحية والإسلام على أرض شبه

الجزيرة فى حالى الحرب والسلم على السواء. وأنا لا أنكر خصوبة التعايش بين العالمين الإسلامى والمسيحى فى العصور الوسطى، غير أنى لا أقبل القول بأن المنعطف التاريخى للعالم المسيحى، بكل ضبابه المتراكم وتطوره الحاسم ودوره فى نهضة أوربا الحديثة، كان وليد ذلك التعايش. ولكنى أتمنى بقوة أن يكون لهذه الصيحة العالمية التى أطلقها أورتيجا دوىّ وأن تجد لها خارج إسبانيا صدى، لأن المؤرخين حتى يومنا لا يقدرون الدور الذى لعبه الإسلام فى التاريخ الأوربى الوسيط، ولا يعطونه ما يستحقه من اهتمام.

وأخشى أن يكون **أورتيجا** قد ذهب بعيدا حين انتهى إلى أن الجرمانية والعربية كانا «جسمين متشابهين للغاية فيما يتصل بموقفهما الجوهرى من الحياة» فى بداية العصور الوسطى. لأن من الواضح أنهما مختلفان بدءا، ولكن أحدا من المؤرخين لم يغامر بإبداء رأيه على غير أساس، وفى غير أناة، عن نظرية «عدم المجانسة». إن ازدراء **أورتيجا إى جاسيت** للمؤرخين ظالم ومألوف، وجاء وليد إطلاق اسم هؤلاء على العلماء الموسوعيين الخلّص، وهؤلاء تعوّدوا أن يطلوا على التاريخ من وراء غمام، كخيل المصارعين حين تظهر فى حلقة مصارعة الثيران. ولأنه تعوّد على الحرية الرائعة لحركة الفلاسفة، الذين يستطيعون أن يمتطوا سراعا صهوة الأفكار المندفعة، ومن ثم فهو لا يستطيع أن يقيّم فى دقة مأساة المؤرخين، تقيّدهم الأحداث التاريخية فى قسوة، أحداث ليست هى التاريخ، ولكنها تصنعه وتحدده وتعتقله. وإذا كان بيننا كثيرون يستحقون أن يجلدهم بسياط نقده، فإن ذلك لا يعطيه الحق فى أن يلوّح بها ضد الجميع.

ويؤكد **أورتيجا**، وتأكيده مقنع: واقعُ أن الشعوب ذات الثقافة البدائية (والتشابه فى البدائية لا يعدل – فى رأيى – التشابة الجوهرى، فثمة أنواع كثيرة من الوجود البدائى) كانت تشغل فراغًا اجتماعيًا، على رقعة الإمبراطورية الرومانية، وسبقتها حضارة بلغت قمة الرقى، وللسبب نفسه كانت أشد تعقيدا وأرقى صقلا. ولكنه لم يقف عند حد التفرقة بين الاختلافات الكبيرة التى كانت تفصل بين القارتين قديمًا، فى عالم العرب والجرمان، وهى اختلافات خصبة، ذات نتائج تاريخية بالغة الأهمية. ألا يبدو له من الأهمية بمكان أن هؤلاء دخلوا عالمًا ثقافيًا، تأثر بالثقافة الجرمانية إلى حد بعيد، وهى حقيقة لا تقبل المناقشة، ولا يمكن أن تُنسى فى عالم اليوم، وأنهم دخلوها مخلوقات عارية، تحت راية الرغبة ذاتها، ووحدها، وتدفعهم القوة أو الخوف – والخوف، لكى لا ننسى، عامل تافه فى الحدث التاريخى – دون أن يحملوا على أسنة رماحهم، أو فى

أطراف سيوفهم، أى كتاب مقدس، ودون أن يخفوا نهمهم القوى فى أن يصبحوا سادة البلاد التى فتحوها، ودون أن يرفعوا علمًا أية فكرة خصبة وجذابة وقادرة على أن تثير الحمية فى نفوس الجماهير الغربية؟.

ولم يكن **العرب** كذلك. لم يتوغلوا فى عالم أضلّته العروبة باسم الرغبة الخالصة والوحيدة فى أن يصبحوا سادة بلاد الأعداء، ولم يدخلوها عراة من الثقافة، وإنما عبروا حدود الجزيرة العربية ليكملوا وصاة الرسول، ولينشروا بحد السيف عقيدة جديدة، ولأنهم، بوضوح، حققوا فتوحاتهم تحت راية عقيدة دينية، وفتحوا صفوفهم فورا للراغبين فى اعتناق الإسلام من أبناء الشعوب التى أخضعوها. وكانت خلافة دمشق فى الحقيقة إمبرطورية سورية، وخلافة بغداد إمبرطورية عراقية، وكلاهما يحتمى بقبلة الإسلام. ولقد حاول العرب في البدء أن يستردوا دفة الإسلام السياسية والاقتصادية عن طريق الحرب، وانتهت بأن أشعل السوريون النار فى المدينة المقدسة، وفيما بعد لم تستطع القلة من العرب التى استقرت فى البلاد المفتوحة، وقد فاضت بسكانها ممن اعتنقوا الإسلام، دين العرب، فى سرعة عجيبة، أن تحتفظ إلا بالقليل من تكوينها الحياتى الأصلى. ويمكن القول أن أبناء الشعوب المفتوحة هم الذين صنعوا تاريخ الإسلام، بينما واصلت أغلبية العرب حياتها فى جزيرتهم شبه الصحراوية، دون أن يتلقوا الحضارة التى صنعها المنحدرون من أصلاب مَن انهزموا أمام الإسلام.

لا أستطيع اليوم أن أقف مع الرأى القائل بأن أوربا الإقطاعية كانت عملا جرمانيًا – كما كان يعتقد قديمًا – ولكن من الضرورى الاعتراف بأن الجرمان، بما فيهم أولئك الذين ظلوا فى مواطنهم البدائية الأولى فيما وراء نهر الرين لم يكونوا بمنأى عن هذه المغامرة العملاقة الخلاقة، على حين كان عمل العرب الخلص فى تكوين حضارة وأسلوب الحياة الإسلامية محدودا.

- **ابن حزم : عربى إسبانى أم إسبانى متعرّب ؟ :**

وآسف لأنى استخدمت تعبير «أسلوب الحياة الإسلامية»، لأنى أشك كثيرا فى أنه يوجد فى الحقيقة أسلوب إسلامى للحياة. وقد دفع اعتبار الأسلام وحدة جوهرية وثقافية **بأميركو كاسترو** إلى أن يرتفع ببناء نظرية بالغة الضعف، ولقد تساءل **أورتيجا إى جاسيت** منذ أعوام طويلة: يا إلهى ماذا تكون إسبانيا هذه؟ وبالصرخة المأسوية نفسها يمكن أن نسأل: ما الإسلام؟ لأنى لا أومن بوحدة التكوين عند الشعوب التى تعبد الله

الرحمن الرحيم. لا أستطيع أن أوافق **أورتيجا** فيما وصف به **ابن حزم** من أنه **عربى إسبانى**، وأجرؤ على أن أناديه بما هو نقيض لقوله: **إسبانى متعرب**.

من الواضح أننا إذا احتفظنا بصفة **إسبانى** لمن عاشوا طبقًا لأشكال الحياة الإسبانية المعاصرة، فإن مؤلف «طوق الحمامة» ليس إسبانيا وأسمح لنفسى أن أرد هنا على التحديد البسيط الذى أعطاه **أميركو كاسترو** لمفهوم «إسبانى». إذا أطلقنا لفظ «إسبانى» على أولئكم الذين فكروا وأحسوا وعاشوا، على نحو ما كان شائعًا فى فترة من تاريخ إسبانيا، مهما تكن، فإن أسلافنا من ثلاثة آلاف سنة يمكن أن ينكروا، وبحق، صفة إسبانى على أورتيجا إى جاسيت، وأميركو أو غرسية غومث وأنا. لأننا لا نفكر ولا نحس ولا نعيش على نحوهم.

أعتقد أن الرجل هو التاريخ، على حين يرى **أورتيجا** أن الشعوب تتغير مع حركة الأجيال السريعة، وأن الأمس يختلف دائمًا عن اليوم، وأن اليوم يغاير الغد، ولا يوجد عصران إسبانيان متماثلان. وذلك يسمح لنا، بل يضطرنا، أن نعتبر إسبانيين كل أولئك الذين على امتداد التاريخ، داخل إسبانيا وخارجها، فكروا وأحسوا وعاشوا على نحوها ما كان مألوفا إذ ذاك، فى إسبانيا الرومانية، قبل **فرياتو** Viriato بزمن طويل، وحتى بعد **بريم** Prim بقرون عديدة[1].

وأمر آخر لا يمت لذلك بصلة: أن نحدد ما إذا كانت هناك ملامح مشتركة بين إسبانيا الماضى البعيد، وأمس، واليوم. والموضوع هام لكى نحدد بدقة قدر ما فى مؤلف **«طوق الحمامة»** من إسبانية حقة. وثمة أخبار مثيرة لرحّالة أفريقى من القرن السادس قبل الميلاد، يروى أن سكان مرسيلية كانوا مغرمين بقص الحكايات والروايات، ويمكن أن نجد شواهد أخرى كثيرة مشابهة.

مهما يكن عدد الذين يمكن أن يتسع لهم هذا الباب، فإنى لا أومن بأن للأرض أو السلالة تأثيرا حاسما عبر التاريخ، ولا فى استمرار الخصائص الجماعية للشعوب إلى ما لا نهاية. إن التاريخ وليد لعبة معقدة بين قوى مختلفة، منها الأرض والسلالة، وكلاهما يلعب، بالطبيعة، دورا فعالا. والتركيب الحيوى للشعوب ليس خالدا، لأنه يرتبط بالتطور

---

(١) فريانو أبيرى تزعم الثوار فى شبه جزيرة أيبيريا ضد الاستعمار الرومانى، فدفع الرومان بمن اغتاله عام ١٤٠ قبل الميلاد.

وبريم، قائد أيبيرى، اشتهر فى الحروب الأهلية التى عمت أسبانيا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر.(المترجم)

التاريخى الخاص بكل شعب: ثباته أو تغير ما ورث من مزاج، واستمرار بعض الملامح المميزة لشخصيته، والإيقاع الذى يسير عليه فى علاقته مع الآخرين أخذا وعطاء.

وليس صعبًا – ولا أجروُ على أن أخط مخاطرة، لأنها لم تكن كذلك، فالتاريخ وليس المغامرة هو الذى سهل لطارق بن زياد، وموسى بن نصير عبور مضيق جبل طارق – أن نوضح أن خصائص التاريخ الإسبانى الوسيط حددت مسار تقدمنا التاريخى، وجاء فى زحف السلحفاة خلال حرب الاسترداد، وليغفر لى أورتيجا أن أنقل عنه هذه الاستعارة القديمة التى استخدمها قبلى، ولو أن محتواها يمكن أن يكون موضع نقاش. فنحن شعب أوربى، أقرب ما يكون بماضيه المتميز إلى أسلافه القدامى، وقد مضت عليهم آلاف الأعوام. وهى خصائص حاولت أن أوضحها مفصلة، وأودعتها كتابًا ضخمًا، وحتى خلال الحكم الإسلامى واصل الكثير من هذه الخصائص الإسبانية القديمة حياته، لأن الإسلام الأندلسى إعْتُقِلَ فى ماضى سكان شبه الجزيرة الإيبيرية، لأسباب أحتفظ بها الآن.

ليس السلالة أو الأرض إذن هما اللذان صنعا من مؤلف «طوق الحمامة» إسبانيًا، وإنما صاغه التاريخ من طين ولبة الأيبيرية، ومن دم إيبيرى يتدفق عبر جدوده المولَّدين، وهى حقيقة نُسيَت، كما نُسِى من قبل أن نهر تنتو Tinto أقدم نهر إسبانى.

وفى شعب يتقدم عبر التاريخ بخطى بطيئة، ونقول هذا إبراء لذمة الإسبانيين، فإن ثلاثة قرون غير كافية لتغيير التكوين المزاجى للمجموعة، ولنحذر من أن نفكر مثل أميركو كاسترو فى أن إسبانيا قد تعربت ثقافيًا وحيويًا بعصا سحرية منذ لحظة الفتح عام ٧١١ م. لقد كان التعريب الثقافى بطيئًا للغاية، ويقول غرسية غومث فيما كتب من قريب: «بعد اكتشاف «الخرجات» الرومانثية للموشحات، وشىء مثير من مخبّآت العصر الأدبية، بدأنا ندرك اليوم بوضوح أهمية النتائج التى أدى إليها الازدواج اللغوى فى إسبانيا الإسلامية، وأصبحنا نعرف الرقعة المحددة التى لاذت بها العربية الفصحى فى نطاق الدولة، وأما التعريب الحيوى لإسبان الأندلس فربما لم يتحقق أبدا، إذا فهمنا من «التعريب الحيوى» شىء يتجاوز اتخاذ العادات الخارجية للحياة اليومية. وفى كل الأحوال رأت إسبانيا الإسلامية شعبًا يتحرك فى تؤدة، ليصبح هجين الفكر على مهل، وطبقًا لما قاله، وقرره، كل المستشرقين، كانت المسافة واسعة بينه وبين كل ما هو شرقى حقيقى فى كثير من مظاهر مزاجه. ولقد أبرز غرسية غومث «غربية» شعور ابن حزم، وأزاح ابن حزم نفسه الستر عنها حين قال:

أنا الشمسُ فى أفق العلوم منيرة ولكنّ عيبى أنّ مطلعىَ الغربُ

لا لم يكن مسلمو الأندلس قد أهدروا كل تراثهم من المزاج الإسبانى فى ثلاثة قرون، ومن ثم فإن **ابن حزم** كان إسبانيا تعرب ثقافة، ولم يكن عربيًا إسبانيًا.

ابن أحد وزراء **المنصور بن أبى عامر**، دكتاتور الأندلس، وكان معاصروه وتلاميذه من شبه الجزيرة يرونه حفيدا لمولدين، أى أنه ينحدر أبا من أصول إسبانية أسلمت، وكانت الأم إسبانية على التأكيد، لأن مسلمى الأندلس، حتى الخلفاء منهم، ولدوا لأمهات ينحدرن من سلالات إسبانية عريقة، فهم من هذا الجانب إسبانيون جميعًا، ولكن **ابن حيان** المؤرخ، **وابن سعيد** صاحب **«المغرب فى حلى المغرب»** يصرخان بأن **ابن حزم** كان كذلك من جهة الأب أيضًا.

يقول المثل الإسبانى «أنت أشبه بمن تعيش بينهم منك بمن ولدت لهم» وهى فكرة لا يمل ترديدها، فى كلمات أكثر نبلا، أولئك الذين يعتقدون أن التربية تنتصر على الدم فى تكوين الشخصية الإنسانية. ولكن حالة **ابن حزم** تقف عالية في مواجهة هذا القول، فهو مسلم ومتعرب حتى الأعماق ولكن روحه واصلت إسبانيتها دون أن تنحرف. وما نعرفه عن الداخل الروحي للمفكر القرطبى العظيم قليل جدا، وقد توقف بإزائه تلاميذه ودارسوه، فى فطنة أحيانًا، وممزوجة بالغيظ أحيانًا أخرى. وكشف هو عنها في كتاباته، وألف – كما قلنا – حول موضوعات وفيرة التنوع، من كلام وفلسفة وفقه وأدب وتاريخ وغيرها. ولكن شخصيته تبدو فى قمة توهجها خلال ثلاثة كتب شهيرة: **«طوق الحمامة»**، وفيه يلتقى الشاعر وعالم النفس ليرسما لوحة جميلة للحياة العاطفية على أيامه. وكتاب **«الفصل فى الملل والأهواء والنحل»**، وهو تاريخ مقارن للأديان، وفيه يدلق معارفه الواسعة الثقافات، إسلامية وفارسية وإغريقية ومسيحية ولاتينية، ويظهر عمق ذكائه الفلسفى، وقوة عقله الخلاق. وكتاب **«الأخلاق والسير فى مداواة النفوس»**، وفيه أورد ملاحظاته على نفسية معاصريه موشاة بحكم أخلاقية، واعترافات ذاتية صادقة، تجعله صنو **ديمقريط** Democrite[1]، **وسينكا** Seneca[2]، وتارة يشبه

(١) ديمقراط: فيسلوف إغريقى عاش قبل الميلاد، وتنهض فلسفته على السخرية من جنون الإنسانية.

(٢) سينكا: (٤ قبل الميلاد – ٦٥ بعد الميلاد) فيلسوف وخطيب ومسرحى أيبيرى، ولد فى قرطبة وعاش فى روما، وترك عددا من المؤلفات والمسرحيات الشعرية وغيرها.

القديس أغسطين[١]، أو يذكّر **بتيوفراست** Teofraste[٢]، أو يسبق فى أفكاره **بيكون** Bacon[٣]، أو **لابروير** **La Bruére**[٤]، أو يبدو كما لو كان سلفًا للشاعر الإسبانى **كيبيدو** Quevedo[٥]، أو مواطنه المفكر **أونامونو** Unamuno[٦].

وليس من الصعب أن نكتشف فى الملامح النفسية التى أوردها عنه من ترجموا له، أو تناثرت فيما كتب لنفسه عن نفسه، أو فى اعترافاته، عمق حيويته الإسبانية، ولكن.. فلنمض فى رحلتنا معه على مهل.

- **من مدينة الزهراء إلى الإسكوريال :**

لطالما وجدتنى مشدودا إلى الموازنة بين تاريخ إسبانيا الإسلامية وتاريخها المسيحى!.

ومنذ سنوات رسمت صورة لحقبتين من حياة إسبانيا، تفصل بينهما قرون عديدة من الزمن، وألوان مختلفة من الثقافات، ولقد أبديت اهتمامًا كبيرا فى دروسى ومحاضراتى بمدينة **الزهراء** التى بناها **عبد الرحمن الناصر** تحت جبل العروس، من قبلة الجبل، شمال قرطبة، بين عامى ٩٣٦ و٩٦١ م، أى منذ ألف عام، وما أكثر ما أشرت إلى بنائها تفصيلا، فى ضوء المعلومات التى أوردها لنا **ابن حيان**، المؤرخ القرطبى العظيم، فقد ذكر الأعمدة: عددها، والرخام الذى استخدم فيها وثمنه، ونفقات قطعه وحمله وألوانه، وعدد العمال الذين كانوا يشتغلون فى البناء، والدواب التى تستخدم فى النقل من بغال وجمال، ومقدار ما تنقل، وما يدفع لها وللعاملين عليها من كراء، تجىء وتذهب فى قوافل لا تنقطع بين قرطبة والزهراء، محمّلة بالرخام والجيار والجص والأخشاب، وكل ما يتطلبه البناء من مادة وأدوات. ولقد أسعدنى ما أثارته هذه الحقائق

---

(١) القديس أغسطين: (٣٥٤-٤٣٠ م)، راهب كاثوليكى، من شمال أفريقية، ولد لأب وثنى، وأمضى شبابا متهتكا، ابن من علاقة غير مشروعة، واتخذ من الرهبنة لباسا، وأصبح من كبار رجال الدين الكاثوليك، وبلغ فى مجال الكتابة درجة عالية، ومن أشهر مؤلفاته: اعترافات.

(٢) تيوفراست: (٣٧٢-٢٨٧ ق.م) فيلسوف أغريقى.

(٣) بيكون: (١٢١٤-١٢٩٤ م) عالم وفيلسوف إنجليزى شهير، صاحب المذهب التجريبى فى الدراسة.

(٤) لابروير: (١٦٤٥ - ١٦٩٦م) كاتب وأخلاقى وروائى ومسرحى فرنسى.

(٥) كيبدو: (١٥٨٠-١٦٤٥) شاعر وكاتب إسبانى.

(٦) أونامونو: (١٨٦٤-١٩٣٦) كاتب إسبانى، فيلسوف وشاعر، مسرحى وروائى، ومناضل سياسى، ودنيا واسعة من الثقافة العريضة والعميقة، غزير الإنتاج، ويلتقى مع كاتبنا العظيم عباس محمود العقاد فى جوانب كثيرة، ويصلحان موضوعا شيقا لدراسة مقارنة. (المترجم)

من دهشة بين السامعين. ثم وصفت لهم فخامة قصر الخلافة، وبنى بأعلى الزهراء، والحدائق الخضراء تطوق المدينة من كل جانب، وتشغل ما بينها وبين مرتفعات الشارات، «وقد اتخذها الناصر لنزله، وكرسيا لملكه، وأنشأ فيها من المبانى والقصور والبساتين ما عفَّى على مبانيهم الأولى، واتخذ فيها محلات للوحش فسيحة الفناء، متباعدة السياج، ومسارح للطيور مظللة بالشباك، واتخذ فيها دورا لصناعة الآلات، من آلات السلاح للحرب، والحلى للزينة، وغير ذلك من المهن». وكانت تضم منازل رجال البلاط، وكبار الموظفين. وتأنّيت وأنا أرسم صورة للبهو الأعظم، وكان معدا لاستقبال السفراء والوفود وكبار الزائرين، سقفه من الرخام المذهب، وفرشت أرضه بالسجاد الفاخر، وأقام له فى رأسه كرسيًا من الذهب الخالص، وتوسطته بركة كبيرة من الزئبق، «وكان فى كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب، قد انعقدت على حنايا من العاج **والآبنوس** المرصع وأصناف الجواهر، قامت على سوارى من الرخام الملون والبلور الصافى، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها فى صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار. وكان **الناصر** إذا أراد أن يفزع أحدا من أهل مجلسه أومأ إلى أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر فى المجلس **كلمعان البرق من النور**، ويأخذ **بمجامع القلوب**، حتى يخيل لكل من فى المجلس أن **المحل** قد طار بهم، ما دام الزئبق يتحرك». وأنهيت وصفى لمدينة الزهراء بكلمات دامعة، وقفت فيها على أطلالها، وأسفت لتدمير الكثير من روائعها فى الثورات التى اجتاحت قرطبة بسبب دكتاتورية المنصور وأبنائه من بعده.

وحدث الشىء نفسه فى مدينة بونس **أيريس** عاصمة **الأرجنتين**، عام ١٩٣٣ ،فى محاضرة ألقيتها عن «الحياة فى قصور خلفاء قرطبة منذ ألف عام». وفجأة ومض فى داخلى خاطر، وقفز فكرى بعيدا، فى الزمان وفى المكان، لكى أنتقل إلى قصر ملكى آخر، لأمراء إسبانيين، أقيم على نحو ما فعل **عبد الرحمن الناصر** فى سفح جبل آخر، قريبًا من عاصمة إسبانيا على أيامهم.

لقد حلق بى الخيال عاليًا، ومشدودا إليه، تجتاحنى مشاعر وذكريات ركنين فى وطنى البعيد والمعبود، ولحظتان حاسمتان من تاريخه، وجدتنى أقول:

«لا ترد فى خاطرى **مدينة الزهراء** أبدا إلا وجمح بى حصان خيالى، والآن، كما يحدث دائمًا، أنطلق فى تذكّرها، بأسرع مما ينطلق الفرس، أو تندفع الرصاصة،

إلى سلسلة جبال **وادى الرمة**، وعبر خيالى، فى رحلة طائرة رائعة، أشجار سلسلة جبال **«مورينا»**، ووديان **«لامنتشا»**، وقمم جبال **طليطلة** المتلاحمة، ومتعطفات نهر **«تاجُه»** تطوق المدينة مثل حمائل سيف مفضض، وقباب **مدريد** وغاباتها، وناطحات سحابها، لكى أتأمل فى شوق حزين قصور مدينة ملوك إسبانيا من أسرة **أشتورياس**: **الإسكوريال**.

مدينة الزهراء والأسكوريال!. ليس ثمة تناقض أشد حدة مما بينهما، فإلى جانب قصور **خلفاء قرطبة** ضوء أندلسى يعشى البصر، وأرض ذات أسرار، وخضرة شبقة، وبرتقال وزيتون، وحول قصور **ملوك مدريد** لوط وصفصاف، وأعشاب وزعتر، وصخور شهباء، وصقيع وبرد. وفى مدينة **الزهراء** رخام وفسيفساء، وزخارف فاخرة، وبرك وحمامات، وقاعات مذهبة. وفى **الأسكوريال** رخام ومعمار تحكمه هندسة دقيقة، وصوامع غبرة، وممرات عابسة، وعنف. فى مدينة **عبد الرحمن الناصر** قصور ومساجد، خصيان ونساء، شعراء وجنود، موسيقى وألوان متوهجة، وسجاد وحرير وعطور، وأقوام تتحدث العربية. وفى **الإسكوريال**، مقر **فيليب الثانى**، رهبان وراهبات، وأغنيات دينية، ومحادثات هامسة كالصلاة، وأردية سوداء من نسيج قشتالى، وصمت وهدوء. فى «شارات» قرطبة لذاذات وقسوة، ودم وشهوة، وعواطف متفجرة، وفى **وادى الرمة** المثلج صلوات خاشعة، ومشاعر مكبوتة وتصوف. وعلى منار مسجد الخليفة صوت المؤذن يدعو إلى الله الرحمن الرحيم، وألسنة النواقيس فى أبراج الدير الملكى، فى الإسكوريال، تدعو المؤمنين بابن الإنسان وابن الله إلى القداس. ليس ثمة تناقض أشد حدة مما بين مدينة **الزهراء والإسكوريال**، ومع ذلك، كما يقول بيت من الأغنية الشعبية الأندلسية. «ثمة خيط خفى رفيع يصل بين الإثنين».

نعم، **مدينة الزهراء، والإسكوريال!**. كل واحدة منهما تمثل قمة مرحلة فى حياة إسبانيا. كانت **مدينة الزهراء**، فى القرن العاشر الميلادى، حاضرة الأندلس، وإسبانيا الإسلامية القوة الأولى فى غرب البحر الأبيض المتوسط، تملك مضيق جبل طارق، وتسيطر على المغرب الأقصى ويطلب صداقتها والتحالف مع خلفائها إمبراطور جرمانيا، وقيصر بيزنطة، ويرسلان إليها السفراء والهدايا، **وقرطبة إذا ذاك أكبر** مدن المغرب، وأعظمها ثقافة وأكبرها غنى. وفيها نضجت الثقافة الأندلسية الرائعة، وستأخذ موضع الأستاذ من أوربا الغارقة فى الظلام، وتدفع بها إلى أول نهضة أوربية عرفها القرن الثالث

عشر الميلادى. وعلى حين يسود فى شمال جبال البرانس اقتصاد بدائى، وكل النشاطات التجارية والصناعية خامدة كان يزدهر فى شبه جزيرة إيبيريا اقتصاد يستخدم النقود، وتدعمه حياة ناجحة متحضرة، وصناعات متنوعة، وتجارة نافقة يتجاوز الحدودَ نشاطُها.

وعندما ارتفع بناء **الإسكوريال** كتلا فى القرن السادس عشر، فوق صخور **وادى الرمة**، كانت إسبانيا أعظم قوة فى العالم، اكتشفنا وغزونا أمريكا، وعندما انتصرنا على **الأتراك** فى موقعة **لبانتى** lopante[١] غيرنا إلى الأبد التكوين الجغرافى للحضارة التى كانت تعيش حول البحر الأبيض المتوسط، وانحسر الإسلام، وكان إحدى القوى العالمية فى مطلع العصر الوسيط، إلى المشرق وإفريقية، وبدأت البابوية والإمبراطورية، شمسًا سماء العصر الوسيط، تدوران فى فلك الشمس الإسبانية، **ففرنسا** خصمنا مقهورة وعاجزة، وتعانى من تدخل مدريد النشيط، حتى أصبح الجنود الإسبان زينة **باريس**. وفى **سلمنقة** فتحت مدرسة فيتوريا Vitoria المجال واسعًا أمام حقوق الجماهير، وفى **طليطلة** يرسم **الجريكو** ElGreco[٢] وفى أبلة تكتب **سنتا تريزا**[٣] **وخوان دى لاكروث**[٤]، وكان **ثرفانتيس**[٥]، **ولوبى دى بيجا**[٦] فى طور التكوين، وأنقذ علماء اللاهوت والمفكرين الإسبان القيم الأخلاقية الخالدة، وكان عصر النهضة ممثلا فى شخص **مكيافلى** Machiavelli[٧] **وبودين** Bodin[٨] قد ألقى بها فى القاع، وأنقذت أيضًا سيادة الروح بعد

(١) معركة بحرية جرت فى خليج لبانتى عام ١٥٧١ ، بين الجيش العثمانى، وجيوش أوربا مجتمعة بقيادة دون جوان ملك النمسا، وقد أنزلت الأساطيل الأوربية الكاثوليكية المتحالفة هزيمة فادحة بالأسطول العثمانى.

(٢) الجريكو: ١٥٤١-١٦١٤ ، من أشهر الرسامين فى إسبانيا، ولد فى جزيرة كريت، وعاش فى إسبانيا، وتوفى فى مدينة طليطلة، وله فيها متحف خاص به يجمع روائع لوحاته.

(٣) سنتاتريزا: (١٥١٥-١٥٨٢)، راهبة إسبانية، متصوفة وشاعرة وكاتبة، تعرضت لملاحقة مستمرة من محاكم التفتيش، وتركت وراءها عددا من الأعمال الأدبية الجيدة.

(٤) خوان دى لاكروث: (١٥٤٢-١٥٩١)، لاهوتى وشاعر ومتصوف إسبانى، تأثر فى فكره بالفلسفة الإسلامية، بدأ حياته يعمل ممرضا فى مستشفى، والتقى بسنتا تريزا، واستجاب لدعوتها الإصلاحية.

(٥) ثرفانتيس: (١٥٤٧-١٦١٦)، أعظم روائى إسبانى، وصاحب رواية دون كيخوته الخالدة، ذات الشهرة العالمية.

(٦) لوبى دى بيجا: (١٥٦٢-١٦٣٥)، من أعظم كتاب المسرح الإسبانى، وأخصبهم إنتاجا، وترك وراءه عددا كبيرا من المسرحيات تتناول موضوعات مختلفة.

(٧) ميكافيلى: (١٤٦٩-١٥٢٧)، كاتب وفيلسوف ودبلوماسى إيطالى، وأشهر مؤلفاته: الأمير ويدور حول مبدأ الغاية تبرر الوسيلة فى الحكومات والسياسة.

(٨) بودين: (١٥٣٠-١٥٩٦)، عالم اقتصاد فرنسى. (المترجم)

أن هددها إنتصار العقل، وأمّلت «حركة الإصلاح» فى أن تكون سيطرته على العالم مطلقة. أى أن إسبانيا ولدت الحداثة، واحتفظت، مثل ما حدث فى **أركاسنتا AreaSanta**، بقوى كانت ضرورية للرجال فى أيامنا هذه، كترياق لشفاء العقل الخالص من الضلال.

عرضت لقمتّين من تاريخ إسبانيا المنتصرة، حاكمة الشعوب، ومبدعة الثقافات، ولكن **مدينة الزهراء والإسكوريال** يرتبطان أيضًا، فى ذاكرتى، بموازنات أخرى، تتصل بحياة وموت عدد من الأمراء الإسبان. **فعبد الرحمن الناصر** مشيد **مدينة الزهراء** القرطبية أمر بإعدام **ابنه عبد الله، وفيليب الثانى** الذى أقام **مدينة الإسكوريال قرب مدريد**، سجن **ابنه كارلوس**، تركه يموت سجينا، بل ويمكن أن أقوم بموازنة بين أمراء بنى أمية الأندلسيين فى القرن العاشر الميلادى، وملوك إسبانيا المنحدرين من أسرة أشتورياس فى القرن السادس عشر. لقد ورث كل من **عبد الرحمن الناصر وكارلوس الخامس**، عن جدودهما، إسبانيا متميزة وفريدة، وواجه كل منهما مشكلات خطيرة، وكانا محاربين قويين، وعاشقين عظيمين، يحبان الحياة والمتع، وانتصرا كثيرا فى ساحة القتال، وهربا، كل واحد منهما، فى يوم مظلم كى ينقذ حياته وحريته. **هرب الناصر فى شمنقش** Simancas ، **وهرب كارلوس الخامس فى إنسبروك** Insbruk ، ومنذ هذه اللحظة أحسا بالفشل، وتحررا من الكآبة. وعاشا ما بقى لهما من الحياة بعدها. وورث كل من **الحكم الثانى وفيليب الثانى** إمبراطورية قوية عظيمة، وكانا ينفران من الحرب على نحو متساو، ولم يحدث أبدا لأى منهما، وهو يدفع بجيشه للمعركة، أن دفع الضريبة فى ساحة القتال لإله الحرب من دمه أو راحته، وأسهم فى القتال بنفسه. وكانا يحبان الورق والكتب، فلم يفارق أولهما **مدينة الزهراء**، ولا غادر الثانى قصره فى **الإسكوريال**، وكان **الحكم المستنصر** «يبعث فى الكتاب إلى الأقطار رجالا من التجار، ويرسل إليهم الأموال لشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد ممن قبله ولا من بعده».

وأرسل **فيليب الثانى** أمبروسيو دى مورالس Ambrosio de morales فى رحلة ثقافية عبر شمال إسبانيا فجمع عددا من المخطوطات والمؤلفات والكتب لمكتبة **الإسكوريال** الغنية. وكلاهما يحب مجالسة الأدباء والفنانين، وكلاهما حرمه القدر من ولى عهد قادر على حكم مملكته العظيمة. **فهشام الثانى ولى عهد الحكم، وفيليب الثالث ولى**

عهد فيليب الثانى، كانا على السواء تقيين مصليين، ضعيفى الإرادة، حتى أنهما تركا حاشيتهما تتحكمان فيهما. ولا يمكن أن نقارن بهما المنصور العبقرى، ولا المركيزدى ليرما de lerma الأخرق، ولكن لا يمكن الإنكار أن خلفاءهما عجلوا بنهاية الأندلس وإسبانيا، ودفعوا بها إلى الهاوية والدمار. نعم، ثم ذلك بإيقاع مختلف، يتناسب مع ما اتصف به كل وزير من عبقرية أو حمق، فكان سريعًا فى إسبانيا الإسلامية بعد المنصور، بطيئًا فى إسبانيا الكاثوليكية بعد دى ليرما.

مدينة الزهراء والإسكوريال، عبد الرحمن الناصر وكارلوس الخامس، الحكم المستنصر وفيليب الثانى، هشام الثانى وفيليب الثالث، المنصور بن أبى عامر والمركيز دى ليرما، ثمة خيط رفيع خفى يربط بينهم دائمًا فى ذاكرتى، ولكن هذا التقارب يأخذ خطا فيما يتصل بعبد الرحمن الناصر وكارلوس الخامس: كلاهما يفيض قوة واندفاعًا ورغبة فى العمل، دلعتهما الآلهة، ودللهما المجد، وعاشا حياة عدنية، أمضياها وهما فى قمة التمتع بالحب والرفاهية، والقوة والثروة، وقد عاش الأول أكثر من ٧٣ عاما، حكم منها ٤٩ سنة، وترك مذكرة مثيرة، كتبها بخط يده، سجل فيها أيام سروره وصفوه وهى لا تزيد عن ١٤ يومًا على امتداد حياته. وعزف الثانى عن المجد أخيرًا وسجن نفسه فى «يوست Yuste» بانتظار الموت.

عبد الرحمن الناصر وكارلوس الخامس يمثلان علامة معذَّبة. ماذا ينقصهما؟ لقد ولدا لأبوين إسبانيين، ورغم الأصول المشرقية البعيدة لعبد الرحمن الناصر، والأصل الفلمنكى لوالد كارلوس الخامس، كان يوجه مصائرهما روح إسبانى أصيل، تجمعت فيه كل عواصف الروح الإنسانى وصراعه الداخلى، اندفاعه المتصاعد، وحماسته الفاترة، ويأسه القاتم. كان يحكم كل منهما روح إسبانى عبقرى ومعقد. ومن ثم عاشا أسيرى رغبة نهمة لا ترتوى، وقلق دائم لا يتوقف، وعاشا معركة داخلية معذبة. ماذا ينقصهما؟... ينقصهما كل شىء، لأن الإسبانى الحقيقى الغارق فى السعادة مظهرا، يمكن دائمًا أن يتخذ أحيانًا من كلمات سخسموندو Segismundo[1] المرعبة مثلا ينطبق عليه: «الحياة حلم».

(١) بطل مسرحية – الحياة حلم للكاتب الإسبانى كالديرون. (المترجم)

مدينة الزهراء والإسكوريال. لقد نُهبتْ الأولى وأحرقت خلال الثورات القرطبية، وأصبحت أرضها الحزينة اليوم مرعى للثيران الهائجة، واستسلمت جدرانها لأساها العميق. بالأمس عظمة وبهجة وروعة، واليوم خراب وأنقاض وبؤس. ومنذ أعوام اكتشف بقاياها فى سفح «سييرا» قرطبة رجالُ عصرٍ كان أكبر تطلّعًا إلى الماضى، ربما خوفًا من الغد، لهم ملامح قاسية ومؤسية، ورجال كانوا يبحثون فى الأرض عن بقايا حضارات قديمة منسية، ربما لأن هاجسًا غامضًا كان يوشوش فى آذانهم بقرب نهاية عصرهم. أما **الإسكوريال** فلما يزل قائمًا. فلتحفظه الآلهة من غضب الرجال ومن حتق زمان لا يرحم.

- **إسبانية ابن حزم :**

قاومت **مؤلفات ابن حزم** محن الزمن أكثر مما قاومتها **مدينة الزهراء**، اندثر الرخام وعاشت المخطوطات، لأن روائع الفكر الإنسانى تتميز بإمكان نسخها إلى مالا نهاية، وانتقالها عبر القارات والمحيطات، حتى قبل أن تخترع الطباعة. وللمغامرة طموح، ذلك أن «**طوق الحمامة**»، وقد ترجم اليوم إلى معظم لغات العالم المثقف، أنقذه من الضياع مخطوطة وحيدة ومشرقية.

ولقد تضاعف وامتد قدر **مؤلفات ابن حزم**، والأخبار التى نقلها لنا معاصروه، والأوفياء له، عن شخصه، تسمح لى بالدفاع عن حقيقة إسبانيته.

لقد أصبحت الكلمة التى أرسلها عنه **أبو العباس بن العريف** المريّ مثلا شاع عبر العالم الإسلامي كله: «لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان»، ولأن الحجاج كان أشد قواد بنى أمية فى دمشق قسوة، فليس ثمة مدح أعظم لكلمات ابن حزم القرطبى الحادة، وقلمه الإسبانى الصارم من هذه الكلمات.

يقول ابن سعيد[1]، صاحب «**المغرب فى حلى المغرب**»: «وكان يجادل عن علمه هذا من خالفه، على استرسال فى طباعه، وبذل بأسراره، واستنادا إلى العهد الذى أخذه

(١) الواقع أن هذا النص ليس لابن سعيد، وانما لابن حيان، وقد نقله عنه صاحب الذخيرة، ونقله ابن سعيد عن الذخيرة ومنسوبا إليها، انظر :

- المغرب فى حلى المغرب، جـ ١ ص ٢٥٤ - ٢٥٥ ، طبعة دار المعارف، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٦٤.
- ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، ١٤١. (المترجم)

الله على العلماء من عباده، «ليبيننه للناس ولا يكتمونه»، فلم يك يلطف بما عنده بتعريض، ولا يزفه بتدريج، بل يصك به معارضه صك الجندل، وينشقه أحر من الخردل».

ويقول عنه معاصره **ابن حيان** المؤرخ القرطبي العظيم: «... حتى استهدف إلى فقهاء وقته، فتمالأوا على بغضه، وردّوا قوله، وأجمعوا على تضليله، وشنّعوا عليه، وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم عن الدنوإليه والأخذ عنه، فطفق الملوك يقصونه عن قربهم، ويسيرونه عن بلادهم، إلى انتهوا به إلى منقطع أثره بتربة بلده من بادية **لبلة**، وبها توفى رحمه الله سنة ست وخمسين وأربعمائة، وهو فى ذلك غير مرتدع ولا راجع إلى ما أرادوا به، يبث علمه فيمن ينتابه من عامة المقتبسين منه، ومن أصاغر الطلاب الذين لا يخشون فيه الملامة، يحدثهم ويفقههم ويدارسهم، ولا يدع المثابرة على العلم، والمواظبة على التأليف، والإكثار من التصنيف حتى كمل من مصنفاته فى فنون العلم وقر بعير، ولم يعد أكثرها عتبة بابه، لتزهيد الفقهاء طلابَ العلم فيها حتى أحرق بعضها بإشبيلية، ومزقت علانية لا يزيد مؤلفها ذلك إلا بصيرة فى نشرها، وجدالا للمعاند فيها، إلى أن مضى لسبيله.

«وأكثرمعايبه - زعموا - عند المنصف له، جهله بسياسة العلم التى هى أعرض من إيعابه، وتخلفه عن ذلك على قوة سبحه فى غماره، وعلى ذلك كله فلم يكن بالسليم من اضطراب رأيه، ومغيب شاهد علمه عنه عند لقائه، إلى أن يحرك بالسؤال فيفجر منه بحر علم لا تكدره الدلاء، ولا يقصر عنه الرشاء». ويتحدث **ابن حيان** أيضًا عن تعصب **ابن حزم** الأعمى لأفكاره.

ونحاول الآن أن نتعرف إلى عالم قرطبة من خلال كتاباته نفسها. وإليك الدليل على لذاعة قلمه، يقول: «إن كل مدبر مدينة أو حصن فى شىء من أندلسنا هذه، أولها عن آخرها، محارب لله تعالى ورسوله وساع فى الأرض بفساد. وينتقد بشدة من يمكن أن نسميهم بالكهنة، وهم ليسوا كذلك فى الحقيقة، لأن الإسلام لا يعرف نظام الكهنوت، ولكن يقترب من هؤلاء فى واقعهم المسيحى علماء العقيدة أو الفقهاء المسلمين: «فلا تغالطوا أنفسكم، ولا يغرنكم الفساق المنتسبون إلى الفقه، واللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، والمزينون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم».

ولنستمع إليه يعلن الحرب على النفاق والكذب: «ما رأيت أخزى من كذاب، وما هلكت الدول، ولا هلكت الممالك، ولا سفكت الدماء ظلمًا، ولا هتكت الأستار بغير النمائم والكذب، ولا أكدت البغضاء والإحن المردية إلا بنمائم لا يحظى صاحبها

إلا بالمقت والخزى والذل، وأن ينظر من الذى ينقل إليه، فضلا عن غيره، بالعين التى ينظر بها من الكلب».

ونبرهن على إسبانيته الكيخوتية[١] من قوله: «حد الشجاعة بذل النفس للموت عن الدين والحريم، وعن الجار المضطهد، وعن المستجير المظلوم، وعن المضيمة ظلمًا فى المال والعرض، وفى سائر سبل الحق، سواء قل من يعارض أو كثر، والتقصير عما ذكرنا جبن وخور، وبذلها فى عرض الدنيا تهور وحمق». ثم يضيف: «وأما الذى يعيبنى به جهال أعدائى مِن أنّى لا أبالى فيما أعتقده حقًا عن مخالفة من خالفته، ولو أنهم جميع من على ظهر الأرض، فهذه الخصلة عندى من أكبر فضائلى التى لا مثيل لها».

ونكتشف مفهومه الإسبانى للعلاقة بين الإنسان والله فى قوله: إذا لم يكن بد من إغضاب الناس أو إغضاب الله عز وجل، ولم يكن لك مندوحة عن منافرة الخلق أو منافرة الحق فأغضب الناس ونافرهم، ولا تغضب ربك ولا تنافر الحق».

وإليك البرهان على احتقاره للعادات الاجتماعية، ونفوره من خفة الذين يعبدون الشطارة، وينسون الطريق المستقيم، إنه يعترف: «إنى لا أبالى موافقة أهل بلادى فى كثير من زيهم الذى قد تعودوه لغير معنى، فهذه الخصلة عندى من أكبر فضائلى التى لا مثيل لها، ولعمرى لو لم تكن فى – وأعوذ بالله! – لكانت من أعظم متمنياتى وطلباتى عند خالقى عز وجل». ويقول أيضًا: «إيّاك وأن تسر غيرك مما تسوء به نفسك فيمالا توجبه عليك شريعة أو فضيلة». ويضيف: «وأمّا إحكام أمر الدنيا والتودد إلى الناس بما وافقهم، وصلحت عليه حال المتودد من باطل أو غيره، أو عيب أو ما عداه، والتحيّل فى إنماء المال، وبعد الصوت، وتسبيب الجاه بكل ما أمكن من معصية ورذيلة، فليس عقلا. ولقد كان الذين صدقهم الله فى أنهم لا يعقلون، وأخبرنا بأنهم لا يعقلون، سائسين لدنياهم، مثمرين لأموالهم، مدارين لملوكهم، حافظين لرياستهم، لكن هذا الخلق يسمى الدهاء، وضده العقل والسلامة».

ولنصغ إلى ثنائه الإسبانى حرفيًا، وإلى ثرثرته الإسبانية العادية: «لكل شىء فائدة، ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة، وهى أنه توقّد طبعى، واحتدم خاطرى،

(١) نسبة إلى دون كيخوته أو كيشوته بطل رواية ثرفانتيس الخالدة، وتحمل اسم البطل نفسه، وهو رجل كان يحلم باشاعة العدل، ورفع الظلم، وتنظيم الكون، ثم رأى أحلامه تتهاوى حلما وراء آخر. (المترجم).

وحمى فكرى، وتهيّج نشاطى، فكان ذلك سببًا إلى تواليف لى عظيمة المنفعة، ولولا استثارتهم ساكنى، وإقداحهم كامنى، ما انبعثت لتلك التواليف». ويكتب كاشفًا عن موقفه الإسبانى إزاء الثروة: «وذمنى أيضًا بعض من تعسف الأمور، دون تحقيق بأنى أضيع مالى، وهذه جملة بيانها لأنى لا أضيع منه إلا ما كان فى حفظه نقص دينى، أو إخلاق عرضى، أو إتعاب نفسى، فإنى أرى الذى أحفظ من هذه الثلاثة، وإن قل، أجل فى العوض مما يضيع من مالى ولو أنه كل ما ذرت عليه الشمس».

ويقول معترفًا بغضبه الإسبانى، وبما يعتمل فى أعماقه من صراع داخلى إسبانى: «كانت فىّ عيوب فلم أزل بالرياضة واطلاعى على ما قالت الأنبياء صلوات الله عليهم، والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين فى الأخلاق وفى آداب النفس، أعانى مداواتها، حتى أعان الله عز وجل على أكثر من ذلك بتوفيقه ومنّه. وتمام العدل ورياضة النفس، والتصرف بأزمة الحقائق، هو الإقرار بها، ليتعظ بذلك متعظ يومًا إن شاء الله. فمنها: كلف فى الرضا، وإفراط فى الغضب، فلم أزل أداوى ذلك حتى وقفت عند ترك إظهار الغضب جملة بالكلام والفعل والتخبط، وامتنعت مما لا يحل من الإنتصار، وتحملت من ذلك ثقلا شديدا، وصبرت على مضض مؤلم، كان ربما أمرضنى وأعجزنى ذلك فى الرضى، وكأنى سامحت نفسى فى ذلك، لأنها تمثّلت أن ترك ذلك لؤم».

وإليك برهان شعرى جميل على اعتزاز الإسبانى، فى مواجهة الحسد، وهو إسبانى أيضًا:

أنا الشمسُ فى جوّ العلوم منيرةٌ ... ولكنّ عيبى أن مطلعى الغرب
ولو أننى من جانب الشرق طالعٌ ... لجدَّ على ما ضاع من ذكرىَ النهبُ
ولى نحوَ آفاق العراقِ صبابةٌ ... ولا غرو أن يستوحش الكلفُ الصب
فإن ينزلِ الرحمنُ رحلىَ بينهم ... فحينئذ يبدو التأسف والكرب
فكم قائل أغفلتهُ وهو حاضرٌ ... وأطلبُ ما عنهُ تجئ به الكتب
هنالك يدرى أن للبعد قصّةً ... وأن كساد العلم آفته القرب
فواعجبًا من غاب عنهم تشوّقوا ... لـه، ودنوُّ المرء من دارهمْ ذنب
وإنَّ مكانًا ضاق عنى لضيقٌ ... على أنه فيحٌ مذاهبه سهب
وإن رجالا ضيّعونى لضيعٌ ... وإن زمانًا لم أنل خصبَهُ جدب

أثنى المؤرخون الإغريق والرومان على وفاء الإسبان فى صداقتهم، ويقول لنا **ابن حزم** فيما يتصل بهذا الأمر: «إنى جبلت على طبيعتين لا يهنئنى معهما عيش أبدا، وإنى لأبرم بحياتى باجتماعهما. وأود التثبت من نفسى أحيانًا، لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما، وهما: وفاء لا يشوبه تلوّن، قد استوت فيه الحضرة والغيب، والباطن والظاهر، تولده الألفة التى لم تعزف بها نفسى عما دريته، ولا تتطلع إلى عدم من صحبته. وعزة نفس لا تقر على الضيم، مهتمة لأقل ما يرد عليها من تغير المعارف، مؤثرة للموت عليه. فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو إلى نفسها، وإنى لأجفى فأحتمل، وأستعمل الأناة الطويلة، والتلوّم الذى لا يكاد يطيقه أحد، فإذا أفرط الأمر، وحميت نفسى تصبرت وفى القلب ما فيه». ويضيف، فى نبرة إسبانية أصيلة: «الخطأ فى الحزم خير من الخطأ فى التضييع». وقد سبق **كالديرون** بقوله: «العرض أعز على الكريم من المال. ينبغى للكريم أن يصون جسمه بماله، ويصون نفسه بجسمه، ويصون عرضه بنفسه، ويصون دينه بعرضه، ولا يصون بدينه شيئًا أصلا». ويمكن أن نضيف إلى ما قال جملة جاءت على لسان بطل مسرحية «عمدة السلمية Alcade de Zalamea» الخالدة لمؤلفها **كالديرون**: «الله وحده يملك أرواحنا».

لقد أحسست بسعادة غامرة، لأن **غرسية غومث**، وهو ناقد بصير وعلى معرفة واعية بابن حزم، أرتأى إسبانية مؤلف «**طوق الحمامة**»، وأنه فى الحقيقة كان دون كيخوته من القرن الحادى عشر. قلته قديمًا، واليوم أحاول أن أكتشف الكيخوتية الإسبانية فيه، قبل أن يعرفها آخرون من شبه الجزيرة سبقوا ألونسو كيخانو Alonso Quijano ، ومن يسرع إلى دراسته يوفر علىَّ عملا يشدنى إليه، وأشك أننى سأكمله يومًا.

وضع **غرسية غومث** جملة: «تناقض جوهرى» عنوانًا لفقرة فى مقدمته لترجمة الطوق، وفيها كتب يقول: «هذا التناقض» الجوهرى المستمر، والازدواجية غير المنصهرة، من اللطف والخشونة، ومن العواطف الرقيقة والجافية، ومن النبل والعامية، تجعل **ابن حزم** من أحب الشخصيات إلينا **لأنها تجعل منه قرينًا لعظماء آخرين من مستواه، عرفهم عصرنا الذهبى، وفيهم تبدو الإيبيرية كاملة وقوية**، ولقد أشرنا من قبل عرضا إلى **جونجرة** Gongora **وكيبيدو**، ونستطيع أن نذكر آخرين، ليس من بينهم **ثرفانتيس**، قمة مثل لا يتكرر، وفيهم تلتقى تناقضات سلالتنا الجذرية، فى تركيب إنسانى مفهوم، حلو وحزين».

وأنا أشــارك **غومث** رأيه، بعــامة، ولقـد ربطتُ أيضًا بين شاعرنا **كيبيدو** وبين أديبنا **ابن حزم**، وأجروُ على أن أقوم بموازنةخاطفة، فيما بعد، بينه وبين **أونامونو**. لقد وضعت خطًا على مسئوليتي تحت الجملة السابقة من كلام **غومث**، والتى تتصل بدور «الإيبرية»، قديمة وثابتة، فى أخلاق ابن حزم، لأنها تقف فى مواجهـة فكـرة **أميركوكاسترو** التى تردّ مثل هذه الاتصالات إلى التفاعل بين ما هو مسيحى وما هو إسلامى،وإليها ينسب تشكّل ما هو إسبانى.

لم أكتب كلمات مترجم **«طوق الحمامة»** إلى الإسبانية، لأنى لا أعرف ما إذا كان هذا التناقض يمتد إلى أصول بعيدة جـدا، ولكنى حـاولت، على الأقـل، وفيمـا أعتقـد استطعت أن أفهم امتداده خلال ماضينا، عبر طرق تختلف عـن طريـق كاسـترو، وهى مشتركة إلى حد كبير، وفضلا عن ذلك فإنى أميل إلى عدم الاستخفاف بأن تشابه الصيغ الجبرية، فى معادلة بين الروح والمشاعر والغرائز، أو الأرواح الثلاثة بتعبير **أورتيجا إى جاسيت**، يولد تقارب الأمزجة عند رجال من لحم وعظم، والذين هم، وكانوا، الفلاسفة والفنانين والكتّاب. لأنى أعتقد أن هؤلاء لم يكونوا، وليسوا، دُمىً يرمى بخيوطها كائن ثقافى مجرد، ولكن من الواضح أن تكرار عدد من أشكال هذه المعادلة الجبرية، بيـن القوى الحيوية الثلاث، بين أعضاء جماعة تاريخية – والإحصاء المطبق فى التاريخ، ولو أنه يبدو متناقضًا، يثبت اتجاها مزاجيًا – يصدر بالضرورة عن ملامح جماعيـة متأصلـة فى التكوين العضوى للشعب، وفى تركيب يرتبط وراثة مع المراحل الأكثـر بعـدا فى التاريخ، وتمضى على امتداده، كما هو واضح، تغيّرا وثباتا، فى إيقاع ونتائج مختلفـة، كالأنهار، تتدفق مسرعة أو بطيئة، وتمضى مستقيمة أو متعطفة، وفى طريقهـا تخصب أو تدمر.

وفى موازنة مع كبار الشخصيات الأدبية فى العصر الذهبى، يمكن، على نحو ما كتب **غرسية غومث**، أن نجعل له من الكبرياء الإسبانى نصيبًا، وأن نرد إليها أيضًا وحدته الأدبية. ويضيف مترجمه: «لقد عـرف مؤلـف كتـاب **«طوق الحمامة»** كتاب **«الزهرة» لابن داود الأصفهانى** مباشرة... ولكن من واجبنا أن نضيف، إنه بالرغم من الإشارات الحرفية القليلة، ومن الاتجاه العاطفى المشترك، فإن «الطوق» يديـن بالقليـل جدا لكتاب «الزهرة»، لأن النظرية فيه تغرّبت وتأسبنت، وفقدت دلالها الرائع وتحذلقها الخنث. وما كان يقال فى بغداد نثرا رائعًا وشعرا لا ينسب لقائل، كان يكتبه مؤلف

«الطوق» فى **شاطبة** ساخنًا وإنسانيا، ويتخذ له المثل من حياته، ومن حياة أصدقائه فى **قرطبة**. لقد مزّق ما فيه من عاطفة وملل إسبانيين السياج الواقى للنبع، وشربا منه، كل على وجهه، وخلطا هذين المصلين بدمه».

يا له من برهان بالغ الروعة والجمال، فى جانب إسبانية مؤلف **«طوق الحمامة»** !.

ويدعم غرسية غومث رأيه بنقل صفحة من **رسالة ابن حزم** فى **«فضائل أهل الأندلس»**، وهى تذكرنا **بلارا** Larra[1] وفيها يعلق، فى مرارة إسبانية، على فقرة من إنجيل لوقا (الإصحاح السادس، الآية ٢٤) «وقرأت فى الإنجيل أن **عيسى** عليه السلام قال: «لا يفقد النبى حرمته إلا فى بلده»، «ولاسيما بأندلسنا، فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم، الماهر منهم، واستقلالهم كثير ما يأتى به، واستهجانهم حسناته، وتتبعهم سقطاته وعثراته، وأكثر ذلك مدة حياته، بأضعاف ما فى سائر البلاد، إن أجاد قالوا: سارق مغير، ومنتحل مدع. وإن توسط قالوا: غث بارد، وضعيف ساقط. وإن باكر الحيازة لقصب السبق قالوا: متى كان هذا؟ ومتى تعلم؟ وفى أى زمن قرأ؟ ولأمه الهبل!. وبعد ذلك إن ولجت به أقدار أحد طريقين إما شفوفًا بائنًا يعليه على نظرائه، أو سلوكًا فى غير السبيل التى عهدوها، فهنالك حمى الوطيس على البائس، وصار غرضا للأقوال، وهدفًا للمطالب، ونصبًا للتسبب إليه، ونهبًا للألسنة، وعرضة للتطرق إلى عرضه، وربما نحل ما لم يقل، وطوق ما لم يتقلّد، وألحق به ما لم يفه به ولا اعتقده قلبه، وبالحرى وهو السابق المبرز، إن لم يتعلق من السلطان بحظ أن يسلم من المتالف، وينجو من المخالف. فإن تعرض لتأليف غمز ولمز، وتعرض وهمز، واشتط عليه، وعظم يسير خطبه، واستشنع هيّن سقطه، وذهبت محاسنه، وسترت فضائله، وهتف ونودى بما أغفل، فتنكسر لذلك همته، وتكل نفسه، وتبرد حميته، وهكذا عندنا، نصيب من ابتدأ يحوك شعرا، أو يعمل بعمل رياسة، فإنه لا يفلت من هذه الحبائل، ولا يتخلص من هذه النصب إلا الناهض الفائت، والمطفف المستولى على الأمد».

من الضرورى أن يفرك الإنسان عينيه بعد أن يقرأ هذه الصفحة الحزينة، ليقتنع فى دهشة بالغة لا يمكن إنكارها، أنها خرجت من قلم **ابن حزم**، لقد كتبها المفكر الإسبانى،

---

(١) لارا : (١٨٠٧-١٨٣٧)، كاتب إسبانى، نشر كثيرا من المقالات، بتوقيع مستعار فى صحف كثيرة، وكانت مقالاته نقدا عبقريا، وداميا للتقاليد المتخلفة فى عصره. (المترجم).

والقلق يغمره، بين عامى ١٠٣٥ و١٠٤٠ م، فجاءت تعكس بدقة المناخ الكريه، الطافح بالحسد، الذى عاش فيه، وتساير شموخ إسبانيا المعاصرة، وحتى فى عصور أخرى كثيرة من تاريخها فى الماضى. ولم تزدهر هذه اللبلابة الخبيثة جنوبى جبال البرانس فحسب، لأنها تنمو سريعًا خلال الأزمات وفى لحظات السقوط القومى، فى أى مكان، ولكن لم يحدث أنها تأصلت وترعرعت وآتت أكلها كما فى إسبانيا. أهى، مرة أخرى، ثمرة مرة للسلالة والأرض الإسبانية؟ لا، إنها مرة أخرى ثمرة فاسدة لتأثير تاريخنا العريق والفريد فى الإنسان الإسبانى منصهرا، وهذا حق!، من طين شبه الجزيرة ودمها. وفى كل الأحوال، مرة أخرى، دليل آخر واضح على إسبانية ابن حزم، والذى كتب منذ قرون مضت، فى مرارة عميقة وتشاؤم أسود، قبل أن تكون روح الإسبان، كما يدعى **كاسترو**، قد أصيبت بعدوى الحزن والحنق من يهود شبه الجزيرة الإيبيرية، عدوى يفسر بها (أى كاسترو) حتى الشعور بمأساوية الحياة عند الإسبان.

- **مع ترجمة الطرق :**

قلنا من قبل إننا نستطيع اليوم أن نقرأ **«طوق الحمامة»**، جوهرة الأدب الأندلسى، فى اللغة القشتالية بفضل **غرسية غومث**. لقد عرض **ابن حزم** نظريته النفسية عن الحب فى ثلاثين بابا، مع ملاحظات دقيقة وفكر محلق، يغزو ويشد على الدوام اهتام من يطل بين صفحاته رغم أن وراء الكتاب ألف عام من التاريخ، ووراء قارئه تراث هائل من الثقافة الغربية.

لقد أثار كتاب **«الطوق»** كثيرا من المشكلات أمام الدارسين المحدثين، ولكى يهيئ **غرسية غومث** القارئ لجولة أكثر فائدة عبر صفحات الكتاب، قدم له بدراسة عن **ابن حزم** اتكأ فيها على السيرة التى رسمها له العلامة **ميجيل أسين بلاثيوس**، شيخ المستشرقين الإسبان، وتصرف فيها إيجازا أو إطنابًا أو تقويمًا، وفى كل الحالات دفع بين سطورها بمزيد من الحياة. لقد أغرانا بالصورة السريعة والدقيقة التى رسمها **لابن شهيد** طفلا، يظهر أمام **المنصور بن أبى عامر**، وسوف يصبح فيما بعد شاعرا عظيما، وصديقًا حميما **لابن حزم**، ورأس جماعة من أبناء الخاصة فى قرطبة، أنيقون يعبدون الجمال، ويسرّحون شعورهم على أحدث نمط، ويهيمون إعجابًا بكل جديد، ويعشقون الأدب والفنون الجميلة، وقد انضم إليهم مؤلف الطوق فى اللحظة التى تجاوز فيها سن المراهقة، ولقد وعدنا غرسية بدراسة عن ابن شهيد، صديق ابن حزم، ننتظرها فى صبر نافد، وقد أوضح

لنا المثل الأعلى فى الأدب لهذه الجماعة، ذات الاتجاه العربى، تحتقر كل ما هو إسبانى، ولكنها قومية، تحاول التغلب على التقليد الأعمى لكل ما هو مشرقى.

وعرض **غرسية غومث** للأحداث البارزة فى حياة **ابن حزم**، ورافق بطله فى منفاه، وفى بريق انتصاره، وفى خيبة أمله، وتغيير خط حياته. ويشير مأخوذا إلى جهده الثقافى العملاق، وإلى صراعه ضد العواصف والأنواء، وإلى روحيته الصافية، وتحوله من مُتهِم إلى مُتهَم، وموقفه مهزومًا مثل دون كيخوته، وتعاور الخشونة والرقة عليه، ونسيان المفكرين والكتاب المسلمين له، إلى أن رد له العلم الغربى الحديث وبحق مكانته.

ثم حلل كتاب «**الطوق**» متعمقا، ومحللا بمشرطه الدقيق النافذ مختلف الجوانب التى يمكن أن تساعد على التقاط أسرار الخلق الفنى عند ابن حزم. ودرس اتجاهات المدرسة التى انتمى إليها، وخطواته الأولى فى عالم الكتابة، ومن بينها ما كان **ميننديث بيدال** M. Pidal[(١)] يدعوه «المقطعات»، والطابع الشخصى للطوق، وما يقدم من سيرة ذاتية لمؤلفه، والصدق الأدبى عند مؤلفه، وما أثاره ويثيره من نقاش، وما يتميز به فى شعره من زهد وفلسفة، فى نطاق الشعر الغنائى الأندلسى وعرف بالطيش والشهوة، والعفة الخالصة المستقيمة وسبق بها الشاعر الإسبانى **جونجرة**. وهو كتاب عن الحب، ويجب أن يقرأ بحذر، رغم أنه كتب بنية صافية وطاهرة، ودون أن يقصد المؤلف من ورائه غرضًا فاحشًا. ولكن تهب عبر صفحاته رياح من الشذوذ الجنسى، ويتدفق عليها نهير من واقعية بذيئة، وما يمكن أن يحس به بعض القراء المحدثين من خيبة أمل إزاء أفكار ابن حزم وآرائه ومفاهيمه، لأنها اليوم عادية وشائعة غير أنها كانت شيئًا جديدا وفذًا على أيامه، أى منذ ألف عام. وحدّة الإحساس بالجمال الحسى، كقوة مبدعة فى مجالى الحب والأدب، والعثور فى **طوق الحمامة** على صدى الأفكار أفلاطونية، وأصل شعر الحب البغدادى ومفهومه، أو الحب العذرى العنيف فى المشرق، وانتشاره فى الأندلس حين التقطه ابن حزم هاديًا لفكرته عن الحب، فيما يرى مترجم «الطوق»، وما آل إليه أمر هذا الحب فيما بعد، حين غرق سريعًا فى موجة الشهوة العارمة على أيام دول الطوائف.

---

(١) مييندث بيدال: (١٨٦٨ – ١٩٦٨)، عالم ولغوى ومؤرخ أسبانى، وله أبحاث هامة وجادة عن تاريخ أسبانيا فى العصر الوسيط، فى جانبيها الإسلامى والمسيحى. (المترجم).

ولكن دراسة غرسية غومث لابن حزم وكتابه تحتاج إلى شيء من تعليق، لنعرف على نحو أفضل ما هو إسبانى فى المفكر العظيم والشاعر، والذى ندين له «بطوق الحمامة»، إلى جانب الشخصيات الإسبانية العملاقة الأخرى، التى تنتظم فى عقد منذ سينكا حتى أونامونو.

ويجب أن نشير إلى جملتين مما كتب مؤلف «الطوق»، وقد اقتبسهما غرسية غومث، ولا تنس الجملة التى وضعت تحتها خطًا فيما مضى وهما: «نوار الفتنة لا يعقد»، ولو أنه لأسباب بينة[١] لم يوضحها عندما التقطها، وعلى العكس مر بها سريعًا، والجملتان تساعدان على فهم ابن حزم، وفهم إسبانيا الإسلامية أيضًا، وكل تاريخ إسبانيا على اختلاف مراحله، وقوله:

أنا الشمسُ فى جو العلومِ منيرةً ... ولكن عيبى أن مطلعىَ الغربُ

ولقد جمعت عبارات ليست بأقل منها ارتجافًا فى شموخها، كتبها **مرسيال** Marscial[٢]، **وابن قزمان**[٣]، **ورايموند لل** R. Lull[٤] وآخرون من عمالقة الفكر الإسبانى وأدبه على امتداد عصوره، جملا كالتى كتبها **ابن حزم**، تبين إلى أى مدى كان كبرياء الأقلية الإسبانية المثقفة يطاول الحسد الحقير الذى يجلدهم من كل جانب. ولست أدرى ما إذا كان ابن حزم مصدر هذا الجلد الحاقد أو كان رد فعل ضده فى البيئة القائمة التى وصفها لنا مؤلف **«طوق الحمامة»** فى أستاذية قادرة وممرورة، عندما سخر من جمود وتصلب وضيق أفق فقهاء المالكية فى الأندلس، وكانت الدولة على مذهبهم

(١) يشير الكاتب إلى أن غرسية غومث كان يكتب فى إسبانيا الفاشية، وقد انتصرت - مؤقتا - بعد حرب أهلية طاحنة (١٩٣٦-١٩٣٩) دمرت إسبانيا تماما، وعلى امتداد أيامها، التى انتهت الآن بموت الجنرال فرانكو ١٩٧٥ ، وكانت الرقابة على الفكر والفن عنيفة وقاسية، وكان محالا على غومث أن يوضح فكرته، على حين أن سانتشث البرنس كان يكتب من منفاه فى الأرجنتين.

(٢) مرسيال: (٤٢-١٠٤م) شاعر لاتينى، رقيق وماجن، ولد فى مدينة بيبليس قلعة أيوب الآن، فى إسبانيا.

(٣) ابن قزمان: (١٠٦٨-١١٦٠ م)، شاعر وزجال قرطبى، ينتمى فى بيت بنى قزمان العريق، وترك لنا ديوان زجل كامل، الوحيد من نوعه الذى وصلنا من تراث الأندلس.

(٤) رايموند لل: (١٢٣٥-١٣١٥ م)، فيلسوف إسبانى من قطلونية، وكان يجيد اللغة العربية، وفيها كتب بعض مؤلفاته ثم ترجمها إلى لغته، وتأثر بالثقافة الإسلامية إلى حد بعيد. انظر دراسة ممتعة لخوليان ريبيرا عن الأصول العربية لفلسفته، فى كتابنا: دراسات أندلسية: فى الأدب والتاريخ والفلسفة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٧. (المترجم)

تقريبًا، ونعتهم بأنهم «أصحاب المذهب القديم». **ما الذى كان فى حياة الإسبان الدينية، قبله ومن بعد، ليستحقوا هذا الوصف من ابن حزم مؤمنًا تقيًا ومتدينًا غيورا؟.**

لقد أبرز **غرسية غومث** حرص مؤلف **طوق الحمامة** دائماً على شرفه، وهذا الحرص حرك فى داخلى سؤالا مقلقًا، وموضوعًا مغريًا، أما السؤال فهو: ماذا يفهم المسلمون بعامة من كلمة الشرف؟ وأما موضوع الدراسة الذى عرض لى: إلى أى مدى أثرت غربية **ابن حزم** فى إحساسه القوى بالشرف؟.

وأشار المترجم، محتميًا بكتاب **ابن حزم**، إلى قضية تأثير الشعر الأندلسى فى نشأة الشعر البروفنسالى، وهى موضع نقاش دائم، وذكر أن العثور على «خرجات» رومانثية فى الموشحات الأندلسية غيّر من مادة المشكلة، ولكنه يصر على ما لطوق الحمامة من قيمة، كنص هام للمقارنة بين المدرستين الشعريتين، ويميل إلى تجنب المبالغات، ويرفض أن يقبل إنكار الشاكين. وأصاب عندما اتخذ موقفًا متعقلا، لأن ظهور كتاب «**قصة المعراج** Libro de Escala» أكد فى فحواه نظرية **أسين بلاثيوس** عن التأثير الإسلامى فى **الكوميديا الإلهية لدانتى**، واكتشاف الخرجات، وما حّدس به **خوليان ريبيرا** عن وجود شعر غنائى رومانثى فى الأندلس يمكن أن يؤدى إلى نتائج مشابهة.

وقد واجه **غرسية غومث** أيضاً نظرية **أميركو كاسترو** عن تأثير «**طوق الحمامة**» فى كتاب «**الحب المحمود**»، وارتأى أنهما مختلفان جدا، فى خصائص وحياة وأعمال مؤلفيهما: **ابن حزم وكاهن هيتا**. ووازن بين فقرات من «الطوق» وأخرى من «الحب المحمود»، وبعض هذه المشابهات يمكن أن يجيء وليد الصدفة، والبعض الآخر يتصل بالجانب الأكثر إنسانية وشيوعاً فى «الطوق»، ومن ثم فالقول بتبعية الكتاب الثانى للأول مباشرة ابتسار ومغامرة. وأميل إلى أن أذهب بأبعد من ذلك إنكارا، وأشك فى أن أيًا من الموازنات الخارجية التى قام بها **غرسية غومث** جاء صدفة، لأن مصدرها، فيما أرى، أن كلا المؤلفين اندمج فى بيئة الآخر، إلى ما بين الموضوعين نفسيهما من تشابه. وفى فصل طويل من كتابى الذى أشرت إليه من قبل، عارضت رأى **أميركو كاسترو** الرائع والملهم فى كاهن «هيتا»، وشرحت رأيى من خلاله، وازددت به اقتناعاً بعد أن قرأت ما كتب **غرسية غومث**: «لابد أن كتاب **ابن حزم** الرائع كان محدود الانتشار، فهو كتاب خاصة وصعب، وتفصله عن كتاب «الحب المحمود» هُوى حقيقية، واختلافات فكرية»، وهذه الكلمات الدقيقة، فيما يبدو لى، تعكس رأيه السديد، وتناقض ترخصاته

الجدلية واللطيفة، لأن قلة انتشار كتاب ابن حزم، وصعوبته وأرستقراطيته، لا تتفق مع الإنتشار الواسع الذى يجب أن يكون عاناه، عبر طرق ملتوية، لكى يمكن أن يبلغ كاهن **«هيتا»**.

وأرفض أيضاً افتراض كاسترو من أن **ابن حزم** «كان يتحرك فى عالم مشبع بروحانية متصوفة». وعن الرأى الذى يقول بأن ابن حزم كان يمزج الحب الإلهى بالحب الإنسانى كتب **كاسترو**: «لا يوجد فى كتابات **ابن حزم** المتصلة بالعقيدة شىء عن الحب الإلهى فى مفهومه الدقيق بمعنى يلتقى مع ما نفهمه نحن من استخدام هذا المصطلح، ولا يمكن أن تكون فى الفقه الظاهرى».

ويرى **غرسية غومث** أننا حتى ولو استبدلنا كلمة **«إلهى»** بتعبير **«وضعى»** لا يمكن أن يتفق مع **كاسترو**، وأنا أشاركه هذا الرأى، وأعتقد أن رأى **غومث** فى نظرية زميل مدريد القديم (أى كاسترو) غير كاف، وأشير إلى ما يظن أنه طريق المسلمين الإسبان بين ظلال ساهرة، وافتراضه أن مفهومهم للحياة أنها تدفق أو انزلاق بين عالم هرّاب وظاهرى، نظرية يدعمها **كاسترو** ويتخذ لها دليلا من استعارات طوق الحمامة، إمّا أنا حمار أو ابن حزم!. والقرطبيون من جيله يتقدمون على صفحات الطوق، بخطى ثابتة على الطريق، فى جو صحو وشفاف، وأعين مفتوحة للغاية على الحقيقة، ومشاعر تنضج دفئًا وإنسانية، بلا ساتر ولا ظلال ولا رموز. واستعارات جميلة فحسب، يلفها بخار رقيق من شعر، لا بين الإسبان المسلمين، وقص لنا **ابن حزم** حكاياتهم الغرامية، لكن بينهم وبيننا: ضوء ساطع فى مدينة من الجنوب، وواقعية بذيئة وتافهة أحيانًا، وذلك هو الجو الحياتى الذى عبر القرطبيون خلاله فى **«طوق الحمامة»** والعالم حولهم لا يتلاشى، لأن حماسة حرة تدعمه، على نحو ما يريد **أميركو كاسترو**.

لا أدرى ما إذا كنا نحتاج إلى الوقوف طويلا، وفى تأمل وباهتمام أكبر، عند أفكار **ماسينيون** عن الإبداع الفنى عند المسلمين، وقد ترجم **غرسية غومث** هذه الدراسة منذ أعوام، أفكار ما أكثر ما رجعت إليها، وأفدت منها كثيرا، وأتاحت لأميركو كاسترو أن يتعمق فى بعض القضايا التى درسها، وربما لغرض لم يتوقف ليدرس مستوعبًا موضوعين هامين: أهمية طوق الحمامة لمعرفة الحياة فى قرطبة على أيام الخلافة، ونظرية الحب عند ابن حزم والمسلمين الأندلسيين. وقد اهتم المستشرق الفرنسى الكبير **ليفى بروفنسال**،

لحسن الحظ، بالموضوع الأول، وشغل **غرسية غومث**، **وأورتيجا إى جاسيت** بالموضوع الثانى، فى مقدمة ترجمة الطوق، .بعمق فكرهما المعهود.

ولقد سبق **ليفى بروفنسال** فى مقاله: «نزهة بلا رابط خلال طوق الحمامة» **غرسية غومث** عندما حاول تحديد الشخصيات الواردة فى الطوق، الظاهرة والمغمورة، والتقط بعض الأخبار التى وردت فى الكتاب عن تاريخ الأندلس، وعن الحياة فى قرطبة خلال عصر الخلافة. وليس من هدفى الآن الحديث عن دقة هذا التحديد، ولقد أظهرت أن **ابن أبى عامر** المختل الأعصاب، والذى رأى فيه **أميركو كاسترو** أول «دون جوان»، لم يكن حفيدا للمنصور بن أبى عامر، كما افترض كلا المستشرقين، ليفى بروفنسال وغرسية غومث. نعم تهمنا لأخبار الأخرى، ولقد أنكر **أسين بلاثيوس** أن **«طوق الحمامة»** دراسة نفسية، وأوضح قيمته التاريخية وأفاد منها، على حين يصر غرسية غومث وليفى بروفنسال على أنه دراسة نفسية، وحاولا أن يفيدا من المعلومات التى جاء بها ابن حزم هنا وهناك، وحول نفس المسرح الذى جرت عليه الأحداث، تراجم لآخرين أو لنفسه، يأتى بها مثلا يدعم به تأملاته الدقيقة عن الحب.

ومع ذلك يعترف المستشرقان الشهيران كلاهما بأن الأخبار التى جاء بها **طوق الحمامة** عن عاصمة الخلافة قليلة وموجزة، والشيء نفسه يمكن أن يقال عما يقدمه لنا عن الأشياء بعامة. لقد اعتاد ابن حزم، خلال أعوام صباه على الأقل، أن يدقق النظر فى الرجال أكثر مما يتوقف عند الأشياء التى يتحرك بينها هؤلاء، ولم أر واحدا بين كل الذين اقتربوا من الطوق وقف عند هذه الملاحظة. وواقعيته، وكتاب ابن حزم كتاب واقعى رغم أنه دراسة نفسية، واقعية روح أكثر منها واقعية أشياء خالصة، واقعية عميقة الإسبانية أيضًا. ولقد أبرز **دمسو ألونسو** Damaso Alonso[(١)]، وبحق!، ما هو إسبانى من هذه الواقعية، بمناسبة حديثه عن «الأسلوب والإبداع فى ملحمة السيد»[(٢)]، ولكنها لم تكن مصحوبة عند مؤلفنا بقدرة متكافئة، لتلتقط فى حساسية الواقعية الشفافة للأشياء التى فى عالم ما حولنا. وليس فى «الطوق» فقرة واحدة نستطيع أن نجد فيها حتى ولا ظل واحدة من تلك السهرات الحمراء، الواقعية التى نصطدم بها أكثر من مرة فى

---

(١) شاعر وكاتب وناقد ولغوى معاصر، وهو الآن رئيس المجمع الملكى اللغوى الإسبانى.

(٢) ترجمت نص الملحمة، وقدمت لها بدراسة مستفيضة، بعنوان: «ملحمة السيد» ونشرتها دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٧٠ ، والطبعة الثانية ١٩٧٩. (المترجم)

كتاب **«الحب المحمود»** لكاهن **«هيتا»**، رغم محاولة **أميركو كاسترو** الفاشلة لربط كتاب القسيس القشتالى بكتاب الشاعر القرطبى.

- **ابن حزم والحب :**

يؤكد أورتيجا إى جاسيت أن فقه اللغة العربية لم يصل بعد إلى تحديد دقيق لما يمكن أن يفهم من كلمة «حب» فى إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى، وطرح موضوع الحب بوصفه نظامًا واكتشافًا وقواعد إنسانية، عندما عثر بأبيات **ابن حزم** الرائعة التى أهداها إلى صديق له، ويقول فيها:

أودُّكَ وُدا ليس فيـه عضـــاضةٌ ... وبعضُ مودات الرجـــالِ سرابُ
وأمحضتك النصحَ الصريح وفى ... الحشا لوَدِّكَ نقشٌ طاهرٌ وكتابُ
فلـو كان فى روحى هواك اقتلعتهُ ... ومُزِّق بالكفين عنـه إهـــــاب
ومـــالىَ غيرُ الـــود منك إرادةٌ ... ولا فى ســـواه إليك خطـــاب
إذا حزتُه فالأرضُ جمعاء والورى ... هبـاءٌ وسكّانُ البـــلاد ذبـاب

أوافق على أن الرجل تاريخ، وكذلك أفكاره ومشاعره، ولكنى أعتقد أنه إلى جانب التغير الدائم فى أفكاره ومشاعره، هناك بعض الميول الفكرية والعاطفية تتجاوز حدود الزمن والقارات، وثمة غايات مثالية فى الحياة، علامات مضيئة تنير الطريق أمام تقدم الرجال التاريخى، إلى غد لمّا يزل بعيدا.

وفى مقابل ما يفصل بين نظرية الحب عند مسلمى الأندلس، ونظريتنا نحن الإسبان الكاثوليك، أوضح **أورتيجا إى جاسيت** عددا من التوافقات غير قليل: كثير من علامات الحب الكاشفة «بهت يقع، وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة، وطلوعه بغتة»، وتأثير الحب الأول فى الغراميات التالية، والإختلاس قمة الحب... وبعض هذا التشابه يمكن، مع أورتيجا، رده إلى تأثير «مفاتيح الإيماءات الجسمية ويوجد داخلنا تحت تصرفها لتعبر عن نفسها». ولكن عددا من هذه التوافقات أو تلك يمكن تعليلها دون أن تُرَد إلى هذا التأثير. أليس ممكنا أن نشك، لنكمل نظرية **أورتيجا**، ونختار أحيانًا، على العكس من مفاتيح الإيماءات التى تخدم الرجل ليعبر بها عن داخله، انسجامات مختلفة لكى نحيى هذه المشاعر نفسها؟. لأنه فيما عشنا من الحياة، أورتيجا وأنا، ولو أن تاريخى – وأستعير الكلمة التى استخدمها أورتيجا عندما وازن بين عمره

وعمر غرسية غومث – أقصر من تاريخه، فقد كان أستاذا عندما كنت طالبًا، وتتلمذت عليه دائمًا، وكلانا شهد تغيرات واضحة فى طرائق الحب، وتجديدا فى الإيقاع العاطفى القديم، ولكنى لا أدرى ما إذا كانت أفكار الحب الجوهرية قد تغيرت حقًا، منذ أيام شبابنا – آى ! – البعيدة.

ورغم نائحات التقدم الحالية، والظن بأن هذا يتم فى خط مستقيم، وليس فى نسق تصاعدى مستمر، فإن الرجل يتقدم، ومع الرجل أفكاره ومشاعره، نحو غايات مضيئة لما تزل بعيدة، وحسبوا وقد تغشاهم سراب أحمق، أن هذه الغايات الأخيرة فى متناول اليد، نمضى إليها عبر منحنيات حلزونية معقدة، ولكن دون أن ينحرف بنا الطريق أخيرا. ولو أننا نعتقد أحيانًا أننا نتقهقر حتما نحو مواض بليدة. وبالطبيعة يحدث هذا فى الحب أيضًا، ويمكن أن يبرهن عليه من يكتب، فى غد أراه بعيدا، التاريخ المقارن لأفكار الرجال عن الحب، على نحو ما كتب **ابن حزم**، منذ تسعة قرون تقريبًا، تاريخه المقارن عن الأديان.

نظرية ابن حزم ومسلمى الأندلسى عن الحب لما تزل تنوء بالشذوذ الحنسى، هل كان مفهوم الحب هذا عامًا أيضًا على امتداد الخلافة، وهى أقل نشبعًا بالتقاليد الإغريقية والرومانية، وأقل عدوى بالمشاعر المنتصرة فى بلاط الأندلس؟ يبدو لى أنها تنتمى إلى مجموعة تقاليد البحر الأبيض المتوسط والتى استقرت وتأصلت فى إسبانيا الإسلامية على امتداد تاريخها. ولم يدرس المستشرقون ولا غيرهم حتى الآن – **وكاسترو** لا يشك فى أهمية المشكلة – السلسلة الطويلة من النتائج التاريخية للإسلام فى إسبانيا، ولإسبانيا المسيحية، التى أدى إليها اعتقال شبه جزيرة إيبيريا عام ٧١١ م، وسط العالم القديم، وظل أشد سرعة فى حياته الألفية، وكان البحر الأبيض، ذو التاريخ العريق، فى خدمتها ومحورا، وقد جعل منه الإسلام صلة تقارب بعد أن كان الهوة التى تفصل بين عالمين ثقافيين مختلفين خلال قرون. وقد تأقلمت الحضارة الأوربية، وبقيت إسبانيا متميزة فى المنطقة، ولأن الإرث الحيوى الكلاسيكى القديم واصل سيره على نحو أكثر تفجرا وقوة. ومن ثم حتى ولا مفهوم الحب المنتصر فى قرطبة الخلافة على أيام ابن حزم يجب أن تكون له بالضرورة أصول عربية. وتأريخ حيوية ما كان فى إسبانيا قبل الإسلام ينتظر من يدرسه، وقد حاولته فى كتابى: **«إسبانيا لغز تاريخى»**، باستثناء ما يسمى بالحب العذرى، أو الحب البغدادى إذا شئت، وشق طريقه نحو أقلية رفيعة الذوق من

عباد الجمال، ولكنى لا أعرف ما إذا كان الإحساس بالحب، وعنه كتب طوق الحمامة، قد تأصل حقًا أم لا.

لكى نفصل الحب الطروب Cortez ، ونشأ فى فرنسا مع نهاية القرن الحادى عشر ومطلع القرن الثانى عشر، عن **الحب العذرى**، وكان هذا أصلا لذلك فيما يرى المستشرقون الإسبان، كتب **أورتيجا**: «إن الحب الطروب، حتى وهو شعور ناء، طافح بالأشواق، لا يتطلب تخليا، وإنما يعكس رغبة كاملة». ولقد قلت فى كتابى «إسبانيا الإسلامية»: «توجد مسافة شاسعة بين مفهوم الحب عند ابن حزم والحب الصوفى العذرى، لأن ذلك لا يتطلب العزوف عن الرغبة»، وبعد أن قرأت «**طوق الحمامة**» فى ترجمته الجديدة، ما زلت عند شكى فى أن مؤلفه كان يطبق الحب العذرى، أو البغدادى فيما يقال، فى حياته الحقيقية، وإذا شئت لم يتخذه صراحة حتى ولا فى الجانب الأدبى من حياته، يقول فى كتابه «**طوق الحمامة**»: «إن الوقوف عند حد الطاعة لمعدوم إلا مع طول الرياضة، وصحة المعرفة، ونفاذ التمييز، ومع ذلك اجتناب التعرض للفتن، ومداخلة الناس جملة، والجلوس فى البيوت، وبالحرى أن تقع السلامة المضمونة، أو يكون الرجل حصورا لا أرب له فى النساء». وبعد أن ذكر عددا من الحالات المثيرة فى مقاومة الرغبة أضاف: «وقد يعظم البلاء، وتكلب الشهوة، ويهون القبيح، ويرق الدين، حتى يرضى الإنسان فى جنب وصوله إلى مراده القبائح والفضائح». وعن نفسه يقول: «يعلم الله، وكفى به عليما، أنى برىء الساحة، سليم الأديم، صحيح البشرة، تقى الحجزة، وإنى أقسم بالله أجل الأقسام أنى ما حللت مئزرى على فرج حرام قط، ولا يحاسبنى ربى بكبيرة الزنا مذ عقلت إلى يومى هذا» نعم. إن فقه اللغة لم يحدد مفهوم الحب فى إسبانيا الإسلامية، ولكنه سجل الفقه المتسامح بإزاء الجماع المشروع عند المسلمين، وقد كتب ابن حزم نفسه يقول: «لولا مكان هذا العنصر من الإنسان، وأنه غير مأمون الغلبة، لما خفف الله عن البكرين، وشدد على المحصن». وفى الباب الذى كتبه فى «**الطوق**» وخصه بقبح المعصية، اعتبر اللواط والزنا فحسب من الكبائر.

ثم يقول فى كتابه «**الأخلاق والسير فى مداواة النفوس**»: «حد العفة أن تغض بصرك وجميع جوارحك عن الأجسام التى لا تحل لك، فما عدا هذا فهو عهر، وما نقص حتى يمسك عما أحل الله تعالى فهو ضعف وعجز». وأشار أسين بلاثيوس إلى أن ابن حزم فى معاداته للصوفية يعتبر العذرية عيبًا، والرهبنة نقيصة.

لو قرر **أورتيجا** أن يتسرب على مهل إلى كتاب «**طوق الحمامة**»، حاملا عدسة مكبرة ليدرس نظرية الحب فى قرطبة الخلافة، وقد أحس الرغبة فى أن يقوم بها، مكتشفًا حركة النسيج الجوهرى للكتاب – فيما أرى – ونظر إلى التفاصيل، إذن لأنكر على ابن حزم «صفة عذرى». ودون عدسة مكبرة يبدو واضحًا أن القرطبيين من عصره لم يكونوا كذلك أيضًا.

لقد وشّى **ابن حزم** نظريته عن الحب بأخبار مختلفة، اتخذ منها مثلا يدعم بها آراءه، وبأشعار جميلة استدعتها المناسبة. وفى الأخبار التى جعل منها نموذجًا يحتذى، ترك سيرته العاطفية تتحرك حولها، وكذلك الحياة العاطفية لأصدقائه، ولقرطبيين آخرين كثيرين ليسوا دائمًا معروفين له. وهذه الأخبار النموذجية التى وشّى بها **ابن حزم** تأملاته عن الحب، واتخذ منها مثلا، لا تسمح **لأميركوكاسترو** بتأكيده الغريب من أن مؤلف الطوق كان يسرّب حياته الخاصة من خلال حياة الآخرين، وترجمة **غرسية غومث** تحت إمرة القراء الذين الذين يتحدثون الإسبانية، ومثلها الترجمات الأخرى فى اللغات: الإنجليزية والفرنسية والإيطالية، وبوسع الذين يتكلمون بها، أو يعرفونها، أن يعودوا إليها، وكلها تناقض نظرية **كاسترو** المغامرة، إن ابن حزم يذكر فى كل خطوة الخبر الذى يمكن أن يدعم نظريته، يشير إلى أحداث وقعت فى حياته، أو فى حياة الآخرين، طبقًا لواقع كل حالة، ولكن دون أن يتوغل فى تراجم بعيدة عن ترجمته، ويؤكد صدق الوقائع بشهادة شخصية منه، لأولئكم الذين عرفهم، أو يأتى بها متصلة الإسناد حتى يبلغ به من شاهد الحادث الذى ألمح إليه. وعندما يطل **ابن حزم** على حياة الآخرين، فإنما يؤكد، فى الواقع، صدق ما يروى من أخبار.

ومجموعة الأشعار التى جاء بها فى «**الطوق**» تكون ديوانًا كبيرا، والجانب الأكبر منها ذو طابع فلسفى عميق، وتفصلها طبيعة موضوعاتها، الغزلية، وألف عام من التاريخ، عما ندين به **لأونامونو**، وأحيانًا تقترب منه بثرائها وعمق تفكيرها. ولكن **أونامونو** لم يقع أبدا على كلمة نابية، أو تعبير فاحش، أو فكرة خارجة، وهو ما يحدث لابن حزم أحيانًا. فهو مثلا يشير إلى حفيد الشاعر **الجزيرى**، يقول عنه، إنه «رضى بإهمال داره، وإباحة حريمه، والتعريض بأهله، طمعًا فى الحصول على بغيته من فتى كان علقه»، أو «رشا» فيما يقال أحيانًا، وهى لفظة لطيفة تتردد كثيرًا فى الشعر العربى، وتطلق على الغلمان. فإذا تجاوزنا هذا الفرق فإن عمق الفكرة فى القطع الشعرية للأندلسى الإيبيرى

الذى عاش فى القرن الحادى عشر، وللإيبيرى الباسكى الذى عاش فى القرن العشرين، تكمل التقارب بين هاتين القمتين من قمم الفكر الإسبانى.

- **غنيت بياقوتة الأندلس :**

لقد اقتربنا من الربط بين **ابن حزم** والقمم الفكرية الأخرى فى الأدب الإسبانى، وكما برهنا كان **ابن حزم** إسبانيًا روحًا ودمًا، وجديرا بأن يضم إلى خير من يجّسدون الإسبانية، على امتداد كل العصور، تطلع إلى المشرق كموطن لنسبه وثقافته، والتهب إحساسه ببغض جارف لمسيحية شبه الجزيرة الإيبيرية، ولأنه إسبانى حتى النخاع قفزت سهام فكره، ونبال مشاعره، فوق ورعه وتقواه، لتواصل اندفاعها الثقافى والشعورى، إسبانية خالصة، إسبانية ألفية تضرب جذورها بعيدا فى أعماق ما قبل التاريخ – وسأظهر ذلك يومًا – على نحو ما كان عليه، وأكرر ما قلت وكتبت فى مرات كثيرة، ثمة عدد كبير من شخصيات الإسلام العظيمة فى إسبانيا لا يمكن أن تُستثنى، لأنها مسلمة، من إرثها الفكرى الإسبانى.

ولنذكر أن الملامح النفسية التى ينسبها إلى **ابن حزم** من كتبوا سيرته، والصفحات التى خط عليها نفسه جانبًا من سيرته، تؤكد إسبانيته فى عمق: الشموخ، والعاطفة، والعنف، وطلاقة اللسان، واستقامة الكلمة، والوفاء وتحليق الروح نحو الله، والقسوة فى نقد الوطن، وحب الحقيقة، وشدة الخلق، والحماسة التى تبلغ حد التضحية بالحياة دفاعًا عن أفكاره وشرفه، والنضال من أجل المثل العليا على نحو ما ناضل «دون كيخوته»، واحتقاره للثروة فى مواجهة الشرف، وكراهية النفاق، واحتقار الملق، والصلابة فى الشدائد، وعبادة الصداقة، وجود يبلغ حد السرف، وسهولة الغضب، والبلاغة... إنها صفات إسبانية عريقة، وتؤكد فى وضوح، على الرغم من **أسين بلاثيوس**، صدق ما قاله **ابن حيان وابن سعيد** عن أصوله الإسبانية، وعن جدوده المسيحيين.

كان **ابن حزم** إسبانيًا فى أخفى طيات أعماق روحه، ومن العدل أن نضعه بين أسمى قمم الفكر الإسبانى على امتداد كل العصور، لأن حجم وتعقد ونفاذ إنتاجه الأدبى والفلسفى والفقهى والعقائدى يعطى له هذا الحق.

ليس ثمة حياة تشبه الأخرى، إذا درسناها بوعى ناقد وجاد، نعم، توجد بعامة مقابل ذلك أرواح متآخية، أرواح شقيقة بين كثيرين من كبار الرجال فى كل الأزمان، وفى

كل البلدان. وتتقارب بخاصة أطياف الأبناء الأكثر عبقرية فى كل شعب، تتقارب فى خصائصها الجوهرية، لأنها عندما تعرض النفسية القومية، الدائمة والمتميزة، ونمط حياتها الخاص، فإنما تعكس دائمًا الصورة نفسها فى الجانب الآخر من المرآة.

سينكا مثلا لم يشعر أبدا أنه إسباني، وحتى كتب مرة ضد البطل القومى الإسبانى العظيم **فرياتو**، ولكنه ولد فى قرطبة، وأثّر أصله الأندلسى فى إرثه المزاجى وفى تكوين شخصيته. وترد دراسات **مومسن** Mommson ، **ومييننديث بلايو** Menendiz Pilayo، **وجستون بواسييه** G. Boissier ودراسات أخرى معاصرة، وكلها دقيقة وموضع ثقة عظيمة، بعض خصائص أعمال **سينكا** إلى أصوله الإسبانية. ويمكن أن نكتشف اليوم ملامح جديدة لإسبانيته، حيوية ونفسية، وأشرت إليها وأنا أدرس لغز إسبانيا التاريخى. ويتسع الأمر للظن بأن الألوان التى طبعت مذهبه الرواقى تعود إلى إسبانيته هذه، وألح على القارىء فى أن يعود إلى صفحات كتابى الذى أشرت إليه، ومن ثم يمكن أن نبدأ به السلسلة الرائعة لكبار المفكرين الإسبان والتى تمتد حتى تبلغ فى أيامنا هذه **أونامونو وأورتيجا إى جاست**.

- **ابن حزم وأونامونو :**

ستظل هذه السلسلة مقطوعة إذا لم نضمنها الحلقات الإسبانية الإسلامية، وأحدهم مؤلف **«طوق الحمامة»**، ولقد قلت من قبل: لو أن **ابن حزم** كتب مؤلفاته فى اللغة اللاتينية أو الرومانية للمع اسمه اليوم إلى جانب كبار الشخصيات الغربية فى العصر الوسيط مثل: **دانتى وتوماس الإكوينى.**

وإذا كان **ابن حزم** يمثل حلقة فى السلسلة التى تبدأ منذ كتّاب إسبانيا الرومانيين حتى المفكرين الإسبان المعاصرين، فإنى أتخيل مع ذلك أن هذا القرطبى المسلم، وهو شاهد ناطق على أزمة الخلافة الإسبانية فى القرن الحادى عشر، يقترب بخاصة من **أونامونو**، ذلك الباسكى القوى الذى عاصر سقوط الملكية الإسبانية، فى آخر الثلث الأول من هذا القرن. وأكرر لا توجد حياتان متشابهتان، وإنما روحان متآخيان، ولكن روحى هذين الإسبانيين الممتازين كانا توأمين.

تعرف أوربا وأمريكا الفكر الملتهب لكاتب إسبانيا العظيم، ذو التاريخ البعيد، والكلمة المهاجمة، والمطرقة العنيدة، والقلم الحاد، والاهتمامات الفكرية الحرة والمتنوعة والودود،

وتمكنه المذهلَ من الموضوعات التى يعالجها، وتمكنه من اللغة العربية، وجدله القوى، وعشقه للأحاديث الجادة، وطلقات هنا وهناك، وذكاؤه الفطن، واحتقاره للمسلمات والعادات الاجتماعية، وكراهيته القوية للنفاق والرياء، وأمانته الزوجية، وحملاته على الفجور، ورفضه الحاد والدائم، وإصراره وتشدده فى محاربة المظالم كلها، ومقاومته العتيقة، وخلافه مع الذين حوله، وحبه الحار المتدفق الناقد لإسبانيا.

ومع ذلك ليس صعبًا أن نقيم صلة قوية بين **أونامونو** الملتهب. على نحو ما هو معروف لنا جميعًا، وبين صورة **ابن حزم** الخلقية القومية، كما تطل واضحة من الآراء المختصرة والناقدة التى سجلها عنها معاصروه، ومن سلسلة الإعترافات الذاتية التى خطها بقلمه. وعلى الجانب الآخر من هذه المرآة المزدوجة، ألا يمكن أن نكتشف فى كل خطوة ملامح كثيرة من التحليل النفسى لأونامونو؟.

فلنتذكر الإطراء الذى يضرب به المثل لكلمات **ابن حزم** الصارمة، ولقلمه الحاد، وثناء **ابن حيان** و**ابن سعيد** على استقامة سلوكه، وشمول معارفه، وتطرفه فى نقده للأندلس وطنه، وإخلاصه دون تخفف، ونقده اللاذع، وتعصبه المنفعل. ونقرأ ثانية الكلمات الحادة للمفكر الأندلسى العظيم ضد الطغاة والقساة والفقهاء والمنافقين، وضد الكذب والرياء، ودفاعه الحار عن المثل العليا التى اتهمه بها أعداؤه، وسخريته الجارحة من المداهنة والحيل، واكتشافه المخلص لما يعتمل فى داخله من صراع لكى ينتصر على غضبه، وثناؤه المستطاب على الصداقة، وكلماته الجميلة تعكس إحساسًا مشوبًا بكبرياء عنيف وصارخ. وتصريحه الجلى بأنه انتفع «بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة، وهى أنه: «توقّد طبعى، واحتدم خاطرى، وحمى فكرى، وتهيج نشاطى، فكان ذلك سببًا إلى تواليف لى عظيمة المنفعة، ولولا استثارتهم ساكنى، وإقداحهم كامنى، ما انبعثت لتلك التواليف». ثم الجملة النبيلة، وتبدو كما لو كانت قد خرجت من قلم أونامونو: «الخطأ فى الحزم خير من الخطأ فى التضييع».

تقارب هذين الروحين الإسبانيين التوأمين، يمضى إلى ما هو أبعد من هذا. لقد تربى **ابن حزم** فى الإسلام المستقيم، واتخذ من الظاهرية مذهبًا، وترى أن أى مسلم مؤمن يمكن أن يستقل فى البحث بنفسه، خلال النصوص القرآنية، عما يجب أن يعتقده ويعمل به، وهو ما أصبح الدراسة المستقلة عند **أونامونو**، ويراها أصل ومفتاح كل تفكير حر. وكلاهما كان يفيض داخله بتدين عميق وقلق يهزهما من الأعماق. ولم يحاول عالم

القرن العشرين أن يخفى الصراع الذى يعتمل فى داخله، ويقول عنه الشاعر **متشادو**: «أن يكون منشئًا ويقول، فيما أرى: الله، ويؤكد الشجاعة الإسبانية». ولقد اكتشف قضية التديّن فى دقة، وتسلّح بثقافة واسعة لمواجهة هذه المشكلة الكبرى. وحاول القرطبى المسلم فى العصر الوسيط قبل الإسلام فى المشرق، وقبل «المدرسية» المسيحية بزمن طويل فى الغرب، وفى دقة عبقرية، أن يوائم بين العقل والعقيدة فى كتابه: **«الفصل فى الملل والأهواء والنحل»** وهو كتاب فى تاريخ الأديان المقارن.

والصفة القاسية «دين القدامى»، والتى نعت بها **ابن حزم** الأعمال الخاشعة فى عصره يمكن أن تخرج من شفتى **أونامونو**.

وإذا كان **أونامونو** رجل امرأة واحدة، وأحس بالنفور من «الدون جوانية» ومن الفجور، فإن الحب الرومانسى لابن حزم دفع بالمستشرقين إلى الخلاف حول أصل هذا الحب العاطفى لابن حزم ومن على شاكلته، هل هو حب عذرى مشرقى أم حب إسبانى مستعرب؟. وكان هذا الحب بذرة خصبة أثمرت حب الفرسان فى العصر الوسيط، وربما كان ممكنًا أن يكتب أستاذ سلمنقة، **أونامونو**، هذه الكلمات التى خطها القرطبى المسلم: «وما أعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء، إلا أنهن متفرغات البال من كل شىء إلا من الجماع ودواعيه، والغزل وأسبابه، والتآلف ووجوهه، لا شغل لهن غيره، ولا خلقن لسواه».

ويتفقان أيضًا فى حب الأبحاث المتصلة باللغة، وأصبحت المتعة عند **أونامونو** «رغبة ملحة» وباهظة، ولم تدع **ابن حزم** أيضًا يفلت من رشق سهامها، فخصصها مهتما بلمحات نفاذة من فكره. وندين له بالفضل عن المعلومات المتصلة بالخلافات الصوتية للهجات العربية فى إسبانيا، وبتأملات حادة عن أصول اللغات السامية، وبأفكار عميقة تتصل بها، وقد أعاد **نبريخا** Nebrija[1] صياغتها فيما بعد، فى اللغة القشتالية، ونحن على عتبة المغامرة: «اللغة تسير فى ركاب الإمبراطورية».

---

(١) نبريخا: (١٤٤١-١٥٢٢م)، عالم إسبانى متخصص فى اللغات القديمة، وأمضى حياته فى إصلاح تعليم اللغة اللاتينية، وكتب حول موضوعات متعددة، ووضع كتبا عدة فى قواعد اللغة الإسبانية، واللغة اللاتينية، واللغة العبرية، وعددا من المعاجم، ولكن أفضل مؤلفاته: فن تعليم اللغة القشتالية. (المترجم)

وأونامونو يمكن أن يرد على المتعصبين ممن هاجموا كتبه ومنعوها، على نحو ما كانت تصنع محاكم التفتيش، بما قال **ابن حزم** من شعر فى ظروف مشابهة:

فإنْ تحرقوا القرطاسَ لا تحرقوا الذى … تضمّنه القرطاسُ بل هو فى صدرى
يسيرُ معى حيث استقلّتْ ركائبى … وينزلُ إنْ أنزلْ ويُدفن فى قبرى
دعونىَ مِن إحراق رق وكاغد … وقولوا بعلم كى يرى الناس مَن يدرى
وإلا فعودوا فى المكاتب بدأةً … فكم دون ما تبغون للّهِ من ستر !

لقد أمضى هذان العظيمان الإسبانيان شبابهما فى أتون من الصراع الدموى، **ابن حزم** فى قرطبة، بعد العام الألف من التاريخ الميلادى بسنوات قليلة، هزتها الثورات، ودمرت مدينتى **الزهراء والزاهرة**، وطوقها **البربر** فى ضراوة، **وأونامونو** فى **«بلباو»** فى القرن التاسع عشر، تحاصرها وتقاتلها جيوش **دون كارلوس**[1]. ولقد عاش رجل الباسك القوى بداية الحرب الأهلية الإسبانية الأخيرة، وعانى ويلاتها، وشهد القرطبى المسلم من جانبه معارك المصير التى لا تنتهى فى سنواته الأخيرة، والتى دمرت الأندلس فى النصف الأول من القرن الحادى عشر. وكان رد الفعل عند كليهما واحدا، نفس الروح النبيل فى مواجهة المآسى القومية الكبرى التى عاشها جيلاهما، وأحس كلاهما بالتعاسة نفسها، مؤلمة وطافحة، أمام تمزق وطنهما على مرأى منهما، أندلس الأول وإسبانيا الثانى. وأصاب الفيلسوف وفكره أكثر من مكروب، حين أدان الخلاف الدموى بين الإخوة، فى عبارته الجميلة، والعميقة المعنى فى الوقت نفسه، وقد نقلناها من قبل، والتى تعجب المفكر الحر فى عالمنا الحديث، دون ماشك، إذا عرفها: **«نوار الفتنة لا يعقد»**.

كلاهما، مسلم قرطبة والباسكى من بلباو، أحبا إسبانيا بعمق، على الرغم من نقدهما العنيف لها، ويقول متشادو عن **أونامونو**: **«**روح جنسه القاسى لما يزل نائما، ويمكن أن يستيقظ يومًا تحت طرقات هراوته الحديدية**»**، ويمكن أن يقول الشيء نفسه عن **ابن حزم**. وكلاهما، ابن حزم وأونامونو، كان واقع إسبانيا يشيع الألم فى أعماق قلبه، وسبق

(١) أحد المطالبين بعرش إسبانيا، وأمضى سنوات عديدة فى حروب متصلة لا تنتهى فى شمال إسبانيا ومدينة «بلباو» عاصمة مقاطعة فسكايا فى شمال إسبانيا احدى ثلاث مقاطعات للباسك، أو الباشكنس كما تسميهم المراجع العربية، وهم من أصل غير لاتينى ويتحدثون لغة غير إسبانية وغير لاتينية ويطالبون الان بالاستقلال، ويخوضون من أجله معارك طاحنة مع الحكومة المركزية. (المترجم).

كلاهما كل شعوب الأرض فى كبريائهما المتشابه، فأونامونو صاح يومًا، دفاعًا عن وَهن وطنه: «فليخترعوا هم!» والشاعر القرطبى كتب هذه الكلمات:

ويا جوهرَ الصين سُحقًا فقد غنيت بياقـوتةِ الأندلــس

ياقوتة الأندلس! أصاب **ابن حزم** كبد الحقيقة شعرا، حين شبه وطنه الإسبانى بهذه الجوهرة الكريمة التليدة. ياقوتة الأندلس!، شعلة من عاطفة متأججة، أو حب ملتهب، ودم يغلى فى العروق يدفع إلى الحياة والعمل، أو يراق فوق كل البحار والقارات، دون كيخوته يدافع عن مثل عليا مجنونة، ومضات تطهر خطايا الإرادة، وتحرق فى الوقت نفسه حصاد الفكر. غنيت بياقوتة الأندلس!، واجب كل إسبانى أن يهمهم بها الآن ولو للحظة، ففيها شفاء الذين يعبدون كل ما هو أجنبى. وياقوته الأندلس ليست ياقوتة المسلمين ولا المسيحيين، وهى أخيرا، يمكن أن ترمز إلى الحياة التى ليست ركودا شاحبًا، وإنما اندفاع خالق !.

قلت فيما سبق إن **ابن حزم** لم يكن الحلقة الإسلامية الوحيدة فى السلسلة التى تبدأ مع **سينكا** حتى يومنا. كان ثمة مسلمون كثيرون يمكن أن تضمهم هذه القائمة من التراث الرائع، أسهموا بما هو إسبانى من أمزجتهم، فى بناء الحضارة العربية وثقافتها العظيمة، وأكملوا رسالة جوهرية من الحفاظ على الحياة الفكرية وتنميتها فى عالم حوض البحر الأبيض المتوسط، على حين كانت المسيحية تدب بطيئة عبر منطقة مظلمة من منعطفات التاريخ. ومن ثم فإن ثقافة الغرب لم تخسر كل الجهد الخلاق للمفكرين والفقهاء والشعراء والعلماء فى إسبانيا الإسلامية، لأن هذه وقد تمثلت الثقافة الإسلامية المشرقية، التى احتفظت بما هو جوهرى من الحضارتين الهلينية والفارسية أضافت إليها أفكارها المشبعة بما هو غربى، وعبرت بها إلى الأقليات المثقفة شمالى جبال الأندلس، بفضل ترجمات «مدرسة المترجمين» فى **طليطلة**، فقدمت خدمات هائلة لأوربا، مصدر ثقافتنا العريقة. وعندما أتأمل سمو الفكر عند **ابن حزم**، فى كتابه **«الفصل فى الملل والأهواء والنحل»**، وسبق به بما يقرب من نصف ألف عام المغامرات الأوربية الشبيهة، والأعمال الثقافية الأخرى المماثلة، لعظماء آخرين من أبناء الأندلس، مثل ابن حزم، إسبانيين أصولا وروحًا، يقفز دائمًا فى أعماقى سؤال محير، ويؤكد دوامًا نظريتى فيما يتصل بالانحراف المأسوى لقدر إسبانيا نتيجة اعتناقها الإسلام كلها تقريبًا، كيف لا نسأل أمام إسبانية **ابن حزم** الواضحة، وإسبانيين آخرين فى مثل قامته، وأمام سمو

عبقرياتهم، ماذا كان يمكن أن يصبح عليه عمل المفكرين والمؤرخين ورجال العقيدة والفقهاء والعلماء والكتاب من الإسبان، فى إنضاج الثقافة الغربية خلال العصر الوسيط، لو ظلوا منتمين لها ولم يتعدوا عن هذا الجو الثقافى ذات يوم من عام ٧١١م ؟ وعندما أحصى الأعمال التى قاموا بها على امتداد حياتهم، وكل إسبانيا الإسلامية، وهم على هامش العالم الغربى المجاور، وبعيدا عن مركزه، طوال عصور التبلور الحاسمة، أحس بالغم دائمًا، لأنى أدرك الأذى الذى لحق، بوطنى عندما فتحه الإسلام وحكمه.

غراميات ابن حزم

ومشكلة الحب العذرى فى الأندلس

فى عام ١٨٤١ اكتشف المستشرق الهولندى الكبير **رينهارت دوزى** **Reinhart Dozy** (١٨٢٠ – ١٨٨٣)، المتخصص فى الدراسات الأندلسية، النسخة الوحيدة من مخطوطة **«طوق الحمامة فى الألفة والألأف»** لابن حزم، المفكر الأندلسى العظيم، بين العديد من المخطوطات العربية والشرقية فى **مكتبة جامعة ليدن** بهولندا، وعكف عليها قراءة ودراسة، وافاد منها فى كتابه الرائع: **«تاريخ مسلمى الأندلس** **Histoire des Musulmans d'Espagne»** ووقف طويلا عند اعتراف مفصل مثير لابن حزم تضمن فى صراحة بينة خطاه الأولى فى عالم الحب. وكانت مفاجأة مذهلة أفقدت العالم الأوربى الكبير توازنه العلمى، وربما للمرة الأولى على نحو ما سنرى بعد قليل.

يقول ابن حزم فى اعترافه :

«وإنى لأخبرك عنى: أنى ألفت فى صباى، ألفة محبة، جارية نشأت فى دارنا، وكانت فى ذلك الوقت بنت ستة عشر عامًا، وكانت غاية فى حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرها ودماثتها، عديمة الهزل، منيعة البذل، بديعة البشر، مسبلة الستر، فقيدة الذام، قليلة الكلام، مغضوضة البصر، شديدة الحذر، نقية من العيوب دائمة القطوب، حلوة الإعراض، مطبوعة الانقباض، مليحة الصدود، رزينة القعود، كثيرة الوقار، مستلذة النفار، لا توجه الأراجى نحوها، ولا تقف، المطامع عليها، ولا معرس للأمل لديها، فوجهها جاذب كل القلوب، وحالها طارد من أمها، تزدان فى المنع مالا يزدان غيرها بالسماحة والبذل، موقوفة على الجد فى أمرها، غير راغبة فى اللهو.

«على أنها كانت تحسن العود إحسانًا جيدا، فجنحت إليها، وأحببتها حبًا مفرطًا شديدًا، فسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبنى بكلمة، وأسمع من فيها لفظة – غير ما يقع فى الحديث الظاهر إلى كل سامع – بأبلغ السعى فما وصلت من ذلك إلى شىء البتة.

«فلعهدى بمصطنع كان فى درانا لبعض ما يصطنع له فى دور الرؤساء تجمعت فيه دخلتنا ودخلة[١] أخى – رحمه الله – من النساء، ونساء فتياننا، ومن لاث بنا من خدمنا، ممن يخف موضعه، ويلطف محمله، فلبثن صدرا من النهار، ثم انتقلن إلى قصبة كانت فى دارنا، مشرفة على بستان الدار، ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها[٢]، مفتحة الأبواب، فصرن ينظرن من خلال الشراجيب وأنا بينهن.

«فإنى لأذكر أنى كنت أقصد نحو الباب الذى هى فيه، أنسا بقربها، متعرضًا للدنو منها، فما هى إلا أن ترانى فى جوارها، فتترك ذلك الباب الذى صارت إليه، فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره. وكانت قد علمت كلفى بها، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه، لأنهن كن عددا كثيرا، وإذا كلهن ينتقلن من باب إلى باب لسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطلع من غيرها عليها. واعلم أن قيافة النساء فى من يميل إليهن أنفذ من قيافة مدلج فى الآثار.

«ثم نزلن إلى البستان فرغب عجائزنا[٣] وكرائمنا إلى سيدتها فى سماع غنائها، فأمرتها، فأخذت العود وسوته فى خفر وخجل لا عهد لى بمثله، وإن الشىء يتضاعف حسنه فى عين مستحسنه، ثم اندفعت تغنى بأبيات العباس بن الأحنف، حيث يقول:

إنّى طربتُ إلى شمس إذا غربت ... كانت مغاربُها جوف المقاصيرِ
شمسٌ ممثلة فى خَلْق جارية ... كأن أعطافها طىُّ الطوامير
ليست من الإنس إلا فى مناسبة ... ولا من الجن إلا فى التصاوير
فالوجهُ جوهرةٌ والجسمُ عبهرة ... والريحُ عنبرةٌ والكلُّ من نور
كأنها حين تخطو فى مجاسدها ... تخطو على البيض أو حد القوارير[٤]

فلعمرى لكأن المضراب إنما يقع على قلبى، وما نسيت ذلك اليوم، ولا أنساه إلى يوم مفارقتى الدنيا، وهذا أكثر ما وصلت إليه من التمكن من رؤيتها وسماع كلامها...»[٥].

(١) أسرتنا وأسرة.

(٢) الفحوص: الوديان والسهول والجبال المخضرة التى تحيط بقرطبة.

(٣) لفظ «عجوز» كان يطلق فى الأندلس على أية فتاة متزوجة، حتى ولو كانت شابة، ومازال هذا المعنى مستخدما فى كل من المغرب والجزائر وتونس حتى الآن.

(٤) الأبيات فى فوز صاحبة عباس بن الأحنف.

(٥) أقرأ القصة كاملة فى: ابن حزم: طوق الحمامة فى الألفة والالاف، ص ١٤٤ وما بعدها، الطبعة الخامسة، تحقيق مؤلف هذا الكتاب، دار المعارف بالقاهرة ١٩٩٣.

نقل دوزى النص كاملا، فى فرنسية راقية، شفافة ومثيرة فى كتابه الذى أشرنا إليه من قبل، ثم عقب عليه بقوله:

«يلاحظ دون ما شك فى القصة التى انتهينا من قراءتها، ملامح عاطفة رقيقة غير شائعة بين العرب، الذين يفضلون بصفة عامة الجمال المثير، والعيون الفاتنة، والابتسامة الآسرة، والحب الذى كان يحلم به ابن حزم يختلط، دون ريب، بما هو حسى جذاب، وعندما يكون الحبيب المنشود اليوم غيره بالأمس، يصبح الإحساس أقل قسوة. لكن فيه أيضًا ميل إلى ما هو أخلاقى، من رقة بالغة واحترام وحماسة، وما يأسره جمال رائق وديع، فياض بالكرامة الحلوة، لكن يجب ألا ننسى أن هذا الشاعر الأكثر عفة، وأكاد أقول الأكثر مسيحية، بين الشعراء المسلمين، ليس عربيًا خالص النسب، إنما هو حفيد إسبانى مسيحى، لم يفقد كلية طريقة التفكير والشعور الذاتية لجنسه. هؤلاء الإسبان المتعربون يستطيعون أن يهجروا دينهم، وأن يتهلوا بمحمد بدل المسيح، وأن يلاحقوا بالسخرية إخوانهم القدامى فى الدين والوطن، ولكن يبقى دائمًا فى أعماق أرواحهم شىء صاف رهيف وروحى غير عربى[١]».

نشر دوزى كتابه «تاريخ مسلمى الأندلس» الذى ضمنه هذا الرأى، عام ١٨٦١م، ولأن الرجل حجة فى الدراسات الأندلسية، وصاغ القصة فى نثر فرنسى بليغ، فقد أصبح كتابه مرجعًا ورأيه عقيدة، وفكرته الصواب قاطعًا، وتابعه فيه جمهرة الأوربيين من بعده إلى قريب من نهاية الثلث الأول من هذا القرن حين نشر الراهب الإسبانى ميجيل أسين بلاثيوس Miguel Asin Palacios (١٨٧١ – ١٩٤٥م) دراسته العميقة عن العالم القرطبى الجليل، وكان أسين بلاثيوس عالمًا ثبتًا وحجة فى الفلسفة الإسلامية، وقف عليها حياته: نشر مخطوطات، ودراسة تراث، وحرّر فيها عددا هائلا من الرسائل والأبحاث، وترجم إلى الإسبانية أمهات كتب الفلسفة الإسلامية فى الأندلس بينها كتاب: «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» لابن حزم وجعل من دراسة حياة المؤلف كالمقدمة لترجمته، وجاءت الدراسة والترجمة فى خمسة أجزاء كبار[٢].

---

(١) Dozy, R. :Histoire des Musulmsns d' Espagne, Tomo II, pag. 263, Trsd. Espagnole, Buenos Aircs, 1940.

(٢) ترجمنا هذه الدراسة إلى اللغة العربيـة، وسوف تأخذ طريقهـا إلى النشر قريبـا.

• **أسين بلاثيوس يشجب رأى دوزى :**

عرض **أسين بلاثيوس** لفكرة دوزى، كما أوردناها، وناقشها تفصيلا ووجهة نظره تستحق أن نوردها كاملة، ولنا عليهما استدراك وتعليق. يقول: «الفكرة التى دافع، عنها دوزى بوضوح فى تعليقه هذا، وفى أمكنة أخرى من كتابه: «تاريخ مسلمى الأندلس»، يمكن أن نوجزها، لتسهيل مناقشتها، فى النقاط التالية:

• إن الإطار الذى رسمه ابن حزم لحبه فى هذه الترجمة الذاتية، فى لهجة صادقة وسلامة نية فطرية، يظهر لنا من نفسية البطل شعورا ممتازا، أشد رقة وكمالا من الحب الحسى غير المحتشم. ويمكن اعتبار ابن حزم فى هذا الجانب مثلا استثنائيًا نموذجيًا للحب الروحى والعفيف، الذى يسميه علماء النفس الحب الإفلاطونى أو الرومانسى.

• إن النفسية التى تكابد هذا الحب ليست من خصائص الجنس العربى، ولا الأدب الإسلامى، وكلاهما فى عواطفه الغرامية يستمد إلهامه غالبًا من الرغبات الجنسية المبتذلة.

• إن حب ابن حزم الرومانسى، وبالتالى كل جبلته العاطفية، لا يمكن تفسيرها إلا فى ضوء أنها وراثة نفسية، وارتداد منه لخصائص جنسه المسيحى والإسبانى.

«فيما يتصل بالنقطة الأولى من هذه النقاط، أبادر إلى القول، قبل كل شىء، بأن روعة الأسلوب الأدبى لدوزى، وقد تجلت فى ترجمته الجميلة لقصة **ابن حزم** السابقة، مقارنة بترجمة **خوان باليرا**[١] تثير فى أعماق روح القارىء العلمانى، غير اليقظ، فكرة أن ابن حزم كان ضحية ذلك الحب الأول لأيام شبابه، يبكى بلا أمل، بقية حياته، الحظ التعس لقلبه المصدود. وبمعنى آخر أعطى النغم الرومانسى لهذا الحب القصة مزيدا من القوة، لأن دوزى تركنا فى مهارة نتخيل أنه الحب الوحيد فى حياة ابن حزم، على حين أنه لا يمكن أن يجهل، وقد استفاد من كل كلمة فى النسخة المخطوطة لطوق الحمامة، أن ابن حزم لم يصبر طويلا، وهو يمثل الدور الرومانسى لعاشق يائس، إذ سرعان ما جفف دموعه، لينسى فى حب آخر، أكثر سهولة، أحزان حبه الأول.

---

(١) Juan Valera (١٨٢٧ – ١٩٠٥) روائى اسبانى، وقد ترجم إلى الاسبانية كتاب المستشرق الألمانى فون شاك: «شعر العرب وفنهم فى اسبانيا وصقلية». وشهرت ترجمته بأنها ذات لغة رصينة، وأسلوب أدبى رفيع، وتضمن الكتاب القصة التى نحن بصددها. وترجمت الكتاب إلى العربية ونشرته دار المعارف.

يقول: «كنت أشد الناس كلفا، وأعظمهم حبًا، بجارية لى، كان فيما خلا اسمها نُعْم، وكانت أمنية المتمنى، وغاية الحسن خلقًا وخلْقا وموافقة لى. وكنت أبا عذرها، وكنا قد تكافأنا المودة ففجعتنى بها الأقدار، واخترمتها الليالى ومر النهار، وصارت ثالثة التراب والأحجار، وسني حين وفاتها دون عشرين سنة وكانت هى دونى فى السن. فقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابى ولا تفتر لى دمعة على جمود عينى وقلة إسعادها. وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف، وببعض أعضاء جسمى العزيزة على مسارعا طائعًا، وماطاب لى عيش بعدها، ولا نسيت ذكرها، ولا أنست بسواها، ولقد عفى حبى لها على كل ما قبله، وحرم ما كان بعده»[(١)].

وليس هذا الحب الثانى هو الأخير لأيام شبابه، فبعد ذلك بأعوام، عندما استطاع أن يعود إلى قرطبة وسط مغامراته السياسية الواسعة، يحدثنا عن نفسه: «وقد ضمنى المبيت ليلة فى بعض الأزمان عند امرأة من بعض معارفى مشهورة بالصلاح والخير والحزم، ومعها جارية من بعض قرابتها، من اللاتى قد ضمها معى النشأة فى الصبى. ثم غبت عنها أعوامًا كثيرة. وكنت تركتها حين أعصرت، ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب، ففاض وانساب، وتفجرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحيرت، وطلعت فى سماء وجهها نجوم الحسن فأشرقت وتوقدت، وانبعثت فى خديها أزاهير الجمال فتمت واعتمت»[(٢)].

إذن لم يخفق قلب ابن حزم فى حبه مرة واحدة، بل مرات، ومن هذه الزاوية الجديدة، التى لم يرد دوزى أن يضعها أمام عين القارئ، يفقد الحب الفتى لبطلنا، دون شك، درجات من مثاليته وأفلاطونيته، لكن لا يمكن الإنكار أنه ينطوى على مشاعر رقيقة لم تفقد توهجها بعد، ولا تعرف ما هو حسى، ومصدر ذلك تعاسة مزاجه، أو بمعنى أدق، جاء نتيجة ميل فطرى عنده، ويعترف ابن حزم نفسه بأن لديه دائمًا قدرة بالغة، وعزوفًا عن كل ما هو جنسى[(٣)]. ويرى أن اجتماع الأرواح، ليس التقاء الأبدان،

(١) القصة كاملة فى: ابن حزم. طوق الحمامة، بتحقيقنا ص ١٢٤.
(٢) القصة كاملة فى المرجع السابق ص ١٦٦ ، ١٦٧.
(٣) انظر مثلا كتاب الأخلاق والسير فى مداواة النفوس، ص ١٠٢ ، وكتاب طوق الحمامة بتحقيقنا ص ١٦٥، ونص عبارته فيه: (إنى أقسم بالله أجل الأقسام إنى ما حللت مئزرى على فرج حرام قط، ولا يحاسبنى ربى بكبيرة الزنا منذ عقلت إلى يومى هذا).

هو الذى يبقى على الحب[١]. لقد كانت روحية عشقه حقيقة واقعة وظل صداها يتردد، بعد قرن كامل من وفاته، فى خمريات الشاعر العربيد **ابن قزمان** القرطبى، وهو يصف لنا سهراته ولياليه الحمراء[٢].

لكن ليس صحيحًا أن حبه الأفلاطونى يجب أن يعد شيئًا شخصيًا، وطابعًا يتصل بخلاقه، وأنه استثناء واضح فى نفسية الإسلام الإسبانى، ذلك أن الحقائق التاريخية فى كتابه «طوق الحمامة» وهى مسلم بها وليست موضع شك، لأن مؤلفه يؤكد ذلك حرفيًا فى مقدمة الكتاب، يقول: «كلفتنى – أعزك الله – أن أصنف لك رسالة فى صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة، لا متزيدا ولا مُفتنًا»[٣] وأغلب فصول الكتاب تتكون من روايات معاصرة عن شخصيات تذكر بأسمائها وألقابها وهى شاهد حى على الجذور العميقة التى بثها الحب الرومانسى فى الأرواح. وتعترضك فى كل خطوة، على امتداد صفحات الكتاب، أسماءخلفاء ووزراء وقواد، وشخصيات من أعلى طبقات الأرستقراطية العربية، وفقهاء وأدباء وشعراء ورجال، وباختصار من كل الطبقات المثقفة فى المجتمع القرطبى، وهم يهتدون فى حياتهم الغرامية بهذا الروح المثالى الراقى نفسه، تشيع البهجة فيهم نظرة عابرة من فتاة أحلامهم، أو مجرد زيارة شريفة وخفيفة، وتبتّل صامت إلى المعبود فى محراب الروح الخفى، وتقديس يكاد يكون دينيًا لما خلف من أشياء وحاجات شخصية يحتفظون بها تذكرة، ويبلغ نهاية الطرف المقابل للحب الأفلاطونى، فيروى بالدموع، عند احتداد الخيبة، رسائل يطلب فيها صدقة من حب، أو يكتبها بدمه، أو ينهى فى قسوة حبه المصدود، مضنيا الحبيب شيئًا، أو ينطفئ بغتة نور عقله، فى انفجار غرامى مجنون[٤].

---

(١) الأخلاق والسير، ص ٨٦ .

(٢) ديوان ابن قزمان، جـ أ ص ٢٧٢ ، الزجل رقم ٥٢ ، تحقيق غرسية غومث، مدريد ١٩٧٢ ، والفقرة المشار اليها هى: يتعجب ابن حزم وقتا ينشد

ويشتهى كل حينا يقصد

فمدحى له من سخاه يتولد:

فاز من جسر وندم من قصر

من كان كريما فى ثنائى يظهر.

(٣) طوق الحمامة، ص ١٦ ، طبعة دار المعارف بتحقيقنا.

(٤) أورد ابن حزم فى كتابه (طوق الحمامة) مثلا لكل واحدة من هذه الحالات، انظر: الفصل ١، ص ٥–١١، والفصل ١٠ ص ٣٠ – ٣١، والفصل ٢٥ ص ٨٨، ٩٤، والفصل ٢٦ ص ٩٥ – ٩٦. والفصل ٢٨ ص ١٠٧، ١١٣.

عندما نقرأ هذه الصفحات الزاخرة بالشعر، يمكن أن نفهم من مجموعها نفسية تلك الحضارة القرطبية، وهى تقدم لنا فى قمة توهجها، الدلائل على رقيها الثقافى والعاطفى، وهما دائمًا طلائع أى انحدار. لم يكن إذن حب ابن حزم الأفلاطونى وليد عدوى سلالية فحسب، أو أنه تلقاه من نفسية أسلافه المسيحيين، لأن من أبطال الغزل الرومانسى كثيرين جدًا ينحدرون من أصول عربية خالصة، ولا يمكن أن تجرى فى دمائهم الخصائص الموروثة التى نفترض أنها عند ابن حزم.

ولقد حفظ لنا **«طوق الحمامة»** عن **الرمادى** أبو عمر يوسف بن هارون من كبار الشعراء الغنائيين الملهمين فى عصر **المنصور بن أبى عامر** وهو كِنْدى القبيلة، يمنى الأصل، رواية لطيفة، ثابتة الوقائع، جديرة بأن تروى لما فيها من عاطفة عميقة: **«كان يوسف بن هارون** مجتازا عند **باب العطارين بقرطبة**، وهذا الموضع كان مجتمع النساء، فرأى جارية أخذت بمجامع قلبه، وتخلل حبها جميع أعضائه، فانصرف عن طريق الجامع، وجعل يتبعها وهى ناهضة نحو القنطرة، فجازتها إلى الموضع المعروف بالربض، فلما صارت بين رياض بنى مروان رحمهم الله، المبنية على قبورهم فى مقبرة الربض، خلف النهر، نظرت منه منفردا عن الناس لاهمة له غيرها، فانصرفت إليه، فقالت له: مالك تمشى ورائى؟. فأخبرها بعظيم بليته بها، فقالت له: دع عنك هذا ولا تطلب فضحيتى فلا مطمع لك فىّ ألبتة، ولا إلى ما ترغبه سبيل. فقال: إنى أقنع بالنظر. فقالت ذلك مباح لك. فقال لها: ياسيدتى.. أحرة أنت أم مملوكة؟ قالت: مملوكة. فقال لها ما اسمك؟ قالت: خلوة[1]. فقال: ولمن أنت؟. قالت له: علمك والله بما فى السماء السابعة أقرب إليك مما سألت عنه، فدع المحال. فقال لها: ياسيدتى وأين أراك بعد هذا؟. قالت: حيث رأيتنى اليوم، فى مثل تلك الساعة من كل جمعة. فقالت له: إما أن تنهض أنت، وإما أن أنهض أنا، فقال لها: انهضى فى حفظ الله. فنهضت نحو القنطرة، ولم يمكنه اتباعها لأنها كانت تلتفت نحوه لترى أيسايرها أم لا. فلما تجاوزت القنطرة أتى يقفوها فلم يقع لها على خبر، ولا أدرى أسماء لحستها أم أرض بلعتها، وإن قلبى منها لأحر من الجمر، وهى خلوة التى يتغزل بها فى أشعاره، ثم وقع بعد ذلك على خبرها بعد رحيله فى سبيلها إلى سرقسطة فى قصة طويلة[2].

(١) هكذا فى الأصل، وأظنها، «حلوة»، وبهذا المعنى الأخير ترجمها أسين بلاثيوس.
(٢) المرجع السابق، ص ٤١، ٤٢ .

لقد تأثر دوزى بما هو معاد عن حسية الحب عند الجنس العربى أكثر مما تأثر بما هو حق (مازال أسين بلاثيوس هو الذى يتكلم) وهذه الأفكار المطروقة وليدة دراسات جزئية وسطحية وجانبية للأدب الإسلامى، وهى مضطربة، مثلها فى ذلك خرافة لا تقل عنها انتشارا، وهى عجز الجنس السامى عن الدراسات الفلسفية. لقد كرس الاستشراق الأوربى أغلب جهده، فى البدء، بل حتى كل جهده، لدراسة شعراء الجاهلية، وأدباء الإسلام فى العصر الكلاسى، وخُدِعَ أوائل الباحثين منهم بما كان يتراقص فى هذه النماذج من عبادة وثنية للشكل والجمال الحسى، دون أن يكون لديهم متسع من الوقت لكى يستوعبوا، أو حتى يبدأوا، تحليل المعانى العظيمة للأدب الإسلامى، ومازال مطويا لم ينشر ولم يدرس بعد، ومع ذلك جرعوا على أن يستخلصوا من المقدمات الناقصة والخادعة نتائج عامة وفجة، وأن يرتفعوا بها إلى مرتبة القانون التاريخى أو الاجتماعى، لكن خلال قرن مضى (كتب أسين بلاثيوس كتابه عن ابن حزم بين عام ١٩٢٦-١٩٢٨) حُلِّلتْ جوانب جديدة عديدة للنفسية العربية، ومن الممكن الآن تكوين فكرة أكثر شمولا ودقة عن ذى قبل.

● **أصول الحب العذرى فيما يرى بلاثيوس :**

ومن جانب آخر، وكمقابل لهذا الاتجاه الحسى، ظهر منذ العصر الجاهلى لون من الغزل العاطفى، عفيف وروحى كالحب المسيحى، ففى الصحراء العربية، قريبًا من اليمن، عرفت قبيلة بدوية كيف تسمو بفهمها إلى أدق ما يمكن أن يتصور من الحب البشرى. فبنو عذرة يفضلون الحزن الحلو المستسلم المشوق فى الحب الأفلاطونى، على العواطف الحادة للغرائز الحيوانية البهجة، ويعرفون كيف يموتون من الحب، قبل أن يدنسوا بالشهوة الملول المشبعة عرس الأرواح العفيفة، لقد تغنى أعظم شعرائهم إلهامًا، فى قصائد تفيض رومانسية، بالحلاوة المرة، للرغبة الكظيمة إلى الأبد، وكان جميل بن عبد الله العذرى، إلى جانب شعراء آخرين من بنى هذيل، النموذج الكامل الذى تتحقق فيه العفة المثالية. لقد مات من الحب دون أن يجروُ يومًا على أن يمس بيده محبوبته بثينة.

إن عبادة العفة والعذرية، وهما من خصائص الرهبنة المسيحية الشرقية فى العصور الوسطى، لا يجب أن تكون بمنأى عن هذه الحركة الرومانسية، والراهب المسيحى شخصية شائعة فى القصيدة الجاهلية، وكانت الصوامع والأديرة تتناثر عبر صحراوات

الجزيرة العربية، وكان قرى الحجيج فيها تقليدا مرعيًا، والتعايش والعرفان يؤديان إلى التقليد. والحق أن شيئًا كثيرا من ذلك فى الأدب الدينى للقرن الأول الهجرى. إن حكايات رهبانية، ونماذج لأبطال متقشفين مما يوجد فى كتاب «حياة الآباء Vitae Patrum انتقلت فى سرعة كبيرة للغاية إلى التراث الأدبى الإسلامى. وأحد هذه الأمثلة، وربما كان أروعها جميعًا، عبر سريعًا البلاد الإسلامية التى تفصل موطنه عن الغرب، حتى وصل إسبانيا. إنها حكاية راهب مسيحى من طيبة أحرق أصابعه بالنار ليقاوم محاولة امرأة عارية. وقد قص ابن حزم الحكاية فى **طوق الحمامة**، بعد أن جردها من طابعها المسيحى[(١)].

«الحب العذرى والعفيف لبنى عذرة، المطهّر هكذا شيئًا فشيئًا بحرارة الزهد البدوى الإسلامى، والسابق للصوفية، أخذ شكله النهائى فى بغداد قريبًا من القرن الثالث الهجرى، التاسع الميلادى، كنموذج مثالى للحب السامى، وحتى للفضيلة الدينية. وكان البلاط العباسى، وقد بلغ قدرا عاليًا من الثقافة المصقولة، يعانى فى الوقت نفسه من تفاقم المشاعر المريضة، وهو طابع كل المراكز الحضارية الكبرى، وقد عانت منه قرطبة بعد وفاة ابن حزم بقرن من الزمان. وفى نوادى بغداد الأدبية كانت هذه الرومانسية التقليدية تباشر تأثيرا قويا على النفوس، حيث شاع الحديث المنسوب إلى النبى «من عشق فعف ومات، مات شهيدا». وهذه المثالية العالية ألهمت روحًا عظيمًا واسع الثقافة، هو ابن داود الأصفهانى، ابن منشىء المذهب الظاهرى وخلفه فيه، فعرف كيف يرفع حينئذ تمثالا أدبيًا خالدًا للحب الأفلاطونى بكتاب «الزهرة». وفيه يعترف بالأصل المادى والشهوانى للميول العاطفية فى الروح الإنسانى، وأنها تخضع لمثير دائم يتوقف على قدرها من التركيب الفسيولوجى. ومع ذلك، عرف كيف يجعل منها مثلا أعلى، بالعزوف المستمر عن متعها، لتصبح الرغبة أملا خالدًا.

ومهما تكن خصائص الجنس البعيد لابن حزم، التى نسبه إليها دوزى فقد تهاوت كلها أمام هذا العرض. وإذا كان ثمة أثر من مشاعر مسيحية حقيقية يمكن أن ينبض بها قلب ابن حزم، العدو اللدود للعقيدة المسيحية. وللأخلاق الإنجيلية، فليست بالتأكيد

---

(١) الأصل المسيحى للقصة ورد فى كتاب «حياة الآباء» Vitae Patrum تأليف Rosweyde وأوردها ابن حزم مفصلة فى كتابه «طوق الحمامة» ص ١٨ طبعة دار المعارف بتحقيقنا ويلاحظ أن الذى روى القصة لابن حزم طبيب يهودى.

المشاعر التى ورثها عن أجداده عبر دمائهم، وإنما تلك التى اكتسبها لاشعوريا، وعلى الرغم منه، بفعل عدوى لا محيص عنها، لجو المثالية المسيحية القوى، والذى ازدهرت فيه الحياة الأدبية الإسلامية فى المشرق طوال حياتها»[١].

• **ولنا عليهما استدراك وتعليق :**

تلك هى وجهة النظر غير العربية، كما يعرضها مستشرق هولندى غير متهم فى حياده، وعرف بكرهه لرجال الدين، وبعده عن التعصب. وكما تصورها راهب كاثوليكى إسبانى، عرف بغزارة علمه، وتمكنه من العربية وبمعالجته للقضايا العملية والأدبية فى موضوعية لاتحدها إلا رسالته كرجل دين تخضع كل كتاباته لمراجعة السلطات الكنسية ورقابتها.

لكن **دوزى** كان متأثرا بما كان شائعًا فى أوربا على أيامه، من أن السمو فى الحب وليد المسيحية، فطبق هذا الاتجاه فى دراسته لابن حزم وكتابه «طوق الحمامة»، وحاول **أسين بلاثيوس** فى مهارة ذكية، أن يرد الغزل العذرى كله، لا الأندلسى منه فحسب، إلى أصول مسيحية.

ونظرية كليهما ينقضها واقع الأندلس، فهما يعرفان جيدًا أن مسيحية الإسبان عند الفتح كانت رقيقة، وأن علم الناس بها - خارج رجال الدين - كان مشوشًا، وأن جانبًا لا بأس به من السكان كانوا وثنيين، وإذا كان من المرجح أن **ابن حزم** ينحدر من أصول إسبانية، فمن المرجح أيضًا أن أجداده لم يكونوا قد اعتنقوا المسيحية عند دخول الإسلام، لأنه من المنطقة الفقيرة، فى جنوب غربى إسبانيا، وغالبية أهلها عند الفتح كانوا من الوثنيين، وعلى أى حال فإن ما كان يجرى فى الجانب العربى والإسلامى من الأندلس من مظاهر الحب الحسى، كان يجرى مثله، وأفحش منه، فى الجانب الإسبانى المسيحى، ولم تجر فى عروقهم دماء عربية، ولا اتخذ جلودهم الإسلام دينا.[٢]

كان **ألفونسو السادس ملك قشتالة**، وجاء إلى الحياة بعد عامين من وفاة ابن حزم (ت ١٠٦٣)، ملكا كاثوليكيًا، أفنى حياته يقاتل من أجلها ودفاعًا عنها، ولكن الكاثوليكية

---

(١) انظر بقية رأيه فى كتابه: ابن حزم القرطبى، الجزء الأول، وقد ترجمناه، إلى اللغة العربية وسوف ينشر قريبا.

(٢) William C. Atkinson : Histoire d'Espagne et du Portugal, p. 81, Paris 1995.

بطقوسها لم تمنعه من أن يجمع بين ست زوجات فى وقت واحد. وكان على علاقة جنسية مع أخته أراكة Urraca تذكر ذلك المصادر العربية المعاصرة له صراحة[١]، وتتحدث عنها الأغانى الشعبية الإسبانية، منكرة أحيانًا ومتشفية أحيانًا أخرى، وكان إنريك الرابع ملك قشتالة (ت ١٤٧٤) إسبانيا حتى آخر قطرة فى دمه، كاثوليكيًا من أخمص قدميه إلى قمة رأسه، وكان شاذًا جنسيًا مخنثًا، يلاحق من لا يخضعون لرغباته المخجلة من حاشيته بالقتل والسجن والنفى، ولم ير حرجًا فى أن يعين عشيقته **كتالين سندوفال** رئيسة لدير راهبات القديس بطرس، فى ضواحى **طليطلة**، بعد أن طرد رئيسته السابقة، متحديًا أوامر المطران، وقرار حرمانه من الكنيسة[٢]. ومن الثابت أنه كان عقيمًا لا يلد، وأنه طلق زوجته الأولى رغم كاثوليكيته وتزوج ثانية، وأن زوجته الثانية جاءته ببنت نُسبتْ إليه، وكان معروفًا أن أباها الحقيقى أحد رجال الحاشية، ولم يكن **إنريك** هذا حالة شاذة فهو يشك أنه ابن حقيقى لأبيه المنسوب إليه: **خوان الثانى**[٣].

وكان **فليب الثانى** (١٥٢٨ – ١٥٩٨) أعظم ملوك إسبانيا، كاثوليكيًا متعصبًا، ضيق الأفق فى مفهومه الدينى، وله العديد من العشيقات، وأولاد كثيرون غير شرعيين، كما كان أبوه من قبل[٤]، ومن الشائع أن **كارلوس بن فليب الثانى**، كان على صلة غرامية بزوجة أبيه **إيزابيل**، ولذلك سجنه، ومات فى السجن فى ظروف غامضة، مسمومًا أو مذبوحًا أو مخنوقًا، فبكته **إيزابيل** بكاء مرا، فأصدر لها فيليب أمرا إمبراطوريا بأن تكف عن البكاء عليه[٥].

ويقص علينا رحالة ألمانى طاف بالجانب المسيحى من الأندلس فى القرن الخامس عشر، أنه وجد الشذوذ الجنسى شائعًا فى **قشتالة**، وقشتالة هذه من أشد مقاطعات الأندلس فى العصر الوسيط، وحتى أيامنا هذه، تعصبا للكاثوليكية، وتعلقًا بالإسبانية، حتى أن اللغة القومية تنسب إليها فى أحايين كثيرة، فيقال اللغة القشتالية بدل الإسبانية، لأن لهجتها هى التى سادت بعد سقوط دولة الإسلام فى الأندلس[٦]. ويلاحظ أن من

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ ٤ ، ١.
(٢) Marañon Gregorio : Essayo Biologica sobre Enrique IV, p. 94, 9 edicion Madred, 1960.
(٣) المرجع السابق ص ٣٤ ، ٤٩.
(٤) Fornieles Salvador : La Espana del Siglo XVI, p. 88, Buenos Aires, 1951.
(٥) Plandal Ludwig : Juana la loca, p. 181 ss, Madrid, 1959.
(٦) المرجع السابق ص ١٠.

العسير علينا عند دراستنا لهذا الأمر فى الجانب المسيحى من الأندلس الحصول على معلومات كافية، لأنه لم يكن يتمتع بما يتمتع به الجانب الإسلامى من حرية فى الإبداع والتسجيل والنشر، لأن الرقابة الدينية على المؤلفات كانت عنيفة وقاسية ولا تسمح بالإشارة إلى مثل هذه الأشياء[1].

- **ألوان من حياة الجنس المسيحى :**

يقول مؤلف كتاب: «تاريخ إسبانيا وأمريكا: اقتصاديا واجتماعيا»، وصدرت الطبعة الأولى منه فى برشلونة بإسبانيا عام١٩٥٧ ، وخضع لرقابة الدولة والكنيسة على السواء: «شهد القرنان الرابع عشر والخامس عشر أشد فساد شهدته الكنيسة الإسبانية، وبخاصة فى **مملكة قشتالة**، والدراسات التى قام بها **أوليز روبير** Ulises Robert أظهرت الحالة المؤسفة التى انتهى إليها عـدد كبير من الأديرة البندكتية، حيث يعيش الرهبان مع عشيقاتهم ويربون ويعلمون أولادهن فى الأديرة نفسها. وثمة تعليمات أصدرها **مطران أوفييدو** فى القرن الرابع عشر يمنع فيها الرهبان من السماح لعشيقاتهم، أو أولادهن، أو الراهبات، أن يتواجدن على أبواب الأديرة، أو يعشن فيها ضيوفًا على الرهبان، وثمة وثيقة أخرى نشرها **فوشيه دلبوس** Fouche-Delbosc تشير إلى السمعة السيئة التى كان يتمتع بها رجال الدين الدومينيكان فى القرن نفسه، مما يؤكد أن الأوامر الخاصة بالسلوك المستقيم قد تنوسيت سريعا. وفيما يبدو كان فساد الأخلاق عاما فى كل الأديرة، إلى حد كبير. وفيما يتصل بسلوك رجال الدين خارج الأديرة، هناك أدلة وافية للجزم بأن الفساد كان أكثر شيوعًا فى **قشتالة** منه فى **أرجون**، والبلاد الأوربية الأخرى، ففى منتصف القرن الثالث عشر (أى مائتى عام بعد وفاة ابن حزم) شاعت أغان تتحدث عن رجال الدين ممن فاض بهم الشبق، وفى كتاب «الحيل» قصة رئيس دير أخفى عنده امرأة متزوجة.

«ونعرف من قرارات مجمع **شنت ياقب** Santiago عام ١٢٨٩م، أن من الشائع بين رجال الدين فى المدينة، أن يعيشوا على نحو ما يعيش العلمانيون، يرتدون أفخر الثياب، ويأكلون فى الحانات، ويلعبون «الزهر» علانية، ويحملون الأسلحة، ويأخذون بحظهم من حياة الليل، ويتشاجرون مع الأهالى والجنود، وهذا المجمع نفسه أصد قرارا بمنع

---

(١) Maranos, op. cit., p.107.

رجال الدين من اتخاذ العشيقات علانية ومن أن يوقفوا أنفسهم على كتابة الرقى، أو قراءة الطالع...».

«وفى عام ١٣٨٠م، أصدر مجلس سورية قرارا يحول بين أبناء الرهبان من عشيقاتهم وبين أن يرثوا آباءهم، لكى يحول بين نساء أخريات مستقيمات، أرامل وعذراوات، أن يصبحن لهم عشيقات، وأن يقعن فى الخطيئة». وبعد سبعة أعوام أصدر مجلس بريفييسكا قرارا بمعاقبة أى أمرأة تصبح علنًا عشيقة لواحد من رجال الدين.. تعاقب فى كل مرة تستسلم فيها له.

ويمضى بنا الكتاب إلى القرن الخامس عشر فيقرر: «إن عددا كبيرا من الأديرة لم يكن إلا موضعًا لحياة اللذاذة والمرح، وعدد كبير من أديرة الراهبات سقط إلى الحضيض، وإذا لم تصبح بيوتا للدعارة فعلا، فقد كان بينها وبين أن تصبح كذلك خطوة واحدة. «وخلال حصار مدينة فوسة Fosa، فى الشمال الشرقى من إسبانيا، عام ١٤٦٢، وجهت رئيسة الدير توبيخا لقائد الجيش المحاصر، لأنه سمح لضباطه بأن ينسوا واجباتهم العسكرية، وأن يمضوا الليل مستمتعين فى دير «سنتا كلارا» للراهبات، وكان خارج أسوار المدينة. وبعد ذلك بأعوام طلب المطران مساعدة السلطات المدنية لكى تساعده فى طرد راهبات هذا الدير بالقوة، ماعدا الرئيسة، لأنها وحدها حافظت على كرامتها بين هؤلاء الراهبات الرجسات، وقد أوقعن الرعب فى قلب رئيسة الدير، وأصبحت عمليًا أسيرة لديهن.

«وتكرر فى أديرة كثيرة، فى **قشتالة وأرجون**، المشهد الذى حدث فى **فوسة**، وقد دافع رهبان **سلمنقة** عن أنفسهم مستخدمين كل شىء حتى الأسلحة، قبل أن يغادروا الدير، بينما الرهبان الفرنسيسكان فى المدينة نفسها خرجوا يجرون فى الشوارع رفقة عشيقاتهم. أما رهبان **طليلطة** فقد خرجوا فى مشهد دينى، يطوفون الشوارع، ويرفعون الصلبان، ويترنمون بنشيد الخروج.. وأخيرا فإن ما يقرب من ٤٠٠ راهب أندلسى هددوا بأنهم سوف يهاجرون إلى شمال أفريقية، ويعتنقون الإسلام، قبل أن يتخلوا عن عشيقاتهم»[١].

---

(١) Historia de Espana Y America : Social Y Economica, dirigida Por : J. Vicens Vives 3 ed. p. 149 ss., Barcelona, 1971.

ويمضى المؤلف يعدد أحداثًا أخرى كثيرة من هذا القبيل، ويطول بى الحديث لو أشرت إليها جميعًا، ولكنى أكتفى منها بما أوردت وأدعها إلى حديث آخر. ففى العام الذى سقطت فيه دولة الإسلام فى الأندلس، ٢ يناير ١٤٩٢ ، كانت الملكة إيزابيل تستقبل مغامرًا إيطاليًا يدعى كولون أو كولومبوس، ويعرض عليها مغامرة يريد لها تمويلا، وقبلت الملكة، ومضى كولون فى مغامرته، وكانت النهاية اكتشاف العالم الجديد، ومعه أصبحت إسبانيا أقوى دولة فى العالم، لا تغيب الشمس عن أملاكها، كما قيل عن بريطانيا فيما بعد، وتدفق الإسبان على العالم الجديد، وبخاصة من مقاطعة الجوف، فى الجنوب الغربى من إسبانيا، «بعض القرى خلت من الرجال تمامًا، ولم يعد فيها غير النساء، يلفها ظلام صيفى وشقاء مرعب، وملل يتجاوز الوصف.. نساء تعسات، حياتهن جافة ومنسيات، لا أمل لهن فى أن يرين أزواجهن مرة أخرى، دون أن يعنى هذا أن إحساسهن بحاجتهن الجنسية قد هدأ، وحولهن فى كل مكان تظاهرات دينية: صلوات، ودعوات، وسحر.

والحقيقة المرة أن رجال الدين أصبحوا سادة «الفراغ»، كثيرون عرفوا كيف يقاومون الرغبة فى داخلهم، وليسوا جميعًا.. إن العناصر التى تتركب منها الشهوة بسيطة للغاية، بسيطة مثل ذكاء أولئك الأشقياء: قليل من الدين، وكثير من الهيجان، يتخفى تحت ستار الكهانة، وجسد يلتهب شهوة ورغبة، وفى مدينة يرينا Llerena وما يتبعها من قرى، قام ثمانية من رجال الدين، فى مطلع القرن العاشر أطلقوا على أنفسهم اسم «المتنورين» وجوهر محاولتهم أحط ما عرف من اتجاهات الفرق الدينية لأن دعوتهم لا تذهب إلى أبعد من إشباع شهواتهم الحسية، وقد استطاع أحدهم، الأب تشاميثو Chamizo أن يهتك عرض ثلاثين امرأة، ممن جئن يتلقين على يديه مبادئ الدعوة الجديدة، وربما كان ينقص هؤلاء، وغيرهن ممن لقين المصير نفسه، القدرة على إدراك الانحراف الذى يكمن وراء هذه الدعوة، ولكن من المؤكد أنهن وجدن فيها فسحة ليشبعن رغباتهن، وقد تركت الأساليب التى اتبعت معهن إصرارا وهوسًا واضحًا فيهن جميعًا.

«ونبت يرينا كان واحدا من أشد الحالات شهرة، ولو أنه جاء متأخرا بالنسبة لحوادث أخرى. وكانت قضية هؤلاء «المتنورين» تقلق المسؤولين منذ زمن، وأول «متنور» فى زمن الكاردينال ثيسنيروس، كان من طائفة الكاثوليك الفرنسيسكان ويدعى أوكانيا Ocana، وادعى أنه يتلقى الوحى، وأن الوحى أشار عليه بأن يضاجع ألوانًا من النساء

لكى يحملن منه بأنبياء، وقد انتهى به المطاف إلى السجن تحت الأرض وما لبث أن سارع بالارتداد عن دعواه[1].

وتكتشف إسبانيا أمريكا، وتصبح هذه من أملاك التاج الإسبانى، ويتدفق عليها الإسبان من كل لون، مغامرون ومقاتلون ولصوص ومجرمون وباحثون عن الثراء، ومعهم أو حتى قبلهم رجال دين ينشرون الكاثوليكية هناك بين سكان العالم الجديد، وما كان من هؤلاء فيما وراء الإطلنطى شيء فوق التصور، كأنما كانوا غرائز انطلقت من عقالها لا تهدهد منها تقاليد ولا حدود ولا قيم. وقد صورت الكاتبة البيرونية **كلورنداماتو** C. Matto، وهى كاثوليكية، فى روايتها: **طيور لا عش لها** Aves sin Nido، فى دقة وواقعية شيئًا مما حدث، فأحداث الرواية تدور فى قرية ريفية فى بيرو، وثمة أسرة من هنود أمريكا تعيش فى حماية زوجين من البيض، ولكن القسيس والحاكم والرئيس السياسى طمعوا جميعًا فى زوجة الرجل الهندى وبِنْتيه، واستطاعوا أخيرا أن يقنعوا السكان بالهجوم على منزلهم وتدميره ودفاعًا عن بيته قُتل الرجل الهندى وزوجه، وخلف وراءه بنتين، عشق ابن الحاكم إحداهما، وعندما أراد أن يتزوج منها لم يستطع، فقد اكتشف أنهما أخوان، لأن القسيس كان أبًا لهما، أبًا غير شرعى، لأنه كان عشيقًا لزوجة الهندى وزوجة الحاكم معًا.

وتلك وقائع أوردها كتاب إسبان معاصرون وكاثوليك، ولنا عليها تحفظان: أولهما أن ما كان يحدث أسوأ بكثير مما تحدثوا عنه، وأعرف قراءة وواقعًا ما هو أشد تهتكا، وثانيهما أننا لا نقع فى الخطأ الذى يقعون فيه تعصبًا، فنرى رجال الدين فى المسيحية كلهم كذلك، إننى شخصيًا أعرف بينهم أناسًا يملأ الإيمان قلوبهم، وتتميز حياتهم بالطهر، ووهبوا قواهم ونشاطهم لكل ما هو فاضل وجميل فى الحياة.

- **ربط العفة بالدين أو اللون أو الجنس عمل غير علمى :**

إن ربط العفة بالمسحية، والتبذل بالإسلام، فضلا عن مخالفته للواقع التاريخى يتنافى مع بسائط أى منهج علمى، مثله فى ذلك القول بأن مسلمى الأندلس الذين انحدروا من أصول رومانية كانوا أرقى فى عواطفهم من الذين عبروا إليه المضيق فاتحين أو وافدين. «إن المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام فى الأندلس، فقدوا شيئًا فشيئًا الإحساس

---

(١) Pedrico Revilla : El sexo en La historia de Espana, p. 158 ss., Barcelona, 1975.

بأصولهم التى انحدروا منها، حتى أن بعضهم صنع له شجرة نسب عربية، ترفعه إلى قبائل معروفة ومشهورة، مقابل أثمان دفعوها ذهبا. وحافظ آخرون على ألقابهم الرومانية الأولى، فكان هناك **بنو أنجلين** Banu Angelino **وبنو شبريق** Banu Sabtico **فى إشبيلية**[١]. وما كان المرء يستطيع أن يفرق بين الذين صنعوا لهم نسبًا عربيًا، والذين احتفظوا بألقابهم الرومانية، وبين الوافدين على الأندلس، عربًا أو بربرًا، لقد صنعهم الإسلام على هواه، وصاغ منهم مجتمعًا متجانسًا.

ويأتى **اميركو كاسترو** A. Castro[٢]، أحد كبار المفكرين الإسبان المعاصرين، فيزيد الأمر دقة ووضوحًا: «إن تحليل دم الأندلسيين عمل علماء الأحياء، وليس من صناعة المؤرخين، فلم يكن الأندلسيون (يعنى بهم المماليك المسيحية فى شمال الأندلس) إسبانا، لم يشعروا بهذه الإسبانية أبدا قبل القرن الثالث عشر الميلادى، وكان الذين يتقاتلون أو يتوادون على بطحاء الأندلس، إما مسلمون أو مسيحيون». «إن تاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية فى العصور الوسطى، لا يمكن أن يُرى بوضوح، مادام ثمة مستشرقون كبار، وآخرون غير مستشرقين، يواصلون الحديث عن «جنس إسبانى» واصل وجوده فى إسبانيا وراء الذين هم من دم عربى»، «إنّ المستشرقين الإسبان يطبقون مفهوم الإسبانية على كل الأندلس، مهما تكن الأجيال التى تفصل بين الأندلسيين المسلمين واصولهم المسيحية، فإذا ذهب مسلمو الأندلس ليقاتلوا فى المغرب سموهم إسبانًا، وابن حزم إسبانى، وتغليب هذه الفكرة يعنى أن المسلمين تنقصهم الشخصية التاريخية الصريحة، فهم جميعًا يصبحون بربرا فى المغرب، ومصريين على ضفاف النيل». ثم ينتهى إلى هذا القانون الاجتماعى: «الذين يتكلمون لغة جماعة إنسانية، ويعتقدون دينها، ويطبقون نظمها السياسية والإدارية، يصبحون جزءًا منها، مهما كانت الظروف التى عاش فيها أسلافهم».

أما قول **أسين بلاثيوس** بأن الحب العذرى نشأ بين بنى عذرى نتيجة تأثير مسيحى، فينقضه أن بنى عذرة هؤلاء كانوا بدوا، يأخذون الدين مأخذا سهلا، وقلما يبلغ من عقولهم ونفوسهم مبلغًا قويًا يتأثرون به ويكيفون حياتهم وفق مثله، ولو كانت المسيحية وراء هذه الظاهرة لكان أولى أن تكون على نحو أوضح، وأعمق، فى نجران أو الحيرة

---

(١) Lévi-Provencal, E. : Espana Musulmana, p. 47, Madrid, 1950.

(٢) Américo Castro : La Realidad historica de Espana, p. 191 ss., 2 edicion, Mexico, 1962.

أو بين الغساسنة، حيث استقرت المسيحية زمنًا، وباشرت سلطانها على النفوس، واصبحت دين الأسرة الحاكمة ردحًا من الزمان.

ويبقى بعد ذلك، أن نشأة الحب العذرى فى الأدب العربى بعامة، ما تزال أرضًا بكرًا تنتظر من يبحثها فى ضوء مناهج البحث المتطورة، علنا نصل فيها إلى جديد مقنع ومفيد.

مقدمة لطوق الحمامة

[للفيلسوف الأسبانى الكبير: أورتيجا أى جاسيت][1]

صداقتى لإميليو غرسية غومث مترددة: تتأرجح بين أن تكون أخوة وبين أن تكون أبوة، الأبوة تأتى من أن عمرى أكثر اتساعا من عمره، وتعود الأخوة إلى أن طريقنا واحدة، وعندما نتحدث عن فلان نتفق.

وعندما يتفق اثنان أو أكثر فى رأيهم عن فلان يتفقون فيما عدا ذلك، والعكس صحيح أيضًا، ولا يتطلب الاتفاق، وحتى لا يُفضَّل، أن يكون الرأى متطابقًا. ولسنا بصدد اتفاق الآراء، وإنما توافق الحياة، فليس فى الدنيا من تتماثل آراؤه مع آخر، إذا كانت لديه آراء حقًا، لأن الرأى شيء ذاتى للغاية، وغير قابل للانتقال، وعندما تكون لدينا فكرة مشتركة تأتى المخاطرة الكبرى فى ألاّ تكون رأيا، وإنما عكس ذلك تماما، أن تكون شيئًا مكرورا، والشيء المكرور موضع، والموضع عام، إنه المكان الذى يتفق فيه الناس كثيرا، ويتميزون، وتختلط عليهم الأمور، شيء لا يمكن أن يحدث إلا عندما يصبح الأفراد معادن، ويفقدون صفتهم الإنسانية، لأن الرجال فى أصلهم، وحقيقتهم، اجتماعيون إلى حد كبير. و «المدرسيون» أنفسهم، وإحساسهم بمثل هذه الموضوعات متواضع للغاية، يعرفون الشخص بأنه غير قابل للانعزال، ويرون أن الآراء يمكن أن تختلف إلى حد بعيد، ولكنها تتفق فيما هو وحيد ومهم: فى أنها كانت موضع التفكير من نفس المستوى. وأخيرا فإن معاناتنا عندما نتعامل مع الغير، تجيء عادة من أننا نفكر ونشعر ونحن فوق مستويات مختلفة.

وهذه بالدقة إحدى الهبات السحرية التى يملكها الحب، وعنها يتحدث هذا الكتاب فى عمق. إليه – مثلا – تعود الظاهرة الرائعة فى أن المرأة عشيقة الرجل، تبدو صفاتها

---

(١) كتب أورتيجا أى جاسيت هذه الدراسة كمقدمة للترجمة الإسبانية، لكتاب «طوق الحمامة» وقام بها المستشرق الإسبانى إميليو غرسية غومث، وصدرت الطبعة الأولى منها عام ١٩٥٢، واعاد نشرها فى كتابه «دراسات عن الحب» وهو كتاب واسع الانتشار، وبلغت طبعاته، فى سلسلة واحدة، حتى كتابة هذه الاسطور خمس عشر طبعة، فيما اعلم. (المترجم).

أرفع بكثير من صفاته، ولا ندرى كيف: ألمجرد أنه عاشق يرتفع إلى مستواها، أو العكس. وقد التقط الشاعر الألمانى الكبير **جوته**، بيتين من شعره، فى نهاية كتابه الخالد «**فاوست**» صورة هذا المستوى. فالأنوثة الخالدة حقيقة محلقة، وعندما يحب الرجل يرتفع إلى مستواها، لا بقوة الصعود نفسها، وإنما بقوة الجذب، فهو مجذوب إلى عالم أكثر سموا ولا ينكر أحد على أن المرأة، إذا كانت شيئا، تكون جذابة، جذابة بالضرورة، ولكن **جوته** يسترعى انتباهنا بأن جاذبيتها دائمًا، دائمًا، قمة:

ما هو أنثوى
يجذبنا إلى أعلى

وبذلك سقطنا من باب مسحور فى عمق هذا الكتاب، وقد بذل **إميليو غرسية غومث** جهدا كبيرا ومضينا فى ترجمته، وهو دين فى عنق الإسبانيين ننهض به متعاونين، لأن هذا الكتاب أروع ما خُط عن الحب فى الحضارة الإسلامية، ولأنه وليد فكر وحياة إسبانيين، وكتبه عربى «إسبانى» على أرض إسبانية، وقد ترجم من زمن إلى لغات أخرى، ولكن أحدا لم يجرؤ قبل غرسية غومث على أن يمسك بمادته، يدفع بها خلال اللغة الإسبانية.

ومن الواضح أننى حين أدعو **ابن حزم** عربيًا إسبانيًا، فإنما أنسبه إلى العربية جادا، وإلى الإسبانية بصورة غير جدية، ودون أن أحول بين الآخرين وبين أن يصنعوا ما يحلو لهم، ولست مستعدامن جانبى أن أغامر فأدعو «إسبانيا» فى جدية كل من يولد على أرض شبه الجزيرة الإيبيرية، حتى ولو كان من دم إيبيرى أصلا، وحتى لو كان قد عاش فيها كل حياته. فالأرض والجبلة الدموية تأتى فى آخر قائمة الخصائص التى يمكن أن تحدد قومية الإنسان. لأن هذه خلاصة الواقع التاريخى، وإنماتكون لهما فعالية فحسب، حين تحتلان منه المكان الأول، قبل كل الخصائص الأخرى. والدليل عليه، بسيطا وشهيرًا، يتمثل فى أن بالإمكان أن يصبح المرء إسبانيا بأقصى ما تحتمله الكلمة من معنى، دون أن يكون قد رأى الأرض الإسبانية مطلقًا. وعلى النقيض، يمكن أن يكونه، وبالمستوى نفسه، دون أن تجرى فى عروقه نقطة من دم جنسنا، أو فيه منه شىء قليل للغاية.

ويصدق فى ذلك عصرنا الآن، لأن إسبانيا، منذ وقت طويل، حقّقت كامل قوميتها، أعظم بكثير جدا عما كانت عليه خلال القرنين العاشر والحادى عشر، عندما بدأ الشىء

الذى يدعى «إسبانيا» ينبثق فحسب. وكل هذه الصفات القومية تعنى، إذا أُخذت بمعناها الدقيق، الانتماء الأصيل لمجتمع محدد، وكان مجتمع الأندلس العربى مختلفًا،وشيئًا آخر غير المجتمع، أو المجتمعات، غير العربية، التى كانت تسكن إسبانيا إذ ذاك(١).

ولكن ذلك لا يلغى، كما قلت، علاقاتنا مع عرب الأندلس، أو الإسبانيين، ولا يعفينا من بعض الواجبات فيما يتصل بتاريخهم، واجبات عمادها، فى النهاية، الفائدة التى تعود علينا من وراء القيام بها، لأننا بهذا نغذى ذات جوهرنا، ونثرى حاضرنا، ونعلى من قدر إسبانيتنا، لأن مجتمعنا عايش على امتداد قرون طويلة هذا المجتمع الأندلسى، وجهًا لوجه، فى احتكاك مباشر، من القبلات والسهام، والأخذ والعطاء، والتأثير والتأثر. وإحدى المخجلات الكبيرة التى تصيب الدراسات التاريخية أنها فى أوج تقدمها، لم تستطيع أن تجلو، ولو من بعيد، حقيقة العلاقات بين كلا المجتمعين. وذلك هو سبب التأرجح المتطرف بين الآراء، عن التأثيرات بين جانب وآخر، والذى أشار إليه **غرسية غومث** فى مقدمته. ومن الحق أن نعترف بأن المستشرقين الإسبان، ابتداء من **خوليان ريبيرا**، تقدموا خطوات هامة على طريق المحاولة، وأظهروا فى دقة كبيرة كيف تعايش الأندلسيون والإسبان، ولكن القضية لا يمكن أن تتقدم كثيرًا على نحو أكثر عمقًا. ومن الضرورى بمكان فى الحقيقة أن نحدد بالدقة تركيب المجتمعين، تحديدا منفصلا وجيدا، لكى نستطيع فيما بعد أن نظهر التكامل والتلاقى بينهما.

ومع ذلك، لا يمكن أن نقف بالقضية عند حدود إسبانيا وحدها، فهى أكثر اتساعا، لأن الجانب الأكبر من أوربا كانت له أيضًا صلات مستمرة مع الحضارة العربية، وتجاور مباشرة معها، ولكن المؤرخين الأجانب أيضا لم يسكبوا شيئا من الوضوح فوق هذا العمل، وهو إحدى الحقائق الكبرى فى تاريخ الغرب، وكان ذلك التقصير أحد الأسباب الجوهرية التى عاقت الذكاء الأوربى الوسيط. وليس ممكنًا أن نفهم حدثًا تاريخيًا، مهما يكن، إذا لم ننجح فى تأمله من وجهة النظر التى تُظهر، على نحو أفضل، معناه الأكثر دقة، أى من تلك التى تدرك متذوقة، وبكل طاقتها، مساحة الواقع الإنسانى التى ينتسب إليها الحدث التاريخى. وكل نظرة إلى الواقع من خلال مساحة جزئية، مهما تكن عميقة، يشوهه أو يزيفه آليا. وعلى أيه حال فمنذ أعوام طويلة،

(١) لكى لا تبقى الفكرة غامضة، أضيف أننى أفهم من «مجتمع» مجموعة من البشر يحكمها نظام معين من العادات.

وإميليو غرسية غومث شاهد عظيم على، وأنا أرى أن العصر الأوربى الوسيط لا يمكن أن يُرى بوضوح إذا نظرنا إليه وقد ركزنا تاريخ تلك القرون فى تطور المجتمعات المسيحية وحدها.

إن العصر الأوربى الوسيط، فى حقيقته، لا ينفصل عن الحضارة الإسلامية، لأنه يقوم بالدقة على التعايش، إيجابًا وسلبًا فى الوقت نفسه، بين المسيحية والإسلام، فوق رقعة مشتركة، مشبعة بالحضارة الإغريقية الرومانية، ومن هنا فإن وجهة النظر الوحيدة المناسبة من عدم المبالاة أمام هذين المنحدرين من حياة العصر الوسيط، متأملين ظاهرها المزدوج، واختلافها وحدة واتفاقًا، يحملان فى داخلهما نموذجين مختلفين. والسبب القوى فى هذا أن كلا العالمين المسيحى والإسلامى وجهان لعالم جغرافى واحد، يتشكل تاريخيًا من الثقافة الإغريقية الرومانية، والإسلام نفسه يجىء امتدادا للمسيحية (وناسخًا لها[١]) ولكن هذا الامتداد ما كان ممكنًا أن يتضح بدوره لو لم تتلاق الشعوب الأوربية والشعوب العربية، على مساحة احتلتها الإمبراطورية الرومانية على امتداد قرون من الزمان. فالعرب والجرمان شعوب خارجية، تعيش على حافة هذه الإمبراطورية، وتاريخ العصور الوسطى هو تاريخ ما يجرى بين هذين الشعبين، تبعًا لتوغلهم فى عالم الإمبراطورية الرومانية، مقيمين فيه، وممتصين جوانب من ثقافته، جاسئة ونخرة. والعصر الوسيط، فى جانب منه، نسق من التلقى العملاق، تلقى الشعوب ذات الثقافة البدائية للثقافة القديمة، والسوابق المسيحية للإسلام ليست إلا حالة خاصة فى مجال هذا التلقى، أحدثته نفس الآلة التاريخية التى حملت عرب القرن التاسع على تلقى **أرسطو وأبقراط وجالينو وإقليدس وديوفان وطلميوس**، وما أكثر ما ننسى أن العرب قبل محمد عاشوا سبعة قرون تحيط بهم من كل الجوانب شعوب كانت، فى قليل أو كثير، مشبعة بالثقافة الهلينية، وعاشت تحت الإدارة الرومانية، لا فى سوريا فحسب، حيث هبت فوق العرب عاصفة القديم الكبرى، وإنما فى فارس وبكترانيا والهند. وعلى النقيض من ذلك، ظلت أوربا فى جانبها الشمالى متحررة من التأثير الإغريقى الرومانى، واستطاعت أن تحتفظ لزمن أطول بأصولها البدائية سالمة.

أطوار هذا التلقى تتشابه فى البدء كثيرا، والاختلاف الوحيد فى تلك الفترة، وهو مهم دون شك، يتمثل فى أن العرب تلقوا «القديم» فى شكله الإمبراطورى الرومانى

---

(١) الاضافة التى بين القوسين من عندى، لتوافق وجهة النظر الاسلامية. (المترجم)

الشرقى، وتلقاه الأوربيون فى صيغته الإمبراطورية الرومانية الغربية، وأدى هذا - مثلا - إلى أن العرب استطاعوا فى سرعة فائقة أن يكون لهم أرسطو الخاص بهم، وعلى النقيض فإن المسيحية التى جاورت الإسلام كانت النسطورية، ومسيحية القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح، وهما وجهان قديمان للعقيدة المسيحية، وفى الأطوار التالية أخذ التلقى شيئًا فشيئًا ملامح أكثر تميزا، إلى أن توقف فى القرن الثالث عشر بين العرب. فجفت حضارتهم وتحجرت، وقنعت بالقرآن، وركنت إلى الصحراء، ولأن الصحراء تطوق العالم الإسلامى من الشرق والجنوب كانت تدفع فوقه من حين لآخر بموجات من التمسك العنيف بالدين، وكان البدو حملتها، وآخر الموجات وصولا، وحدثت من قرب، حركة **الوهابيين فى نجد**، وقد أطبقت بانتهاء الحرب العالمية الأولى، وبقيادة **ابن سعود**، على الجزيرة العربية، واستولت على مدينتى **مكة والمدينة**.

فكرتى إذن أنه عندما بدأ ما يدعى بالعصر الوسيط، كانت الجرمانية والعربية جسمين تاريخيين متجانسين إلى حد بعيد، فيما يشكل اللبنة الأولى لحياتهما، وفيما بعد، وشيئًا فشيئًا، أخذا يتمايزان تدريجيًا إلى أن وصلا فى هذه القرون الأخيرة إلى تباين جذرى. والرأى المعارض، وهو الشائع دفع به جيل تلقائى بلا تفكير، وهو شىء يحدث كثيرا فى عالم المؤرخين، لأنهم رسموا لتلك القرون صورة بالغة الخلف عما نجده الآن عند مجموعة هذه الشعوب أو تلك.

ولكن ذلك بدوره ما كان ليقع لو تمت تحليليًا عملية إعادة بناء التركيب الأساسى للحياة الإنسانية فى العصر الوسيط، إذن لبدا لهم ساعتها إلى أى مدى كان حاسمًا، فى تكييف سلوك الإنسان وفى الحياة، واقع أن شعوبًا ذات ثقافة بدائية واحدة جاءت لتعيش فى حيز اجتماعى، حيز الإمبراطورية الرومانية، حيث سبقت إلى الوجود حضارة وصلت إلى آخر مراحل نموها، وبالتالى أوج تعقدها وصقلها. ولحسن الحظ فإن هذه الحضارة توقف نموها، وشاخت، وبلغت قدرا كبيرا من الانحطاط، وبالتالى فقدت بالضرورة جانبًا كبيرا من ثرائها الوفير، وعادت اختصارا لما كانت عليه فى سابق أيامها. تذكر مثلا، فى المجال الثقافى، الثقافة الإغريقية الرومانية قريبًا من القرن الخامس الميلادى، لقد انحصرت وتركزت فى الملخصات والموسوعات والمعاجم، ولو لم تكن هكذا لأصبح الاصطدام الثقافى مفرطًا وعنيفًا ومختلف النتائج إلى حد بعيد، ولضاعت الشعوب الجديدة كما لو كانت فى غابة مرعبة من فيض الحياة الكلاسية. ولحسن الحظ، وأعيد

القول، فإن هذه تعرضت للاختصار، على نحو ما فى طبعات الدلفين، سواء أكان الدلفين عربيا أم جرمانيا[1].

ونصل الآن إلى الملاحظة المثمرة حقًا، ومعها نضع يدنا على مفتاح ذكاء العصر الوسيط ولم نر أبدا من عبر عنه. فالثقافة الكلاسية حتى وهى متقلصة، وجفت أنسجتها، كانت ترمز إلى مجموعة من أشكال حياة بالغة التعقيد إلى حد بعيد، وأرق من الحياة التقليدية لتلك الشعوب المغيرة، ولم يستطيع الجرمانى ولا العربى فهمها جيدا، لا لأنها معقدة ورقيقة فحسب، ولكن لأنها انحدرت من أصول بعيدة عنهما، أوحت بها تجارب تاريخية تختلف عن تجاربهما، ولكنها من جانب آخر فرضت عليهما فى بعض المجالات لأسباب عملية، كما فى الإدارة، ودائمًا بسبب مكانتها الفريدة. ولست أعرف، أخيرا، ما إذا كان يمكن القول بأن الإمبراطورية الرومانية كانت الحدث الأعظم أهمية فى التاريخ حتى وقتنا هذا، ولكنى لا أرى مبالغة القول بأن ما كان لها من مكانة وقوة شديدة التماسك لما يزل يلقى بثقله علينا، ويمكن القول بأن هذا أدى إلى إزدواجية درامية فى أسس حياة العصر الوسيط نفسها، عندما التقى الجرمانى والعربى فى مجموعتين مختلفتين من الأشكال أمامه، كل واحد منهما مثل مجرى، تغرى الإنسان بأن يتدفق معها عبر سلوكه الحياتى، والأنماط الموروثة من ماضيه تكشف على الأقل، عن حياته اليومية، ولكن هذه لا تترك الأثر بأنها «حياة» لأنها عادة خالصة، وعندما نخرج عن عاداتنا التى اكتسبناها عن طريق العادة الخالصة فحسب، ولا نقف عندها آليًا، نصنع قضية «الحياة»، وعندما نبحث عن النقيض المقابل «للحياة المعتادة» نبحث عن «الحياة كما يجب». وأشكال الحياة الإغريقية الرومانية تبدو، لمكانتها، أمام الشعوب الجديدة فى ملامح «الحياة كما يجب» فى مواجهة «الحياة كما هى عادة»، ولهذا كانت الحياة فى العصر الوسيط بالغة الإثارة. إنها حياة من طابقين دون انسجام كاف بينهما، فهناك فى أسفل طابق العادات القديمة المتأصلة، وفوقها طابق السلوك النموذجى، ذلك يعاش حقيقة، وتلقائيًا، وهذا سلسلة اندفاعات مقلدة، والعلاقة بين الإنسان وما يصنع ليست فى التلقائية، ولا فى هذا الإحساس الصادق، وإنما فى الرغبة أن يكون غير ما هو كائن.

(١) الدلفين لقب كان يطلق فى فرنسا الملكية على ولى العهد منذ عام ١٤٣٩م، ثم أصبح يطلق على الطبعات الممتازة للأدب الكلاسى اللاتينى التى تطبع ليستخدمها الدلفين، ابن لويس الرابع عشر، وكانت تحذف منها النصوص ذات المجون الشبق، وتطلق الآن سخرية على الطبعات التى تخضع لرقابة الكنيسة أو غيرها.

فالجرمان والعرب عكفوا على تقليد الإغريق والرومان، فى محاولة لصياغة أشكال حياتهم فى الإدارة والقانون ومفهوم الدولة والعلم والشعر[١]. والدين نفسه أخذ عندهم جوانب مثيرة من الانسجام مع البيئة. فالإسلام امتداد للمسيحية، بطريقة مختصرة للدلفين الذى يعيش فى الصحراء، ومسيحية الجرمانى أيضًا ليست إلا تقليدا لمسيحية آباء الكنيسة.

هذا التركيب الأساسى لحياة العصر الوسيط كان وراء حدث بالغ الإثارة والروعة، وراء «المدرسيين» مثلا، أعنى وراء الفلسفة التى غرستها الجامعات الغربية بقوة خلال ذلك العصر، وهو حدث ما زال ينتظر من يجلو غوامضه، لأن أحدا لم ينظر إليه حتى الآن فى ضوء «فلسفات مدرسية» أخرى كثيرة. وما شهر بهذا الاسم ليس إلا حالة خاصة فى طبقة تاريخية واحدة، من المدرسية فى طابعها الشامل، وأثمرت ولا تزال تعطى ثمارها فى كثير من العصور والأمكنة. وتطلق المدرسية على كل فلسفة متلقاة، فى مواجهة كل فلسفة مبدعة، وأطلق لفظ «متلقاة» على كل فلسفة تنتمى إلى محيط ثقافى يختلف، ويبتعد فى الحيز الاجتماعى أو الزمن التاريخى، عن الفلسفة التى يتعلمها أو يطبقها.

والذين يجهلون من أية مادة تتكون الآراء يعتقدون فى سهولة تسر بها من شعب إلى آخر، ومن عصر سابق إلى عصر لاحق، ويجهلون أن ما هو أطول حياة فى هذه الآراء ليس ما نفكر فيه بوضوح، ثم يجىء ثمرة الإحساس بالتفكير فيه، وإنما الغاية التى نفكر فى ظلها، ومما يبقى مما ذكرنا عند استخدامها. وهذه العناصر غير المرئية، والخفية، هى احيانًا نسيج شعب تكون خلال آلاف الأعوام. وهذا العمق النابض بالاراء، والذى يُبقى عليها فياضة ومغذية، لا يمكن ان ينتقل، كأى شىء هو حياة إنسانية حقيقية. إن الحياة لا تنتقل أبدا، إنها قدر تاريخى.

الانتقال الكامل للآراء خادع إذن، إنما ينتقل «الساق»، و «الزهر» فحسب، وربما متدليًا من الأغصان، ثمرة تلك السنة، وهو الشىء النافع منها فى تلك اللحظة مباشرة. ولكن فى تربة المصدر ما هو حى من الآراء، يبقى جذرها، والنبت الإنسانى أقل قابلية للانتقال من الأشجار بكثير، إنه تحديد مرعب، ولكنه حتمى ومأسوى!.

(١) لا أود بهذا أن أقول أن كليهما متساويان فى الافادة من هذه الفروع، فعلى حين أن العرب - مثلا - تشربوا العلوم الهلينية فى الحال، ظلوا جامدين فى مواجهة الشعر القديم، وكان الأوربيون على النقيض منهم تماما.

والادعاء بأن أولئك الرهبان من ذوى الرؤس الحليقة، كانوا قادرين على إدراك المفاهيم الإغريقية، كفكرة الوجود مثلا، جهل بالبعد المأسوى الذى يصحب الحدث التاريخى كالخيط الأحمر يمضى مع كل حبال البحرية البريطانية. وعندما نتلقى فلسفة بعيدة عنا، فإن الجهد العقلى يستغل قيادته ويعمل، لا لكى يفهم المشكلات، والأشياء كما هى، وإنما لكى يصل لفهم ما فكر فيه آخرون حولها، وعبروا عنه فى تعريفات معينة. والتعريف ليس كلمة من اللغة، وإنما رمز مصطنع، ولهذا لا يفهم دون زيادة، وقد وضع بمقتضى تحديد ما، ويجب أن نصل إليه وفى ذهننا هذا، وهو بدوره مكون من ألفاظ، وهن هنا فإن «المدرسية» كلها ليست إلا تجريدا للمعرفة لتصبح مجرد مصطلح[1].

ولم يكن أوائل «**المدرسيين**» رهبان الغرب، وإنما عرب المشرق، فقد تعلم **توماس الإكوينى** على **أرسطو** عن طريق **ابن سينا وابن رشد**، وفضلا عن ذلك فإن ملامح المدرسية أشد وضوحًا فى الحضارة الإسلامية منها عند الشعوب الأوربية الوسيطة. وهذه الشعوب، حتى وهي فى دور المراهقة، كانت تملك منذ زمن مبكر جدا، ربما بفضل تركيبها الجرمانى، أسلوبًا خالقًا لم يكن عند العرب أبدا، ولهذا تجمّد هؤلاء فى اللحظة التى توقفوا فيها عن التلقى. وما يهمنا هنا إبراز الطابع المدرسى المشترك بين الحضارتين، والذى يعود إلى التكوين المزدوج، غير الطبيعى، للحياة الإنسانية خلال العصر الوسيط، وليس من الحتم إذن أن نبحث عن سبب هذا الطابع فى نزوعات سلالية مزعومة، لأن «النوع» فى إحدى المجموعتين من الشعوب يختلف عنه فى المجموعة الأخرى، ولكن كليهما خضع لضغط الظروف الأساسية نفسها: ظروف الحياة فوق تربة تحتها ثقافة عظيمة، وغريبة عليه.

هذا الرأى عن الحياة فى العصور الوسطى هو ما يجب أن يكو عليه أى رأى، لا أكثر ولا أقل، أى مشروع مربعات هائلة، علينا أن نخلط فوقها واقع الحياة العربية الأندلسية، وليست إلا كتاب الحب هذا، وقد نسجته يراع **ابن حزم**، لأن الكتب، بالمعنى الدقيق للكلمة، أعمال الرجال، وليست زوائد نباتية فى الأشجار، أو رواسيب جوية، وقد أوقف الكتاب على الحب، وفى منهج حديث، على نحو ما أدعو وأصر عليه من زمن طويل

(١) أستخدم هنا فقرات من كتابى «فكرة المبدأ عند ليبنز وتطور نظرية الاستدلال» ومن ثم فإن «الإنسانية» عدوة «المدرسية» لم تكن بدورها إلا مدرسية، ذلك شعار مختلف، ولكن النتائج متشابهة، ولا تزال تلقى بثقلها على العقل الأوربى.

وأول ما يتطلبه الكمال أمام أى نص أن تضع نفسك فى موقف واضح من الشىء الذى يتحدث عنه. ومن الضرورى أن ننتهى من هذا التحديد اللغوى الحر فى الخالص، وأعتقد أنه أدى مهمته فى ربط نص بآخر، وهكذا إلى مالا نهاية ونحن نطلب تحديدا لغويًا عمليًا، ومن ثم يجب أن نبدأ أمام هذا الكتاب العتيق، وقد شغل بالمهمة الإنسانية العظمى التى تسمى الحب، بأن نوضح قليلا ما هية هذا الشىء. ولكن ذلك مستحيل الآن، وهنا، لا لأنه يحملنا بعيدا فحسب، وليس من المناسب كتابة «رسالة» أخرى عن الموضوع الذى تعمق فيه القرطبى الصالح، بل لأن كثيرين من حولنا الآن مقتنعون تمامًا بأن العالم خلق لصالح الراهبات، والحديث عن الحب حرام Tabuكما لو كان شيئًا شاذا، مرضًا تفجر فى هذا العالم، وهؤلاء الناس يزعمون السيطرة عليه لصالحهم، ووفق طموحهم.

أول فضول أحسست به، وأنا أطل بين صفحات **«طوق الحمامة»** تقصّى ما إذا كان الحب عند العرب نفس الحب الذى بيننا. والظن بأن ظاهرة كالحب، موغلة فى الإنسانية، وجدت دائمًا، وتوجد إلى الأبد، على صورة متماثلة، خطأ فادح، كالاعتقاد بأن الإنسان، مثل المعدن والنبات والحيوان، له طبيعة ثابتة ودائمة، وجهل بأن كل شىء فيه تاريخى، نعم كل شىء فيه، حتى ما ينتمى منه فعلا للطبيعة، كما هو الحال فيما ندعوه غرائز.

وليس ثمة شك أنه يوجد فى الإنسان – وشكرًا لله! – مجموعة باقية من الغرائز، بينها هذه الجاذبية المثيرة بين شخص وآخر. ومن الواضح أن ذلك موجود دائمًا، ولكن من الضرورى أن نضع فى حسباننا أن بقية الغرائز حتى ولو كانت فعالة فى الإنسان، لا تؤثر ولا تعمل منفصلة أبدا، وحتى غريزة «حفظ النوع»، وهى الأقوى بين كل الغرائز، تبدو متداخلة مع أشد المواضعات غموضًا وإنسانية فى نوعيتها، كالشرف والإيمان بعقيدة دينية واليأس، وتستطيع هذه أن توقف عملها. وهذا التوافق بين ما هو طبيعى وما هو ثقافى يجعل الغريزة متناقضة، ويحولها إلى عظمة تاريخية، تولد يوما لتختفى فى يوم آخر، وبينهما تعانى من أشد التغييرات عمقًا.

لسوء الحظ فإن فهم هذه الحقيقة مضطرب، ولأنها أساسية يجب أن تكون متألقة، وقد جرت العادة، معيبة ومتأصلة، أن نطلق كلمة الحب وحدها على أشياء بالغة التباين، وهو نفس الخطأ حين نطلق كلمة شعر فحسب على ما أبدع **هومير**، وما أنشد **فرلين**، على حين أننا، فى الحقيقة، بصدد اهتمامات لاتكاد تتساوى. وفى الحالة التى نحن بصددها نجد الموقف اللغوى تعسًا على وجه خاص، لأن كلمة حب amor تطلق فى

اللغات الرومانثية romances على هذه المجموعة من المشاعر، وهى كلمة بالنسبة لنا غامضة إلى حد بعيد، لأنها تنحدر عن أصل ميت لا معنى له؛ أخذته لغاتنا من اللاتينية، والكلمة ليست لاتينية، لأن الرومان تلقوها بدورهم من لغة **الإتروسك** Etrusco [١]، وهى اليوم لغة مجهولة وغامضة. وهذا الواقع اللغوى بليغ جدا بنفسه. ماذا يعنى أن يطلق الرومان على حقيقة بالغة الشفافية، وإنسانية عالميًا، فيما يبدو، مثل التوتر العاطفى، كلمة ذات أصل أجنبى؟ هل يعنى هذا أن الرومان قبل أن يحضرهم الإتروسك لم يكونوا يعرفون هذا الشيء الذى كان هؤلاء يطلقون عليه لفظ «حب»، ومن ثم كان هذا بالنسبة لهم نظامًا جديدًا، شيئًا يشبه تغيير النسق فى الحياة الخاصة؟ لو أن شيئًا حدث شبيها بهذا يصبح دليلا على أن هذا الحدث لغوى. وحينئذ يسأل كل واحد منا نفسه: أى شيطان هذا الذى اخترعه الإتروسك، وانكب عليه وصقله أولئك الذين تلقوه عنهم، ولأسباب ترتبط بمعانى الكلمات، وتخفى علينا، فإن لفظة «حب» تطلق على هذا الهدف السامى. والتاريخ، إذا عرفنا كيف ننظر فيه، ملىء بأبواب مسحورة مثل هذه. وما يعرف من حياة الإستروك يوضح فى كفاية أن «الحب» كان فى حياة ذلك الشعب شيء يختلف للغاية عما سوف ينتهى إليه بيننا، وربما عندما نطلق لفظ «حب» على مشاعرنا الأكثر دفئًا وصفاء تجاه امرأة، نطلق عليها دون أن نعرف شيئًا قبيحًا، وكان شعب **الإتروسك** واحدا من أشد الشعوب شهوانية على ظهر البسيطة، وكانت شهوانيته مرعبة، مغيظة ويائسة، ولدى أفراده عبقرية أن يموتوا من شدة الشهوة.

فى صفحة ١٥ من كتاب ابن حزم[٢] نقرأ هذه الأبيات:

أودّكَ ودا ليس فيه غضاضةٌ ... وبعضُ مودّات الرجال سراب
وأمحضتك النصحَ الصريح وفي ... الحشى لودّك نقش ظاهرٌ وكتاب
فلو كان فى روحى هواك اقتلعتُه ... ومُزّقَ بالكفّين عنه إهاب
ومالىَ غيرُ الود منك إرادةٌ ... ولا فى سواه إليك خطاب
إذ حزته فالأرض جمعاء والورى ... هباءٌ ، وسكانُ البلادِ ذباب

(١) الاتروسك: شعب مجهول الأصل عاش فى توسكانيا فى نهاية القرن الثامن قبل الميلاد.

(٢) أرقام الصفحات فى الأصل تشير إلى الترجمة الأسبانية، أما هنا، وفى المواضع التالية، فقد جعلتها تعود إلى (طوق الحمامة) فى نصه العربى، طبعة دار المعارف بتحقيقنا، الطبعة الرابعة القاهرة ١٩٨٥.

والقارئ غير المسئول، وهو الأكثر شيوعًا، يتزحلق بعينيه عبر هذه الأبيات، ويعتقد أنها مفهومة، لأنها لا تضم رموزا رياضية مبهمة ولكن القارئ الجيد ينتهى من قراءتها ولديه انطباع، يكاد يكون دائمًا، أنه لم يفهمها تمامًا. والحقيقة أن هذه الأبيات لايمكن أن تفهم بدقة، لأننا لا نعرف ماذا يريد المؤلف بكلمة «حب»، أو «ود».

لا أظن أن فقه اللغة العربية أصبح على قدر من التقدم والدقة فى دراسة معانى الألفاظ، وأننا نستطيع معه أن نصل إلى تحديد ما كان يفهمه المجتمع الأندلسى من كلمة «حب» فى القرن العاشر الميلادى، عندما يسمع هذه الكلمة أو يقرأها، لأنها، وأعيد القول، كانت تعنى شيئًا مختلفًا إلى حد بعيد. يكفى أن نلحظ أن الشاعر يتوجه بهذه الأبيات إلى رجل، وطبعًا أعرف أنه يوجد بيننا أيضًا حالات من الشذوذ الجنسى، حب الرجل لرجل، ولكن المسلم به فى أوربا أن كلمة «حب» تعنى أولا، وبالتحديد، شيئًا يودعه الرجل فى المرأة، وترسله المرأة إلى الرجل، أما حب الرجل لرجل، والمرأة لامرأة، فلا نفهمه، دون أن أزيد شيئًا. بل علينا أن نمارس عملية صعبة تقوم على تجريد الكلمة من معناها الأول، وأن نحاول خبط عشواء أن نلبسه معنى آخر مختلفًا، لكى نتصور عشق الرجل لرجل. وقد أثبت **غرسيه غومث** فى مقدمته لهذا الكتاب أن الحب لا يبالى بالتباين الجنسى، وذلك كاف لكى نتصور الحب العربى حقيقة شديدة الاختلاف عما باشرناه معشر الغربيين. وأيضًا لا يمكن القول أنه يشبه الحب الذى وصفه أفلاطون، لأن الحب عند أفلاطون لا يدير ظهره للجنس، ومعناه الأصلى عنده حب الرجل لرجل، وهو – أى أفلاطون – على النقيض منا، لا يفهم جيدًا ما يمكن أن يكون حب رجل لامرأة.

لست أهدف من وراء كل هذا، إلا أن أدفع بمزيد من الحيوية، بأشد الطرق إيجازا، إلى الإحساس بأن موضوع الحب هذا خطير للغاية. ولا يوجد حب طبيعى نضع فى مواجهته، كمقابل له الغراميات الشاذة. نعم، يستطيع الذين يتخذون الرأى المقابل لهذا الحكم، الزهو إلى حد كبير بعقائدهم الأكثر سموا، وبدل أن يجتمعوا فى طبيعة مفترضة، تنصح بحب تراه طبيعيًا، وترفض أنواعًا أخرى منه تراها شاذة، أن يتحدثوا فى حماسة عن ألوان معقولة منه، وألوان أخرى غير صحيحة، عما هو مستقيم وما هو غير أخلاقى، والحب، كما ألمحت من قبل، نظام وابتداع إنسانى، وليس ابن عم الهضم أو زيادة الكلور فى المعدة.

هذا الكتاب ذو العنوان الجميل[1] يبدأ بأفكار فلسفية مختلفة عن الحب، ذات طابع «مدرسى» خالص، وكان يمكن أن تقال بعد ذلك بقرن ونصف من الزمان، فى لاتينية هزيلة، على لسان أى راهب فى الغرب. ففى صفحة ٢١ نلتقى عنده بأفكار استخلصها مما قال **أرسطو** وفى صفحة ٢٢ نصطدم «بمدرسية» تقليدية متحذلقة، وفى صفحة ٢٣ يحدد لنا أسباب الحب، فيلجأ إلى الجانب الآخر من المدرسية، أعنى الأفلاطونية. ومن المؤكد أن **ابن حزم** فى هذه النقط صوبّ فكر **ابن داود**، وقد سبقه فى محاولة وضع «نظرية الحب»، ويتيح لنا هذا التصويب إدراك التقدم الذى أحرزته الأوساط العربية فى معرفة **أفلاطون** على امتداد قرن ونصف من الأعوام. وفى الحق أن **ابن داود**، ويدّعى أنه أفلاطونى، ارتضى فى جد مضحك المقولة الساخرة لتفسير الحب ووضعها **أفلاطون** على لسان **أرستوفان** البالغ السخرية، وطبقًا له: «إن الله، جل ثناؤه، خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة، ثم قطعها أيضًا فجعل فى كل جسد نصفًا، وكل جسد لقى الجسد الذى فيه النصف الذى قطع من النصف الذى معه، كان بينهما عشق للمناسبة القديمة، وتتفاوت أحوال الناس فى ذلك حسب رقة طبائعهم»[2].

وقد اتخذ ابن حزم الأندلسى من هذا الكلام «المدرسى» المطروق إطارا فحسب، عالج من خلاله موضع العشق فى دقة، وهو فى هذا ليس «مدرسيًا» على الإطلاق. وتفيض كتابات ابن حزم بذكرياته الذاتية وذكرياته عن غيره، يقصها بطريقة مباشرة دقيقًا وقويا، ويحلل فى مواطن أخرى، واضحًا وفطنًا ومدهشًا، مواقف مختلفة تتصل بالحب. وليس مهما أن أنقل هنا فقرات من النصوص التى سوف يجرى بينها القارىء، وأكتفى بأن أشير من بينها إلى عدد من الفقرات يبدو لى مفيدا أن أوصى بها: فى صفحة ٧ مجموعة رقيقة من الأشياء التى تدل على أن اثنين فى حالة عشق، وفى ٧٩ نلتقى بأسباب تمكن الحب من النساء، إنهن فيما يرى ابن حزم: «متفرغات البال، إلا من الحب ودواعيه، والغزل وأسبابه، والتآلف ووجوهه، لا شأن لهن غيره، ولا خلقن لسواه»،

(١) فيما يرى غرسية غومث فإن كلمة «طوق» تعنى عقد، ولكن أليس من الأفضل أننا بصدد ما يدعى فى الغرب، منذ الأغريق، «عنق Cuello الحمامة»، وكان رمزا لثروة لاتنفد من الألوان؟ ففى صفحة ١٠٩ أجد هذه الفقرة «إنما قصدنا التكلم فيما رغبته من أمور الحب فقط، وهذا أمر كان يطول جدا، إذ الكلام فيه يتفنن كثيرا».

(٢) آثرت أن أجيء بنص ابن داود كاملا، لتبدو فكرته، أى فكرة أفلاطون، أكثر وضوحًا، وقد نسبها ابن داود إلى «بعض المتفلسفين»، دون أن يذكر اسم أفلاطون صراحة، أنظر:

- كتاب الزهرة، النصف الأول، ص ١٥، الطبعة الأولى، تحقيق لويس نيكل.

وفى صفحة ٤٤ حديث عن تفاوت رد الفعل عند ممارسة الحب، وما يترتب على ذلك سلبًا وإيجابًا، وهى مشكلة حقيقية، وشائعة بين الجنسين، وتهم أطباء اليوم كثيرًا. وفى صفحة ٤٧ إشارة إلى تأثير الحب الأول فى الغراميات اللاحقة، مما يعيد إلى الذاكرة ماذكره **ديكارت** Dcscartes[(١)] عن نفسه، وكيف أنه أحب أول مرة حولاء، فظل يشعر دائمًا بالميل والاهتمام بكل النساء الحوليات، وفى صفحة ٩٠ إحساس واضح بما للحب من تأثير نافذ على الكيان الإنسانى لا يدانيه شىء. وندرك معه فى صفحة ٩١ أن الخلسة فى الوصل قمة الحب – ويالها من حقيقة كبرى! – وفى صفحة ٩٦ وصف رائع للقاء غير متوقع بين حبيبين، يحكيه صاحبه وأعضاوه تضحك كلها بهجة، وفى صفحة ١٧٢ قصة البحار وآلته وسكينه، والعائدات من الحج.

لا يمكن أن نستقصى أفكار **ابن حزم**، وهو يعرض لنا ما كانت عليه ملامح الحب الأندلسى فى أيامه، ولا أن ندرك حقيقتها التاريخية، ولا نستطيع أن نقارن بينها وبين الحب عند شعوب أخرى. إنما علينا أن نتمعن جيدا ما يقصه علينا، وفيما يحدده لنا، وفى الملامح المميزة لطريقة الحب تلك، وسوف يبدو لنا للوهلة الأولى أنه لا يوجد خلاف، وهو نفس ما يحدث لنا عندما نقرأ الكتاب الوحيد، الدقيق والحجة، عن الحب عند شعب بدائى: «الحياة الجنسية عند البدائيين»، لمؤلفه **مالنوفسكى** Mailinowski[(٢)]، ونعرف منه أنه لايكاد يوجد خلاف بيننا وبين**تروبرياند** Trobriand، وهو شعب بدائى للغاية يعيش فى جزيرة غينيا الجديدة، فى الواجبات العاطفية، أكثر من أنهم يجهلون مثل شعوب آسيا، تأثير القبلة الحلو، وعلى النقيض يستلذون عض الأهداب، أمر يبدو لنا غريبًا وغير مألوف. وهذا الظاهر، وهو ذاتى بحت إلى حد كبير، يدفع إلى عقولنا بتحذير جوهرى، فى أن العواطف الإنسانية ثرية بقدر هائل لا يصدق، فى نباتها وفى حيواتها، ولكن لا تستطيع وفقًا لطبيعتها أن تعبر عن نفسها، وإنما تعتمد على الأعمال والملامح الجسدية، ومجموع مفاتيح هذه الملامح الجسدية التى تجدها عواطفنا تحت تصرفها، لتعبر بها عن نفسها، محدود للغاية إذ قورن بالتنوع الوفير لأشكال الحياة فى مشاعرنا، ومن هنا عليها مع الملمح نفسه أن تظهر حقائق حنونًا، بليغة التباين، رغم أن كل الغراميات إذ تأملناها من بعيد تبدو متشابهة.

---

(١) فليسوف ورياضى وعالم طبيعة فرنسى (١٥٩٦–١٦٥٠). (المترجم)

(٢) عالم أجناس بريطانى الجنسية، بولندى الأصل (١٨٨٤ – ١٩٤٢). (المترجم)

أعمال قليلة، كهذا الكتاب، أتاحت لى متعة عظيمة، ولقد اقتحمت صفحاته بمجهر أحاول، مبتدئًا بما يقصه علينا وما يفسره لنا، الوصول إلى صيغة مميزة لما كان عليه الحب عند هؤلاء العرب المصقولين فى القرن العاشر الميلادى، وما تعنى بالنسبة لنا، وهو موضوع يحتاج إلى مزيد من الوقت ومن الفراغ، لأنه يستطرد بنا إلى موضوعات تنتمى إلى عالم العلاقة بين الرجل والمرأة، وعنها، ولو أنه يبدو أكذوبة، كل شىء تقريبًا فى انتظار من يدرسه أو يقول عنه شيئًا.

وإذا أردنا أن نضرب مثلا بالغ الروعة للإهمال الذى تعانيه هذه النماذج الإنسانية من الحب، يكفى أن نتوقف لحظة عند الكلمات الأخيرة للفترة السابقة: «ما يكون الحب اليوم بالنسبة لنا». عن أى «يوم» يتحدثون هنا؟ لأننا لا نستطيع أن نقول إن العشاق الأوربيين منذ خمسين عامًا وعشاق اليوم شىء واحد أو متطابق، رغم أن المسرح واحد، وأن البعد بين الأثنين قصير جدا، ومع ذلك فإن مسافة الخلف بين حب تلك الأيام وحب الأجيال الجديدة واسعة إلى حد بعيد.

لقد تسلطت الحروب، والثورات على عقول الناس، فلم يعيروا اهتمامهم لموضوع واضح، وهو أن التغيير الأبعد غورا فى شكل الحب الأوربى، منذ القرن الثانى عشر الميلادى، حدث فى هذه المسافة القصيرة، وفسدت خلالها، فى كثير من الحالات، التقاليد العالمية المتنوعة، وربما كان أبلغها فسادا، ووقع صامتًا دون دوىّ، وعلى نحو لم يحدث مع أى شىء آخر، وبطريقة جذرية عنيفة، ما حدث فى أساليب الحب. ومنذ تلك الأيام أخذت نماذج الحب تتطور على نحو مستمر ودقيق، كجنس أدبى، وهو كذلك على نحو ما، حتى بداية هذا القرن، ولهذا مرت العلاقة بين الرجل والمرأة بعصر من الاضطراب العنيف، وليس من موضوعنا هنا أن نتعمق فيها دراسين.

لكن نعرف جيدا ماهية الأشياء يجب أن نمشى معها على مهل، وأن نضع بعضها فى مواجهة البعض الآخر، ومع المقابلة تتوهج خصائص كل واحدة، وهكذا من الأوفق لنا الآن أن نضع طرائق الحب التى اكتشفها **ابن حزم**، والذى ندعوه بالحب الأندلسى، فى مواجهة حب البدو، وينتشر بين القبائل التى تحتفظ اليوم بأصولها العربية فى نقاء كامل، وتعيش فى الصحراوات العطشى لشرقى شبه الجزيرة العربية، على ضفاف الخليج العربى. لقد نشر **ديكسون** H.RP. Dickson فى ١٩٤٩م كتابًا مفصلا وممتعًا عن الحياة بين هذه القبائل، وقد ولد **ديكسون** فى **سورية**، وأرضعته بدوية تنتمى لهذه القبائل،

واعتبر كواحد من أبناء القبيلة الأقوى نفوذا، وهو يحدثنا كيف أن هـذه المنطقـة مـن الجزيرة العربية، وعلى نحو ما كل شبه الجزيرة، لا تعرف الخيانة الزوجية. صحيح أن سهولة الطلاق لا تدع فراغًا يمكن لهذه أن تأوى إليه، ومن جانب آخر تمضى المـرأة محجبة، وقد أخفت رأسها تمامًا، ولا يستطيع من يصنف نفسه حبيبًا لها أن يعرف منها أكثر من مجرد رؤيتها على هذا النحو، وإلا فسوف يرى نفسه مضطرا لأن يشك فيها، فالمرأة إذن تدخل عالم الحب مثل كائن مجهول، ولهذا لا مجال للدهشة إذا انطوت ليلة الزفاف على كفاح عنيف بين الزوج والزوجة، عنف يبلغ حد أن تتعرض الزوجـة غالبًا لكسر واحد من أضلاعها أو أكثر.

كيف يمكن أن يكون الحب الذى يتحرك بين مثل هذه العادات؟ والملك الحـالى للجانب الأكبر من الجزيـرة العربيـة، **ابن سعود العظيم**، وهـو مسلـم متشدد ورئيس الوهابيين المتشدديـن، قص على **ديكسون** أن عنده، حتى وقت الحـديث، أكثـر مـن أربعمائة امرأة، لم ير وجه واحدة منهن. وبالنسبة لنا معشر الغربيين ليس سهلا أبـدا أن يكون حب بدون وجه، لأن الوجه بالدقة هو المكان حيث يتدفق الحب الحقيقى، ومن ثم وجب أن يُعنى كثيرا بظاهرة أن الوجه الأنثوى لا يثير الشهوة فى الرجل، على حين أن بقية جسمها كله، حتى اليدين، يمثل دائمًا إثارة خطرة وسريعة. وربما كانت الشفاه تقوم بواجب يتجاوز حد الحنان، ولكنها تقريبًا تأتى فى المقام الثانى عندما تكون الشهوة قد اندفعت عبر مجالات عاطفية.

والقضية التاريخية الكبرى التى تتخذ من هذا الكتاب منطلقًا، يجب أن يكون واجبها مهاجمة القول بتأثير العرب فى شعر الغزل الأوربى الوسيط بعامـة، وفى شعـر وتقاليـد **التروبادور** بخاصة، وهى نظرية شائعة، وموطن نقاش فى الوقت نفسه، وهـذه القضيـة عش زنابير لم يحاول أحد حتى الآن أن ينظمه.

ففى نهاية القرن الحادى عشر، ومطلع القرن التالى، بدأت فى **فرنسا** طريقة لإحساس الرجل بالمرأة، ليس لها صلة مباشرة لا بالثقافة القديمـة، ولا بقـرون العصر الوسيـط السابقة، يسعد الرجل حين يعتبر المرأة شيئًا أسمى منـه، ويخضع لهـا خاشعًـا، وتقـوم العلاقات العاطفية بين الجنسين على فكرة «الفتى»، الذى يبدأ فى اللحظة نفسها بإعلام المجتمع، والمرأة سيدة، والرجل تابع لها، والشهوانية التى تتناثر هنا وهناك فى أشعـار الغزل، تأخذ فى أسلوب شعراء **التروبادور** بعامة طابعًا شاردًا فحسب، وعلينا أن نؤكد

ذلك إزاء إصرار بريفو Briffaut على التقاط النصوص الجريئة[1]. ومشاعر التروبادور نحو المرأة تتطلب البعد، فيما يبدو من نصوصهم، وتبدو الحبيبة بالضرورة نائية المقام، ويتردد بكثرة أنها كالثريا بعدا، وليست فى متناول اليد، وبالتالى ليست موطن مداعبة، وليست شيئًا يُداعب ويستمتع به، وإنما شيء يبتعدون عنه فى ألم، ويشتاقون إليه دائمًا. ومن ثم أزهر شعر التروبادور الأنين والشكوى، ويعرض الحب كألم لذيذ، أو جرح محظوظ، ويقول شاعر التروبادور جيوفروى رودال Ceofffroi Rudal فى بساطة: إن حبه «حب الأرض للقمر».

ملامح حب التروبادور هذه لها خصائص أخرى كثيرة، لا أستطيع أن أضيفها هنا، وكانت سببًا فى أن نبحث لها عن أصل فى صورة الحب الذى ازدهر بين العرب قبل ابن حزم بقرن من الزمان، ويطلقون عليه عادة «الحب البغدادى». ولكن حب بغداد هذا ليس إلا واحدا من التأثيرات التى حدثت فى جماعات كبيرة، وأُتخمت ثقافة على مائدة الأفلاطونية التى شاعت فى ذلك القرن، وبين هذه الجماعات تشكلت أسطورة قديمة تتحدث عن قبيلة بنى عذرة وفيها يموت الرجال من الحب، لعزوفهم عن التمتع بالمحبوبة. هل يمكن حقًا تفسير الحب عند التروبادور بما يقابله من أشكال الزهد المتطرفة ذات المحتوى العاطفى؟

وهنا يحق لى أن أشكو من الطريقة التى عولجت بها كل القضايا التى تتصل بالشعر فى القرون الثلاثة: الحادى عشر، والثانى عشر، والثالث عشر. فمن الواضح أنه قبل أن نقارن بين شعر الغزل الأوربى فى هذه القرون، وبين نماذج منه عند الشعراء العرب، من الأوفق أن نحدد فى دقة خصائص كل منهما، ولو تحقق هذا لرأينا أن شعر الغزل الأوربى رغم أنه مشاعر تتأى عن «الحنين والشوق»، إلا أنها لا تتطلب العزوف، بل على النقيض، ترغب فى كل شيء، ولكن من بعيد. وهو ما يفسر لنا النصوص التى تنضح أدبًا جنسيًا، والتى التقطها بريفو ومن يدرى ربما كانت الشهوة الإنسانية الحقة ابنة التنائى، ولا تنبثق أو تزدهر إلا مع بعد الغاية.

(١) Robert Briffaut, Les Troubadours et le Sentiment romanesque, 1945, pp. 92, 93, 94.

مزاج ابن حزم

من خلال طوق الحمامة

صـورة لـه بقلمه

لست أعرف فقيهًا كابن حزم ترك الآخرين يدسون عيونهم وعقولهم فى أعماقه، ليروا على هدى من اعترافاته، وفى ضوء ما يملى لهم من حياته، كيف هو ومن يكون. ولقد حطم كل الحياء المصطنع، وأتى على كل الأسوار العالية التى تعزل الفقه عن الحياة، حين يقول الفقهاء للناس شيئًا ويصنعون شيئًا آخر، أو حين يمسكون بخناق الناس تضييقًا، جريا وراء فهم قاصر، أو نفاقًا للسلطان، أو بحثًا وراء زائل من عرض الدنيا، ويجعلون من سماحة الشريعة قيودا، ومن وعيها جمودا، وكان هذا هو الفارق الكبير بين ما يجرى فى الحياة الإسلامية واقعًا، وما يكتبه الفقهاء فى مؤلفاتهم تشريعًا، أو يلقونه فى حلقهم درسًا، أو يبشرون به بين الآخرين واعظين.

لقد تركنا **ابن حزم** نطل على حياته من خلال مؤلفاته كلها بعامة، وعرّى نفسه فى كتابين محددين بخاصة، خط أحدهما وهو فى ريعان الشباب، يفيض تحديًا ويلتهب حماسة، ويعترض بكل ما أوتى من قوة أحداثًا كبارا تجرف فى طريقها الخلافة، نظامًا وأشخاصًا، وكان يراها شرعة قائمة، يلوذ بها الخائف، ويستظل فيها المظلوم، ومعها تقوم الدولة، وتطمئن الجماعة، وتتطور الحياة، فدافع عنها، عن الشرعية الدستورية فى لغة السياسة الحديثة، بكل قدرته، وبما هو فوق طاقته، ثم رآها تنهار، وينهار معها المجتمع والدولة وكل القيم الجميلة، فأشعل الحرب على كل أمير خائن، وكل فقيه مرتش، وكل شاعر منحل، ولم يلق السلاح إلا جدثًا محمولا على الأكتاف، إلى رحاب الله الواسعة، وكان هذا الكتاب هو **طوق الحمامة**.

أما الكتاب الثانى فقد خطه حين أدار ظهره لعالم الخديعة حوله، وقد أثقل كاهله النضال على كل الجبهات، ورأى القيم التى عاش لها وعليها تتهاوى واحدة وراء أخرى، فلم يستسلم لها، وانسحب إلى قريته منت لشم، من بادية لبلة، وقنع بعلمه وكتبه وطلابه، وكان بين ما خطه منها، فى هذه الأيام، كتابه: **«الأخلاق والسير فى**

مدواة النفوس»[١]، وهو مجموعة رائعة من الاعترافات الذاتية، خطها **ابن حزم** وقد حنكته التجربة، وصقلته الأحداث، وصهرته المعاناة، وهدهد الزمن من جموحه. وإنها لمتعة رائعة حقًا أن يقارن الإنسان بين تجارب وأفكار **ابن حزم فى «طوق الحمامة»**، ولما يتجاوز الثمانية والعشرين من عمره، وبين أفكاره شيخًا على أبواب السبعين، وسنضع يدنا على الحقيقة بيضاء ناصعة: إن أفكار وآراء **ابن حزم** على امتداد نصف قرن من الزمان تقريبًا، ورغم كل ألوان المعاناة، لم تتغير شيئًا.

ليس من قصدى هنا الموازنة بين الكتابين، ولا أنا بصدد دراسة الكتاب الثانى، فلذلك مكانة من فرصة قادمة إن شاء الله، وإنما أحاول أن أعرض صورة لجانب من مزاج ابن حزم، فى زهوة شبابه، كما رسمه لنا بقلمه، فى كتابه **«طوق الحمامة»**.

- **فيض من الذكريات والاعترافات :**

لا تكاد تمضى خطوات مع **ابن حزم فى طوق الحمامة** حتى تجد نفسك أمام فيض من ذكرياته، عن نفسه وعن أصدقائه، وآخرين مجهولين، وكلهم من العشاق، زفراتهم حارة، وأحاسيسهم صادقة، يخلطون المداد بالدمع أو الريق، ويستخدمون فى التراسل الحمام والعيون والرسل، ويعانون من الوشاة، ويموتون من الحب. وهو إلى جانب ذلك معرض حافل بالحديث عن شيوخ ابن حزم، والشخصيات العامة فى قرطبة، وبالإشارات التاريخية، والأحداث الهامة، والحفلات الخاصة، وتخطيط العاصمة ومعمارها، ومساكن آل حزم ومستواها، وكلها تتحرك نابضة بالحياة، وتمضى متماسكة مثل عناقيد العنب، وهو قبل ذلك كله سيرة ذاتية للمؤلف، خطها بقلمه، واعترافات مخلصة ألقى بها فى جرأة وصدق غير معهودَيْن فى الفكر العربى على أيامه وما بعدها إلى أيامنا.

هل تصلح **اعترافات ابن حزم** وثيقة لتصوير ما كان عليه مزاجه؟ لا يمكن القول بداهة أن ابن حزم حدثنا عن كل شىء فى حياته، لأن هناك منطقة فى حياة الإنسان تظل سرا مكتومًا إلى الأبد، لا تتجاوز طيات ضميره، ويحملها معه إلى القبر، نجد ذلك عند ابن حزم، وعند غيره، وكل ما هناك أنها تضيق عند البعض ضيقًا كبيرا، فلا تمس إلا أشياء محدودة مغرقة فى الخصوصية، وتتسع عند آخرين حتى تشمل كل شىء فى

---

(١) نشرت دار المعارف هذا الكتاب بتحقيقنا، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٩٢ .

حياتهم، ومن جانب آخر لم يكن قصد ابن حزم بكتاب «طوق الحمامة» أن يكتب سيرة حياته، وإنما عرض لجوانب منها تتصل بموضوع الكتاب. والواقع أن أيا من أشد خصومه، وفى أعنف المعارك التى خاضها، لم يجرؤ على تكذيبه، وواقع حاله، مؤرخًا وفقيهًا، يدعم صدقه فيما يقول، وتاريخ حياته شاهد على ما حدّث به عن نفسه. ولم يكره ابن حزم فى حياته شيئًا كما كره الكذب والكذابين، وأدان هذه الخصلة الذميمة بأعنف ما يملك من وسائل التعبير.

- **بعض صفات ابن حزم :**

يقول عن نفسه: «**وما أحببت كذابًا قط**، وإنى لأسامح فى إخاء كل ذى عيب وإن كان عظيما، وأكل أمره إلى خالقه عز وجل، وآخذ ما ظهر من أخلاقه، حاشى من أعلمه يكذب، فهو عندى ماح لكل محاسنه، ومعف على جميع خصاله، ومذهب كل ما فيه، فما أرجو عنده خيرا أصلا، وذلك لأن كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه، وكل ذام فقد يمكن الاستتار به، والتوبة منه، حاشى الكذب فلا سبيل إلى الرجعة عنه، ولا إلى كتمانه حيث كان. وما رأيت قط، ولا أخبرنى من رأى، كذابًا ترك الكذب ولم يعد إليه، ولا بدأت بقطيعة ذات معرفة إلا أن أطلع له على الكذب، فحينئذ أكون أنا القاصد إلى مجانبته، والمتعرض لمتاركته».

وهو يرتفع بالكذب إلى مرتبة الكفر، بل إن شئت يرى الكفر شعبة من الكذب، لإنه إخبار عن الله بغير ما هو عليه، ويورد، على غير عادته، الكثير من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، الدلة على فضل الصدق وبشاعة الكذب، ويأتى بشواهد تاريخية، ويعدد أفرادا شهروا بالكذب على أيامه. ويرى الواشى والناقل والنمام شر جميع الناس، «وإن النميمة لطبع يدل على نتن الأصل، ورداءة الفرع، وفساد الطبع، وخبث النشأة ولابد لصاحبه من الكذب. والنميمة فرع من فروع الكذب، ونوع من أنواعه، وكل نمام كذاب». وهو أصل كل فاحشة، وجالب كل سوء، ولا يقف ابن حزم بدوره عند الأفراد، وإنما يتجاوزهم، فى نظرة متقدمة، ليدرك دوره فى تدمير حياة الأمم والجماعات: «وما رأيت أخزى من كذاب، وما هلكت الدول، ولا هلكت الممالك، ولا سفكت الدماء ظلمًا، ولا هتكت الأستار بغير النمائم والكذب».

ويفرق الناس بين **الناصح والنمام**، وهما صفتان متقاربتان فى الظاهر، متعاونتان فى الباطن، أحدهما داء والأخرى دواء، والثاقب القريحة لا يخفى عليه أمرهما. فليس ناقلا

من نبه غافلا، أو نصح صديقًا، أو حفظ مسلمًا، أو حكى عن فاسق، أو حدث عن عدو، مالم يكن يكذب أو يتعمد الضغائن. «لكن الناقل من كان تنقيله غير مرضى فى الديانة، ونوى به التشتيت بين الأولياء، والضريب بين الإخوان، والتحريش والتوبيش والترقيش».

وهو رجل **مجدد، يكره التقليد**، ويعاف أن يسير فى طريق سار فيه الآخرون، ومن هنا كانت صرخته فى بداية الكتاب: «دعنى من أخبار الأعراب والمتقدمين، فسبيلهم غير سبيلنا، وقد كثرت الأخبار عنهم، وما مذهبى أن أنضى مطية سواى، ولا أتحلى بحلى مستعار».

وكان **إحساس ابن حزم بطبقته واضحا**، إذا تحدث عن أبيه ذكر: **«أيام وزارة أبى»** أو «إلى أن توفى **أبى الوزير** رحمه الله»، **«وأيام دولتنا وامتداد ظللنا»**. وعندما يعرض لواحد من أبناء الخلفاء يلحقها بقوله وهو صادق فيما يقول، وكان لى صديقًا، وعندما يتحدث عن **أبى عامر**، حفيد **المنصور بن أبى عامر**، يقول: إن دارهم ملاصقة لدارنا ولأنه كان من أبناء الصفوة لم يهتم أبدا بالطبقة الدنيا فى قرطبة، ولم يلق بالا إلى حياة المستعربين أو المولدين، أو الطبقات الشعبية باختصار، ولم تتسرب إلى كتابه **«طوق الحمامة»** لفظة رومانثية واحدة، والمرة الوحيدة التى عرض فيها لواحد من غير طبقته كانت فى نهاية الكتاب، فى الخاتمة منه، حين احتاج لمثل يضربه فى الصبر على المكاره، وتحمل شظف العيش، فذكر أن **ميسورا** البنّاء جارهم فى قرطبة، يصبر عن الماء أسبوعين فى حمّارة القيظ، ويكتفى بما فى غذائه من رطوبة. ومع ذلك فالبنّاء، كبقية الحرفيين فى عاصمة الخلافة، يقف على أكتاف الطبقة الدنيا، وتحت أقدام الطبقة الوسطى، يهرب من الأولى، وتصده الثانية، فلا ينسب واقعًا فى أى منهما.

- **ابن حزم والصداقة :**

وكان **ابن حزم حفيًا بالصداقة**، يرى فيها السند عند الشدة، ورواء الروح لحظة البهجة، أصدقاؤه لداته، فى عمره ومن طبقته، أبناء كبار الموظفين والبيوتات العريقة، ومرت على قلبه ألوان منهم. هناك من عرفهم، أو عرفوه، شهرة وتراسلا، فلما التقيا تأكدت بينهم المودة واتصلت وتمادت، ومن كان له على ود أكيد، وخطاب كثير، ما تراءيا، ثم منح الله له لقاءه، فما هى إلا أيام قليلة حتى وقعت المنافرة عظيمة، والوحشة شديدة ومتصلة. ومنها ما بدأ منافرة ووحشة وانتهى صداقة وودا، كالذى جرى بينه

وبين أبي عامر، حفيد المنصور بن أبي عامر، وكانت الكراهية شديدة بينهما في البدء، ولم ير أحدهما الآخر، «وكان أصل ذلك تنقيلا يحمل إليه عني، وإليّ عنه، ويؤكده انحراف بين أبوينا لتنافسهما فيما كانا فيه من صحبة السلطان، ووجاهة الدنيا، ثم وفق الله الاجتماع به فصار لي أود الناس، وصرت له كذلك، إلى أن حال بيننا الموت».

ولم يكن أصدقاؤه من معدن واحد، في فترة قلقة سياسيًا واجتماعيًا، تهبط بالمرء في لحظات من العرش إلى اللحد، وترتفع به من عامة الناس إلى قمة المجد، فمنهم من تغير مع الدنيا، أقبلوا عليه حين كانت منه مقبلة، وأعرضوا عنه حين أدارت له ظهرها، لقد اتصل به **محمد بن الوليد**، وانقطع إليه حين كان أبوه وزيرا، فلما اقتحم **البربر** قرطبة، وتغيرت الأحوال، خرج **محمد بن الوليد** إلى بعض النواحي، واتصل بصاحبها، وعرض جاهه، وحدثت له وجاهة، وحالة حسنة، وحل ابن حزم تلك الناحية في رحلة له، فلم يوفه حقه، وثقل عليه مكانه، وأساء معاملته وصحبته، وكلفه حاجة فلم يقم فيها ولا قعد، واشتغل عنها بما ليس في مثله يشغل. ومن الوزراء من عرض جاهه فأمسك عن **ابن حزم**، فلما ذهبت أيامه، وانقضت دولته، عاد يبدي له من المودة والأخوة غير قليل.

وكان يرغب في أن يكون **أصدقاؤه** معه، إلى جواره، في أي المواقف يختار، وعتب على **أبي السري عمار بن زياد** صديقه، لأنه أكثر من عذله في نحو نحاه، وأعان عليه بعض من لامه في ذلك الوجه، ويعقب **ابن حزم** على ذلك الموقف: «وكنت أظن أنه سيكون معي، مخطئًا أو مصيبًا، لوكيد صداقتي، وصحيح أخوتي به»، لقد تمسك بالصداقة رغم كل الهزات التي تعرض لها، والتي جعلت جانبًا من الذين أحاطوا به ينفضون من حوله، نجاة بأنفسهم أو تقية أو بحثًا عن الجاه والمغانم، وكان يأخذ من أصدقائه ما ظهر له من أخلاقهم، فلا يلتمس لهم عيبًا لا يراه، ولا يؤاخذهم بنقيصة لا تمسه، ويحسن الرأي فيهم دائمًا، متمثلا بقول عمر رضي الله: «ضع أمر أخيك على أحسنه، حتى يأتيك على ما يغلبك عليه». ويبقى على أسرارهم معه، حتى ولو جاءت القطيعة، وسقطت المئونة، وأفشى صاحبه بما يعرف من أسرار عنه.

كان **أبو بكر محمد بن إسحاق** أظهر أصدقاء **ابن حزم**، ويتردد في صفحات الطوق كثيرا، ويروي عنه **ابن حزم** عددا من الأحاديث والأقاصيص، ويدعوه دائمًا: «صاحبي»، وكان أبوه فيما يبدو، مثل والد ابن حزم، من وزراء المنصور، ولا نجد له في كتب

التراجم التى بين أيدينا غير سطرين خصهما به **الضبى** فى كتابه «البغية»، وإليه توجه ابن حزم برسالته: **«فضائل أهل الأندلس»**، وفيها يناديه: «أما بعد يا أخى أبا بكر، سلام عليك، سلام أخ مشوق طالت بينك وبينه الأميال والفراسخ، وكثرت الأيام والليالى، ثم لقيك فى حال سفر ونقلة، ووادك فى خلال جولة ورحلة فلم يقض من مجاورتك أربا، ولا بلغ فى محاورتك طلبًا..» وقد صحب **ابن حزم** فى هجرته من قرطبة مضطهدا ملاحقًا، حينما اقتحم البربر العاصمة ونهبوها، ومعهما صديق ثالث لهما، **أبو عامر** الذى أشرنا إليه من قبل، وكان ثريا وجيها، شريفًا ونبيلا، تضرب به قرطبة المثل فى الملاحة فيقال: **«أجمل من وجه أبى عامر»**. ويقص علينا **ابن حزم** فى **الطوق** مشهدا إنسانيًا مؤسيا ومؤثرا: لقد فر الثلاثة بحياتهم وحريتهم من قرطبة، ثم استقر بهم المقام فى **مالقة**، وفى هذه المدينة آثر **أبو عامر** أن يرحل إلى شرق الأندلس، وتخلف صاحباه فيها يدبران أمرهما، ولحظة الفراق وقفا على شاطىء البحر الأبيض يلوحان له مودعين، وفى أعماق كل منهما، والحوادث الهوج تعصف بالأندلس، أنهما لن يرياه ثانية، فجعل **أبو بكر** يبكى لحظة وداعه وهم وقوف على ساحل البحر، ويردد بيت **أبى عطاء السندى** متمثلا:

ألاَ إنّ عينًا لم تَجُدْ يومَ واسطٍ   عليك بباقى دمعهـــا لجمود

وجعل **ابن حزم** يكثر التفجّع والأسى، وعينه لا تساعده، فأجاب أبا بكر ببيت له ارتجله:

وإن امرأً لم يفن حسنَ اصطباره   عليك وقـد فـــارقتهَ لجليد

وكان **ابن حزم شحيح الدمع**، ويعلل ذلك بأنه أصيب بخفقان فى القلب، فأدمن على الكندر، فإذا عرضت له المصيبة الفادحة تفطر بغصة أمر من العلقم، تحول بينه وبين توفية الكلام حق مخارجه، وتكاد تشوقه نفسه أحيانًا، ولكن عينه لا تستجيب له ألبتة إلا فى الندرة، بالشىء اليسير من الدمع.

- **ابن حزم والجمال والحب :**

وابن حزم رقيق الإحساس، سريع التأثر، يهوى الشكل الجميل، أو الصورة الحسنة فيما يقول، ويعى جيدًا ما يحدثه فى الأرواح من هزة، وما يثيره فى النفوس من رجة، لأن «النفس الحسنة تولع بكل شىء حسن»، ويرى فى إثارة الجمال سلطانًا لا يقاوم،

والقرآن الكريم يحدثنا عن افتتان المصريات بالجمال الذى كان عليه يوسف، وما أحدثه في أعماقهن من أثر. لقد راودته امرأة عزيز مصر، «التى هو فى بيتها عن نفسه، وغلّقت الأبواب وقالت: هيت لك، قال: معاذ الله إنه ربى، أحسن مثواى»، «ولقد همت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه»، وشاع خبرهما، «وقال نسوة فى المدينة: امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه، قد شغفها حبا، إنا لنراها فى ضلال مبين. فلما سمعت بمكرهن، أرسلت إليهن، واعتدت لهن متكأ، وآتت كل واحدة منهن سكينا، وقالت: اخرج عليهن، فلما رأينه أكبرنه. وقطعن أيديهن، وقلن: حاش لله، ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم».

ولقد عاش ابن حزم فى بيئة عامرة بالصبايا الجميلات، وأحب فى سن مبكرة للغاية، صبا قلبه ولما يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، وكان فى حبه غريبًا عصريًا للغاية، يتميز عن الروح الشرقى والعربى تمامًا، فلا يؤمن بالحب مع النظرة الأولى، ويعجب ممن يدعى أنه يحب من نظرة واحدة فقط، ولا يكاد يصدقه، ويجعل مثل هذا الحب ضربًا من الشهوة، لا ينفذ إلى حجاب القلب، ولا يتمكن من صميم الفؤاد، فالشهوة تسقط على المرء مع أول نظرة، والحب يحتاج إلى زمن ومعاناة وفهم متبادل، ويقول عن نفسه معترفًا: «ما لصق بأحشائى حب قط إلا مع الزمن الطويل». فالشهوة تتعدد باختلاف ما تقع عليه العين من أشكال الجمال، والحب متوحد دائمًا، فإذا رأيت من يحب اثنين فى الوقت الواحد، فاعلم أنها الشهوة، تسمى على المجاز حبًا.

والتفرقة بين الحب والشهوة نظرة عصرية للغاية، وما زال فى ذهنى صُوَرٌ من أيامنا الأولى فى إسبانيا، عرب وشرقيون، نطل على عالم جديد لم تكن لنا به صلة من قبل، اللقاء فيه سهل، والاختلاط متاح، والخلوة ممكنة، وإذا بالواحد منا يقول لأول فتاة جميلة يلقاها: إننى أحبك. وتنظر إليه فى دهشة: كيف وما التقينا إلا منذ ساعات؟ تقصد تشتهينى؟، ذلك شىء مختلف. ولم نكن قد قرأنا ابن حزم بعد، لأن أحدًا لم يهدنا إليه فى دراستنا، لم يشربه أحد علينا ولو كمصدر نقرأه أو نعود إليه فى أبحاثنا، ربما لأننا مع التخلف نراه كتابًا لا يصح أن يقرأ، ولأن أحدا لم يعرفنى به قبل أن أذهب إلى إسبانيا دارسًا، لم أكن أعرف أن ما قالته لى أول فتاة إسبانية عرفتها، قاله ابن حزم قبلها بما يزيد عن تسع مائة عام.

وما من ضرورة تدعو إلى أن يهرب المحب بأشواقه، خوف أن يسم نفسه بهذه السمة عند الناس، لأنها بزعمه من صفات أهل البطالة، يفر منها ويتفادى، وليس هذا

بصحيح، «فبحسب المسلم أن يعف عن محارم الله عز وجل التى يأتيها باختياره، ويحاسب عليها يوم القيامة، وأما استحسان الحسن، وتمكن الحب، فطبع لا يؤمر به ولا ينهى عنه، إذ القلوب بيد مقلبها، ولا يلزمه غير المعرفة والنظر فى فرق ما بين الخطأ والصواب، وأن يعتقد الصحيح باليقين، أما المحبة فخلقة، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة». ولم يجد ابن حزم حرجًا فى أن يعترف بعدد من غرامياته، على غير ما هو معهود فى أيامه وما بعدها، وحتى يومنا هذا. حدثنا عن حبه لنُعم، جاريته الشقراء، أكثر من مرة، مصرحًا باسمها تارة، أو مفهومًا أخرى، ومن خلال قصائده أحيانا وبدأ حياته العاطفية معها فى سن مبكرة، وكانت فيما يبدو لى أول من أحب، وأصبحت الفتاة امرأة على يده، فيما يقول عن نفسه «وكنت أبا عذرها»، وتكافأت المحبة معه، وتركت فى أعماقه ذكريات لا تنسى، وترصّد بأخرى زمنًا طويلا، ولم ينته حبه إلى غاية، وخشى مع الثالثة أن يقع فى مهاوى الفتنة فأمسك عن التردد على بيتهم.

وأعطانا، خبيرا ومجربًا، صورة دقيقة للسعادة التى تغمر أعطاف المحب الناجح، «وما فى الدنيا حالة تعدل محبين إذا عدما الرقباء، وأمنا الوشاة، وسلما من البين، ورغبا عن الهجر، وبعدا عن الملل، وفقدا العذل، وتوافقا فى الأخلاق، وتكافيا فى المحبة، وأتاح الله لهما رزقًا دارا، وعيشًا قارا، وزمنًا هاديًا، وكان اجتماعهما على ما يرضى الرب من الحال، وطالت صحبتهما، واتصلت إلى وقت حلول الحِمام الذى لا مراد له، ولابد منه». «ولقد وطئت بساط الخلفاء، وشاهدت محاضر الملوك، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه، ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء، وتحكم الوزراء، وانبساط مدبرى الدول، فما رأيت تبجحًا، ولا أعظم سرورا بما هو فيه، من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده، وواثق بميله إليه، وصحت مودته له».

ويدعنا نفهم دون مواجهة، وفى مواربة، أن حبه ليس عذريًا، وكلمة عذرى لا ترد على امتداد كتابه ولا مرة واحدة، وليس فاجرا فى الوقت نفسه، ولقد اعترف بأنه بلغ مع «نُعْم» غايته، وكان فى غرامياته نهمًا لا يتوقف عند حد، يقول:

«ما رويت قط من ماء الوصل، ولا زادنى إلا ظمأ»، «ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التى لا يجد الإنسان وراءها مرقى، فما وجدتنى إلا مستزيدا، وحين يكون مع من يحب لا يجول بخاطره فن من فنون الوصل، إلا وجدته مقصرا عن مرادى،

وغير شاف وجدى، ولا قاض أقل لبانة من لباناتى، ووجدتنى كلما ازددت دنوا ازددت ولوعًا، وقد حث زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعى». ويرى التوافق فى ممارسة الحب يقويه، «إذ الأعضاء الحساسة مسالك إلى النفوس ومؤديات نحوها».

ويرد العفة إلى أسباب موضوعية، إلى طبع يميل بالرجل أو المرأة إلى غير هذا الشأن، واستحكمت معرفته بفضل سواه عليه، فهو لا يجيب دواعى الغزل فى كلمة ولا كلمتين، ولا فى يوم ولا فى يومين. ولو طال على هؤلاء الممتحنين ما امتحنوا به لحادت طباعهم، وأجابوا هاتف الفتنة، ولكن الله عصمهم بانقطاع السبب المحرك. وإما بصيرة حضرت فى ذلك الوقت، وخاطر تجرد انقمعت به طوالع الشهوة.

ويقرر حاسمًا وصريحًا: «وبالجملة فإنى لا أقول بالمراءاة، ولا أنسك نسكا أعجميًا، ومن أدى الفرائض المأمور بها، واجتنب المحارم المنهى عنها، ولم ينس الفضل فيما بينه وبين الناس، فقد وقع عليه اسم الإحسان». ورأى ابن حزم أن يقطع السبيل عن كل راغب فى النيل منه، أو متخذ من اعترافاته سبيلا إلى اتهامه، فكان بيانه القاطع: «يعلم الله، وكفى به عليما، أنى برىء الساحة، سليم الأديم، صحيح البصرة، نقى الحجزة، وإنى أقسم بالله أجل الأقسام أنى ما حللت مئزرى على فرج حرام قط، ولا يحاسبنى ربى بكبيرة الزنا، مذ عقلت إلى يومى هذا».

وكان **ابن حزم يحترم أسرار الناس**، أو ما نسميه فى عصرنا بالحياة الخاصة للآخرين، فلما كلفه صاحبه أن يكتب له فى الحب، وأدرك أن ذلك يحتاج إلى أمثلة وشواهد يلتقطها مما رأى بعينه، وأدرك بنفسه، وحدثه به الثقات من أهل زمنه، لم يترك نفسه على سجيتها فى رواية الأحداث، لأنها تمس الجانب الشخصى البحت من حياة الناس، وهو ملك لأصحابه وحدهم، ليس من حق أحد أن يشاركهم فيه، أو يطل على داخلهم، ويربأ بالحياة الخاصة لرجال الدولة من الأمراء والخلفاء، مما ينفردون به فى قصورهم مع عيالهم، أن تكون مجالا للقول. ولكنه ذكر من لا ضرر فى تسميته، ولا يلحقه والمسمى عيب فى ذكره، إمّا لأن الخبر ذاع واشتهر فطيه لا يغنى عنه شيئًا، أو لأن المخبر عنه راض بظهور خبره، غير منكر لنقله، أما الآخرون فقد أكنى عنهم، لأن فى ذكرهم عورة لا يستجيز كشفها، أو لأنها تمس صديقًا ودودا، أو رجلا جليلا.

وهو يقدر **محن الناس العاطفية**، يوردها مثلا، وقد يذكر معها أسماءهم، ولكنه لا يتشفى فيهم، ولا يجدها وسيلة للنيل منهم، والولوغ فى أعراضهم، أو التظاهر عليهم

بالصلاح والتقى، ويورد قصص أولئك الذين انحرفت بهم عواطفهم، أو يعشقون صورة الجمال الكامل فى وجوه الغلمان، فلا يرفع فى وجوههم سوطه القارع، أو يلاحقهم بالسب القارص، ولا يزيد قوله عن: «عفا الله عن الجميع».

ويقيم ابن حزم على الوفاء لمن عرف، ويمد لأصحابه حب الود إن أساءوا إليه، أو قلبوا له ظهر المجن، ويحن إلى كل عهد تقادم حتى ليغصه بالطعام، ويشرقه بالماء، لا يمل شيئًا إذا عرفه، ولا يسرع فى أنسه مع أول لقاء، ولا يميل إلى استبدال ما يألف من الأخوان، أو الأشياء من مركوب ومطعوم، ورثاؤه لديارهم فى بلاط مغيث، وقد أخبر بانتهاب البربر لها، مثال صادق لهذا الشعور، إلى ما فيه من تصوير دقيق لمنازل آل حزم، وما آلت إليه، وما تعكس من حنين جارف وارتباط بالمكان. ويرى الوفاء فضيلة يزهو بها: «لقد منحنى الله عز وجل من الوفاء لكل من يمت إلى بلقية واحدة، ووهبنى من المحافظة لمن يتذمم منى ولو بمحادثته ساعة حظا». ويقع فراق الأحبة من نفسه موقعًا أليما، ويعترف: «ما انتفعت بعيش، ولا فارقنى الإطراق منذ ذقت طعم فراق الأحبة. وإنه لشجى يعتادنى، وولوع همّ ما ينفك يطرقنى، ولقد نغص تذكرى ما مضى كل عيش أستأنفه». وإذا نعى إليه من يحب، وواجه الفراق الأبدى، وكان نازحًا وحيدا، فر بنفسه إلى المقابر يمشى بينها، ويتعزى بأبيات من الشعر يترنم بها.

وظل يعانى مما يفرضه عليه الوفاء، مما يصطدم أحيانًا بعزة نفسه، وإحترام ذاته وكرامته، «وعنى أخبرك: أنى جبلت على طبيعتين لا يهنئنى معهما عيش أبدا، وإنى لأبرم بحياتى باجتماعهما، وأود التثبت من نفسى أحيانا، لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما، وهما: وفاء لا يشوبه تلون، قد استوت فيه الحضرة والغيب، والباطن والظاهر، تولده الألفة التى لم تعزف بها نفسى عما دربته، ولا تتطلع إلى عدم من صحبته. وعزة نفس لا تقر على الضيم، مهتمة لأقل ما يرد عليها من تغير المعارف، مؤثرة للموت عليه، فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو إلى نفسها، وإنى لأجفى فأحتمل، وأستعمل الأناة الطويلة، والتلوم الذى لا يكاد يطيقه أحد، فإذا فرط الأمر، وحميت نفسى، تصبرت».

وما شىء أثقل على نفس ابن حزم من الغدر، «ولعمرى ما سمحت نفسى قط فى الفكرة فى إضرار من بينى وبينه أقل ذمام، وإن عظمت جريرته، وكثرت إلى ذنوبه، ولقد دهمنى من هذا غير قليل فما جزيت على السوءى إلا بالحسنى».

• ابن حزم محاورًا :

وابن حزم **واسع الصدر فى القضايا العلمية والاجتماعية، عند الحوار**، يناقش ويدلى برأيه، ويسمع وجهه نظر معارضه، لا يضيق بها، ولا يفقد هدوءه بإزاء محدثه، يفاتش أبا عبد الله من أهل القيروان وكان طويل اللسان جدا، مثقفًا للسؤال فى كل فن، أيام كان لاجئًا فى المرية، حول الحب ومعانيه، وماذا يصنع محب كره المحبوب لقاءه، وتجنب قربه. يرى ابن حزم: «أن تسعى فى إدخال الروْح على نفسك بلقائه وإن كره». ويرى أبو عبد الله: «بل أوثر هواه على هواى، ومراده على مرادى، وأصبر ولو كان فى ذلك الحتف». ويمضى الحوار على النحو الذى أورده ابن حزم فى الطوق، عالم قرطبة يقف على أرض صلبة من الواقع، وأديب القيروان يتشبث بما هو نظرى ومن صنع الخيال، وبفقد صبره فى مواجهة ابن حزم، ويصيح به: «أنت رجل جدلى، ولا جدل فى الحب».

وكان **ابن حزم يفرق بين الصلات الشخصية، والخلافات الفكرية والعقائدية**، لقد تعرف خلال إقامته بالمرية على طبيب يهودى، يدعى إسماعيل بن يونس، وتعود أن يختلف إلى دكانه، ويصف اليهودى بأنه كان بصيرا بالفراسة محسنًا لها. ولست أشك فى أنه تعرف بها إلى يهود آخرين، فقد كانت **المرية** فى تلك الفترة من التاريخ، أى النصف الأول من القرن الحادى عشر، موطنًا لحركة ثقافية وأدبية مزدهرة، وموطنًا ليهود كثيرين، علماء وأغنياء، وأرجح أنه تعرف فيها إلى **صمويل، أو إسماعيل، بن النغرلة**، قبل أن تؤهله مواهبه العالية لأن يصبح وزير **باديس بن حبوس أمير غرناطة**، ويسيطر على مصائر الدولة دونه، ثم يورثها ابنه يوسف من بعده[1]، فيثير جمهرة المسلمين بحمقه وتحديه واستهتاره، فتأتى عليه نفوذ اليهود ثورة عارمة، لعب الشعر فيها دورا رئيسيًا. **وقد وقف ابن حزم موقفًا متشددا من اليهود، حين طما طغيانهم السياسى**، وتجاوزوا حد الأدب فاستطالوا على المسلمين، واستباحوا مقدساتهم، وناقش اليهودية كعقيدة واعيًا وعنيفًا، وأميل إلى أن بداية دراسته لليهودية بدأت فى هذه المرحلة من حياته.

---

(١) انظر: غرسية غومث، مع شعراء الأندلس والمتنبى، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى، صفحة ١١٧ وما بعدها، القاهرة ١٩٧٤ .

وكان لـه فى المرأة رأى عرضنا له من قبل، ويعرف ابـن حـزم للأستاذيـة جلالهـا وقدرها، فلا يتحدث عن أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى أبى يزيد المصرى، إلا وأردف قائلا: أستاذى.

وبرىء ابن حزم من عـادة الشراب، وكانت شائعة على أيامه، ووجـد كثيـرون مندوحة لهم فى المذهب العراقى، وأوجز ابن عبد ربه اتجاههم فى بيته الشهير:

دينُنا ، فى السـمـاع، دين مديـ ـنى، وفى شربنا الشراب عراقى

وجاء رفضه له عرضًا حين تحدث عن مذهب الشعراء المجددين فى ذم البكاء على الدمى والثناء على اللذات، وأن الحسن بن هانىء، أبا نواس، أكثر فى هذا الباب وافتخر به، «وهو كثيرًا ما يصف نفسه بالغدر الصريح فى أشعاره، تحكمًا بلسانه، واقتدارًا على القول، ثم يشحذ ابن حزم قريحته بأبيات على مذهب أبى نواس فيقول:

خلِّ هذا وبادرِ الدهرَ وارحـــلْ فى رياضِ الرُّبَى مطيَّ العقـــارِ
واحْدُها بالبديع من نغماتِ الـ ـــعودِ كيما تُحَث بالمزمـــار
إن خيرا من الوقوف على الدا ر وقـوفُ البنـان بالأوتـــار
وبـدا النرجسُ البديـعُ كصبٍ حائر الطرفِ مـائلا كالمـدار
لـونه لـــونُ عاشـــق مستهامٍ وهو لا شـك هـائمٌ بالبهار

ويعقب على هذه الأبيات بقوله: «ومعاذ الله أن يكـون نسيـان مـا درس طبعًـا لنـا، ومعصية الله بشرب الراح لنا خلقا، وكساد الهمة لنا صفة ولكن شذوذ القائل للشعر عن مرتبة الشعر خطأ». والحق أن الطوق عرض لألوان من الحب مقبولة وشاذة، حلالا ومحرمة، ولكن حديث الشراب ومجالسه وألوانه لا ترد فيه أبدا.

المرأة فى قرطبة
من خلال طوق الحمامة

مع قلة الوثائق وغيبة الشواهد تختلف الآراء حول المرأة الأندلسية اختلافًا بيِّنًا، وفى دوائر المستشرقين بخاصة، لأن أبحاث الدارسين العرب فى مجال الأندلسيات لما تزل محدودة، وقليل جدا بينها من يقول شيئًا نافعًا أو يضيف إلى ما نعرف جديدا، لأن الاهتمام بالأندلس، تاريخه وحضارته وأدبه، جاء متأخرا، والقائمون عليها الآن، وهم قلة، أمامهم سنوات مضنية من العمل لكى يزيحوا عن هذه المنطقة من تراثنا غبار الإهمال، ويعبدوا أمام الأجيال القادمة طرائق البحث، من نشر المخطوطات، وتوفير المصادر، ودراسة اللغة الإسبانية، وكل تخصص فى مجال الأندلسيات دون التمكن منها، ثماره عقيمة، وحظه من النجاح محدود.

حاول المستشرقون إذن أن يدرسوا وضع المرأة الأندلسية، وبذلوا جهودا طيبة، وقد أخفق بعضهم، على ما سنعرف، فى جانب من آرائه، قليل أو كثير، لأن عقيدة التعالى على العرب، أو البغض للإسلام، كانت تحكم أبحاثه. وضل الطريق آخرون لأن دلالات النصوص البعيدة، والتى تعتمد على تذوق اللغة، وإدراك الفروق الدقيقة بين معانى الألفاظ المختلفة، كانت تفلت منهم، وهو شىء طبيعى، فأدى بهم ذلك إلى أحكام خاطئة وجائزة أحيانًا، ولكنهم فى كل الأحوال أسدوا إلى هذا التراث يدا، يستحقون عليها أن نقول لهم شكرا، ومن عمل وأخطأ، خير ممن لا يعمل شيئًا على الإطلاق.

ليس فى نيتى، ولا بإمكانى أيضًا، أن أتتبع آراءهم جميعًا، ولكنى سوف أحاول أن أعطى صورة لهذه الاتجاهات المختلفة، فى خطوطها العامة، موجزة نعم، ولكنها كافية لكى نعرف كيف يفكرون فى هذا الجانب، وأين نقف منهم.

- **آراء المستشرقين:**

كان المستشرق **الألمانى، البارون فون شاك VonSchack** أول من تحدث فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى كتابه: **شعر العرب وفنهم فى إسبانيا وصقلية Poesie und Kunst der Araber in Spanien und sicilien** وصدرت الطبعة الأولى منه فى برلين عام

١٨٦٥م، عن المرأة الأندلسية، وجاء حديثة عنها كمقدمة للفصل الرابع من الكتاب، ووقفه على دراسة شعر الغزل فى الأندلس، وانتهى فيها إلى «أن وضع المرأة فى إسبانيا كان أكثر تحررا عما كان عليه فى بقية الشعوب الإسلامية الأخرى، فأسهمت بجهدها فى كل ألوان الثقافة المعروفة على أيامها، وليس بقليل عدد أولئك اللائى بلغن شهرة واسعة لدورهن فى مجال العلم، أو مزاحمتهن الرجال فى قرض الشعر. وفى ظل هذه الحضارة الراقية بلغن فى إسبانيا احترامًا لم تعرفه المرأة أبدا فى المشرق الإسلامى. فعلى حين أن الحب هناك، باستثناء حالات نادرة، ينهض على الشهوة، كان هنا ينطلق من تعاطف روحى عميق، وعلاقة نبيلة بين المرأة والرجل، وكثيرا ما كانت عبقرية المرأة وثقافتها أشد جاذبية للعاشقين من جمال جسمها وسحر مفاتنها، وعادة يكون الميل المشترك إلى الشعر أو الموسيقى الخيط الرفيع الذى يربط بين قلبين عاشقين»[1].

ثم جاء **المستشرق الإسبانى الجليل خوليان ريبيرا** (١٨٥٨ - ١٩٣٤م) فعرض لجانب من قضية المرأة، فى بحثه الذى القاه فى المجمع الملكى الإسبانى عند اختياره عضوا فيه ١٩١٢م، وكان عن **ديوان ابن قزمان**: ولم تكن المرأة موضع دراسته بدءا، وإنما عرض لها عند حديثه عن اللغة التى كان يتكلمها سكان الأندلس، وهو أول من اكتشف بين الباحثين المحدثين أن الأندلسيين كانوا يتكلمون لغتين عاميتين مختلفتين معا، العربية والرومانثية، وإذا نحينا المبالغات التى شابت بحثه، وكان فيه رائدا، وتحكمه حماسة مخلصة وصادقة، فإن النتائج التى انتهى إليها كانت فتحًا جديدا فى عالم الأندلسيات.

لقد جاء العرب أو البربر جنودا فاتحين، أو أفرادا مهاجرين، وتزوجوا فى الأندلس من نسائها، جوارى أو حرائر، وفى كل الأحوال كنّ ينحدرن، فى الأعم الأغلب، من أصول إسبانية، ونشأ أولادهم هجناء فى بيت مختلط، يعيشون طفولتهم على الأقل فى مناخ إسبانى. ويمضى ريبيرا بعيدا مع فكرته لينتهى بها إلى أن العرب القادمين إلى الأندلس فقدوا خصائصهم السلالية كجنس سامى ابتداء من الجيل الثالث، واتخذ من الأمويين أمراء الأندلس وخلفائه مادة لتحليله ومثلا.

---

(١) ترجمت الجزء الخاص بالفن، ونشرته دار المعارف، بعنوان: الفن العربى فى إسبانيا وصقلية، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٨٥. ونشرت الجزء الأول بعنوان الشعر العربى فى إسبانيا وصقلية، ١٩٩١.

«لا أحد يشك، فيما يقول، أن الأسرة الأموية التى استولت على الإمارة فى إسبانيا تنتسب إلى أعرق الأصول العربية، وإذا حاول متخصص فى علم الأنساب أن يقيم نسبًا **لهشام الثانى** المؤيد فسيلتقى بقائمة طويلة من الأسماء العربية إلى أن يبلغ بها أكرم القبائل وأعرقها فى الجزيرة العربية، بل وسوف تتصل بنسب الرسول عليه السلام، **فهو هشام الثانى**، ابن **الحكم الثانى المستنصر**، ابن **عبد الرحمن الثالث الناصر**، ابن **محمد** ولم يتول الإمارة، ابن **عبد الله**، ابن **محمد الأول**، ابن **عبد الرحمن الثانى**، ابن الحكم الأول، ابن **هشام الأول** ابن **عبد الرحمن الأول الداخل**، ابن **معاوية ابن هشام** بن **عبد الملك بن مروان**، حتى نهاية السلسلة، أى أننا إذا نظرنا إلى **هشام الثانى المؤيد** من خلال نسبه الأبوى فحسب، وجدناه عربيًا خالص النسب تمامًا.

ولكن الطبيعة تسلك طريقًا آخر غير طريق الزهو الإنسانى، لأن أى وليد ليس نتاج أبيه فحسب، وإنما لأمه نصيب منه أيضًا، ونصيب أكبر بالتأكيد، إنها حملته فى بطنها تسعة أشهر وأرضعته عشرا، ولو أعددنا سلسلة النسب من جانب الأم، لخرجنا بانطباع آخر للغاية.

«نحن نعرف يقينًا أن كل الأمويين الذين تولوا الإمارة فى الأندلس ينحدرون من أمهات عشيقات أو جوار، أى من نساء لسن من أصل عربى، وطبيعى ألا تولد الجوارى من السلالة الحاكمة، وإنما بين السلالات المغلوبة، من الشعوب التى فتحها الإسلام: كان **عبد الرحمن الأول الداخل**، ابنًا لجارية بربرية، و **هشام** ابنه ولدا لجارية إسبانية، أهدتها إلى أبيه ابنة **يوسف الفهرى**، وعلى هذا النحو نلتقى بهم جميعًا.

«وإذا أردنا أن نحدد العنصر السلالى بطريقة رياضية، وأخذنا فى اعتبارنا جانب الأم، وأضفنا إليها ما يعادلها من جانب الأب، نجد أن نصف عبد الرحمن الداخل كان بربريًا والنصف الآخر عربيًا، هذا إذا افترضنا نقاء سلالته السابقة تمامًا، وبلغة الأرقام يصبح ٥٠٪ منه بربريًا.

«وابنه هشام الأول ابن جارية غير عربية، فيه ٥٠٪ من سلالة أمه، و٢٥٪ من بربرية و٢٥٪ فحسب كل ما تبقى له من العروبة.

«وإذا مضينا مع أحفاده على هذا النحو، فسنجد أن الحكم الأول ليس فيه من العروبة إلا ١٢,٥٪، وعبد الرحمن الثانى ٦,٢٥٪، ومحمد ٣,١٢٪، وأخواه المنذر وعبد الله

١,٥٦٪، ومحمد ولم يتول الإمارة ٠,٧٨٪، وعبد الرحمن الناصر ٠,٣٩٪، والحكم المستنصر ٠,١٩٪، فإذا وصلنا إلى هشام المؤيد تهبط بنا النسبة إلى ٠,٠٩٪ أى أن نسبه يحفل بالأسماء العربية، أما إذا درسنا الأمر رياضيًا فليس فيه من السلالة العربية ما يصل إلى ملليجرام واحد».

وقد تساءل **خوليان ريبيرا** عن السلالة التى ينتمى إليها الأمويون فى ضوء نظريته هذه، فدرس فى أناة وثائق بيع الرقيق، ووجد أن الغالبية العظمى بينهن من شمال إسبانيا، من غاليسية، أو جليقية فى المصادر القديمة، أو من مقاطعة **ليون**، أو من **أشتورياس**، أو من **قطلونية**، وانتهى إلى أن هؤلاء الأمويين كانوا، طبقًا لنظريته السابقة، إسبانيين دمًا، ولم لا ألم يكن عبد الرحمن الناصر أحمر الوجه، أشقر الشعر، أزرق العينين؟

وهى دراسة فيها كثير من المتعة، ومن رياضة الذهن، ولكنها تُبسِّط الأمور بأكثر مما يجب، ومما تحتمل، وتجعل من القضايا الاجتماعية المعقدة المتشابكة شيئًا ذهنيًا مجردًا، كما لو كانت لعبة شطرنج أو تمارين هندسية. من الذى قال – مثلا – إن الابن يأتى إلى الدنيا حاملا من خصائص أمه وأبيه نسبة متساوية، ٥٠٪ لكل منهما؟ ليس هناك قاعدة علمية واحدة تحكم هذه الظاهرة، فيما أُعلم، والذى أعرفه أن الطفل يأخذ من أبيه ومن أمه بنسب تتفاوت، أحيانًا، إلى حد كبير، لصالح الأب أو لصالح الأم، وأحيانا تعود به هذه الخصائص، من لون العينين، وطول القامة، وشكل الوجه، وأشياء أخرى جسمية أو نفسية، إلى أفراد سبقوا فى نسبه الأموى أو الأبوى، دون أن يكون فى أبيه أو أمه شىء مما فيه. ونعرف أن المناخ الاجتماعى بجوانبه المختلفة، والظروف الطبيعية فى مظاهرها المتعددة، تلعب دورا هامًا فى صقل هذه الخصائص وتطويرها، حتى البيولوجى منها.

نحن إذن مع **خوليان ريبيرا** فى الدور الذى لعبته المرأة الإسبانية، بوصفها هذا، فى مجال الحياة الأندلسية، وكان واضحًا ومقدرا، لكننا لانتابعه فى لعبة الأرقام التى اعتمد عليها، وأدارها فى مهارة، وسذاجة فى الوقت نفسه، لأن العلم والشواهد التاريخية، والظواهر النفسية والاجتماعية تقف فى الجانب المقابل منها.

أما **سانتشيث البرنس** فيصدر فى دراساته لتاريخ الأندلس، وهى كثيرة وعميقة ومتنوعة، عن روح قومى متشدد، يضل معه أحيانًا جادة الصواب، ولست أريد أن أعرض لكل ماقال، ودراساته تقوم على أن المسلمين جاءوا الأندلس خلوا من كل شىء، وأن

الذين كانوا يقيمون على بطحاء شبه الجزيرة الإيبيرية قبل مجيء المسلمين، ورآهم أرقى ثقافة وعادات وتقاليد، هم الذين أعطوا الصورة الوضيئة لحضارتها المزهرة والراقية، ويحسبى أن أشير إلى كتاب محدود الحجم بين دراساته، نافع ومفيد، وزحمه بمصادر لا حد لها تتجاوز مادة الكتاب نفسها، عن «إسلام إسبانيا والغرب» El Islam de Espana y el Oecidente ونشره تحت صور مختلفة، وآخر طبعة له فيها أعلم صدرت فى مدريد عام ١٩٧٤ ، فى السلسلة الثقافية الشهيرة: «مجموعة أوسترال»، التى تصدرها دار «إسباسا كالبى»، وكان قبلها محظوراعلى الناشرين فى إسبانيا، أن يطبعوا أو ينشروا له شيئًا، لأنه جمهورى، وكان رئيس حكومة الجمهوريين فى المنفى.

تدور مادة الكتاب كلها عن إسبانيا ما قبل الإسلام، وما أسهمت به إسبانيا الإسلامية فى مجال الثقافة والمعمار والموسيقى فى إنهاض أوربا والعالم المسيحى فى الغرب، ولن أقف عند هذا كله، لأنه خارج عن نطاق القضية التى أعرض لها هنا، إنما يهمنى منه إشارته إلى قضية المرأة فى الأندلس، ويعرض لها قليلا، وإشاراته إليها عابرة، ولكنه يأتى بها فى صورة قاطعة، وهنا موضع الخطورة. فهو يرى أن الأندلسيين «كانوا يتيحون للمرأة حرية فريدة فى خروجها للشارع، من الصعب ربطها بالعادات الإسلامية، والدليل عليها، أورده **ابن حزم** فى كتابه **طوق الحمامة**، وروايات تاريخية أخرى معروفة، فهم يحترمونها ويضعونها موضع التقدير، وكلاهما إرث إسبانى خالص، وقد أشار **هنرى بيريس** إلى موقف المرأة المسلمة المتميز بالنسبة للمرأة المشرقية، وبلغ الأمر **بليفى بروفنسال** أن صرح بأنهن كن فى أيامهن تلك، على نحو ما يعترف به لهن اليوم فى المغرب الأقصى، بين البيوت الإسلامية ذات الأصل الإسبانى، من حق مشاركة الرجل فى كل تصرفاته، وكما بلغ التأثير مسلمى شبه الجزيرة الإيبيرية أدرك المسلمين الإفريقيين، وعلى العكس يزيد الأمر وضوحًا ما نعرفه عن دور المرأة فى إسبانيا البدائية».

كان **المستشرق الفرنسى هنرى بيريس** أكثر تعقلا من غيره، فقد تحدث عن «المرأة والحب» فى فصل خاص من كتابه القيم: «الشعر الأندلسى فى القرن الحادى عشر: جوانبه العامة، وموضوعاته الرئيسية، وقيمته وثيقة»[1]. وحاول فيه أن يستنطق قصائد الشعراء وإشاراتهم، وانتهى إلى أن الإسلام استطاع أن يسم المجتمع الأندلسى

---

(١) ترجمته إلى اللغة العربية بعنوان: الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف، ونشرته دار المعارف بالقاهرة ١٩٩٠.

«بطابعه فى بعض مظاهره الخارجية دون أن يشكله بعمق، واستطاعت المرأة رغم كل الضواغط الدينية أن تلعب دورا رئيسيًا، أوضح مظاهره، هذا القلق الذى تثيره فى فكر الرجل». ولم تكن المرأة الأندلسية «منزوية على نحو ما كانت نظم الإسلام تريدنا أن نراه فى كل امرأة مسلمة. وثمة وقائع عديدة تؤكد ما نشعر به من خلال أحاسيس الشعراء القوية. فالرمادى يتجول فى يوم جمعة بين رياض بنى مروان فى قرطبة، ويلتقى بفتاة شابة تأخذ بمجامع قلبه فيحادثها، ولا يدعها تمضى إلا بعد أن يحصل منها على موعد بلقاء فى يوم الجمعة التالية، وكانت هذه الفتاة الشابة تسمى «خلوة» وكانت تضع خمارا على التأكيد، ولكن كيف نتصور رجلا يستطع أن يتحدث طويلا وعلانية إلى امرأة، على قارعة الطريق، دون أن يتعرض لنظرات شذرة، لو لم يكن الجنس اللطيف يتمتع بحرية حقيقية؟» ويستشهد بوقائع متعددة، فى قرطبة وغيرها، وردت فى طوق الحمامة، أو نفح الطيب، أو قلائد العقبان، وفى مصادر أخرى، دون أن يجزم برأى قاطع. ودعا إلى التفرقة بين ما هو غربى أصيل، وما هو شرقى وافد، ورد عددا من مظاهر حرية المرأة إلى المناخ المسيحى الذى تحرك عليه الإسلام فى أرض شبه الجزيرة الإيبيرية.

- **موقفنا من هذه الآراء :**

وموقفنا من مثل هذه الآراء أن إلقاء أحكام عامة، فى قضية اجتماعية كهذه بالغة التعقيد، تمس مجتمعًا متعدد السلالات والأديان والطبقات، عرضة للخطأ الجسيم، فالمرأة اليوم فى مصر وبلاد عربية أخرى تتمتع بحرية واسعة إلى حد كبير، تذهب إلى الجامعات، وإلى بلاد أجنبية لتتعلم، وتتاجر، أو للسياحة، وتلبس أحدث نماذج الأزياء، دون نظر لغير متطلبات العصر، وثمة فتيات أخريات قعيدات البيت، يؤثرن الانزواء، أو يراد لهن، يغطين الرأس، ويلبسن الساتر من الثياب، ويرين مخاطبة الرجل إثمًا، فهل يعقل أن نرسل عن الأندلس حكمًا عامًا، استنادا إلى رواية وردت فى كتاب، أو بيت من الشعر جاء فى قصيدة؟

وإذا أخذنا العربية السعودية، وأخالها من أشد البلاد العربية محافظة فى قضية المرأة، ويراها المستشرقون مثلا أبلغ لما هو أسوأ من المحافظة، وتجاوزنا السطح إلى العمق، والشكل الخارجى إلى واقع الحياة، فسنجد من الخطأ إرسال حكم عام عليها، لأن المرأة فى البادية غيرها فى الحاضرة، وهى داخل الجزيرة غيرها فى الخارج، ولقد أتيح

لى فى بعض رحلاتى إلى أوربا أن ألتقى بفتيات سعوديات، كن مثلا عاليا فى الشخصية والثقافة والأناقة والجمال، فى مستوى أرقى ما وصلت إليه المرأة فى عالمنا المتحضر.

إنما تجىء أخطاء المستشرقين من المقارنات الخاطئة، ومن دراسات تقوم فى جلها على كتب الفقه، وهى لا تقدم ما يحدث فى واقع الحياة، وإنما تعكس فى الكثير من الحالات مطامع أصحابها وعقلياتهم وانحرافهم أيضًا، ولو رجعوا إلى واقع المرأة العربية، فى حياتها اليومية، خلال عصر النهضة الإسلامية، قبل أن تزحف على الإسلام ظلامات الفكر الأوروبى الوسيط، لوجدوها تعمل إلى جانب الرجل، وموضع الرعاية والتكريم منه، وعلى مستواه من حماية القانون، وإذن فالقول برقى المرأة الأندلسية لأنها تنحدر من أصول غير عربية فيه مجافاة للواقع، وعدوان على العقل.

والذين يلمحون لأسباب دعائية غير علمية إلى أن المسيحية كانت وراء هذا القدر من الحرية، يتناسون عامدين أن إسبانيا لم تكن وحدها البلد المسيحى الذى اجتاحه الإسلام، فمثلها كان الشام والعراق ومصر وشمال أفريقية، فى جانبه الساحلى على الأقل، والذين يتشبثون بأسباب الحضارة الرومانية، ينسون أيضًا أنها كانت فى الشام والإسكندرية أوضح منها فى إسبانيا، وهذا إذا سلمنا جدلا، وهو أمر غير مسلم، بأن مستوى المرأة فى الحضارة الرومانية كان أرقى منه فى الحضارة العربية أو الإسلامية، وهو أمر ليس عليه شاهد من أحداث التاريخ.

وإذا أخذنا لذلك مثلا من مقاطعة بروفانس، فى جنوب فرنسا، على أيام ابن حزم، وستصبح أرقى بلد أوربى فى تلك الفترة، وبتأثير أندلسى ليس هنا مجال درسه، فسنجد مثلا أن «الزواج يتم بين السيدين، فى ضوء مصالحهما الإقطاعية، أكثر منه تحقيقًا لرغبة الشاب أو الفتاة، ومع الزواج يملك الزوج جسد الفتاة كله، ولم يكن فى حاجة أبدا لأن يترضاها فى شىء يملكه قانونًا، وله حق تأديبها ماديًا، يضرب بها حين لا تتقبل أوامره، أو تثيره أو تزعجه، شريطة أن يكون هذا باعتدال، وألا يؤدى إلى موتها، وكانت التقاليد قاسية جدا على المرأة فى حالة الخيانة، فالمرأة المخطئة تسجن فى الدير طوال حياتها، وإذا ضبطت متلبسة، فإن الزوج يأتى بأولادها ليشهدوا لحظة إعدامها، أما الزوج المخطىء فكان على النقيض، يخرج سالمًا من أوسع الأبواب.

«كان العصر الأوربى الوسيط، بتأثير المسيحية، عدوا لدودا للمرأة ولم يعطف عليها رجال الكنيسة ابدا، ولا تأتى فى كتاباتهم إلا مقرونة بوصف مسىء، فهى: ذكرى

مزعجة، والطريق إلى النار، وسلاح الشيطان، وحارس جهنم المتقدم، وشبح إبليس، وسهم الشيطان، وغيرها من النعوت، نجد ذلك عند سان يوحنا، وسان أنطونين، وحنا الدمشقى، والقديس جيروم، وغيرهم. وسار على طريقهم من بعدهم كل الدعاة ورجال الأخلاق، وهكذا ظلت قلوب رجال الدين طوال العصور الوسطى مغلقة فى وجه المرأة، ومغلفة بالقسوة، وكان الفرسان الحديديون، العائدون من الشرق الأوسط، بعد الحروب الصليبية، أو من الأندلس بعد غاراتهم أو رحلاتهم أو مساعدتهم لرفاقهم فى الدين هناك، أول من اعترف بها إنسانًا لطيفًا. لقد عاش هؤلاء يتغنون بالبطولة، لا يشغلون أنفسهم بغيرها، حتى ولا ما اتصل منها بالدين نفسه، وإذا لم تؤد الحروب الصليبية إلى النتائج المنتظرة من الاستيلاء على الأرض المقدسة، وامتلاك بيت المقدس فقد أدى الاصطدام بين الشرق والغرب إلى نتائج هائلة، فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى على الأقل، فترك الشرق، وكان أغنى ثروة وأرقى حضارة، تأثيرا واضحًا فى حياة الصليبيين، وسرعان ما تهذبت هذه الأعداد الكبيرة، بقدر لا يتصور، فدرجت على تذوق الترف، وتفتح عقلها وخيالها على ألوان من الحياة الراقية كانت تفتقدها تمامًا. وفى حروب دينية كهذه لم يعفّوا عن حمل الثروات والغنائم، وما أسرع ما غيروا عادتهم عندما عادوا إلى أوطانهم. وعاصر الحروبَ الصليبية نمو التجارة فى البحر الأبيض المتوسط، وفى الموانى الإيطالية بخاصة، وشهدت أيضًا ازدهار المعارض التى تحمل كل منتجات الشرق: السجاد والمرايا والتوابل والأقمشة الجميلة، وتحمل اسم دمشق موطن صنعها.

وشهدت بداية العصر الوسيط احترام المرأة فى أوربا، وارتفاع الكنيسة إلى مستوى الفرسان، وشعراء التروبادور من هؤلاء هم الذين انتقلوا بها من مخلوق لا يلعب فى الملاحم وفى الحياة دورا أكثر من عبادة الله والسيد والوطن، إلى شىء جميل يحترمونه، ويتغنون به، ويغنون له، ويعتبرون التسامى، به والتذلل له، والذوب صبابة فى حبه، خلقًا كريمًا، وعادة مرعية، وشرفًا لا يبلغه غير الفرسان.

- **المرأة فى الأندلس لحظة الفتح الإسلامى :**

كيف وجد المسلمون المرأة فى شبه جزيرة إيبيريا غداة الفتح الإسلامى؟ سؤال من الصعب الإجابة عليه، لأننا نفتقد الوثائق التى تساعدنا على تحديد موقف المرأة، والبناء الأسرى الذى كان سائدا فى المجتمع الغربى بين القرنين الثامن، وتم الفتح الإسلامى

فى بدايته، والقرن الحادى عشر وعاش فيه ابن حزم جل حياته، ومعه بدأت دول شمال الأندلس المسيحية تأخذ شكل مجتمع متميز، رغم حاجتنا الشديدة إلى هذه المعرفة، ذلك أن المرأة الأندلسية فى جمهرتها الغفيرة هى أولا وقبل كل شىء إسبانية، سواء أكانت حرة أم رقيقة، زوجة أم عشيقة، مولدة أم مستعربة، والقليل الذى وصلنا عنها ناقص ومضطرب ومتناقض.

والحضارات التى تركت فى أوربا تأثيرا واضحًا، وهى: ما قبل الرومانية والرومانية والجرمانية والمسيحية كانت توجه المجتمع الغربى نحو التضييق على المرأة، وتضع عليها قيودا لن نلتقى بها فى الحياة الأندلسية فيما بعد، وكلها تؤكد تميز الرجل، فالفتاة تخضع لأبيها، وإلى الأكثر قربًا عند غيابه، ثم لزوجها فيما بعد، وفضلا عن ذلك كانت روما تعرف وأد البنات، ويبدو أن المرأة تمتعت بين القوط، وهم الذين حكموا الأندلس لحظة الفتح الإسلامى، بقدر أكبر من الاحترام، فنعترف أن سن الرشد لها فى القرن السادس الميلادى كان مساويًا لسن الفتى، وأنها أهل لأن تتولى الوصاية على أبنائها إذا كانت أرمل، وأن تتزوج ثانية إذا أرادت، ويتوقف الزواج على موافقتها، ويصبح المهر الذى يقدمه الزوج حقًا لها، ومنذ القرن السابع نجدها فى القانون القوطى تتساوى مع الرجل فى الميراث، ومن المؤكد أن هذه الحقوق ظلت نظرية فى جانب منها، واقتصرت فى جملتها على طبقات اجتماعية معينة، وتجدر الإشارة إلى أن هذه الحقوق دون ماتتمتع به المرأة العربية والمسلمة، واقعًا ونظريًا بكثير. وينبغى ألا ننسى أن العنصر العربى على قلته، أعطى إسبانيا اللغة والعادات والنظم والدين، ونماذج الحياة المشرقية، ولون المجتمع الأندلسى بمثله، وكلها عربية، وفيما يرى أمير كو كاسترو: «التعريب اللغوى يحمل معه التشريق الخلقى والعقلى، وعلينا أن نضع فى الاعتبار دائمًا أن تطبيق لغة سامية وانتشارها، وإجلائها لهجة مشتقة من اللاتينية، لابد أن يؤدى إلى عدد من النتائج من بينها تطوير العقلية».

- **المرأة فى طوق الحمامة:**

بماذا تحدثنا نصوص **طوق الحمامة** عن المرأة؟ لقد عرض الباحثون الكتاب كثيرا بوصفه دراسة فى الحب وعن المحبين، لكن أحدا لم يقف طويلا إزاء ما يمكن أن يضيفه إلى معرفتنا بالحياة الاجتماعية فى الأندلس خلال النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى، وسندرس هنا صورة المرأة فى قرطبة من خلال الطوق لا لكى ندعم

فكرة أو نناهض أخرى وإنما لنصل إلى تصور قريب عما كان عليه حالها واقعًا فى الحياة على أيام ابن حزم.

وعندما يتحدث ابن حزم عن المرأة فى قرطبة فإنما يفعل ذلك خبيرا بهن، عالمًا بأمورهن، فهو فيما يحدث عن نفسه: «شاهدت النساء، وعلمت من أسرارهن ما لا علمه غيرى، لأنى ربيت فى حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا فى حد الشباب، وحين تفيل وجهى»، واهتم بالبحث عن أخبارهن، وأنسن منه الكتمان فكشفن له عن أسرارهن، وأطلعنه على غوامض أمورهن، وأشرف من أسبابهن على غير قليل، فشب يعرف الكثير من دخائل القصور، ومؤامرات النساء، وحيل الجوارى، وأكسبه ذلك شكًا فيهن، وسوء ظن فى جهتهن. ولكنه لم يورد لنا كل ما عرف، ولم يحدثنا بكل ماسمع، فأبقى على عورات يستعاذ بالله منها فى طى الكتمان.

وأول ما نلحظ فى حديث ابن حزم أنه يقف عند نساء الطبقة العالية، أى فتيات الأسر التى ينتمى إلى طبقاتها، وحتى الجوارى منهن يتصل حديثهن برجال هذه الطبقة، ولم يعرض لنساء مشرقيات إلا نادرا، فى مجال الموازنة أو بالدقة فى ثلاث حالات على وجه الحصر: عرض بقصة جرت فى القاهرة حين أحب العزيز الفاطمى خليفة مصر جارية شغلته عن مولد ابنه المنصور والذى سيصبح فيها بعد خليفة مصر، ودخل التاريخ تحت اسم الحاكم بأمر الله. وحكاية موجزة لقرطبى كان فى بغداد، وهام بعراقية، وتزايد عليه أسرها، وخشى الفتنة، وخرج إلى البصرة ومات بها عشقًا. والحكاية الأخيرة رواها أبو بكر محمد بن بقى الحجرى عن نفسه، فقد التقى فى بغداد بابنة وكيلة الخان الذى ينزل فيه. فأحبها وتزوجها، ولكنها فارقته لسبب لا أرى ذكره منا سبًا هنا[1].

ولم يتعرض للمرأة فى الطبقة الوسطى أو الدنيا، ولا نجد لديه ولا إشارة واحدة، حتى ولو من بعيد عن المرأة المستعربة أو اليهودية، وهو أمر طبيعى من رجل لا يكتب بحثًا، وإنما يدفع بذكرياته، وما رأى أو سمع، من خلال دراسته عن الحب، وما كان لأى من هاتين الطبقتين أن ترتفع إلى مجلس ابن حزم، خارج نطاق الدرس، ولم يجلس فيه أستاذًا إلا بعد سنوات من تأليفه «الطوق»، أو يعير أحداثها نصيبًا من اهتمامه، وبداهة

(١) انظر صفحة ١٣٨ من كتاب طوق الحمامة، بتحقيقنا، دار المعارف بالقاهرة الطبعة الرابعة ١٩٨٥.

كانت تحب وتعشق وتتحرك فى حياتها العاطفية داخل قيم، تلتقى أو تختلف مع مثل الطبقة العليا، ولكنها متأثرة على التأكيد بوضعها الاقتصادى والطبقى الذى تعيش فيه.

يهدف كتاب «طوق الحمامة» إلى **تحليل المشاعر العاطفية**، ومواقف العشاق، ويأتى الحديث عن المرأة فيه بوصفها طرفًا فى هذه القضية، وليدعم ابن حزم آراءه أورد عددا من الوقائع الغرامية حدثت فعلا، ولو أنه يصعب علينا فى أحوال كثيرة أن نحدد نوع المحبوب: أهو فتاة أم غلام، أو نعرف ظروفه الاجتماعية، وأحيانًا ترد القصص فضفاضة، يعسر علينا أن نستنتج منها شيئًا محددا ودقيقًا، ويتعمد ابن حزم ذلك، حفاظًا على أسرار الناس، واحترامًا لحياتهم الشخصية، وكثيرا ما يكنى عن الأسماء، لأنها «إما عورة لا نستجيز كشفها، وإما نحافظ فى ذلك صديقًا ودودا ورجلا جليلا»، واكتفى بأن يسمى من لا ضرر فى تسميته، ولا يلحقه والمسمى عيب فى ذكره، «إما لاشتهار لا يغنى عنه الطى وترك التبيين، وإما لرضا المخبر عنه بظهور خبره، وقلة إنكاره منه لنقله».

- **معنى «جارية» فى طوق الحمامة:**

والقصص المتصلة بالجوارى أكثر من تلك التى يرد فيها ذكر الحرائر، وكلمة «جارية» فى كتاب «الطوق» تستحق وقفة مستأنية. لقد وقف أورتيجا إى جاسيت فى مقدمته التى ترجمناها، وأوردنا نصها فيما مضى من صفحات عند كلمة «الحب»، وتساءل عما إذا كان فقه اللغة العربية قدتوصل إلى تحديد دقيق لمفهوم اللفظ عند عرب الأندلس فى القرن الحادى عشر؟. وبدورى أوجه السؤال نفسه: ترى ماهو مفهومهم، ومفهومنا، لكلمة «جارية» عند ما ترد فى نصوص «طوق الحمامة».

تجئ المرأة القرطبية محبوبة خلال «طوق الحمامة» فى ثلاثين موقفًا، وكلهن ينتمين إلى الطبقة العليا دون شك، وفى خمسة وعشرين منها نجد أنفسنا بإزاء حب المؤلف نفسه، أو حب واحد من أصدقائه، أو شخصية معروفة له، لواحدة يصفها بأنها «جارية»، وفى الحالات الخمس الباقية يشير إلى نساء حرائر صراحة، من الطبقة نفسها، على قدر كبير من الثقافة والرقى والصقل، لا يقل عما كانت عليه الجوارى، يلعبن فى الحياة العاطفية والاجتماعية دورا ملحوظًا ومتقدمًا. وفيما يتصل بالأحداث العاطفية المتصلة بالجوارى نحن بإزاء لونين منهن: حالات ينص فيها ابن حزم صراحة على

أنهن جوارى تجرى عليهن أحوال البيع والشراء، أو يدعنا نفهم ذلك يقينا، وفى حالات أخرى صمت وتركنا فى حيرة، ولو أن جو الأحداث يجعل من المؤكد أن «الجارية» فى مثل هذه الروايات فتاة حرة، وأن اللفظ يجئ صفة لها، إيماء إلى ماهي عليه من ثقافة وصبى وجمال وأحيانًا تأتى فى سياق من المستحيل معه أن تكون أمة رقيقة. والكثرة الغالبة من المستشرقين أقامت دراستها على لفظ «جارية» يعنى دائمًا أنها رقيقة مشتراة، والقلة تجاوزت اللون الأخير، الذى عرضنا له، دون أن تتوقف عنده أو تبنى عليه حكمًا.

إزاء هذا الواقع بدا من المفيد أن نحدد أولا معنى كلمة **جارية**. إذا عدنا إلى المعاجم العربية، وهى بداية طريقنا لتحديد المحتوى، وجدنا أنها تعنى فى القاموس المحيط للفيروز ابادى: «فتية النساء» وفى ديوان الأدب للفارابى: «التى نهد ثديها»، وتوسع المصباح المنير للفيومى، وتميز من بين كل المعاجم بأنه يشير إلى الدلالات الفقهية للألفاظ، فذكر أنها «الشابة لخفتها، والجارية السفينة، سميت بذلك لجريانها فى البحر، ومنه قيل للأمة جارية، على التشبيه، لجريانها مستسخرة فى أشغال مواليها، ثم توسعوا حتى سموا كل أمة جارية، وإن كانت عجوزا لا تقدر على السعى، تسمية بما كانت عليه». فأنت ترى أن كلمة جارية يراد بها لغة فى الأصل: «الفتاة الكاعب الشابة»، وأضيف أنا، أنها كانت تطلق فى قرطبة على الفتيات والشابات من الحرائر أيضًا، ممن يجمعن هذه الصفات، وصفات أخرى ارتبطت بالجوارى فى تلك الأيام، من التربية العالية، والثقافة الواسعة، والعواطف الدافئة، والتمكن من الموسيقى، عزفًا وتذوقًا، ومعرفة الغناء، وحفظ الشعر، وألوان من الجمال الحسى، كبياض البشرة، وشقرة الشعر، وزرقة العينين، مما حدثنا عنه ابن حزم نفسه، وسنعرض له فيما بعد.

إذن ليست كل جارية «رقيقة» فى كتاب الطوق، وتجاهل هذه الحقيقة أدى إلى أخطاء فادحة فى تقييم وضع المرأة الأندلسية ودورها، وغراميات ابن حزم الثلاثة، التى تحدث عنها فى الطوق، تدور حول جوار. فى إحداها يقول: «أحببت فى صباى جارية..» ثم يضيف: إنها نشأت فى دارهم، ولكننا سوف نجد فى منتصف الطريق من القصة أنها لم تنتقل معهم حين تركت أسرته منية المغيرة إلى مساكنهم القديمة فى بلاط مغيث، لأسباب لم يفصح عنها، واكتفى بقوله: «ولم تنتقل بانتقالنا لأمور أوجبت ذلك».

أما فى القصة الثانية فيقول: «كنت أشد الناس كلفًا وأعظمهم حبًا بجارية لى، كانت فيما خلا اسمها نُعم..». ونلحظ هنا أنه أضاف الجارية لنفسه، وأعطانا اسمها، وتركنا نفهم فى لباقة أنه بلغ بحبه لها غايته، فعرف الحياة معها لأول مرة، وأصبحت هى على يده امرأة، وكانت المودة بينهما متكافئة، وأن الموت اخترمها منه فتية، كان حين ماتت فى سن العشرين، وكانت هى دونه، وأقام بعد وفاتها سبعة أشهر حزينًا عليها: «لا يتجرد عن ثيابه»[1]، وأنه بكاها طويلا، على شحيح دمعه، وجمود عينه.

وأما القصة الثالثة: فجرت فى بيت امرأة من معارفه مشهورة بالصلاح والتقوى، ومعها جارية من بعض قراباتها، ومن اللائى قد ضمها معه النشأة فى الصبا، ثم غاب عنها أعوامًا، تركها حين أعصرت، وعاد فوجدها جرى على وجهها ماء الشباب ففاض وانساب، وتفجرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحيرت، وطلعت فى وجهها نجوم الحسن فأشرقت وتوقدت، وانبعثت فى خديها أزاهير الجمال فتمت واعتمت، وكانت من أهل بيت صباحة، وظهرت على صورة تعجز الوصاف، وطبق وصف شبابها قرطبة. وبات عند المرأة التى يعرفها ثلاث ليال متوالية، ولم تحجب عنه الجارية، على جارى العادة فى التربية، وكاد قلبه أن يصبو، ويثوب إليه مرفوض الهوى، ويعاوده منسى الغزل، وامتنع بعد لك من دخول هذه الدار خوفًا على لبه أن يزدهيه الإحسان، رغم أنها وجميع أهلها ممن لا تتعدى الأطماع إليهن، ولكن الشيطان غير مأمون الغوائل.

فابن حزم، كما ترى، يستخدم فى مغامراته الثلاث لفظًا واحدًا، مع ذلك فأنت لا تشك أنك فى المغامرة الثانية أمام جارية أمة، أحبها وتركت فى إعماقه ذكرى آسية، ولكنها ذكرى موصول استمتع، حزين على ماضاع منه. على حين يتحدث فى الثالثة عن فتاة حرة يقينا، تنادى جارية دلالا، لأن الجارية لا تحجب، وهى موضع الطمع، وليست لها عائلة تنسب فيها وإنما لها سادة يتصرفون فى شأنها، وفتاته هنا على النقيض من ذلك كله، من بيت كريم ولها أهل، وليست مطمعًا لأحد، فاختصر الطريق وأمسك بنفسه عن الزلل، وامتنع من التردد على بيتهم. ويرجح بك الظن فى الأولى رجحانًا

---

(١) التعبير لابن حزم، ومعناه فى لغة العواطف الخاصة غيرما يفهم من ظاهره تماما، إنه يعنى ان ابن حزم لم يمارس الحب طوال هذه الشهور السبعة، على نحو حلال طبعا، مع زوجة له، أو جارية ملكتها يمينه، وليس المراد منه، كما يفهم من حرفيته، أنه لم يغير ثيابه طوال هذه المدة. والتعبير يستخدم حتى الان بين عدد كبير من القبائل العربية المقيمة فى أعلى صعيد مصر، وبعضها قدم من المغرب.

لا يبلغ حد اليقين، أن الجارية فيها حرة وليست من الإماء، وبقى على الرغبة فيها عامين كاملين، ولو كانت من الجوارى حقا، تباع وتشترى، لاشتراها لنفسه، أو لاشتراها له أبوه، أو لأفصح عن رغبته هذه على الأقل، ولقد عرض أكثر من مرة لبيع وشراء الجوارى العاشقات أو المعشوقات.

وقد تتبعت استخدام اللفظ. فى وقتنا الحاضر، فى بعض مناطق من العالم العربى، فوجدت القبائل العربية التى استقرت فى أعلى الصعيد من جنوب مصر، قادمة من المغرب فى القرن الحادى عشر الميلادى، وما تلاه، والأندلسيين الذين استقروا فى الجزائر أو المغرب أو تونس، بعد طردهم من وطنهم عام ١٦١٣ ، مازالوا يستخدمون الكلمة فى حياتهم الأسرية، ينادى بها الرجل زوجه تدليلا لها وتوددا إليها: ياجارية.

وتحدث ابن حزم أيضا عن فتيات حرائر، يذكرهن بأسمائهن حين لا يسىء ذلك إليهن، ولا يمس القاعدة التى اختطها لنفسه فى أول «الطوق»، وأشرنا إليها من قريب، وكلهن ينتسبن فى الطبقة العالية التى ينتمى إليها، ونعرف من روايته أنهن لسن دون الجوارى ثقافة وتمكنا من المعارف العامة وإجادة الفنون الجميلة وإقبالا عليها، فهو يحدثنا عن ضنا العامرية، كريمة المظفر عبد الملك بن أبى عامر، الذى تولى الحجابة بعد أبيه، وكان يقرب منه هيبة ونفوذا وإن قصرت أيامه، ونعرف أنها تعزف الموسيقى، وتصنع الألحان لنفسها وتطلب من ابن حزم أن ينظم لها شعرا تلحنه، وتتغنى فيه.

وعرض **ابن حزم** مرة واحدة لحالة فى أسرتهم، وذكرها بالاسم، حين حدثنا عن الحب العنيف المتبادل بين أخيه **أبى بكر** وزوجه **عاتكة بنت قند**، وكانت فيما يقول: لا مرمى وراءها فى جمالها، وكرم أخلاقها، وكان أبوها قائد الثغر الأعلى على أيام **المنصور بن أبى عامر**، قد شفها حبه، وأضناها الوجد فيه، وأنحلها شدة كلفها به، وكانا فى حد الصبا وتمكن سلطانه، لا يلهيها من الدنيا شىء، ولا تسر من أموالها على عرضها وتكاثرها بقليل ولا كثير، إذا فاتها اتفاقه معها، وسلامته لها. فلما توفى فى الطاعون الذى اجتاح قرطبة عام ٤٠١هـ - ١٠١١م، وهو ابن اثنين وعشرين سنة، لفها السقم والمرض والذبول إلى أن ماتت بعده بعام. ولم يكن له قبلها ولا معها امرأة غيرها، وهى كذلك لم يكن لها غيره.

- **المرأة والحب :**

وتستطيع المرأة فى المجتمع القرطبى إذا فاضت مشاعرها أن تعشق، وأن تعبر عن عشقها، وأن تأخذ زمام المبادرة، وأورد لنا **ابن حزم** مثالين لهذا، فتاتين حرتين، وكليهما من طبقته على جارى عادته، ذكر اسم الأولى ومن أحبته، لأن غرامها انتهى بالزواج، وفارق الزوج والزوجة هذه الدنيا فى زمن متقارب، قبل أن يحرر كتابه بسنوات، فلم يجد فى ذكر الأسماء حرجًا، وهى **عاتكة بنت قند** وأخوه **أبو بكر**، على نحو ما ذكرنا من قريب. أما المثال الثانى فعن فتاة من «ذوات المناصب والجمال والشرف من بنات القواد»، وأطلق عليها لفظ «جارية»، رغم أنها حرة أكيدًا، لأن صاحبتها كانت فيما يبدو على قيد الحياة، وهو يكتب «طوق الحمامة»، فلم يرد أن يكشف حالها، ولأن الشاب الذى عشقته كان أكثر من صديق ودود لابن حزم، فهو يصفه بأنه: «من إخوانى جدا»، وكان الفتى من ابناء الكتاب، وبلغ بها حبه مبلغ هيجان المرار الأسود، وكادت تختلط، واشتهر الأمر وشاع جدا، حتى علمه الأباعد، إلى أن تدوركت بالعلاج.

وكان الذين يجمعون إلى المركز الاجتماعى المرموق، صباحة الوجه، ورجاحة العقل، واكتمال الصورة، وارتقاء السلوك، يصبحون مهبط الأطماع، وقبلة الفتيات، ويحدثنا ابن حزم أن **أبا عامر، ابن المظفر عبد الملك الحاجب** الثانى للعامريين، وحفيد المنصور بن أبى عامر، كان جارا لهم، وبيته ملاصق لبيتهم، حين كان آل حزم يسكنون منية المغيرة فى الجانب الشرقى من قرطبة، ويصفه بأنه «من أهل الأدب والحذق والذكاء والنبل والحلاوة والتوقد، مع الشرف العظيم، والمنصب الفخيم، والجاه العريض»، وحسن الوجه، إذا سار إلى بيتهم تخطفته عيون الفتيات، وتزاحمن على رؤياه، ومات كثيرات من محبته، لأنهن علقن أوهامهن به، وخانهن ما أملنه فيه، ويقدم لنا ابن حزم واحدة منهن، جارية تسمى عفراء، عرفها وعهدها لا تتستر بمحبته حيث جلست، ولا تجف دموعها، ويضيف أن أبا عامر أخبره بأنه «يمل اسمها فضلا عن غير ذلك».

ويقص حديث امرأة سرية النشأة، عالية المنصب، غليظة الحجاب، رأت فتى من أبناء الكتاب عابرا قرب منزلها، فعلقته وعلقها، وتهاديا المراسلة زمانًا على أرق من حد السيف، ويتركنا ابن حزم عند هذا القدر من القصة لا يزيد شيئًا، لأن بطليها معاصرين له، والمعاصرة حجاب، ويعتذر لنفسه: «لم أقصد فى رسالتى هذه كشف الحيل وذكر المكائد» ويدعو الله لهما، ولجميع المسلمين، أن يسبل عليهم ستره.

كانت المرأة الأندلسية إذن تتمتع بقدر من الحرية لا بأس به، إذا قيس الأمر بأحوال تلك الأيام، وهي حرية تتحرك في نطاق تقاليد العصر نفسه، ومن الخطأ أن نوازن بينها وبين واقع المرأة في العالم المتحضر على أيامنا، مثلا لم يكن طابع الحياة الاجتماعية يسمح بالاختلاط في دائرة واسعة على النحو المعهود بيننا، ولكن الرجال والنساء كانوا يلتقون في ساحة الدرس، وفي السمر العائلي، وفي الحفلات الاجتماعية، وأعجبني ابن حزم حين رد حجب الفتيات عن الفتيان الأجانب عن الأسرة في البيوت إلى جاري العادة وحدها فهو يقول عن الفتاة الجميلة التي التقى بها عند سيدة من معارفه بأنها: «لم تحجب عني على جاري العادة في التربية». والعادة تختلف من طبقة إلى أخرى، وتتمايز بين جماعة وجماعة، وتتفاوت من جيل إلى جيل، وهو نفسه يحدثنا عن جارية اشتد وجدها بفتى من أبناء الرؤساء، عفيف ومتصاون وبعيد عن المعاصي، ولا علم عنده، وكثر غمها، وطال أسفها، وضنيت بحبه، وهو بغرارة الصبا لا يشعر، ويمنعها الحياء من إبداء رأيها إليه، وكانا إلفين في النشأة، فلما تمادى الأمر شكت ذلك إلى امرأة صائبة الرأي، كانت تثق بها لأنها قامت على تربيتها فنصحتها بأن تعرض له بالشعر، ففعلت المرة بعد المرة وهو لا يأبه بها، إلى أن عيل صبرها، وضاق صدرها، ولم تمسك نفسها في قعدة كانت لها معه، في بعض الليالي منفردين، فلما حان قيامها عنه، بدرت إليه فقبلته في فمه، ثم ولت ولم تكلمه، تتهادى في مشيها، فبهت وسقط في يده، وفت في عضده، وكان هذا بدء الحب بينهما دهرًا، إلى أن جذت جملتها يد النوى.

وسيدات الطبقة التي منها ابن حزم «مقصورات» و «محجوبات» على حد تعبيره، ولكن كلمة «مقصورة، أو محجوبة»، لا تعني أنهن بمعزل عن الرجل، وأن أسوارا عالية وضيقة من الفرقة تقوم بينهما، وإنما تشير إلى مركزهن الاجتماعي من الثراء والرفاهية، فهن لا يفارقن البيوت عاملات أو ساعيات في طلب الرزق، ولهن من الخدم والأعوان ما يغنيهن عن الخروج، فهن يقضين حياتهن في البيوت – وأي بيوت – يجلسن جماعات، تأتيهن الأخبار، ويتبادلن آخر الإشاعات، ويحببن على الوصف «أقاربهن من الرجال، وحب النساء في هذا أثبت من حب الرجال»، ويقص علينا ابن حزم خبر صديق له من سروات الرجال، دهي بمحبة جارية مقصورة، وهام بها، وقطعه حبه عن كثير من مصالحه إلى أن كانت هي التي تعذله على ما ظهر منه، ومما يقوده إليه هواه، فكيف تأتي لهذه «المقصورة» أن تعذله لو لم تكن تلقاه، وتتحدث إليه؟.

يدرك ابن حزم واعيا دور الفراغ والتبطل والترف، مع القدرة، والسلامة والصحة، فى حياة المرأة، وكيف يصبح الزواج معها مطلبًا وغاية وبهجة، وإليها يرد دوران فكرها حول الجنس، وإلحاحها عليه، «وما أعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء، إلا أنهن متفرغات البال من كل شيء، إلا من الجماع ودواعيه، والغزل وأسبابه، والتآلف ووجوهه، لا شغل لهن غيره، ولا خلقن لسواه، والرجال مقتسمون فى كسب المال وصحبة السلطان، وطلب العلم، وحياطة العيال، ومكابدة الأسفار والصيد وضروب الصناعات، ومباشرة الحروب، وملاقاة الفتن، وتحمل المخاوف، وعمارة الأرض، وهكذا كله متحيف للفراغ، صارف عن طريق البطل» وهى لغته عصرية، رغم ألف عام مضت عليها، تحسب لابن حزم، وتلتقى مع أحدات نظريات علم النفس الحديث.

- **المهن التى تمارسها المرأة :**

وقدم لنا ابن حزم عرضًا، وفى إلماحات خاطفة، ألوانًا من المهن التى أسهمت فيها المرأة أو اختصت بها – ومن غير طبقته بالطبع – فهي تعمل مربية ومدرسة لابناء الطبقة العليا، وتربى هو نفسه على يدها، تعلم معها القرآن، وأجاد الخط، وتذوق الشعر، ومنهن كانت الطبيبة والحجامة والسراقة والدلالة، والماشطة والنائحة، والمغنية والكاهنة، والمعلمة والمستخفة، والصناع فى المغزل والنسيج، وما أشبه ذلك. ومن نافلة الحديث القول بأن المرأة فى الطبقة العليا كانت تحسن الموسيقى، وتعرف ألوانها المختلفة وتجيد الغناء فى ألحان تصنعها أو تصنع لها، ومن بينهن الثريات اللائى تتميز أملاكهن عن أملاك أزواجهن، ويدرنها لحسابهن، أملاك عريضة وواسعة. ومن الجوارى من كانت للبهجة والمعاشرة، فهى قارئة، تغنى وتجيد الموسيقى، وتقرض الشعر، وتنشده لغيرها إن لم تحسن نظمه، ومنهن التى ليست على من ذلك، أو حظها منه قليل، فهن للخدمة وماشق من أعمال البيت.

- **التراسل والتهادى بين العشاق :**

وكانت المرأة تتراسل مع من تحب، وتتلقى رسائله أيضًا، وقدم لنا ابن حزم ألوانًا من هذا التراسل، صوره وطرائقه وحيله، وكيف يجرى، فالرسالة تجيء فى «ألطف الأشكال، وجنسه أملح الأجناس» وهى لا تعنى أن اللقاء بين الاثنين عسير دواما، فقد تكتب لهذا السبب، أو لأنها أبلغ تعبيرًا فى بعض الأحيان، لحصر فى الإنسان أو حياء

أو هيبة، وبعض أهل المحبة ممن كان يدرى ما يقول، ويحسن الوصف، ويعبر عما فى ضميره بلسانه فى عبارة جيدة، ويجيد النظر ويدقق فى الحقائق، لا يدع المراسلة وهو ممكن الوصل، قريب الدار، أتى المزار، ويحكى أنها من وجوه اللذة. ويحمل الرسائل عادة النساء من ذوات المهن اللائى أشرت إليهن من قريب. وكان دخولهن إلى البيوت سهلا وميسورا، إلى جانب من لا يخشى خطره، ولا يلفت النظر إليه، لأنه خامل لا يؤبه به، ولا يهتدى للتحفظ منه، من الصبيان واصحاب الهيئة الرثة، أو البذاذة فى الطلعة، وممن لا يلحق الشك به لنسك يظهره، أوسن عالية قد بلغها، ويبدو أن دور النساء العجائز بين هؤلاء كان أكثر شيوعًا، ينفذن إلى الحجب المصونة، ويخترقن الأستار الكثيفة، والمقاصير المحروسة، والسدد المضبوطة، ويعرض ابن حزم أمثلة واقعة لكل هذا، ولكنه لا يذكر أسماء أصحابها، ولا يزيد الأمر توضيحًا حتى لا ينبه عليها، ويكتفى بأن يؤكد على «ذوات العكاكيز والتسابيح، والثوبين الأحمرين»، ويشير إلى أن الفتيات الشابات كن يتلقين التحذير منهن ويحدث أحيانا أن تستخدم المرأة أو الرجل حاملا للرسالة ذا قرابة من المرسل إليه، لا يضن معها عليه بهذا العون. وكان المقتدرون يستخدمون الحمام الزاجل أحيانًا.

وكان **العشاق يتبادلون الهدايا**، على قدر متساو بين المرأة والرجل، نعرف ذلك من ألوان الهدايا التى ذكرها ابن حزم، ويبدو أن الأمر كان شائعًا، فقد جاء به عالم قرطبة الكبير مؤكدا فى أسلوب القصر: «وما رأيت قط متعاشقين إلاّ وهما يتهاديان خصل الشعر مبخرة بالعنبر، مرشوشة بماء الورد، وقد جمعت فى أصلها بالمصطكى، وبالشمع الأبيض المصفى، ولفت فى تطاريف الوشى والخز، وما أشبه ذلك، لتكون تذكرة عند البين، وأما تهادى المساويك بعد مضغها، والمصطكى إثر استعمالها، فكثير بين كل متحابين حظر عليها اللقاء».

• الزواج وطرائقه :

ونعرف أن **الزواج** كان يتم فى سن مبكرة للغاية، فقد تزوج أبو بكر أخو ابن حزم فى الرابعة عشرة من عمره تقريبًا، على ما نفهم من قصة له فى الطوق، ونفترض أن زوجته كانت فى مثل هذه السن تقريبًا، إن لم تكن أصغر قليلا، فقد توفى فى الطاعون الذى اجتاح قرطبة فى يونية من عام ١٠١١م فى الثانية والعشرين من عمره، بعد زواج استمر ثمانية أعوام. والعجائز كن يلعبن دورا فى تهيئة الظروف بين الخطيبين، فالمرأة

إذا أسنت وصلحت وانقطع عندها الرجاء، انصرفت إلى العبادة، ونسكت بعمل الخير، فهى تذلل العوائق، وتحمل الرسائل، وتحفظ السر، وأحب الأعمال إليها، وأرجاها للقبول، سعيها فى تزويج يتيمة، أو إعارة ثيابها وحليها لعروس مقلة. ويؤثر أبناء الطبقة العليا أن يتزوجوا من فتيات ينتسبن فى طبقتهم نفسها، إلى جانب ما يتسرون، وتتدخل الأم إذا حاد ابنها عن هذا النهج. ويقص علينا ابن حزم أن يحيى بن محمد بن عبدة، وهو من بيت قرطبى عريق، أراد أن يتزوج من جارية كانت فى بيتهم، فباعتها أمه على غير إرادته، وذهبت إلى إنكاحه من بعض العامريات، ففقد عقله، وأصيب بالجنون.

ونعرف من «الطوق» **أن رجال الطبقة العالية يفضلون الشقروات**، وكن العنصر الغالب بين نساء الأندلس فيما يبدو، وكانت نُعم صاحبة ابن حزم التى عرضنا لها من قبل شقراء، ولم يكن يرضى بغير الشعر الذهبى بديلا حتى ولو كان على الشمس، أو على صورة الحسن نفسه، ويجد ذلك فى أصل تركيبه، ولا تواتيه نفسه على سواه، ولا يحب غيره ألبتة، وجاء فى هذا على مذهب أبيه كما يقول. وكان أمراء الأندلس وخلفاؤه مجبولين على تفضيل الشقراوات لا يختلف فى ذلك منهم مختلف، وكانوا أنفسهم شقرا نزاعًا إلى أمهاتهم، وترك ذلك الاتجاه بصماته واضحة فى شعر الغزل الأندلسى بعامة، وعند أبى عبد الملك مروان المعروف بالطليق بخاصة، وكان أشعر أهل الأندلس على زمانه، وجاء شعره الغزلى كله فى شقراوات[1].

وكانت عادة التسرى واتخاذ الجوارى إلى جانب الزوجة شائعة، **لأن ابن حزم** حين أراد أن يثنى على الحياة الزوجية لأخيه قال إنه لم يكن له قبلها ولا معها امرأة غيرها، وبالمثل يمكن القول، وهو رد فعل طبيعى، أن الرجل حين لا يقنع بزوجه، ولا يخلص لحياة أسرته، أن تمد الزوجة رغبتها إلى غيره، ويذكر ابن حزم أيضًا، فى مقام الثناء على زوجة أخيه، أنها لم يكن لها غيره. ولكن الجارية تستطيع أن تصد سيدها عن الاستمتاع بها وبخاصة إذا كانت تبيت على حب قديم، ويحدثنا **ابن حزم** عن جارية رائعة جميلة كانت فى دار **ابن الركيزة**، محمد بن أحمد بن وهب، «سبق لها مولى، وجاءته المنية، وبيعت، فأبت أن ترضى بالرجال بعده» وما جامعها رجل إلى أن لقيت الله، وكانت تحسن الغناء فأنكرت علمها به، ورضيت بالخدمة، والخروج عن جملة

(١) انظر دراسة كاملة عنه فى: غرسيه غومث، مع شعراء الأندلس والمتنبى، ترجمة د. الطاهر أحمد مكى، الطبعة الخامسة دار المعارف القاهرة ١٩٩٢ .

المتخذات للنسل واللذة والحال الحسنة وفاء منها لمن ذهب ووارته الأرض، والتأمت عليه الصفائح، ولقد رامها سيدها المذكور أن يضمها إلى فراشه مع سائر جواريه، ويخرجها مما هى فيه، فأبت، فضربها غير مرة، وأوقع بها الأدب، فصبرت على ذلك كله، وأقامت على امتناعها.

وكانت **المرأة صاحبة الرأى فى زواجها**، ويحدثنا «الطوق» عن جارية جميلة كانت **لسعيد بن منذر بن سعيد**، صاحب الصلاة فى جامع قرطبة، على أيام الحكم المستنصر، أحبها وتعلق بها وعرض عليها أن يعتقها ويتزوجها فطلبت منه ساخرة أن يتخفف من لحيته، وكانت طويلة كثة، لأنها تستبشع ضخامتها، فأعمل فيها الجلمين، على حد تعبير ابن حزم، حتى لطفت، ثم دعا بجماعة أشهدهم على عتقها، وحين خطبها لنفسه لم ترض به، وكان فى جملة من حضر أخوه حكم بن منذر، فأسر إلى واحد فى المجلس أن يعرض عليها رغبته فى خطبتها لنفسه، فرضيت به، وتزوجته فى ذلك المجلس بعينه، وكرهت قرطبة هذا الموقف من الحكم، على نسكه وورعه واجتهاده، لكن الجارية أنفذت رأيها، وما كانت لتستطيع لو لم يكن لها ذلك حقًا مقررا.

وقد حرص الجادون من الكبار والقادة على أن يقيمون دون حياتهم الخاصة أسوارًا عالية، وأستارا صفاقًا، ينأون بها عن أحاديث السمر، ويجلون أشخاصهم أن تصبح موضع القال، ولقد تغزل شاعر من قرطبة فى السيدة **صبح أم هشام المؤيد**، وكانت فى فترة من حياتها على صلة بالمنصور بن أبى عامر، ودفع بالشعر على لسان جارية تغنى به فى مجلسه، فما إن غنت به، حتى أمر بقتلها. وكانت البيت المالك ينأى بفتياته أن يصبحن حديثًا يدور على ألسنة الشعراء تغزلا وإعجابا، وحين تغزل **أحمد بن مغيث**، وينتسب فى أسرة قرطبية عريقة، بإحدى بنات الخلفاء، ولم يفصح لنا **ابن حزم** عن اسمها، كجارى عادته فى مثل هذه المواقف، قُتل وأبعدت أسرته عن المناصب العامة، وكان ذلك سببًا لهلاكهم وانقراض بيتهم.

ويقدم لنا **ابن حزم** صورة دقيقة ومفصلة **للمرأة حين ترغب**، ولها حين تكره، «ولقد رأيت امرأة كانت مودتها فى غير ذات الله عز وجل، فعهدتها أصفى من الماء، وألطف من الهواء، وأثبت من الجبال، وأقوى من الحديد، وأشد امتزاجًا من اللون فى الملون، وأنفذ استحكامًا من الأعراض فى الأجسام، وأضوأ من الشمس، وأصح من العيان، وأثقب من النجم، وأصدق من كدر القطا، وأعجب من الدهر، وأحسن من العبر

وأجمل من وجه أبى عامر، وألذ من العافية، وأحلى من المنى، وأدنى من النفس، وأقرب من النسب، وارسخ من النقش فى الحجر».

«ثم لم ألبث أن رأيت تلك المودة قد استحالت عداوة أفظع من الموت وأنفذ من السهم، وأمرض من السقم، وأوحش من زوال النعم، وأقبح من حلول النقم، وأمضى من عقم الرياح، وأضر من الحمق، وأدهى من غلبة العدو، وأشد من الأسر، واقسى من الصخر، وأبغض من كشف الأستار وأنأى من الجوزاء، وأصعب من معاناة السماء، وأكبر من رؤية المصاب، وأشنع من خرق العادات، وافظع من فجأة البلاء، وأبشع من السم الزعاف ومالا يتولد مثله عن الذخول والترات، وقتل الآباء وسبى الأمهات».

- **موقف ابن حزم من المرأة :**

وتبقى نظرة ابن حزم إلى المرأة. هل أستطيع القول أنها نظرة الكثرة الغالبة من طبقته وفى جيله؟. هممت أن أرجح ذلك لولا أن ابن حزم حرر كتابه ولما يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره، وهى سن تغلب فيها الحماسة والاندفاع والانفعال، فيجىء حصادها الفكرى متسما بالقوة والتوهج، ولكنه أقرب إلى الذاتية المنفعلة منه إلى الموضوعية المتأملة، ولعله فيما عاش من أعوام امتدت به حتى قاربت السبعين، طامن من حدته، وأعاد النظر فى أفكاره، ولو أنها فى جوهرها ظلت صحيحة وسليمة دون ما شك. وقد أنصفها فى مواطن كثيرة، فيرى أن الرجال والنساء سواء فى قمع الشهوات والميل إليها: «وما رجل عرضت له امرأة جميلة بالحب، وطال ذلك، ولم يكن ثم مانع، إلا وقع فى شرك الشيطان، واستهوته المعاصى، واستفزه الحرص، وتغوله الطمع. وما امرأة دعاها رجل بمثل هذه الحالة إلا وأمكنته، حتما مقضيا، وحكما نافذا». «وشىء أصفه لك تراه عيانا، وهو أنى ما رأيت قط امرأة فى مكان تحس أن رجلا يراها أو يسمع حسها، إلا وأحدثت حركة فاضلة كانت عنها بمعزل، وأتت بكلام زائد كانت عنه فى غنية، مخالفين لكلامها وحركتها قبل ذلك، ورأيت التهمم لمخارج لفظها، وهيئة تقلبها، لائحًا فيها، ظاهرا عليها، لاخفاء به. والرجال كذلك إذا أحسوا بالنساء».

«ولست أبعد أن يكون الصلاح فى الرجال والنساء موجودا، وأعوذ بالله أن أظن غير ذلك، وإنى رأيت الناس يغلطون فى معنى هذه الكلمة، أعنى الصلاح، غلطا بعيدا. والصحيح فى حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هى التى إذا ضبطت انضبطت،

وإذا قطعت عنها الذرائع أمسكت. والفاسدة هى التى إذا ضبطت لم تنضبط، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التى تسهل الفواحش تحيلت فى أن تتوصل إليها بضروب من الحيل. والصالح من الرجال من لا يداخل أهل الفسوق، ولا يتعرض إلى المناظر الجالبة للأهواء، ولا يرفع طرفه إلى الصورة البديعة التركيب. والفاسق من يعاشر أهل النقص، وينشر بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة، ويتصدى للمشاهد المؤذبة، ويحب الخلوات المهلكات. والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة فى الرماد، لا تحرق من جاورها إلا بأن تحرك، والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شىء». ويرى أن المعاناة اليومية إذا جارت، والخدمة إذا تجاوزت الحد، والغذاء إذا قل، تذهب بجمال المرأة وتأتى على نضارتها، «وإنما النساء رياحين متى لم تتعاهد نقصت، وبنية متى لم يهتبل بها استهدمت، ولذلك قال من قال: إن حسن الرجال أصدق صدقًا وأثبت أصلا، وأعتق جودة، لصبره على ما لقى بعضه وجوه النساء لتغيرت أشد التغير، مثل الهجير والسموم والرياح، واختلاف الهواء وعدم الكن». ولست أرى الأمر كذلك، فالحق أن الرجل والمرأة فى هذا سواء أيضا.

ولم يكن ابن حزم يرى فى سماع الغناء، ولو من امرأة، أو الموسيقا، شيئًا يكره، أو يخالف قواعد الشريعة، ما دامت المتعة تجىء من الفن وحده، دون أن تحرك المرأة كأنثى فى أعماق الرجل لذاذات الشهوة، ويقول عن نفسه: «وإنى لأذكر أنى دعيت إلى مجلس فيه بعض من تستحسن الأبصار صوته، وتألف القلوب أخلاقه، للحديث والمجالسة دون منكر ولا مكروه فسارعت إليه، وكان هذا سحرا». لقد استجاب ابن حزم للدعوة، ولكنه أمسك عن الذهاب، بعد أن صلى الصبح، وأخذ زيه، لأن فكرا طرقه، فسنحت له أبيات من الشعر، فبقى معها حتى أكملها، ثم كتبها ودفعها إلى صديق كان معه.

ولم يكن ابن حزم يحسن الظن بالمرأة كثيرا، وهى نتيجة طبيعية لما مر تحت عينه من تجارب وأحداث، حين كان صبيًا، أو فى سن فتية، فلم يستطيع لها تعليلا علميًا، ولا ردها إلى أسبابها المنطقية، ولا نسى شيئًا مما رآه بينهن، فأدى ذلك إلى غيرة شديدة طبع عليها، وسواء ظن فى جهتهن فطر عليه، وقد أشرف من أسبابهن على غير قليل.

ونلحظ فى نهاية المطاف أن ابن حزم على امتداد كتابه أمسك عن أية إشارة تتصل بحياته الأسرية، ولم يعرض لأية أحداث تتصل بعائلته، فلا نعرف شيئًا، ولو عارضا، عن

زوجه أو أمه، خارج اعترافاته الذاتية عن غرامياته، ولم ينته فى أى منها إلى زواج، وعدا حديثه عن أخيه **أبى بكر** وزوجه عاتكة. ولا نجد بين صفحات الكتاب صدى **لولادة بنت المستكفى** وعاصرت ابن حزم، وكانت حديث قرطبة ومندياتها، لأن ولادة أخذت طريقها إلى الشهرة والتحرر بعد وفاة والدها **الخليفة المستكفى** عام ١٠٢٥م، وهى على أبواب السادسة عشرة من عمرها، طرية الإرادة، غفلا من التجربة، تشق طريقها إلى المجد خائفة وجلة، وسط أحداث صاخبة، وفى عاصمة قلقة، تبيت على فتنة وتصبح فى بركان. ومع خطاها الأولى لم يكن ابن حزم فى قرطبة، كان خارجها ملاحقًا ومضطهدا ومنفيًا، وقبل هذا التاريخ لسنوات ثلاث تقريبًا كان فى **شاطبة** يحرر رسالته، ولم يكن ساعتها فى حياة ولادة مايرفعها إلى مرتبة أن تصبح واحدة من بطلات الطوق، وأن تدخله تاريخًا يروى، وحدثًا يُسجل(١)، وعرفها **ابن حزم** على التأكيد طفلة، كما عرف أباها، وكان قد ألقى به فى «المطبق» أقسى سجون قرطبة، مع ابن عمه **أبى المغيرة**، واحتفظ له **ابن حزم** بكراهية عميقة واحتقار شديد. ولا يعرض الكتاب لغير نساء الطبقة العليا من قريب أو بعيد ويجئ حديثه عن المرأة أصلا فيما يتصل بموقفها محبوبة أو عاشقة، وهو الموضوع الذى أدار عليه رسالته، ويجئ غيره قليلا وعرضا، للتأكيد أو التدليل أو التوضيح.

(١) انظر صفحة ٥٦ من هذا الكتاب.

مؤلفات فى الحب

سبقت طوق الحمامة

شغلت قضيةُ الحب العربَ علميًا مع بداية الازدهار الثقافى، فى مطلع القرن التاسع الميلادى، حين وضع كل شىء على بساط البحث، وتعرضت كل الآراء لسهام النقد، ونظر الباحثون فى كل المسلمات، وشغل العصر بألوان من الفكر والجدل، والإيمان والإنكار، على نحو لا تتسع له الحياة إلا حين ترقى، وبحسبك أن حياتنا الإسلامية الآن، بعد ألف عام كاملة من الزمان، لا تتسع لمثل هذه الألوان من الدرس ومن الخلاف.

يذكر **المسعودى** فى الجزء الثانى من كتابه **«مروج الذهب»**: «تنازع الناس فى ابتداء وقوع **الهوى** وكيفيته، وهل ذلك من نظر وسماع واختيار واضطرار، وما عاد وقوعه بعد أن لم يكن، وزواله مع كونه، وهل ذلك فعل النفس الناطقة أو الجسم وطباعه»(1).

وتضم طبعة باريس منه، فيما يذكر المستشرق **جوستاف فون جرنباوم**، حديثًا مفصلا عن مجلس فى قصر **يحيى بن خالد البرمكى**، ضم اثنى عشر مسلمًا وموبذا واحدا، قدم كل واحد منهم رأيه فى **طبيعة العشق**، فى جمل محكمة، تتفق جوهرا، وإن اختلفت شكلا وتركيبا، وجملة ما رأوا: أن الحب ثمرة المشاكلة بين المحب والمحبوب، ولا يكون إلا بازدواج النفسين، وامتزاج الشكلين، وهو دليل على تمازج الروحين. ومن اعتدال الصورة، وتكافؤ فى الطريقة، وملاءمة فى الهمة، ويتخلل فى القلب كما تتخلل قطرات المطر بين ذرات الرمل. وهو سحر أخفى وأحر من الجمر، والمحب جواد مشرق الطبيعة، فائق الشمائل، وينبعث من تجانس الأرواح نور ساطع تهتز لإشراقه طبائع الحياة، فيصير من ذلك اللمح نور خالص، لاصق بالنفس، متصل بجوهريتها، يسمى عشقًا. والعشق نار تتأجج فى القلب، يعقد اللسان، وبه يصبح المحب

---

(1) طبعة القاهرة ١٣٤٦ هـ، صفحة ٢٨٤ .

عبدا مملوكًا، ولا ينجح فيه علاج، والإفراط فيه يحطم الجسد، ويعانى المحب من اللوعة والأرق، «صومه البلوى، وإفطاره الشكوى»، وهو أشرف سبب للفناء.

وهؤلاء الرجال كما سماهم المسعودى[1]:

● **على بن الهيثم**، ولم أعثر له على ترجمة فيما بين يدى من المصادر.

● **أبو مالك الحضرمى**، وليست له أية ترجمة فيما رجعت إليه من المصادر.

● **محمد بن الهذيل العلاف**، أبو الهذيل، ولد حوالى سنة ١٣٥ هـ - ٧٥٢ م، وتوفى ٢٢٦ أو ٢٣٥ هـ - ٨٤٠ أو ٨٥٠ م، وكان مولى لقبيلة عبد القيس، وتلميذ عمرو بن عبيد، وهو مولى كذلك، وعرف بالصلاح والتقوى، واشتهر بالزهد والورع، واعتنق رأى واصل بن عطاء فى الإعتزال، وألف كتبًا كثيرة لم تصلنا. ويعد أبو الهذيل من كبار المعتزلة، وهو المؤسس الحقيقى للتأليف فى علم الكلام.

● **هشام بن الحكم الكوفى**، المتوفى نحو عام ١٩٠ هـ - ٨٠٥ م، متكلم مناظر، كان شيخ الإمامية فى وقته، ولد بالكوفة، ونشأ فى واسط، وسكن بغداد، وانقطع إلى يحيى بن خالد البرمكى، فكان القيم بمجالس كلامه ونظره، وصنف كتبًا منها: الإمامة، والقدر، والشيخ والغلام، والرد على المعتزلة فى طلحة والزبير، والرد على الزنادقة، وغيرها. وكان حاضر الجواب، سئل عن معاوية: أشهد بدرا؟ فقال: نعم، من ذاك الجانب!، ولما حدثت نكبة البرامكة استتر، وتوفى على إثرها بالكوفة، ويقال إنه عاش إلى خلافة المأمون.

● **إبراهيم بن سيار النظام**، أبو إسحاق، كان من أعظم تلاميذ محمد بن الهذيل العلاف، ترك البصرة موطن نشأته إلى بغداد بعد مدة، توفى بها فى عنفوان شبابه، بين ٢٢٠ و٢٣٠ هـ - ٨٣٥ و٨٤٥ م، ووقف حياته على مقاومة الدهرية والديصانية، أو بمعنى آخر ضد الفلسفة الهلينية، والتى أثرت على الرغم من هذا فى بناء مذهبه الدينى تأثيرا حاسمًا، ودافع عن القول «بخلق القرآن»، وحارب قول الحنفية «بالرأى والقياس»، وكان إلى جانب ذلك بارعًا فى اللغة والجدل وقول الشعر، وكان الجاحظ من أظهر طلابه ومريديه، وقد تعارفا فى البصرة فى مجلس أبى العلاف، رغم أن التلميذ كان

---

(١) فون جرنباوم، دراسات فى الأدب العربى، ص ٨٧ وما بعدها، ترجمة إحسان عباس وآخرين.

يكبر أستاذه بعشرين عاما، إلا أن الأستاذ كان يتمتع بمنزلة عالية فى علم الكلام، وبمكانه اجتماعية رفيعة.

• **على بن منصور**، ولم أعثر له على ترجمة فيما بين يدى من المصادر.

• **المعتمر بن سليمان بن طرخان**، أبو محمد، ولد سنة ١٠٠ هـ - ٧١٨ م وتوفى عام ١٨٧ هـ - ٨٠٣ م، كان وأبوه من العباد النساك، ومن حفظة الحديث فى البصرة، انتقل إليها من اليمن، وكان ثقة، حدث عنه كثيرون منهم أحمد بن حنبل، وله كتاب فى المغازى.

• **بشر بن المعتمر**، أبو سهل، المتوفى عام ٢١٠ هـ - ٨٢٥ م، ينحدر من الكوفة، ولكنه استوطن بغداد، ونظم تعاليم المعتزلة فى شعر لتشيع بين الناس، وكان من أنصار الإمام على رضى الله عنه، على النقيض من معتزلة الكوفة، فوضعه هارون الرشيد فى السجن، غير أنه عاد فاكتسب نفوذا قويًا فى عهد المأمون وانتهت إليه رآسة المعتزلة فى بغداد، وكان إلى جانب ذلك شاعرا، وله قصيدتان تعليميتان أوردهما الجاحظ فى كتابه الحيوان وشروحهما، وألف لهارون الرشيد «صحيفة» فى البلاغة أوردها الجاحظ فى كتابة «البيان والتبيين».

• **ثمامة بن أشرس النميرى**، مولى بنى نمير، كان زعيم القدرية فى زمان المأمون والمعتصم والواثق، وهو الذى دعا المأمون إلى الإعتزال، وتروى عنه قصص تشير إلى استخفافه بالدين، من ذلك أنه رأى الناس يوم جمعة يتعادون إلى المسجد الجامع لخوفهم من فوت الصلاة، فقال لرفيق له: انظر إلى هؤلاء الحمير والبقر، ثم قال: ما صنع ذاك العربى بالناس، وقُتل ثمامة فى زمن الواثق، وقيل توفى عام ٢١٣هـ - ٨٢٨م.

• **السكال**، من الإمامية، ولعله محرف عن «**السكاك**»، وهو الذى جادل جعفر بن حرب، وتوفى عام ٢٣٦هـ - ٨٥٠م، وصاحب هشام بن الحكم، ولم أجد فى كتب التراجم ما يلقى على شخصيته المزيد من الضوء.

• **الصباح بن الوليد**، من المرجئة، ولم أعثر له على ترجمة فيما بين يدى من المصادر.

• إبراهيم بن مالك، فقيه بصرى، جدل لا يعرف له مذهب، ويظن جرنباوم أنه: إبراهيم بن مالك بهبوذ البزاز، المتوفى عام ٢٦٤هـ - ٨٧٧م، ولم أجد فى كتب

الترجمات التى بين يدى ما يدعم هذا الكلام، أو ينفيه، أو يضيف إليه جديدا، يلقى على شخصية الرجل مزيدا من الضوء.

● والشخصية الأخيرة هى **الموبذ**، أى قاضى المجوس، واكتفى المسعودى بوظيفته دون أن يقدم لنا اسمه، أو من يكون.

فأنت ترى أننا أمام حشد من رجال الفكر، يمثلون مختلف جوانبه، فيهم المسلم والمجوسى، والمتكلم والفيلسوف، والأديب والفقيه، ويكاد اجتماع هؤلاء فى مجلس واحد أن يكون ضربًا من المستحيل، ولكنه دون شك يقدم لنا تصورا دقيقًا وموجزا لما كانت عليه أفكار العلماء، فى البيئات الثقافية المختلفة عن الحب ومشاكله، ونجد صداها واضحًا عند بعض الشعراء المعاصرين لهم، وبخاصة عند العباس بن الأحنف، وفى مؤلفات الدارسين من تلاميذهم، وممن جاءوا بعدهم.

● **الجاحظ والحب :**

كان **الجاحظ** (٧٦٧-٨٦٨ م)، فيما أعلم، أول مؤلف عربى كتب فى الحب الإنسانى، وقد عاصر بعض من ذكرنا فى الفترة السابقة، وتتلمذ على البعض الآخر، وجاء حديثه عنه مختلفًا عن الجميع، مستمدا من منهجه فى الكتابة، فهو يجمع بين التسلية والمسامرة، والإفادة والتعليم. ولقد عرض له فى موضعين، أولهما فى كتابه **«الحيوان»**، حيث أفاض القول عن الجانب العملى منه، ما يحسن ويسعد ويجمل، وما يكون فى صالح طرف دون الآخر، فيؤدى إلى الملل والنفور والتعاسة. ووازن بين ألوان ممارسته عند الشعوب المختلفة، وبين المخلوقات غير الإنسانية، وخلال ذلك كله يلقى بتجاربه وملاحظاته، وهى مفيدة ومتقدمة، وتقع من العلم الحديث موقع الرضى، ويتحدث عنها صريحًا، لا يتحرج ولا يوارى ولا يكنى. وكان «الحيوان» مما كتب فى أواخر حياته، فجاء حافلا بالمعارف الصادقة فى هذا الباب.

وأما الكتاب الثانى فرسالة صغيرة **«فى العشق والنساء»**، وهى فيما يبدو مقتطفات من كتاب لم يكن الجاحظ راضيًا عنه كل الرضى، أو لعله رأى فيه ما يثير مشاعر المحافظين، «وكان يحرص دوامًا على أن تكون حياته الخاصة ملكًا له، لا يجاهر بمعصية، ولا يباهى بخطيئة، يؤثر الستر، ويبتعد عن مواطن الإثارة، ولا يرى فى مداراة العامة عيبًا، ويتخذ من مرضاتها مذهبًا، ما دام ذلك لا يحمله على غير ما يرغب فيه

من الأفكار والعادات»[١] ويقول في خاتمة الرسالة، معتذرا عن الإطناب فيها: «فمنع من ذلك فرط الكبوة، وإفراط العلة، وضعف المنة، وانحلال القوة، فلما وافق هذا الكتاب منا هذه الحال، وألفى قلوبنا على هذه الأشغال، اجتنبنا أن نقصد من جميع ذلك إلى فرق ما بين الرجل والمرأة، فلما اعتزمنا على ما ابتدأنا به، وجدناه قد اشتمل على أبواب يكثر عددها، وتبعد غايتها فرأينا - والله الموفق - أن نقتصر منه على ما لا يبلغ بالمستمع إلى السآمة، وبالمألوف إلى مجاورة القدر».

واختتم الجاحظ رسالته، بما ابتدأ به ابن حزم وغيره كتبهم، معتذرًا عما فيها، «وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضيات أن تحمل أصحابها على الجد الصرف، وعلى العقل المحض، وعلى الحق المر، وعلى المعاني الصعبة، التي تستكد النفوس، وتستفرغ المجهود، وللصبر غاية، وللإحتمال نهاية، ولا بأس بأن يكون الكتاب موشحًا ببعض الهزل. على أن الكتاب إذا كثر هزله سخف، كما أنه إذا كثر جده ثقل، ولابد للكتاب من أن يكون فيه بعض ما ينشط القارئ، وينفي النعاس عن المستمع». ولم يصلنا الكتاب الأصلي فيما أعلم، ولم أجد بين درسوا الجاحظ من وقف عند المشكلة وأبدى فيها رأيًا، ويبدو لي وقع الجاحظ في الرسالة مختلفًا، غامضا ومضطربًا، ونلتقي به في السطور الأولى كمن يكمل حديثًا ليس بين أيدينا بدايته، ويرد على قوم لا نعرف دعاواهم، ونحن معه بين مترادفات لا تنتهي إلى شيء واضح ومحدد، وتدور الرسالة إجمالا حول محورين:

● **المرأة**، ويتحدث عن مكانتها، ويراها أرفع حالا من الرجل في أمور منها: «أنها التي تخطب وتراد وتعشق وتطلب، وهي التي تفدى وتحمى». و«مما يستدل به على تعظيم شأن النساء أن الرجل يستحلف بالله الذي لا شيء أعظم منه، وبالمشي إلى بيت الله، وبصدقة ماله، وعتق رقيقة، فيسهل عليه ولا يأنف منه، فإن استحلف بطلاق امرأته تربد وجهه، وطار الغضب في دماغه، ويمتنع ويعصى، ويغضب ويأبى، وإن كان المحلف سلطانًا مهيبًا، وإن لم يكن يحبها ولا يستكثر منها، وكانت قبيحة المنظر، رقيقة الحسب، خفيفة الصداق، قليلة النشب، وليس ذلك إلا لما قد عظم الله تعالى من شأن الزوجات في صدور الأزواج. «ولسنا نقول، ولا يقول أحد ممن يعقل، إن النساء فوق الرجال أو

---

(١) الدكتور الطاهر أحمد مكي، دراسة في مصادر الأدب، ص ١٧٤ الطبعة السادسة دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٥.

دونهم بطبقة أو طبقتين أو أكثر، ولكننا رأينا ناسًا يزرون عليهن أشد الزراية، ويحتقرونهن أشد الإحتقار، ويبخسونهن أكثر حقوقهن، وإن من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام إلا بأن ينكر حقوق الأمهات والأخوال».

ويقدم صورة مفصلة للمرأة المفضلة على أيامه عند عامة الناس، من البصراء بجواهر النساء، وجهابذة الأمر، فهم «يقدمون المجدولة، والمجدولة من النساء تكون فى منزلة بين السمينة والممشوقة، ولابد من جودة القد وحسن الخرط، واعتدال المنكبين، واستواء الظهر، ولابد من أن تكون كاسية العظام، بين الممتلئة والقضيفة، وإنما يريدون بقولهم مجدولة: جودة العصب، وقلة الاسترخاء، وأن تكون سليمة من الزوائد والفضول. ولذلك قالوا: خمصانة وسيفانة، وكأنها جان، وكأنها جدل عنان، وكأنها قضيب خيزران، والتثنى فى مشيها أحسن ما فيها، ولا يمكن ذلك من الضخمة والسمينة، وذات الفضول والزوائد، على أن النحافة فى المجدولة أعم، وهى بهذا المعنى أعرف.. وقد وصفوا المجدولة بالكلام المنثور فقالوا: أعلاها قضيب، وأسفلها كثيب».

● **المحور الثانى الحب**، ودوره فى حياة الناس، وما يمليه من مواقف أو يفرضه من سلوك، وثمة رجلان «لا يعشقان عشق الأعراب: أحدهما الفقير المدقع، فإن قلبه مشغول عن التوغل فيه وبلوغ أقصاه. والملك الضخم الشأن، لأن فى الرياسة الكبرى، وفى جواز الأمر والنهى، وفى ملك رقاب الأمم، ما يشغل شطر قوى العقل عن التوغل فى الحب، والاحتراق فى العشق».

ويقسم الحب إلى مراتب ثلاث: **الحب والهوى والعشق**، فالحب أصل الهوى، ومن الهوى يتفرع العشق، والعشق ما يهيم له الإنسان على وجهه أو يموت كمدا على فراشه، ويعرض لبعض العشاق والمحبين من الغضب والنفور والسلو والحنين، ومن الرغبة والعجز والحاجة إلى إشباع الغريزة، وسيطرة المرأة على الرجل، واستحواذها على جانب من فكره، على الرغم من المشاغل التى تزحم حياته، وتستغرق فكره، والسعادة التى تعقب نوال العاشق معشوقه، وهى سعادة، فيما يرى الجاحظ، لا تعدلها سعادة. ثم يقارن بين لذة الظفر بالعدو، ونيل العاشق*، فيرى الثانية أقوى أثرا، وأبلغ متعة، «فتأملنا شأن الدنيا فوجدنا أكبر نعيمها، وأكمل لذاتها، ظفر المحب بحبيبه، والعاشق بطلبه».

والرسالة قصيرة، لا تتعدى عشر صفحات فى طبعة حسن السندوبى لمجموعة «رسائل الجاحظ» (القاهرة ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م)، ويغلب على الشكل الذى جاءت

فيه الطابع الإنشائى، والملاحظات العجلة، لا يقف معها الجاحظ عند أية فكرة مستغرقًا أو معللا، ولا يلتقط لها مما حوله شاهدا، على جارى عادته، إلا فى حالة واحدة.

وقد دخلت **كتب الجاحظ الأندلس** فى زمن مبكر، فى حياة الجاحظ نفسه، فنحن نعرف أن **فرج بن سلام** لقى الجاحظ، وتوثقت الصلة بينهما، وجمعتهما صداقة وطيدة، وجاء بكتبه إلى الأندلس، ومن بينها «البيان والتبيين» أكيدا، لكن لا يمكن الجزم بأن رسالته، **«فى العشق والنساء»** كانت بينها، لأن الجاحظ فيما يبدو لم يكن راضيًا عنها، ولا حفيًا بها، وأبعد منه أن نقول أن ابن حزم عرفها، أو أفاد منها، لأن المنهج عند كليهما مختلف، والنظرة متباينة، ولا نلمح لها فى «طوق الحمامة» أثرا.

- **رسالة العشق للكندى :**

وفى الفترة نفسها عاش **أبو يوسف يعقوب**، الشهير **بالكندى** (٨٠٣-٨٧٣ م)، وتميز بين فلاسفة عصره فى الشرق بأنه من سلالة عربية أصيلة، ومن ثم أطلق عليه لقب **فيلسوف العرب**، وهو أول، وآخر، تلميذ لأرسطو عربى الأرومة فى خلافة المشرق، وكان انتقائيًا فى فلسفته، فحاول على طريقة الأفلاطونية الحديثة أن يوفق بين آراء أفلاطون وأرسطو، ويرى أن رياضيات فيثاغورس الجديدة أساس كل العلوم. وقد جمع إلى الفلسفة معرفة واسعة بالنجوم والكيمياء والنظريات البصرية، والموسيقا، وينسب إليه عدد لا يقل عن ٢٦٥ مؤلفًا بينها رسالة فى **«العشق»**، ولكنها ضاعت، شأن معظم مؤلفاته الأخرى، وقد شاعت كتبه فى الشرق والغرب، وقرأ **روجر بيكون** كتابه فى البصريات فى ترجمته اللاتينية، وباشرت تأثيرا واضحًا عليه، ولقد حفظت لنا الترجمات اللاتينية، ومن بينها ما قام به **جيرار الكريمونى**، نسبة إلى كريمونا فى إيطاليا، عددا من مؤلفات الكندى أكثر مما هو موجود فى أصولها العربية، ورغم ذلك لا يمكن الجزم بأن مؤلفاته دخلت الأندلس صريحة ظاهرة بوجه مسفر، وربما دخلت إليه كغيرها صحبة العلوم التطبيقية من فلك ورياضة وطب، أو تسربت إليه متسترة فى ثنايا الاعتزال، ولم يصلنا شىء من رسالته **فى العشق**، ولعلها استقرت مترجمة إلى اللاتينية، فى خزانة كتب مغمورة، فى جانب من أوربا، تنتظر اليد التى تزيح عنها الغبار، وأتصور أنها دراسة فلسفية تتناول الأمر من جانبه النظرى، المتصل بالأرواح وتآلفها، وليس فى «الطوق»، ولا فى حياة ابن حزم، ما يرجح أنه رأى الرسالة أو أفاد منها.

- **كتاب الزهرة لابن داود الظاهرى :**

ثم نلتقى بعد الكندى **بأبى بكر بن داود الظاهرى** (٨٦٨-٩١٠م)، فى كتابه **«الزهرة»**، ومن المؤكد أن كتبًا أخرى، غير ما ذكرت، سبقته، ضاعت ولم تصلنا، لأنه يذكر فى مقدمة كتابه: «وقد رأيت ممن ينسب نفسه إلى الأدب، ويتحقق بتأليف الكتب، قصد فى مثل هذا الكتاب إلى مقصد يبعد به عندى من الصواب، ابتدأ بذكر من عشق من المتقدمين حتى ارتقى إلى ذكر بعض الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وذكر أنهم كانوا من أتباع الهوى على حال لا يجوز أن يضاف مثلها إليهم». وهى إشارة لا يمكن أن تنصرف واقعًا إلى رسالة الجاحظ، لأنها على ما يصف أبو بكر، ولا تصورا إلى رسالة الكندى، لأن هذه فلسفية وتلك أدبية تاريخية.

يصف أصحاب التراجم أبا بكر بأنه كان عالمًا أديبا، شاعرا ظريفًا، من أذكياء زمانه، لين الجانب مصقول المواهب، وكان رفاق صباه ينادونه «عصفور الشوك» لنحافته وصفرته، وخلف والده فى رآسة المذهب الظاهرى ولما يبلغ من العمر ستة عشر عامًا، وتولى التدريس، وألف فى الفقه الظاهرى وفى الأصول. وكانت بغداد على أيامه مزدهرة الثقافة، تتدافع فيها الحركات الفكرية بكل ألوانها، ترجمة وتأليفًا وحوارا، تظلها حماية الدولة، وتغذيها حرية واسعة بلا حدود، أشبه بما كانت عليه أثينا أيام سقراط، أو الإسكندرية فى عهد البطالسة، أو فلورنسة تحت حكم آل مديتشى، بل أن بغداد وجدت فى شخص الحلاج الصوفى الشهير سقراطها أيضًا، ولعب ابن داود دورا فى محاكمته، ولكنه توفى قبل أن يشهد إعدامه فى عام ٣١٠هـ - ٩٢٢م.

كان **ابن داود** حاد العاطفة منذ صغره، ويقول عن نفسه: «ما انفككت عن هوى منذ أن دخلت الكتّاب»، وعرف بالتقوى فى الوقت نفسه، وقاسى من إلحاح الرغبة ومقتضيات العفة، ومن ثم وجد متنفسه فى البحث عن مثل أعلى فى الحب وفى الحياة، تستطيع رغباته المكبوتة أن تعبر عن نفسها من خلاله، فبدأ يؤلف كتاب الزهرة منذ حداثته، ولما يزل تلميذا يتردد على الكتّاب، وأطلع أباه على أكثره وإذا عرفنا أن الأب توفى عام ٨٨٣م، أدركنا أن ابن داود كتب الجانب الأكبر من كتابه ولما يتجاوز الستة عشر عامًا من عمره، ولو أن ذلك لا يعنى بالضرورة أن الكتاب أخذ شكله النهائى فى هذه السن، وربما كان اختيار الأشعار يعود إلى هذه الفترة أما المقدمات والأفكار وترتيب الأبواب فجاء فى مرحلة تالية. وقد شُهر فى صباه بالميل إلى محمد بن جامع .

الصيدلانى، وعمل كتاب «الزهرة» بسببه، فيما يروى الخطيب البغدادى، وإليه توجه بالحديث فى المقدمة دون أن يشير إلى اسمه، أو يومئ إلى صفات تحدده.

مهد أبو بكر لكتابه بمقدمة مسجوعة، ثم عرض لمنهجه، فذكر أنه استودعه مئة باب، ضمن كل باب مئة بيت، ذكر فى الخمسين بابا الأولى منها جهات الهوى، وأحكامه وتصاريفه وأحواله، وجعل الأبواب المنسوبة إلى الغزل أمثالا، ورتبها على ترتيب وقوعها حالا فحالا، فقدم وصف الهوى وأسبابه، وبسط ذكر الأحوال العارضة فيه بعد استحكامه، من الهجر والفراق وما توجبه غلبات التشوق والإشفاق، ثم ختمها بذكر الوفاء بعد الوفاة، بعد أن أتى على ذكر الوفاء فى الحياة، ووضع لكل باب عنوانا مسجوعًا، مثالا محكمًا، يوميء إلى محتواه، مثل: «من كثرت لحظاته دامت حسراته، العقل عند الهوى أسير والشوق عليهما أمير، من تداوى بدائه لم يصل إلى شفائه، ليس بلبيب من لم يصف ما به لطبيب، أذا صح الظفر وقعت الغير..، وعلى هذا النحو يمضى فى بقية الأبواب.

أما الخمسون بابا الأخرى فأفانين من الشعر، اقتصر فيها على قليل من كثير، وقنع من كل فن باليسير، وأشار إلى منهجه فيها عند نهاية القسم الأول، وجاءت أبوابه على النحو التالى: «ما قيل فى تعظيم الله، ما مدح به النبى وما استشهد به وأنشد بين يديه، ما قاله شعراء الإسلام فى أهل بيت النبى، مراثى الملوك والسادات وأهل الفضل والرياسة، نوح الأهل والأخوان على ما فقدوه من الشجعان، ذكر النوح على من مات من الأبناء والقرابات، ذكر من جزع فاحتاج إلى تعزية أوليائه، ومن رزق الصبر فاستغنى بحسن عزائه، ذكر التزهد فيما يفنى والترغيب فيما يبقى، ذكر أشعار الظرفاء من الملوك والخلفاء..» ويمضى المؤلف فى عناوين أبواب النصف الثانى على هذا النحو. وهذا القسم ليست له أية صلة بموضوع العشق، وإنما هى مختارات شعرية تتناول قضايا عامة، مما يدور حولها الشعر العربى عادة، وتعرض لها كتب السمر والمختارات، يعلق عليها برأى مقتضب له، أو ينقل عن غيره، ومن بين الشعراء الذين تتردد أسماؤهم كثيرا: امرؤ القيس وأمية بن أبى الصلت، والذبيانى، والقطامى، والحطيئة، وأبو تمام، والبحترى، وبشار بن برد، وجميل بن معمر، والحسن بن الضحاك، وذو الرمة، ومجنون بنى عامر. ولم يهمل الآحاد غير المشهورين من الرجال والنساء، المعاصرين له أو الذين بلغته الرواية عنهم، على غير السائد فى عصره، وبين المؤلفين على أيامه.

لقد وصف المستشرق الفرنسى **ماسنيون** فى كتابه «**محنة الحلاج**» كتاب الزهرة «بأنه كتاب رائع عن الحياة العاطفية فى تلك الأيام، ومعرض غنى بآراء المفكرين والأدباء فى بغداد، وما كان يدور بأذهانهم عن موضوع الحب»، ويمكن أن نقول: «إنه أول مجموعة من الشعر، تدور حول الحب الأفلاطونى، قيلت فى اللغة العربية فى بغداد خلال النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى».

وصل كتاب الزهرة إلى قرطبة، كأشياء كثيرة من المشرق، فى زمن مبكر، مبشرا بالحب العذرى بين الأندلسيين، وبعد ثلاثة أرباع القرن من تأليفه، أثناء **الحكم الثانى** ٩٦١ - ٩٧٦ ، **ألف ابن فرج الجيانى**، ويجب أن يكون قد مات فى السجن عام ٣٦٦هـ - ٩٧٦م، **كتاب الحدائق**، وهو مختارات من شعر الأندلسيين، نحا فيه منحى ابن داود فى كتابه الزهرة، وحاول أن يبزه، فجعل «الحدائق» فى مائتى باب، يضم كل باب مائتى بيت من الشعر، ليس منها باب تكرر اسمه لأبى بكر، ولم يورد فيه لغير أندلسى شيئًا. ويبدو أنه لم يقف بتقليده عند الشكل، وإنما تجاوزه إلى المحتوى، فقد حفظ لنا الذين نقلوا عنه قصيدة له تفيض عذوبة وتنضح عذرية:

وطائعة الوصالِ عففتُ عنها ... وما الشيطان فيها بالمطاع
بدتْ فى الليل سافرةً فباتتْ ... دياجى الليلِ سافرةَ القناع
وما من لحظةٍ إلا وفيها ... إلى فتن القلوبِ لها دواعى
فملّكتُ النهى جمحاتِ شوقى ... لأجرى فى العفاف على طباعى
وبت بها مبيت السقبِ يظمأ ... فيمنعه الكعامُ من الرضاع
كذلك الروضُ ما فيه لمثلى ... سوى نظر وشمٍّ من متاع
ولستُ من السوائم مهملاتٍ ... فأتخذ الرِّياض من المراعى

ولم يصلنا كتاب **الحدائق** لسوء الحظ، فلا نعرف عنه إلا القليل جدا الذى نقله عنه ممن جاءوا بعده، وضاعت معه ثروة هائلة من الشعر الأندلسى تبلغ أربعين ألف بيت، فى هذه الفترة المبكرة من الحياة الأدبية فى الأندلس، فلم يكن قد مضى على فتحه غير قرنين ونصف من الزمان.

أخذ كتاب الزهرة شعرا واتجاهًا جانب الحب العذرى، «وهو موقف فيما يرى غرسية غومث فى مقدمته لترجمة الطوق إلى الإسبانية، يمثل ثورة حقيقية، لا نعرف

بالدقة حجم صداها فى واقع الحياة، لكن دورها على الأقل، كان واضحًا وملموسًا. لقد كان الشعر قبله قصائد تدور حول الأغراض التقليدية المعروفة، أو مقطعات كثيرة ذات نغم فظ وشبق، مثل ما نجد فى شعر **الغزال**، شاعر إسبانى كبير من القرن التاسع الميلادى. وقد وجد هذا التجديد الثائر فى شعر الغزل أنصارا متحمسين خلال فترة الحجابة العامرية، وتبنته أخيرا أقلية من الشباب، يوجهها **ابن شهيد وابن حزم**، وجعلته بين دعامات منهجها الجمالى، ووجدت فى الأخير خير من يدافع عنها، وربما كان واحدا من قلائل حاول احتذاءها فى حياته، وأعطاها الطابع الأدبى النهائى بكتابه «**طوق الحمامة**»، ممزوجة باللطف ولون فريد من العفة، ويمكن أن ندعوها إفلاطونية، كما يقال عادة وفى تعبير شائع».

«**لقد عرف ابن حزم كتاب الزهرة لابن داود مباشرة**، وهى حقيقة لما تدرس كما يجب، ذلك أن الأديب القرطبى عرف الفكر الظاهرى فى زمن مبكر، أسبق بكثير مما يظن عادة، وقد ارتبطت نظرية الحب البغدادى المصقول، إلى حد ما، بوجود المذهب الظاهرى، غير أنه من الضرورى أن نضيف، إنه على الرغم من وجود إشارة نصّية بسيطة، ومن التوافق فى الاتجاهات العاطفية، فإن «الطوق» لا يكاد يدين «للزهرة» بشىء، أو أن شئت يدين لها بشىء محدود للغاية. لقد تغرّبت النظرية وتأسبنت، وفقدت تكلّفها الواضح، وتحذلقها الخنث، وما كان يقال فى **بغداد** نثرا رقيقًا، أو شعرا ملتقطًا، أخذ **ابن حزم** يقوله فى **شاطبة**، دافئًا وإنسانيًا، عن نفسه وعن أصدقائه فى قرطبة، وأتت العاطفة واللهفة وهما خاصيتان إسبانيتان، على أسوار التقليد التى تحول دون تدفق النبع، فارتووا من أعماقه، ولكنهم مزجوه بدمائهم. إن الزمن لم يذهب عبثًا».

إجمالا أنا مع **غرسية غومث** فيما ذهب إليه، لأن التقاء **ابن حزم** كما سنرى، مع **ابن داود** فى أكثر من فكرة لا يقلل من أصالته، لأنه تناول الأمر على نحو مختلف تمامًا، وإن اتفقا فى رأس الموضوع وعنوانه.

- **موازنة بين طوق الحمامة وكتاب الزهرة :**

أول ما نلحظ من اتفاق بينهما أن كليهما استجاب فى تأليف كتابه لعاطفة دافعة، ميل ودود عند **ابن داود** لشخص لم يصرح به، وذكر المؤرخون اسمه، «شكا إليه عدم وجود نديم يأنس به فى الخلوات، ويجد عنده العزاء عن النائبات، يورد له الأخبار ويكتم عليه الأسرار، فلما رأى ما به من غلبة الاشتياق، من ميل إلى تعرف أحوال

العشاق، عزم على أن يوجه إليه نديما يشاهد به أحوال المتقدمين، ويحضره أخبار الغائبين، ينشط بنشاطه ويمل بملاله، إن أدناه دنا، وإن أقصاه نأى». وصداقة متينة عند **ابن حزم** ربطته بشخص من **المرية** لم يصرح باسمه، ولم يحفظه لنا التاريخ لقيه فيها أيام أن هبطها لاجئًا، مهيض الجناح وحيدا، إلا من رفقة مواسية، ومالبث أن لحق بابن حزم حين ترك هذا **المرية** إلى **شاطبة**. كتب إليه أولا، ثم شخص إليه ثانية: «فإن كتابك وردنى من مدينة **المرية** إلى مسكنى بحضرة **شاطبة**، تذكر من حسن حالك ما يسرنى، وحمدت الله عز وجل عليه، واستدمته لك، واستزدته فيك، ثم لم ألبث أن أطلع على شخصك، وقصدتنى بنفسك، على بعد الشقة، وتنائى الديار، وشحط المزار، وطول المسافة، وغول الطريق، وفى دون هذا ماسلى المشتاق، ونسى الذاكر، إلا من تمسك بحبل الوفاء مثلك، ورعى سالف الأذمة، ووكيد المودات، وحق النشأة، ومحبة الصبا، وكانت مودته لله تعالى». «وكلفتنى – أعزك الله – أن أصنف لك رسالة فى صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة، لا متزيدا ولا مفننا، لكن موردا لما يحضرنى على وجهه، وبحسب وقوعه، حيث انتهى حفظى وسعة باعى فيما أذكره، فبدرت إلى مرغوبك، ولولا الإيجاب لك لما تكلفته».

وكلاهما دافع عن نفسه فى مواجهة اتهام بعض معاصريه له، أن الكتابة فى العشق أمر لا يليق بأولى الفضل، يرفع **ابن داود** فى وجه **معارضيه رأيه**: «ونحن لو شئنا أن نذكر من كتاب الله جل وعز، ومن أخبار المتقدمين من أنبيائه، وأيضًا نخبر من أوليائه، ما يسهل سبيل الهوى على من أنكرها، ويقر بها من فهم من لم ير أثرها، من حيث لا يستوجب به من عاقل أنكار، ولا يلحق بأحد من الأئمة فيه عار، لرجونا بإذن الله أن لا نقصر عن ذلك، غير أن هذا الأمر ليس من امور الديانات التى لا تثبت إلا بالاحتجاجات، وإنما هو شىء يختص به قوم برقة طباعهم، وتآلف أرواحهم، فمن كان مثلهم فهو يعذرهم، ومن خرج عن حدهم هان قوله». ويرد ابن حزم على ناقديه «وأنا أعلم أنه سينكر على بعض المتعصبين على تأليفى لمثل هذا، ويقول: إنه خالف طريقته، وتجافى عن وجهته، وما أحل لأحد أن يظن فىّ غير ما قصدته».

وفيما يتعلق بذكر أسماء العشاق، يتحرك ابن داود فى نطاق دينى خالص، فيرفض ما يلهج به الناس على أيامه من عشق الأنبياء، وأنهم كانوا من أتباع الهوى، على حال لا يجوز أن يضاف مثلها إليهم، لأن «إشاعة تلك الأخبار على العامة ونشرها بين الناس

خطأ، فإن العامة قد تفهمها على غير وجهها، وتستند إليها فى التفريط والعصيان أو تضعها موضع الإنكار، والنبيون عليهم السلام، والصالحون من أئمة أهل الإسلام، يجل مقدارهم عن أن نذكر للعوام أخبارهم، فيضعوها فى غير موضعها إن قبلوها، أو يكذبوا حاكيها إن أنكروها». ولم يكن فى حاجة لأن يوضح موقفه من غير هؤلاء، لأنه لم يعرض لأحد من معاصريه إلا ما كان قصصًا شائعًا، يتناشده السمار. ويصدر ابن حزم فى هذا الجانب من منطلق رفيع ومتحضر، يأخذ الشواهد ممن رأى وسمع وحدث له، ولكنه يلزم نفسه الكناية عن الأسماء، «فهى إما عورة لا نستجيز كشفها وإنما نحافظ فى ذلك صديقًا ودودا ورجلا جليلا. وبحسبى أن أسمى من لا ضرر فى تسميته، ولا يلحقنا والمسمى عيب فى ذكره، إما لاشتهار لا يغنى عنه الطى وترك التبيين، وإما لرضا المخبر عنه بظهور خبره، وقلة إنكار منه لنقله». ويرفض أن يقحم نفسه فى الحياة الخاصة لأمراء عصره، «وإنما هو شيء كانوا ينفردون به فى قصورهم مع عيالهم، فلا ينبغى الإخبار به عنهم»، لأن «حقوقهم على المسلمين واجبة، وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزم وإحياء الدين».

وقد يتفق العنوان عند الاثنين ويختلف المحتوى. فكلا الاثنين، ابن داود وابن حزم، خص **الرقيب** بباب خاص، ولكن شتان بين معالجة الاثنين، الأول غرق فى مختارات من الشعر بعد خمسة سطور، على حين عرض ابن حزم لأمر الرقيب فى جوانبه المختلفة، وقدم عليه شواهد من عصره، ومختارات من شعره، ولو أن حديثه أيضًا كان قصيرا نسبيًا.

والشيء نفسه يمكن أن يقال عن **الرسول**، وهو **السفير** عند ابن حزم، قدم ابن داود لهذا الباب بحكاية عن جميل، يغلب عليها طابع القصة المخترعة، دون أن يزيد شيئًا، بينما تحدث ابن حزم عن دور السفير وهيئته وصفاته، وما يجب أن يتحقق فيه من شرائط ليؤدى مهمته على أكمل الوجوه، وعدد من كانوا يقومون بهذه المهمة حرفة أو تطوعًا وكان فيه، كالعادة موفقًا يقف على أرض الواقع، ونلحظ أن ابن حزم فرّق بين الرسول، وأسماه السفير وهو من يقوم بالمهمة بنفسه شخصيًا، وبين **المراسلة** وتتم عن طريق تبادل الرسائل، مما ينبئ بأن القراءة والكتابة كانت شائعة فى الأندلس بين الرجال والنساء، وعند كل الطبقات، ويبدو أنها لم تكن فى بغداد على هذا المستوى،

لأن ابن داود لم يعرض لهذا الضرب منهـا، لا في بـاب «الرسول» ولا في بـاب آخـر مستقل بها.

وكلاهما أوقف على الوشاية بابًا مستقلا. وكسره ابن داود على ثلاثة أقسام: سعاية المتحابين إلى غيرهما، وسعاية المحب إلى محبوبه، وسعايـة المحبـوب لمحبـه، وهى قسمة تلمح فيها جانب المنطـق الشكلى، لأنهـا الصور العقلية للقضية، دون أن يعنى ذلك أن لها الطابع نفسه فى واقع الحياة. وجعل التأثر بالوشاية على ضربين، لأنه يختلف تبعًا لأحوال العشاق: «فالعشاق المتيمون لا يقبلـون قـول الوشاة بل لا يسمعونـه، لأن الثقة منهم بأحبابهم ما حية لقـول من وشى بهم». «وأما أهل الوله المتولهـون فيقبلـون ما لا يسمعون فضلا عما يسمعون». وعرض ابن حزم الوشاية فى حديث مستفيض، قسمها من حيث الغاية على ضربين: واش يريد القطع بين المتحابين أذية، وثان يسعى للقطع بينهما لينفرد بالمحبوب ويستأثر به، وألحق بهما ثالثًا يسعى بهما جميعًا. ويعرض لوسائل الواشى وألوانها تفصيلا، فى حديث طويل يتناول الكذب والنميمة ودورهما فى إفساد المجتمع بعامة، ويفرق بين التميمة والنصح تفريقًا جميلا، ويحمل عليهما بشدة، يستشهد على ما يقول بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأشعار له، وأمثلة لما يعرف مما حدث فى مجتمعه. فالبون شاسع بينهما فى هذا الباب أيضًا، ولا يدين أديب قرطبة ولا بسطر واحد مما كتب لأفكار فقيه العراق.

ويلتقيان فى موضوع الهجر، واختار له ابن داود عنوانًا مسجوعًا على عادته: «بعد القلوب على قرب المزار أشد من بعد الديار من الديار»، واختار لـه ابـن حـزم عنوانـًا موجزا، كلمة واحدة: «الهجر». وتناولهما للموضوع مختلف جدا، فابـن داود يجعـل أضرب الهجر فى قسمة عقلية أربعة: هجر مـلال، وهجـر دلال، وهجـر مكافـأة على الذنوب، وهجر يوجبه البغض المتمكن فى القلوب، على حين يلتقط ابن حزم مادته من حياة العشاق نفسها، فيجعله: هجر يوجبه تحفظ من رقيب حاضر، وهجر يوجبه التذلل، وهجر يوجبه العتاب، وهجر الملل، وهجر القلى وهجر الجفاء. وقد التقى ابن حزم مع ابن داود فى أقسامه وزاد عليها ولكنهما افترقا فيما هـو أهـم، ألقى ابـن داود بأقسامـه الأربعة ثم مضى إلى ما استعذب من شعر غيره، جريًا على عادته والتزامًا بمنهجه، أبياتًا وراء أخرى، دون تعليق منه، وفصّل ابن حزم القـول فى كـل قسم مـن هـذه الأقسام،

عوارضه ونتائجه ووقعه فى القلب، وضرب الشواهد من حياته نفسه، ومن أحداث صحبه، ووشاه بأبيات من شعره منشدا أو متذكرا.

واستشهد ابن حزم بالقرآن والحديث كثيرا: لأنه عرض للكذب والفجور والغدر والنميمة، وأدانها بشدة، وأوقف بابًا على «قبح المعصية» وآخر على «فضل التعفف» ومادة كليهما دينية، تنهض على أساس من القرآن والسنة، على حين لا تظهر فى كتاب ابن داود ولا آية قرآنية واحدة والحديث الوحيد الذى أورده: «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»، تلتقى به فى «طوق الحمامة» أيضا، وهو حديث نبوى متواتر يجرى على الألسنة دوامًا، ولا يحتاج ابن حزم لأن ينقله من كتاب «الزهرة» أو يحفظه عن طريقه.

وعلى النقيض من ذلك، تجد الفلسفة اليونانية صدى أكبر فى كتاب ابن داود، فقد كانت بغداد على أيامه موطنًا لترجمة الفكر الإغريقى إلى اللغة العربية، وتمتعت بغداد فى عصره بحرية فكرية أوسع بكثير مما تمتعت به قرطبة على أيام ابن حزم، فكانت مسرحًا لآراء متطرفة وعنيفة فى شتى المجالات، دينية وفلسفية وسياسية، ووجدت الفلسفة من الدولة رعاية وتشجيعًا، على حين سيطر المذهب المالكى على عاصمة الخلافة فى الأندلس، وأقام دون الأفكار صعابًا بليغة، ولم تصبح الفلسفة أمرا محببًا ومرغوبًا فيه ومتداولا بين عامة المفكرين، إلا فى فترات محدودة، وعلى نحو متواضع. ومن ثم تتردد فى كتاب الزهرة أسماء عدد من فلاسفة اليونان، ينقل لنا عن بطليموس رأيه فى الصداقة والعداوة، وعن جالينوس «أن المحبة قد تقع بين العاقلين من باب تشاكلهما فى العقل، ولا تقع بين الأحمقين من باب تشاكلهما فى الحمق، لأن العقل يجرى على ترتيب فيجوز أن يتفق فيه على طريق واحد، والحمق لا يجرى على ترتيب فلا يجوز أن يقع به اتفاق بين اثنين». ويحكى عن أفلاطون قوله: «ما أدرى ما الهوى، غير أنى أعلم أنه جنون إلاهى، لا مذموم ولا محمود». وأخذ على نحو جاد التفسير البالغ السخرية الذى وضعه أفلاطون على لسان أرستوفان لتفسير ظاهرة الحب. ولكن دون أن ينسبه إلى أفلاطون: «وزعم بعض المتفلسفين أن الله جل ثناؤه خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة، ثم قطعها أيضًا فجعل فى كل جسد نصفًا، وكل جسد لقى الجسد الذى فيه النصف الذى قطع من النصف الذى معه، كان بينهما عشق للمناسبة القديمة، وتتفاوت أحوال الناس فى ذلك على حسب رقة طبائعهم»، ونسب

إلى بعض المتطببين، دون أن يفصح من هم، رأيا فى «أن العشق طمع يتولد فى القلب، وتجتمع إليه مواد من الحرص، فكلما قوى ازداد صاحبه فى الاهتياج واللجاج وشدة القلق، وكثرة الشهوة..»، وأرجح أيضًا أنه ينقل هنا عن طبيب يونانى.

وكان ابن حزم أيضًا على وعى بالفلسفة اليونانية، واستخدمها على نحو أقل من **ابن داود**، وصحح له ما نقل عنها، حين أخذ رأى أفلاطون فى تفسير ظاهرة الحب، فهو يرى «أنه اتصال بين أجزاء النفس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع، لا على ما حكاه محمد بن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة: الأرواح أكر مقسومة لكن على سبيل مناسبة قواها فى مقر عالمها ومجاورتها فى هيئة تركيبها». وأورد حكاية نسبها إلى أفلاطون حين سجنه بعض الملوك ظلمًا، فلم يزل يحتج عن نفسه حتى أظهر براءته، ثم يمضى مع الحكاية إلى نهايتها، يدعم بها رأيه فى تفسير ظاهرة الحب، ولم يهتد أحد إلى مصدر هذه الفقرة التى أوردها لنا ابن حزم. ثم نقل قول **أبقراط الطبيب**: «ما أحبنى أحد إلا وقد وافقته فى بعض أخلاقه»، وهذه الفقرة أيضًا لا ترد فيما بين أيدينا من التراث اليونانى. ويستشهد **بأفليمون** صاحب الفراسة، فى أن العين باب إلى القلب، ومنافذ نحو النفس، ويجىء عنده **بطليموس** فى بيت من الشعر، مؤداه: لو عاش بطليموس لشهد بمهارته فى رصد جرى الكنس. وكان ابن حزم فى كل هذه الحالات أصيلا فى ثقافته، ولم ينقل عن ابن داود، ولا أفاد شيئًا، وارتضى أن يصحح له ما خالفه فيه.

ويمكن القول إجمالا، أن **ابن داود وابن حزم** يتفقان فى عدد من رءوس القضايا المتعلقة بالحب، ولكن النبع الذى يصدران عنه مختلف جدا، فابن داود متأثر بالصور المنطقية لكل قضية، وبما قرأ أو درس حوله، يأتى بها فى أول الباب موجزة، ثم يلحقها بما يناسبها من أشعار فى حدود المئة بيت، كما اختط لنفسه منذ البدء، وغلب الشعر على كتاب **الزهرة** وقلت الأخبار فيه، حتى ما ورد به من حكايات فإنما هى قصص لمشاهير العشاق، أخذت طابعًا شعبيًا، وخضعت لقواعد الأسطورة، وكل جماعة تلونها بما هو أقرب إلى ذوقها، فأنت معها لا تدرى أين تبدأ الحقيقة وأين ينتهى الخيال، مثل مجنون ليلى، وأخبار جميل بثينة، وكثير عزة، وعروة وعفراء، وغيرهم. أما ابن حزم فيصدر عادة عن تجربته الذاتية، أو تجارب معاصريه التى شهدها أو عرفها، وربما تجد فى «الطوق» صدى قراءات بعيدة، فى ثقافات مختلفة، ولكنها خافتة، وتأتى

ممتزجة بتربة الأندلس، ومن خلال عادات أهله وحياتهم وتقاليدهم. فكتاب ابن داود مجموعة رائعة من شعر الغزل، لا تنتمي إلى عصره وإنما تعود إلى شعراء عاشوا قبله بقرن أو قرنين من الزمان، صنفها على أبواب ارتضاها، دون أن تعكس فى شىء نبض المجتمع حيث يعيش الحب واقعًا، أما كتاب «طوق الحمامة» فلقطات واقعية لحركة مؤلفه، والذين حوله، فى مجالات العاطفة، حية ودافئة، وتنضح إنسانية فى كل جوانبها.

- **رأى أديب وشاعر فى الحب :**

وهناك آخرون عاصروا ابن داود، وبالتالى سبقوا ابن حزم، وعرضوا لموضوع الحب أيضًا، وهم: أديب، وشاعر، وجماعة. أما الأديب فهو: **محمد بن أحمد بن إسحاق الوشاء**، أبو الطيب (٨٦٠-٩٣٠م) فى كتابه «الموشى»، وشهر باسم: «الظرف والظرفاء»، ولن أقف عنده هنا، لأن المستشرق الإسبانى **غرسية غومث** عرض له فى دراسة ترجمتها، وضمنتها هذا الكتاب، وجاءت فيه تحت عنوان: «كتاب سبق طوق الحمامة، وآخر جاء بعده»، وفيها الغناء، أو إن شئت ليس عندى ما أضيفه إليها الآن.

وأما الثانى فهو الشاعر العباسى: أبو العباس **بن المعتز** (٩٠٨-٨٦١م)، وولد فى بيت ملك، وتفيأ أمجاد الخلافة، ورُبىّ فى باحة النعيم وموطن الجلالة، فنشأ نبيل النفس، دقيق الحس، قوى الشعور بالجمال، ولوعًا بالأدب والموسيقى، شغله الأدب والطرب واللعب عن دسائس القصر، ومطامع الحكم، فلما ولى **المقتدر** ابن عمه ٣٩٥هـ - ٩٠٨م، وترك تدبير الحكم وأمور السياسة لأمه ومن حولها من النساء والخصيان، التف الحانقون حول ابن المعتز فخلعوا المقتدر وبايعوه، فما تبوأ الخلافة غير يوم وليلة، لأن أعوان المقتدر لم يستسلموا، وحاربوا خصومهم وقهروهم، وأعادوا المقتدر إلى عرشه، واختفى ابن المعتز فى دار **ابن الجصاص** التاجر الجوهرى، ولكن أعوام المقتدر سرعان ما اهتدوا إليه واعتقلوه، ودفعه المقتدر إلى مؤنس الخازن فخنقه وسلمه إلى أهله ملفوفًا فى كساء.

كان **ابن المعتز** شاعرا رقيق اللفظ، سهل العبارة، بليغ الإستعارة، رائع التشبيه، بريئًا من كذب المدح وذم الهجاء، ويعكس فى شعره ما كان ينعم به من ترف العيش، ورفاهية النشأة، وتتجلى فيه معارفه الواسعة من فلك وتنجيم وفلسفة، وقد أمعن فى اتباع مذاهب القدماء فى الشعر، ولكنه تأثر بخطى أبى نواس إلى حد بعيد، وبرع فى وصف

الطبيعة، ومطاردة الصيد، ومراسلة الإخوان، وإلى جانب الشعر له مؤلفات أخرى هى: البديع، والجوارح والصيد، وأشعار الملوك، وطبقات الشعراء، والزهر والرياض، وكتبًا أخرى ضائعة. ويذكر الأستاذ **هلال ناجى**، نقلا عن الدكتور **صلاح المنجد**، أن له كتابًا **«فى العشق»**، توجد مخطوطته فى مكتبة طشقند فى الاتحاد السوفيتى، ولا أعرف مصدرًا آخر من الدارسين أو فهارس المؤلفين أو المكتبات أشار إليها، وأجهل محتواها تمامًا، وأتصور أن فيها ما يفيد البحث، ويضيف إلى سلسلة الكتب التى تدرس الحب جديدا، وتلقى أضواء كاشفة على طبقته، وعلى ما بين أيدينا من مصادر أخرى.

وفى غيبة النص لا يمكن القطع، أو حتى الترجيح، بأن **ابن حزم** قد قرأ الرسالة وتأثر بها، ولكننا نعرف على وجه اليقين أن ابن المعتز كان معروفًا فى الأندلس، ومعروفًا لابن حزم بخاصة، عرض له فى رسالته **«فضائل أهل الأندلس»**، حين وازن بينه وبين الشاعر الطليق: **«أبو عبد الملك** هذا فى بنى أمية، **كابن المعتز** فى بنى العباس، ملاحة شعر وحسن تشبيه». وكان فى تراث ابن المعتز، وفى حياته، الكثير مما يعجب به ابن حزم ويحرص عليه، وأقف بالاحتمال عند هذا القدر، إلى أن يتاح لى أن أقف على رسالة ابن المعتز **«فى العشق»** أو أقرأ عنها ما يعين على اليقين.

- **إخوان الصفا والحب:**

وأما الجماعة فإخوان الصفا، وهى مدرسة فلسفية ازدهرت فى **البصرة** قريبًا من نهاية القرن العاشر، حوالى عام ٩٧٠ م، وتميل إلى الفيثاغورية، وكان لهم فرع فى **بغداد**، ولم يكونوا جماعة فلسفية فحسب، وإنما لهم اتجاهات سياسية ودينية، ذات ميول شيعية متطرفة، ربما كانت إسماعيلية، وتشكلت من عدد من كبار العلماء والفلاسفة هالهم ضعف الخلافة، وفساد الأخلاق، وفقر الشعب، فحاولوا تجديد السياسة والأخلاق عن طريق الانفتاح الثقافى، لأن الحقيقة تتضح وتزدهر فى لقائها وصراعها مع الأفكار الأخرى، فإذا ما عزلت، أو انعزلت، تطرق إليها الوهن والعفن والفساد وكانوا يتناولون فى حرية كاملة كل القضايا الجوهرية، ويرمون إلى إسقاط الحكم القائم على أيامهم عن طريق تربية الشعب عقليًا ودينيًا، وفى هذا ما يفسر الغموض الذى أحاط بالأعضاء ونشاطهم.

كتب **إخوان الصفا** مجموعة من الرسائل مرتبة على غرار الموسوعات، وبعض المقالات مذيل بأسماء غير معروفة، وتبلغ عدتها اثنتين وخمسين رسالة، تعالج الرياضيات

والفلك والجغرافيا والموسيقى والأخلاق والفلسفة وتضم كل المعلومات والمعارف التى يتطلب عصرهم من الرجل المثقف أن يلم بها. وخصصوا للحب الرسالة السابعة والثلاثين، وهى السادسة بين مجموعة الرسائل الخاصة بالعلوم الطبيعية وعلم النفس، وفيها عرضوا للعشق ومحبة النفوس، والمرض الإلهى، وأوردوا طرفًا مما قالت الحكماء والفلاسفة فيه والأسباب الداعية إليه، والغرض الأقصى منه، ووقفوا عند الحكماء الذين ذموا العشق وذكروا مساوىء أهله وقبح أسبابه، وما زعموا من رذيلة فيه، وعند الحكماء الذين قالوا إن العشق فضيلة نفسية فمدحوه، وذكروا محاسن أهله، وزينوا أسبابه، وعند أولئك الذين لم يقفوا عند أسراره وعلله وأسبابه، وحقائقها ودقة معانيها، فزعموا أنه مرض نفسى، أو جنون إلهى، أو همسة نفس فارغة، أو فعل المتبطلين لا شاغل لهم، ولا همة عندهم. وقد ردت الرسالة على هؤلاء جميعًا.

«ولعمرى إن العشق يترك النفس فارغة من جميع الهمّ إلا همّ المعشوق، وكثرة الذكر له، والفكرة فى أمره، وهيجان الفؤاد، والوله به وبأسبابه، لكن ذلك من فعل البطالين الفرّاغ، كما زعم من لا خبرة له بالأمور الخفية، وأما الذى يدرك منها بصفاء الذهن، وجودة التمييز، وكثرة الفكر، وشدة البحث، ودقة النظر، فهم بمعزل. وذلك أن الذين زعموا أن العشق هو مرض نفسانى، أو قالوا إنه حنين إلهى، فإنما قالوا ذلك من أجل أنهم رأوا ما يعرض للعشاق من سهر الليل، ونحول الجسم، وغؤور العيون، وتواتر النبض، والأنفاس الصعداء، مثل ما يعرض للمرضى، فظنوا أنه مرض نفسانى...».

«وأما الذين زعموا أنه جنون إلهى فإنما قالوه من أجل أنهم لم يجدوا لهم دواء يعالجونه، ولا شربة يسقونها إياهم، فيبرؤون مما هم فيه من المحنة والبلوى، إلا الدعاء لله بالصلاة والصدقة والقرابين فى الهياكل ورقى الكهنة وما شاكل ذلك، كما حكى العاشق بعفراء، وهو **عروة بن حزام** قتيل الحب:

بذلتُ لعرّاف اليمامة حكمه	وعرافِ نجْدٍ إنْ هما شفيانى
فما تركا من سَلْوةٍ يعرفانها	ولا رقْيَة إلا بها رَقيانى
فقالا: شفاك الله والله ما لنا	بما ضمنت منك الضلوع يدان

وكان إخوان الصفا، فيما يبدو، يميلون فى تفسير ظاهرة العشق إلى أنه هوى غالب فى النفس، نحو طبع مشاكل فى الجسد، أو نحو صورة مماثلة فى الجنس، وربما كان

هذا التفسير دليلا تؤكده شدة الشوق إلى الاتحاد، وامتزاج الروح بالروح، كما قال ابن الرومى:

أعانقُهـــا والنفسُ بَعْدُ مشوقةٌ　　إليهـا ، وهـل بعد العناقِ تدانى
وألثم فاهـــا كىْ تـزول صبابتى　　فيزداد مـا ألقى من الهيمـــان
كأن فؤادى ليس يشـــفى غليله　　سوى أن يرى الروحَيْن يمتزجان

وأفاضت الرسالة فى تأكيد هذا الوجه، وتعرف أسبابَه منذ يبدأ: نظرة عجلة أو التفاتة سريعة إلى أن يصبح تفانيًا. وتحدثت عن الاشتياق والهيام، وأن كل محب لشىء من الأشياء مشتاق إليه، هائم به، وأنه متى وصل إليه، ونال من يهواه منه، وبلغ حاجته من الاستمتاع به، والتلذذ بقربه، فإنه لابد يومًا من أن يفارقه أو يمله أو يتغير عليه، وتذهب تلك الحلاوة،وتتلاشىتلك البشاشة، ويخمد لهيب الاشتياق، إلا المحبين لله تعالى من المؤمنين ومن عباده الصالحين. وهنا تعرض الرسالة للعشق الصوفى، والغاية من وجود العشق فى جبلة النفوس ومحبتها الأجساد، واستحسانها لها، وتفسره بأنه تنبيه النفوس من نوم الغفلة، ورقدة الجهالة، ورياضة لها، وتعريج بها، وترقية من الأمور الجسمانية المحسوسة إلى الأمور النفسية المعقولة.

وتدلل الرسالة على ما ذهبت إليه من خلال نموذج تكشف فيه عن الحنين والتذكر، وتنحسر لنا ظاهرة نفسية واضحة طالما تحدث عنها الشعراء، ووقفوا حيالهامذهولين، وشغلت حيزا واضحًا من الأدب العربى، فتشير إلى معرفة من عشق يومًا من أيام عمره لشخص من الأشخاص، ثم تسلى عنه أو فقده أو تغير عليه، ثم إنه وجده من بعد، وقد تغير عما كان عليه وعهده من الحسن والجمال، وتلك الزينة والمحاسن التى رآها على ظاهر جسمه، فإنه متى رجع عند ذلك، فنظر إلى تلك الرسوم والصور التى هى باقية فى نفسه منذ العهد القديم، وجدها بحالها تلك ولم تتغير، ولـم تتبـدل، ورآهـا برمتهـا، فتشاهد النفس فى ذاتها حينئذ من تلك المحاسن والصور والرسوم والأصباغ ما كانت من قبل تراها على غير تغير، وتجد فى جوهرها ما كانت قبل ذلك تطلبه خارجًا عنها، فعند ذلك تبين له، وعلم أن المعشوق والمحبوب بالحقيقة إنما هو تلك الرسوم والصور التى كان يراها على ذلك الشخص، وهو اليـوم يراهـا منقـوشة فى نفسه، مرسومـة فى جوهره، مصورة فى ذاته، باقية لم تتغير.

الرسالة على الرغم من صغرها تثير جوانب كثيرة من المسائل المتعلقة بالعشق، ونظرة الناس إليه، وقد حاولت تقديم الدراسة النفسية العميقة لتعليل الظاهرة من خلال الثقافة التى كان العصر يزخر بها، وقد حددت معالم كل من الاتجاهات وفق الصورة التى تراها، وفى محاولة للرد على هذه الاتجاهات حددت النظرة العملية، وأكد إخوان الصفا على الجانب الاجتماعى للحب، واهتدوا إليه من خلال استيعاب ظواهره، نفسية واجتماعية ودينية وفلسفية وحسية، وحاولوا تفسيره وربطه بالفكر الإسلامى، من خلال مذهبهم وحده، دون أن يعرضوا لرأى الآخرين فيه، من خلال كتاباتهم ومؤلفاتهم.

ومن المهم أن نشير إلى أنهم وقفوا بدراستهم عند نزعة الحب، والأسس النظرية التى تقوم عليها هذه النزعة، ولم يعرضوا للجانب الأدبى منها ومع ذلك كان لهم دورهم الواضح فى توجيه الأذهان نحو الحب العذرى، ربما من حيث لا يشاءون، فنحن نعرف أن أبا حيان التوحيدى (ت ٤١٤هـ - ١٠٢٣م) وكان تلميذا للجماعة، وإن لم يكن عضوا نشطًا فيها، يعزو التدهور فى أيامه، وما لحق الناس من غلبة الشهوات المادية على نفوسهم، إلى إنصرافهم عن مذهب البدو فى العشق، أو ما ندعوه الآن بالحب العذرى.

دخلت رسائل أخوان الصفا فى الأندلس، على يد العالم الرياضى **مسلمة المجريطى**، أبو القاسم، المتوفى عام ٣٩٧هـ - ١٠٠٧م، إثر عودته من رحلة دراسية قام بها فى المشرق، ولهذا يذكر فى بعض المخطوطات على أنه مصنفها، والحق أنه اختصرها، وتوجد مخطوطة، لمختصره فى مكتبة الإسكوريال، وكان **مسلمة معاصرًا لابن حزم**، وأورد عنه خبرا عاطفيًا برواية أبى دلف الوراق، ونعته بالفيلسوف المعروف، وما أشك فى أن **ابن حزم قرأ رسائل إخوان الصفا** التى حملها مسلمة، وأرجح أنها كانت وراء اختياره **«طوق الحمامة»** عنوانًا لكتابه. ذلك أن إخوان الصفا، فيما يرى الباحثون، أخذوا اسمهم من باب **«الحمامة المطوقة» فى كليلة ودمنة**، حيث يطلب ديشليم الملك من بيدبا الفيلسوف أن يحدثه، إن رأى، عن إخوان الصفاء كيف يبدأ تواصلهم، ويستمتع بعضهم ببعض. فليس ببعيد أن يكون ابن حزم استلهم عنوانه من هذا الباب أيضًا، متأثرًا بكليلة ودمنة مباشرة، أو عن طريق «إخوان الصفا». والباب يدور حول ما يصنعه الود فى إنقاذ من التقوا على الحب فى لحظات الحرج والضيق. وكذلك يمكن القول أن فلسفتهم أعانت ابن حزم فى تكوين نظرته الفلسفية عن ظاهرة الحب وتفسيرها، دون

أن تتجاوزها إلى تأثيراته فى الحياة، وجوانبه وظواهره، وفى أمثلته وشواهده، فقد جاءت هذه فى كتاب الطوق ذاتية مصفاة، وأندلسية خالصة.

- **رسالة ابن سينا «فى العشق»:**

ويأتى ابن سينا (٩٨٠ -١٠٣٧م) بعد هؤلاء، وقد جاء بعد ابن داود وقبل ابن حزم، وهو أشهر شخصية فى عالم الطب العربى، بعد الرازى، ويسميه العرب **الشيخ الرئيس**، وفيه تجمعت عدة علوم عربية، فكان طبيبًا وفيلسوفًا ولغويًا وشاعرا، وتبلغ جملة مؤلفاته ٩٩ كتابًا، بينها عدد من الرسائل أو الكتب الصغيرة، وكان رائدا عظيما بلغ الغاية، ولم يكن ما قدمه اللاتينيون بعده بقرنين من الزمان على أنه الفلسفة (المدرسية) إلا موجزا لما انتهى إليه فى فلسفته «ما وراء الطبيعة». وكتاباه: «**الشفاء**» و «**القانون**» يمثلان الآن ذروة الفكر فى العصر الوسيط، ويشكلان فيما يقول المستشرق الفرنسى **جاك س. ريسلر** «محاولة من أعظم المحاولات الموسوعية فى تاريخ الحضارات» ويهمنا من بين كل مؤلفاته هنا رسالته «**فى العشق**»، وهى أقل كتبه شيوعًا واعتناء من الدارسين فى العالم العربى، على حسين أنها تجد فى الغرب عناية أكبر، وقد ذهب الأب **إسكندر دينومى** أخيرا، وهو يبحث عن الأصول العربية للحب العفيف فى الغرب بعامة، وعند شعراء التروبادور بخاصة، إلى أن هذه الأصول يجب البحث عنها فى الفلسفة العربية، وبالدقة عند ابن سينا فى رسالته: «**فى العشق**»، فقد «أعطى للحب البشرى، أى لعشق القوى الحيوانية، دورا إيجابيًا، يسهم به فى توجه النفس نحو الحب الإلهى والاتحاد مع الله». أى أن ابن سينا تغلب على الهوة التى تفصل نشاط النفس الحيوانية عن نشاط النفس الناطقة فى الإنسان، وبذلك استطاع أن يصل بين طرفى الحب الطبيعى والروحى، وبذلك «أعطى للنفس دورا من المشاركة مع النفس الناطقة العاقلة فجعل حب الجمال الظاهرى، أى الحب الجنسى، عونًا فى الاقتراب من الإله، فإذا انضمت النفس الحيوانية إلى الناطقة اكتسبت من اتحادها هذا بتلك القوة السامية سموًا وشرفًا، ومن ثم تعتمد الدرجة الحقيقة فى الحب الإنسانى على مدى ما تعين به الإنسان للاتحاد بالخير المطلق. يقول ابن سينا:

«ومهما أحب الصورة المليحة باعتبار عقلى، على ما أوضحناه، عد ذلك وسيلة إلى الرفعة والتناهى فى الخيرية، لولوعه بما هو أقرب فى التأثر من المؤثر الأول والمعشوق المحض، وأشبه بالأمور العالية الشريفة».

«وواضح من هذا أن تفكير ابن سينا لا يتناول من الخصائص الأربع للحب العفيف، تناولا مباشرا، إلا القول بأنه قوى تسمو بالنفس، مع أننا لو تتبعنا فكرة «الحب من أجل الحب» وإعلاء شأن المحبوبة، لوجدناهما متوفرتين فى الأدب العربى، لا فى الفلسفة العربية، منذ قرنين أو أكثر قبل ابن سينا. أما القول بأن الحب رغبة لا يرجى لها أن تتحقق، فإنه موجود ضمنا فى الشعر وإن لم يصنعه الشعراء فكرة أو يجلعوا منه مبدأ. وهو أيضًا ينطوى فى الفكرة التى ترى أن «الرغبة» قوة دافعة لتطهير النفس وصعودها نحو الإله، تلك الفكرة التى تمثل محور فلسفة الأخلاق الأفلاطونية الحديثة، فإذا تحدث ابن سينا عن الحب الأرضى ونسب إليه أثرا خلقيًا، ولا أقول تهذيبيًا، فإنا لا نبعد عن الصواب إذا رأينا فى اتجاهه هذا توسيعًا فى فكرة اشتياق النفس للاتحاد بالله، وهذا الشوق، فى رأى أفلوطين، كامن فى النفس منذ الأزل، ويمثل حاجتها إلى أن تصعد من خلال التكيف الروحانى فى مراتب الوجود، وتنأى عن موضعها الغامض فى هذه الحياة إلى التأمل المستمر فى الواحد أو فى الوجود ذاته»[1].

وليس فى رسالة ابن سينا: فى «العشق» ما يوحى بأنه يقيم أساسًا فلسفيًا للحب العذرى وليس فيها شاهد واحد على أنه كان يوجه نظره إلى الأدب، بل إن الإحكام الدقيق فى عرض آرائه ينبىء بأنه كان يطبق مبدأه العام فى النفس وأجزائها على مشكلة أو ظاهرة بعينها، ويحاول أن يجد لها مكانها الصحيح فى نظامه الفلسفى، وهو فى كل الرسالة يعالج مبادىء عالجها على نحو أكمل فى مؤلفات أخرى. والحق أن الحب فى ذاته لا يمثل نقطة انطلاق فى تفكيره، وحين يعرض له لا يتناول صورة نزعة الحب فى الأدب، ولكن دراسته تقدم من بعض الوجوه الأسس النظرية التى تقوم عليها هذه النزعة الإنسانية.

كان ابن سينا معاصرًا لابن حزم، وأسبق منه بسنوات، وأقطع بأن العالم القرطبى لم يكن عرف رسالة ابن سينا «فى العشق» حين حرر كتابه «طوق الحمامة» حتى لو افترضنا أن ابن سينا حرر رسالته فى بدء حياته، وهو افتراض مشكوك فيه إلى حد كبير.

* * *

(١) جوستاف فون جرنباوم، دراسات فى الأدب العربى، ص ٨٣ وما بعدها ترجمة إحسان عباس وآخرين.

تلك هى الكتب التى عرضت لموضوع الحب قبل ابن حزم، لا يعرض الأديب القرطبى لأى منها فى كتابه، غير إشارة جاءت فى مقام التصحيح لابن داود، وبقيتها ربما كانت مما قرأ وتمثل، ومن المحتمل أنها تركت شيئًا فى أعماقه، ولكنه فى كل الحالات كان سيد قضيته وموضوعه، لا يستلهم شيئًا غير فكره الخالص، وأحاسيسه الذاتية، وتجاربه الشخصية، وقبل أن نتابع دور الطوق فى كتب الحب، سابقًا ومؤثرا فى هذه المرة، أدع الفرصة للمستشرق الإسبانى إميليو غرسية غومث ليحدثنا بدوره عن كتابين، سبق أولهما ابن حزم وجاء الثانى بعده.

كتاب سبق طوق الحمامة

وكتاب جاء بعده

للمستشرق الأسبانى: إميليو غرسية غومث
«عن مجلة الأندلس، المجلد ١٦ سنة ١٩٥١ ،
ص ٣٠٩ - ٣٣٠»

(١)

كتاب الموشّى للوشّاء[1]

يحدث أحيانًا فى مجال الأدب العربى أن المؤلفات الأشد إنزواء، هى التى تأخذ طريقها إلى النشر قبل غيرها، وتفسير هذا التناقض الظاهرى والطريف أن الاستعراب علم حديث النشأة نسبيًا، وأن حجم الكتب المخطوطة غير المنشورة مازال يتجاوز الحصر، ومن ثم اتجه اهتمام المختصين إلى المخطوطات، وابتعدوا عن الكتب المطبوعة إلا فى حالات نادرة تعود إلى أهميتها أو طابعها العملى، لأن هذه، على النقيض من تلك، لا تقدم الصورة المثيرة لأمر كان مجهولا. ولا شىء غير هذا يفسر لنا الظلام النسبى الذى يلف كتاب «الموشى» لأبى الطيب محمد بن أحمد بن إسحاق الوشاء، وعاش تقريبًا بين ٨٦٠ و٩٣٦م، على الرغم من أنه طبع فى ليدن بهولندة، فى مطبعة بريل عام ١٨٨٦م، بتحقيق رودولف إ. برونوف R.E. Brunnowوعن هذه الطبعة طُبع مرّتان فى المشرق، إحداهما فى القاهرة عام ١٣٢٤هـ، فى مطبعة التقدم، بعنوان: كتاب الظرف والظرفاء[2]، والملاحظات التالية تدور حول الموازنه بين الكتاب وكتاب آخر استفاد منه، وكان هذا، على العكس من الأول، قد نال شهرة مستفيضة، بلغت قدرا

(١) القسم الأول من هذا المقال ترجم إلى الفرنسية بعنوان: المصادر الشرقية لكتاب طوق الحمامة لابن حزم القرطبى: كتاب الموشى للوشاء، وقرىء فى الجلسة التى عقدت فى يوم ١٧ سبتمبر ١٩٥١ ، فى المؤتمر الدولى للمستشرقين الثانى والعشرين، وقد اجتمع فى اسطنبول خلال الأيام من ١٥ إلى ٢٢ سبتمبر ١٩٥١ .

(٢) انظر مقدمة برونوف - وبروكلمان، تاريخ الأدب العربى جـ ١ ص ١٢٤ ، والملحق جـ ١ ص ١٢٤ وإحالاته على: ابن النديم، وابن الانبارى، وياقوت، والسيوطى، وفلوجل، وفوستنفلد.

لا يناقش، وهو كتاب «طوق الحمامة»، لابن حزم القرطبى (٩٩٤ - ١٠٦٣م) ويعتبر حجر الزاوية فى موضوع تأثير الأدب العربى فى الأدب الأوربى، وكتاب قمة فى الأدب الأندلسى، وقد درس وصحح مرارا، وطبع نصه أربع مرات، وترجم حتى الآن إلى اللغات الإنجليزية والروسية والألمانية والإيطالية والفرنسية[١].

وفى مقدمة ترجمة سادسة للطوق، إسبانية فى هذه المرة، وقد أنهيتها وتظهر هذا العام[٢]، حاولت أن أضع كتاب ابن حزم الشهير فى مكانه بين بقية الكتب المماثلة، وهو يمثل فيما أرى، إلى جانب كتابات أبى عامر ابن شهيد (٩٩٢ - ١٠٣٥م)، خير ما أبدعته المدرسة الأدبية التى يمثلانها، وتنتسب إلى عالم الخلافة الأموية فى قرطبة، ذلك أن التوهج الأدبى يجىء على الدوام متأخرا بالنسبة إلى التوهج السياسى، توهج سرعان ما انطفأ لانتثار عقد الخلافة سريعًا، وعلى غير توقع، وإذا بدا لنا أن نحدد فى إيجاز عجل ملامح هذه المدرسة أمكن أن نقول إنها:

- أرستقراطية الحياة، وتطابق الاتجاهات الفكرية الجديدة للنظام القائم.

- عربية الولاء، أى أنها لا تلقى بالا إلى حياة المستعربين أو ثقافتهم، أو حتى مجرد الاهتمام بالحياة الشعبية.

- قومية الاتجاه، على الرغم من ولائها العربى، وتمكنها من الأدب العربى المشرقى، مجاراة لموقف الأسرة الأموية فى إسبانيا فى مواجهتهم للعباسيين، أى أنها تحاول أن تجافى النماذج المشرقية وأن تنافسها.

- عصرية الطموح، تهتم بالإنسان، وقلّ ما تعنى بالكتب، ربما بسبب تسرب الروح الغربى إليها، أى أنها تنهض على مزاج الكاتب أكثر مما تقوم على ثقافته الواسعة، أو تمكنه من قواعد اللغة، وتحاول أن تهرب من الرذيلة المشرقية، فى الاعتماد الدائم على المؤلفات السابقة.

---

(١) توجد ترجمة وافية لابن حزم، بقدر ماسمحت لى المراجع التى بين يدى، يمكن الرجوع إليها فى الملحق الثانى للترجمة الاسبانية التى سوف أشير إليها فى الفقرة التالية.

● بلغت طبعات النص فى اللغة العربية حتى كتابة هذه السطور إحدى عشرة طبعة فيما أعلم، أدقها وأرقاها الطبعة التى صدرت عن دار المعارف، القاهرة ١٩٧٥ . (المترجم).

(٢) طوق الحمامة فى الألفة والالاف، لابن حزم القرطبى، ترجمة إميليو غرسية غومث من النص العربى، مدريد، جمعية الأبحاث والنشر ١٩٥١ .

وهذه الملامح الأربعة يمكن أن تلتقى بها كلها، فيما أعتقد، عبر صفحات طوق الحمامة، والملمحان الأخيران على الأقل تجدهما واضحين وموجزين فى تلك الجملة الشهيرة التى جاءت فى آخر المقدمة: «دعنى من أخبار الأعراب والمتقدمين، فسبيلهم غير سبيلنا، وقد كثرت الأخبار عنهم. وما مذهبى أن أنضى مطية سواى، ولا أتحلى بحلى مستعار»، والواقع أن ابن حزم قص علينا فى كتابه الشهير، كما نعرف، تجاربه الذاتية، وتجارب أصدقائه، وشخصيات أخرى سبقته، وكلهم فى كثرتهم الغالبة أندلسيون. وفيما خلال الأحاديث النبوية، والنصوص الدينية، وبعض الأمثال، وقليل من الإشارات العارضة، لم يذكر فى مصادره غير كتاب واحد: كتاب الزهرة لابن داود الأصفهانى (٨٦٨ - ٩١٠م)[١]، وجاء به فى الحقيقة فى مجال تصحيح ما فهم المؤلف المشرقى من فقرة التقطها من حديث أفلاطون عن الحب والجمال فى محاورة «المأدبة» Le Banquet ويمكن الظن بدءًا أن كتاب الزهرة مصدر مباشر لطوق الحمامة، فهو - أى كتاب الزهرة - يدور حول الحب أيضًا، وكان معروفًا جيدًا فى إسبانيا، بل وهناك من قلده فى زمن الحكم الثانى[٢]، ومؤلفه ظاهرى، ابن مؤسس هذا المذهب، وقد انحاز إليه ابن حزم نهائيًا، ولكن الواقع أن ما هو مشترك بين الكتابين قليل جدا، فالكتاب المشرقى مختارات من شعر الغزل بخاصة، لا تمت إلى مؤلف الكتاب بصلة، على حين أن الكتاب الأندلسى دراسة نفسية، ذات حواش فلسفية، والكتاب الأول طافح بالصناعة الممتازة، والتحذلقات الخنثة، ويتميز الثانى بأنه طبيعى وإنسانى، مباشر ودافئ.

هل يمكن القول إذن أن «طوق الحمامة» عمل أصيل بكامله؟ لا، على التأكيد، ليس ثمة عمل أدبى يفتقد السوابق واللواحق، ولو كان مجرد الذبال الذى تولد منه، وفيما عدا ذلك يؤكد لنا ابن حزم أنه ترك جانبًا «أخبار الأعراب والمتقدمين»، وكان يعرف جيدا الكثير من الأخبار التى تروى عنهم، والجو الذى تتنسمه عبر صفحات «الطوق»

---

(١) نشر النصف الأول من هذا الكتاب الشهير، واسترعى اهتمام ماسينيون بقوة فى كتابه: محنة الحلاج (١٩١٢) ، لويس نيكل، بمساعدة إبراهيم طوقان، عام ١٩٣٢ ضمن السلسلة التى تنشرها جامعة شيكاغو، وعن مخطوطات النصف الثانى، ولما يزل مخطوطا، انظر: مجلة الأندلس - المجلد ٤ ، عام ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ، ص ١٤٧ - ١٥٤.

• نشرت وزارة الاعلام العراقية النصف الثانى من الكتاب، فى سلسلة «كتب التراث» بتحقيق إبراهيم السامرائى ونورى حمودى القيسى، بغداد، عام ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م. (المترجم)

(٢) انظر مقال الياس تيريس، مجلة الأندلس، المجلد ١١ ، عام ١٩٤٦ ، ص ١٣١.

لم يظهر فى الأندلس عفويًا على يد جيل معين، وإنما نعرف أنه جاء من المشرق الإسلامى، من البيئة التى عاشت فيها، أدبيًا على الأقل، أسطورة الحب العذرى، ثم تحددت أدبيًا أيضًا. وفضيلة ابن حزم التى لاجدال فيها. تقوم بالدقة على أنه أسْبَنَ أو غَرَّبَ هذا الجو، عراه من أرديته البدوية، أو البغدادية، وحتى من اسمه، فكلمة «عذرى» لا تظهر ولا مرة واحدة على امتداد كل صفحات الكتاب، لكى يكسوه من جديد ثيابًا قرطبية، ومن الطبيعى أن تتخلف فى تربته وفى أساسه المواد التى يسرت لابن حزم أن يطبقها، مواد من الصعب جدا تحديدها، لأن المؤلف، فيما نقول، لم ينسخها بالمعنى الحرفى للكلمة، وإنما تمثلها وطورها عفويًا، أعطى لها روحًا جديدًا، وشكلا مغايرا، وحياة مختلفة.

تتبع أثر هذه المصادر الخفية مخاطرة إذن، لكل ما قلت، ولأن الدراسة الواعية للصلات بين الأدب الأندلسي والأدب العربى فى المشرق لما تزل متلعثمة، ومن ثم كان جرأة منى أن أعرض مؤقتًا، وفى شكل مقال، وكمحاولة لجس النبض، لواحد من هذه المصادر، وهو كتاب **«الموشى» للوشاء**. ولقد صرحت فى البدء بأن الكتاب غير معروف تقريبًا، ودرج الدارسون على اعتباره آليًا، وعلى نحو تقليدى، مجرد قائمة بالأخلاق الفاضلة، وقوانين السلوك، يتصرف المجتمع العربى فى أزهى عصوره على هديها. هكذا اعتبره مثلا آدم ميتز فى كتابه نهضة الإسلام، ويقول عنه بروكلمان فى دائرة المعارف الإسلامية: «دليل الحياة الأنيقة فى عالم بغداد العظيم». وعبثًا يمكن مثلا أن تجد له أثرًا بين مصادر دراسة الحب فى الأدب العربى الكلاسيكى، وحررها علماء من الطبقة الأولى، مثل جولد تسيهر[١] أوريتر[٢]. والحق أن كتاب الوشاء حتى ولو كان مرشدا عظيم الفائدة إلى الأخلاق الفاضلة، فإنه أصلا كتاب عن الحب فى الجانب الرئيسى منه، وهو على التأكيد الجانب الأكبر اتساعًا، وهو شىء منطقى جدا، لأن الحب فى حد ذاته، وفى مظاهره المصقولة، قناعة أنيقة تخضع لقواعد دقيقة مسلم بها، وكان الوشاء متخصصًا فى الموضوع. فهو لا يحلل نفسية الحب العذرى فى دقة فحسب، وإنما يضيف إليه النصوص والقصائد الأكثر روعة، والأجمل توجيها، وعرض

(١) Goldziher I. : Vorlesungen Uber dan Islam, P. 192 y ZDMG, 69 (1915) pp. 192 - 207».

(٢) Ritter H. : Philologika VII (Arabische Und persische Schiften Uber di pro-fane Und die mystiche Liebe). en Der Islam «XXI» 1933, «pp. 84 – 100».

لحب القيان، وشق طريقه محظوظًا، ثم انتهى بالسيطرة على الأوساط البغدادية، بل ويصرح فى كتابه «الموشى» أنه خص هذين الموضوعين، كل واحد منهما بكتاب مستقل، ولعلهما فقدا لسوء الحظ لأني لاأراهما واردين فى قائمة مؤلفاته، وهما: كتاب المقتفى[١]، وكتاب القيان[٢]. ورغم أننا نجهل هذين الكتابين فان مادة الموشى ربما كانت أفضل ما نملك بين أيدينا عن الحب بين العرب، وهو أكثر فائدة من كتاب الزهرة لابن داود، وأشد قربًا، كما سنرى، فى روحه إلى ابن حزم فى طوق الحمامة.

وفى حدود ما أشرت، فى قراءة مستأنية ولكن ليست مستوعبة، سأحصى وأجمع الفقرات التى فى الموشى أو فى طوق الحمامة[٣]، والتى أعتقد أن بينها بعض الشبه. ويجب أن أضيف إلى ذلك أننى بصدد مقال، نتائجه مؤقتة تمامًا، لأن الشبه يمكن أن يجئ من مؤلف آخر اختار الاتجاه نفسه ولما يعرف، وأن هذه المشابهات لها، فيما أرى، بعض القيمة المقنعة إذا أخذت فى جملتها فحسب، أى أنها تدعم بعضها بعضا، وتحليلها منفصلة يجعلها تبدو، وهى كذلك حقًا، غير ذات معنى وقليلة الإقناع، فنحن نتحرك، وأعيد القول، على تربة ظنية. وبدل أن أتتبع ما ورد فى الموشى أو فى الطوق متسلسلا، رأيت لسهولة العرض أن أجمع على نحو غير طبيعى قليلا، وكمجرد توجيه فحسب، الفقرات التى وازنت بينها، طبقًا لما تخضع له من تشابه.

- فى الاقتباس، أو الأسلوب، أو اللغة.
- فى التعليق على عدد محدود من الوقائع.
- فى الملاحظات النفسية.

---

(١) فى صفحة ٥٤ من طبعة ليدن: «ونحن مفردون لأهل العشق كتابا أذكر فيه أخبار المتيمين، وملح المتعشقين، وأشعار المتغزلين، مع جملة من صفات الهوى، فى كتاب المقتفى، ان شاء الله تعالى».

(٢) فى صفحة ١١٣ من طبعة القاهرة: «وقد أفردنا كتاب القيان لذم عظم القيان فأغنى ما فى ذلك الكتاب عن تكثير هذا الباب، فأعرفه، ان شاء الله».

أشير فى بعض الاحالات، كما فى هذه، إلى الطبعة الشرقية، لان طبعة ليدن ليست بين يدى وأنا أحرر هذه الصفحات.

(٣) فيما يتصل بالموشى استخدمت، الا فى حالات نادرة كالحالات السابقة، طبعة برنوف التى أشرت اليها فيما سبق، وفيما يتصل بطوق الحمامة استخدم طبعة بتروف، ليدن - بريل ١٩١٤ . وتحمل المشابهات الارقام من ١ إلى ٢٧.

• تسهيلا للقارئ العربى استخدمت طبعةدار المعارف لكتاب طوق الحمامة، الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٨١ ، بدلا من طبعة بتروف. (المترجم)

- في الأفكار أو في المواقف الشاعرية.
- في التقسيم وعناوين الأبواب.

وأؤكد على أننا بصدد تشابه يجئ من الذاكرة القوية التي شهر بها العرب، ومستمد من رواسب القراءة، أكثر مما يعتمد على النسخ أو الاقتباس. وأستبعد الفرض الذى يخرج عن نطاق الموازنة، ويجب أن يضاف إذا أكدته المشابهات الأخرى، وهو أن الموشى يمكن أن يكون واحدًا من الكتب التى قرأ فيها ابن حزم «أخبار الأعراب والمتقدمين» والتى أدار لها ظهره فى كتابه.

١ - التشابه في الاقتباس أو الأسلوب أو اللغة

- ثلاثة على الأقل الاقتباسات المشتركة المهمة التى وجدتها:

١ - الحديث النبوى: «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها إئتلف وما تناكر منها اختلف»، ويشير إليه الموشى صفحة ٢٥ ، ويوجد فى الطوق صفحة ٢٣[١].

٢ - الحديث النبوى الثانى: «حبك الشيء يعمى ويصم»، وجاء به الموشى فى صفحة ٦١ ، وذكره الطوق صفحة ٢٩ ، دون أن يشير إلى أنه أنه حديث نبوى.

٣ - والحديث النبوى الثالث، فيما يظن: «من عشق فعف فمات فهو شهيد»، ويظهر فى الموشى ص ٧٥ ، ويختلف قليلا عما عليه فى الطوق صفحة ١٥٢ ، وجاء به ابن حزم دون أن يشير إلى أنه حديث واكتفى بقوله: «وقد جاء فى الآثار».

- وإليك الآن حالتين يتشابه فيهما الأسلوب:

٤ - يقول مؤلف الموشى، مع بداية الجزء الثانى، إنه سوف يتضمن شيئًا من الهزل أكثر مما فى الجزء الأول: «ولابد من خلطها بشيء من الهزل، إذ فى ذلك ترويح لقلوب ذوى العقل». ويتهيأ مؤلف الطوق فى مقدمته، ليبرر تناوله موضوعات قد لا تبدو جادة، مشيرا إلى آراء مؤلفين آخرين، ويلوها: «أجموا النفوس بشيء من الباطل ليكون أعون لها على الحق» أو «أريحو النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد».

---

(١) أذكر القارئ بأن الكتاب يستخدم عادة طبعة ليدن من الموشى، الا فى حالات قليلة أشار اليها، أما صفحات الطوق فتشير إلى الطبعة الثالثة لدار المعارف بالقاهرة، ١٩٨٠. (المترجم)

٥ – فى صفحة ٧٧ من الموشى يتحدث المؤلف عن ملل بعض المحبين الكاذبين، فيقول: «فاستحسن الناس الملل والاستبدال، والغدر والانتقال، وأنا أبرأ إلى الله أن يكون هذا من شعر ظريف، أو من فعل حصيف». وبورد ابن حزم فى صفحة ١٤٩ ، بعد أن بين أن: «للشعراء فن من الشعر يذمون فيه الباكى على الدمن، ويثنون على المثابر على اللذات، كحالة أبي نواس، وأنه كثيرا ما يصف نفسه بالغدر الصريح فى أشعاره»، ويقلد الشاعر المشرقى بأبيات له، ثم يعقب عليها بقوله: «ومعاذ الله أن يكون نسيان ما درس لنا طبعًا».

● وأخيرا يتوافقان فى حالتين لغويتين:

٦ – يقول الموشى فى صفحة ٥٤: «وأما من عشق من الشعراء فما يحصرهم عدد، ولا يحصيهم أحد»، وفى الطوق، صفحة ١٩: «وأما كبار رجالهم، ودعائم دولتهم، فأكثر من أن يحصوا».

٧ – ويقول الموشى فى طبعته المشرقية، صفحة ٤٩ ، إن الحب «أمير مطاع، وقائد متبع». ويذكر الطوق، صفحة ٨٣: «لعلمت أن الهوى سلطان مطاع».

٢ – التشابه فى التعليق على عدد محدود من الواقع

٨ – الضرب الأول من الحب، بين ضروب الحب التى ذكرها ابن حزم، صفحة ٢٣: «محبة المتحابين فى الله عز وجل»، وهو عنوان باب من أبواب كتاب الموشى: «باب صفة المتحابين فى الله عز وجل».

٩ – ذكر الطوق من غلامات الحب وشواهده الظاهرة عند المحب، صفحة ٢٨: «شرب فضلة ما أبقى المحبوب فى الإناء». وفى الموشى صفحة ٩٣ ، نجد الجارية التى أرادت أن تعشق فتى غنيًا: «شربت من فضلة كأسه».

١٠ – فى الفصل الثالث من الطوق وأوقفه المؤلف على قصة أبى السرى عمار بن زياد، الذى أحب جارية رآها فى النوم، نجد ابن حزم يعذله قائلا: «ولو عشقت صورة من صور الحمّام لكنت عندى أعذر». ونجد فى الموشى، صفحة ٥٦: «وبلغنا أن منهم من عشق صورة فى حمام، وخيالا فى منام، وكفا فى حائط، ومثالا فى ثوب، والعشق ألوان وأنواع وضروب وفنون وأمره عجيب».

١١ – ويتحدث الطوق عن المراسلة، صفحة ٦٥، فيقول: «وأما سقى الحبر بالدمع فأعرف من كان يفعل ذلك». ويورد الموشي، صفحة ١٥٤ ، قصيدة فيها: «مزج المداد بدمعه»، وبعد ذلك بقليل، فى أبيات شعر أخرى: «هذا كتابى بدمع عينى».

١٢ – ويقول **الطوق**؛ عند الحديث عن الهدايا التى يتبادلها العاشقان، صفحة ١٣٠: «وما رأيت قط متعاشقين إلا وهما يتهاديان خصل الشعر.. وأما تهادى المساويك بعد مضغها فكثير». ونقرأ فى الموشى ، صفحة ٩٣ «وتبعث إليه بخاتمها وخصلة من شعرها... وقطعة من مسواكها». وفى صفحة ١٤٠: «وقد تهادى أيضًا أهل الظرف بالمساويك».

٣ – التشابه فى الملاحظات النفسية

١٣ – فى الباب الخاص بماهية الحب من **طوق الحمامة**، ص ١٤، نجد هذه الملاحظة: «والحب – أعزك الله – داء عياء، وفيه منه الدواء على قدر المعاملة، ومقام مستلذ وعلة مشتهاة، لا يود سليمها البرء، ولا يتمنى عليلها الإفاقة». وفى **الموشى**، صفحة ٨١ من الطبعة المشرقية: «الحب مع ما فيه من المرارة والنكد... مستعذب عند أربابه، مستحسن عند أصحابه».

١٤ – وربما كان الباب. الخاص بعلامات الحب فى **الطوق** من أظهر الأبواب أصالة، وأغناها بالملاحظات النفسية، فى صفحة ٢٧ وما بعدها، ونلتقى فى **الموشى** بسلسلة الملاحظات أيضًا، استخدم لها المصطلح نفسه: علامات. ففى صفحة ٤٨: «وأعلم أن أول علامات الهوى على ذى الأدب نحول الجسم، وطول السقم، واصفرار اللون، وقلة النوم، وخشوع النظر، وإدمان الفكر، وسرعة الدموع، وإظهار الخشوع، وكثرة الأنين، وإعلان الحنين، وانسكاب العبرات، وتتابع الزفرات»، وعن تأثير الحب فى العاشق يقول طوق الحمامة، صفحة ١٨ وما بعدها: «فكم بخيل جاد، وقطوب تطلق، وجبان تشجع، وغليظ الطبع تطرب». وفى الموشى ص ٤٩ من الطبعة المشرقية: «وقد يشجع الجبان، ويسخى البخيل، ويطلق لسان العى، ويقوى حزم العاجز».

١٥ – وفكرة أن للحب سلطانًا لا يقاوم، ونلتقى بها فى **الطوق** صفحة ٤٧ ، ونصها: «إن للحب حكمًا على النفوس ماضيًا، وسلطانًا قاضيًا، وأمرا لا يخالف، وحدالا يعصى..» توجد أيضًا فى **الموشى**، صفحة ٤٩ من الطبعة المشرقية: «ويذل له العزيز،

ويخضع له المتجبر، ويبرز له كل محتجب، وينقاد له كل ممتنع». ومن جانب آخر يعرض الطوق للفكرة مرة أخرى فيما بعد، على نحو أشد تفصيلا، فى باب الطاعة، صفحة ٦٨ وما بعدها. والملاحظة التى ترد فى نفس الفصل الخاص بعلامات الحب، صفحة ٥٠، وتعرض للمحب المزيف، ممن «يتحلى بشيم قوم ليس منهم، ويدعى غريزة لا تقبله»، نجد لها سابقة فى كتاب الموشى، صفحة ٤٨: «ولن يغنى ادعاء أنه قارن العشق والهوى، لأن علامات الهوى ثائرة وآيات الادعاء ظاهرة».

١٦ – وتأكيد **طوق الحمامة**، صفحة ٦٠، فى باب طي السر، أن الحب لا يمكن إخفاؤه، ونص عبارته: «ويأبى السر الدقيق، ونار الكلف المتأجج فى الضلوع إلا ظهورا فى الحركات والعين»، توجد فى **الموشى** أيضًا، فى صفحة ٤٨: «ولن يخفى المحب وإن تستر، ولا ينكتم هواه وإن تصبر».

١٧ – وفى مقابل باب المساعد من الأخوان، فى طوق الحمامة، صفحة ٧٧ وما بعدها، يستخدم **الموشى**؛ صفحة ١٧ ، الصديق المساعد، يقول ابن حزم مشيرا إلى المساعد من الأخوان: «فإن ظفرت به يداك فشدهما عليه شد الضنين، وأمسك بهما إمساك البخيل، وصنه بطارفك وتليدك...». ويذكر **الموشى**، فى الصفحة التى أشرنا إليها، مشيرا إلى الغرض نفسه، بيتا من الشعر تعوّد سفيان الثورى أن يردده:

فإذا وجدت أخـا الأمانة والتقى   فيه البدين قـرير العين فاشـدد

١٨ – فى طوق الحمامة، فى باب **الواشى**، صفحة ٨٣ وما بعدها، يدين ابن حزم فى عنف بالغ الوشاة والكذابين، وفى الموشى، صفحة ٣٣ ، باب كامل بعنوان: «باب ما جاء من فضل الصدق لذوى الأداب وماكره من الكذب لذوى الألباب».

١٩ – وتشهير **ابن حزم** بخيانة المرأة وغدرها عنيف ومعروف، أنظر مثلا صفحة ١٠٩ وما بعدها من **طوق الحمامة**، وصفحة ١٦٥ ، وفى هذه الأخيرة يقول: «ولولا أن أكون منبهًا على عورات يستعاذ بالله منها لأوردت من تنبههن فى الشر، ومكرهن فيه، عجائب تذهل الألباب». وعرض الموشى للفكرة أكثر من مرة، فهو يقول فى صفحة ٧٩: «إن الغدر فى النساء طبع...» وفى صفحة ٨٨ و ١٢٠: «مع أن مكرهن أخفى من الخيال، وأعظم من راسيات الجبال، تنفذ حيلهن على الرجال، ويتمكن كيدهن من الأبطال».

٢٠ – وتحمّل الغدر وعدم الثورة عليه، ومواجهته بمثله، هو فيما يرى ابن حزم دناءة وخسة يقول، فى صفحة ١٤٨ من **الطوق**: «ومنها (أى من الأسباب الموجبة للسلو) الغدر، وهو الذى لا يحتمله أحد، ولا يغضى عليه كريم، ولا يلام السالى عنه... بل اللائمة لاحقة لمن صبر عليه... فما يصبر عليه إلا دنىء المروءة، خسيس النفس، نذل الهمة، ساطة الأنفة». وتجىء الفكرة نفسها فى **الموشى**، صفحة ١١٨: «ثم أن أجهل الجهالة، وأضل الضلالة، صبر الفتى الأديب، على غدر الحبيب، فان الصبر على الخيانة والغدر، يضع من المروءة والقدر».

٢١ – وأصرف النظرعن بعض فقرات أزيد جاءت فى **الموشى**، دون أن يكون لها شبيه محدد من فقرات أخرى فى **الطوق**، ولكنها تسير على خطى هذا الكتاب، وانظر لها مثلا، الموشى صفحة ١١٢: «اعلم أن صبر المحب على هجر الحبيب، تجرعه الغصص والتعذيب، ومعالجة الزفير والنحيب، وتقلقله القلب لفرق الوجيب، من العجز الظاهر، والموت الحاضر، والمبادرة بالانصراف، بعد تغير الآلاف، من الحزم المكين، والرأى الرصين...»

٤ – التشابه فى الأفكار أو فى المواقف الشاعرية :

٢٢ – يتحدث **الموشى**، صفحة ٧٨ ، عن استحالة أن يحب الإنسان حبًا حقيقيًا شخصين فى الوقت نفسه: «هل يجتمع وحدان فى موضع»، وفيما بعد فى صفحة ٩٩، يورد قصيدة من بحر السريع، لأديب مجهول، يعرض للموضوع نفسه، منها هذا البيت:

نداك منه حسن جائز   أم ليس يرضى الله دينين

ونجد فى **الطوق**، صفحة ٤٦ ، قصيدة لمؤلفه، من بحر الخفيف، منها هذان البيتان:

ليس فى القلب موضع لحبيبـ   ـن ولا أحدث الأمـــور بثان
وكذا الدين واحـد مستقيم   وكفـــور من عنده دينـان

٢٣ – فيما يتصل بموضوع **المراسلة** (أنظر رقم ١١)، يورد **الموشى** فى الصفحة ١٥٩ ، هذا البيت من بحر الكامل لشاعر مجهول:

مازلت أبكى مذ قرأت كتابهـــا   حتى محوت سطورها بدموعى

فى صفحة ٥٧ من **الطوق**، نجد هذا الشطر من بيت شعر لابن حزم، وجاء فى بحر الطويل، والتشابه اللغوى بينهما واضح:

* فما زال ماء العين يمحو سطوره *

٢٤ – فى **الموشى**، صفحة ٣٧ ، نجد هذا البيت من الشعر، فى بحر الرمل، لشاعر مجهول، ويعرض لكتمان السر:

أمت السـر بكتمـان ولا يدونّ منك إذا استودعت سـرّى

ويورد ابن حزم فى صفحة ٦٢ من كتاب **الطوق**، قطعة من قصيدة له جاءت فى بحر البسيط، ومنها هذا الشطر:

* أميته وحياة السر ميتته *

٢٥ – ويجئ **الموشى** فى صفحة ٥٣ بقصيدة من بحر الوافر، للشاعر العباسى **على بن الجهم** (ت ٨٦٣م)، مهداة إلى الخليفة المتوكل، وسقط صريع حب جاريته قبيحة، وإليك من أبياتها الثمانية هذه الأبيات الثلاثة:

تنكّر حـال علّتِىَ الطبيب فقـال: أرى بجسمك ما يريب
جسست العرق منك فدل عندى على داء لـه شـأن عجيب
. . . .
فحرك رأسـه ودنـاه منى وقـال: الحب ليس لـه طبيب

وفيما أرى فإن هذه القصيدة هى المصدر المباشر الذى **ألهم** ابن حزم قصيدته التى من بحر الوافر أيضًا، وجاءت فى ستة عشر بيتًا، ونلتقى بها فى الطوق، الصفحة ١٣٧ ، ومنها أشطار الأبيات هذه:

* يقول لى الطبيب بغير علم *
* فقال: أرى نحو لازاد جدا *
* فأطـرق باهتًا ممـا رآه *

٢٦ – وفى **الموشى**، الصفحة ٦٧ ، نجد هذا البيت من بحر البسيط لشاعر مجهول:
الحب أولـه عـذب مذاقته لكن آخـره التنغيص والكدر

وبيت أخر من بحر البسيط للشاعر **ابن أبي رعد**:

الحب أولــه عذب وآخــره مثل الحزازة بين القلب والكبد

وفى الصفحة ١٨٢ مـن **طوق الحمامة** نجد قصيدة طويلة لابن حزم، مـن بحـر الطويل، ومنها هذا البيت:

رأيت الهوى سهل المبادى لذيذها وعقباه مر الطعم ضنك المســالك

٥ - تشابهات فى التقسيم وعناوين الأبواب :

هنا علينا أن نتحدث حقًا عن اختلافات أكثر مما نعرض لألـوان مـن المشابهـات. وفيما يتصل بمنهج الكتاب وتقسيمـه إلى أبـواب، ليس ثمـة شك فى أن **الطوق** قطعًا أفضل نهجًا وتنظيما وترتيبًا من كتاب **الموشى** أو **كتاب الزهرة**، فابن حزم وهو فيلسوف وعالم اهتم، بروح غربى، بمناقشة حتى خطة الكتاب تفصيلا، الصفحتان ١٧ و ١٨ ، ويمكن أن نقول الشيء نفسه فيما يتصل بعناوين الأبواب، وثمة شيء مـن تشابـه بيـن عناوين الموشى وطوق الحمامة، فحيث يقول الموشى، فى الصفحـة ٦٤: «بـاب مـن مات من شدة الفقد، وتضعضعت أعضاؤه من شدة الوجد» يوجز طوق الحمامة الفكرة فى: «باب الموت». وحيث يقول الموشى، فى الصفحة ٣٧: «باب الحث على كتمان السر، فى حفظ ما حنت عليه ضلوع الصدر» يختصره الطـوق فى: «بـاب طى السر». وعناوين كتاب الزهرة مسجوعة وجادة وشاعرية، وعناوين الطـوق بـلا سجـع وعاريـة وموحية، وذات وقع غربى.

ويتصل بهذا الغرض، ولو أنني سأخرج عن الموضوع قليلا، أن ألقى بملاحظة أراها مفيدة وجديدة، ذلك أن أحد الأبواب الأخيرة فى كتـاب المـوشى، الصفحـة ١٦٤ ، يدور حول العبارات التى ينقشها العشاق على خواتيمهم وعنوانـه: «ومـمـا ينقشه أهلى الهوى على خواتيمهم » وفى الفقرة الأولى منه نلتقى بعشرة نقوش إليك أوائلها:

- من كثرت لحظاته، دامت حسراته.
- من تداوى بدائه، لم يصل إلى شفائه.
- من قدم هواه، دام أساه.

نلحظ أن ثمانية نقوش منها، دون تغيير أو مع تحوير طفيف، عناوين أبواب فى **كتاب الزهرة لابن داود**، وهى واقعة تثير الاهتمام، لأن ابن داود والوشاء كانا متعاصرين، فهل كان كتاب الزهرة مصدر هذه العبارات التى نقشها العشاق على خواتيمهم، أم أن كتابات العشاق هى التى ألهمت ابن داود عناوين أبواب كتابه؟.

دراسة أصول كتاب أدبى قمة، وهو **طوق الحمامة** فى حالتنا هذه، مفيد دائمًا وضرورى، ولست أدرى ما إذا كانت الملاحظات التى سبقت مقبولة أم لا، وما إذا كانت تسهم تاريخيًا فى تفسير إمكانيات الإبداع فى كتاب ابن حزم القرطبى الشهير، وأعتقد، فى حالة الالتفات إليها، أن غايتى لا تتوقف عند هذه فحسب، فمنذ زمن وأنا أدافع وأدعو، معطيًا المثل متواضعًا، إلى أنه من غير الممكن أن ندرس الأدب الأندلسى علميًا دون أن نحدد ما به من عناصر مشرقية، وما هو تجديد او اقتباس إسبانى، وهو أمر صعب للغاية من الوجهة التقنية فى حالات كثيرة.. وحالة ابن حزم، وابن شهيد أيضًا، مثل متميز وواضح لمعرفة الصلة وردود الفعل المتباينة للتيارين والاصطدام بين الفكرين، المشرقى والمغربى، ولولم تمت القيادة الأدبية، والتى يمثلها المؤلفان الكبيران، تحت أنقاض الخلافة، تاركة الطريق واسعًا وعريضًا لعصر من التشريق والبغددة، كما انتهى إليه حال دول الطوائف، لكان من المؤكد أن أدب الأندلس وثقافته ما كان ليصبح بالشكل الذى وصلنا عليه الآن، مجرد مقاطعة تائهة من أدب العرب وثقافتهم، بل كان سيرتفع شامخًا، فى مملكة متألقة ومستقلة على نحو ما كانت عليه خلافة قرطبة.

(٢)

كتاب منية المحبين وبغية العاشقين
للشيخ يوسف بن مرعى الحنبلى

أن تقفو تأثيرات «طوق الحمامة» فى الأدب التالى شىء مفيد لا لكى نعرف القدر الذى بلغه من الشهرة كتاب **ابن حزم** فحسب، وإنما أيضًا لكى نغذى الأمل وندعمه فى العثور يومًا على مخطوطة جديدة له، لأن إمكانيات العثور عليها تزداد منطقيًا مع اكتشاف أن دائرة انتشاره كانت أوسع مما برهنا عليه، وحتى الآن، ما عدا الخطأ أو الإغفال، درس الباحثون تأثير الطوق، أو اكتشفوا إشارات إليه، فى المؤلفات التالية:

• **فى الأدب الأندلسى**: فى كتاب **«أعمال الأعلام» لابن الخطيب**، طبعة الرباط عام ١٩٣٤، ١٢٤ - ١٢٦[١]، وثلاث قصائد فى كتاب **نفح الطيب للمقرى** المجلد الثانى، الصفحة ٤٠٦ ، من الطبعة الأوربية*.

• **فى الأدب الإسبانى**: تأثيرات موضع نقاش فى كتاب **«الحب المحمود»** لكاهن هيتا، وهو من القرن الرابع عشر[٢] وفى كتاب الراهب الكرملى **جوزيف دى خسوس ماريه** Joseph de Jesus Maria وعنوانه **مزايا فضيلة العفة** Exeelencias de la virtude de la castidad فى القلعة عام ١٦٠١م[٣].

---

(١) انظر: ليفى بروفسال، مجلة الأندلس، المجلد ١٥، الصفحات ٣٣٩ - ٣٤٠ و٣٦١ - ٣٦٣.

* فى الجزء ٣ ، الصفحة ٥٩٩ ، من طبعة احسان عباس. (المترجم)

(٢) انظر: أميركوكاسترو، إسبانيا فى تاريخها، ص ٣٧١ - ٤٦٩ ، بونس أيرس ١٩٤٨.

• ترجمت هذا الكتاب المقيم إلى اللغة العربية، وسوف تنشر ترجمته قريبًا، وفيما يتصل بتأثير «طوق الحمامة» فى كتاب «الحب المحمود» أنظر كتابنا: طوق الحمامة فى اللغات الأجنبية، وهو تحت الطبع. (المترجم)

(٣) انظر كاسترو، المرجع السابق، ص ٤٠٣ ، وانظر أيضًا: خايمة أوليفر أسين، مجلة المجمع الملكى الإسبانى، المجلد ٣٠ ، ص ٣٨٩ ، ٥٤٢١ عام ١٩٥٠.

• **في الأدب العربى المشرقي**: فى **«روضة المحبين» لابن قيم الجوزية**[1] وفى **«ديوان الصبابة» لابن أبى حجلة**[2]. ومع شيء من الشك فى كتاب **«تزيين الأسواق» للأنطاكى**[3].

وإلى هذه التأثيرات يمكن أن نضيف الآن تأثيرًا واضحًا فى كتاب آخر هو: **«منية المحبين وبغية العاشقين»** للشيخ السورى **يوسف بن يحيى بن مرعى الطور كرمى** الحنبلى، ولم يرد فى قائمة ريتر التى حررها عن كتب الحب[4].

وطبقًا لكتاب **خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر، للمحبى**، الجزء الرابع، الصفحة ٥٠٨، نعرف أنه رحل إلى مصر للدراسة عام ١٠٤٤هـ - ١٦٣٤م، وعاد منها ١٠٤٩هـ - ١٦٣٩م، وكان مفتيًا فى نابلس، وعلى مذهب **ابن تيمية**، وتوفى يوم الاثنين ١٠ من صفر عام ١٠٧٨هـ - ١ من أغسطس ١٦٦٧م[5].

وقد أمكننى أن أعود إلى مخطوطتين من «المنية»، إحداهما كاملة فى مكتبة بلدية الإسكندرية، تحت رقم: ن - ٤٥٦٤ - ج ، وجاءت فى ٣٥ ورقة بلا ترقيم، وكتبت فى خط شرقى جيد وهى التى سأحيل عليها دائمًا، والأخرى فى دار الكتب المصرية، وجاءت فى ٥١ ورقة، ومسطرتها ١٥×٢٠ وكتبت فى خط مغربى، وتحمل رقم ٦٢٥٢ أدب، ونسبت إلى مجهول، فكان عنوانها: «الحب والمحبة، مؤلفه مجهول»، ولو أنه يمكن التوصل إلى معرفة المؤلف فى الحال.

نحن بصدد كتاب محدود الصفحات، وبعد مقدمة قصيرة مسجوعة يقسم المؤلف كتابه فى عشرة أبواب هى:

١ - فى إثبات حقيقة المحبة وشرفها.

---

(١) انظر: بروكلمان، مجلة اسلاميكا، المجلد ٥ ، ص ٤٦٢ - ٤٧٤.

(٢) انظر: غرسية غومث، مجلة الأندلس، المجلد ٦ ، ص ٦٥٠ - ٦٧٢.

(٣) انظر المرجع السابق.

(٤) انظر فيما سبق صفحة ٣١١ من هذا الكتاب الهامش رقم ٢.

(٥) فى فهرس مكتبة بلدية الاسكندرية، ولا أعرف ما إذا كان بداية المخطوطة نفسها ومع ذلك يقال أنه توفى عام ١٠٣٣هـ، ١٦٢٣م وذكر هذا التاريخ بروكلمان فى كتابه تاريخ الأدب العربى، جـ ٢ ص ٣٦٩، والملحق جـ ٢ ص ٤٩٦، ويدعوه بروكلمان: مرعى ابن يوسف بن أبى بكر بن أحمد الكرمى، زين الدين المقدسى الحنبلى، ولد فى طول الكرم، قريبا من نابلس. ومخطوطة الاسكندرية تظهر عند بروكلمان فى الملحق فقط، جـ ١ ص ١٢٩٢، فى الفقرة الخاصة بالمطبوعات.

٢ – فى كلام الخائضين فى حقيقة المحبة.

٣ – فى حقيقة العشق وأسبابه ومراتبه، وفى الفرق بينه وبين الخلة والمحبة، وفى أسمائه، وبين المؤلفين الذين يذكرهم فى هذا الباب تظهر أسماء أفلاطون، (ولكن ليست نظريته فى الأفلاك المقسومة)، وابن سينا وأرسطو وأبقراط والمتنبى والأصمعى وابن تيمية والقاضى عياض وابن قيم الجوزية.

٤ – فى كلام الخائضين بمدح العشق وذمه. وفيه يذكر كتابًا آخر له عن الحب بعنوان: **«تسكين الأشواق بأخبار العشاق»**.

٥ – فى ذم الهوى وفى ذكر القلب ومدح العقل.

٦ – فى علامات المحب والعاشق وماذا يصير لهما عند غلبة من السكر وغيره وماذا يترتب عليهما.

٧ – فى حقيقة الشوق وهل هو يزول بالوصال أو يزيد، وهل يصح كتمان المحبة، وهل يتصور عند تمام المحبة هجر، وهل إعراض الحبيب عن عداوة.

٨ – فى إرشاد العاشق السقيم، إلى الطريق المستقيم، وبيان عقوبة من جنح للفعل الذميم.

٩ – فى الحذر من المرد وأصحاب العذار، وما قيل فيهم من الأشعار.

١٠ – فى فضل الشعر، وفى ذكر شىء من أشعار المحبين، وهو مختارات من شعر الغزل، ليست مهمة إلى حد كبير، وبضمنها المؤلف أشعارا له، ويختمها بموشحة.

والإشارة التى يذكر فيها ابن حزم باسمه توجد فى الباب الرابع، الورقة ٩ ب، فى الوسط منها: «وقال ابن حزم: وقد أحب من الخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين خلق كثير، وعبيد الله أحد الفقهاء السبعة عشر عشق حتى اشتهر أمره وعد لائمه ظالمًا، وعشق عمر بن عبد العزيز جارية زوجته فاطمة مشهورة»[1]. وهذه الفقرة تلتقى فى

(١) تختلف عبارة ابن حزم فى الطوق عما فى كتاب المنية شيئًا فيما يتصل بعبيد الله، ولم يشر الطوق من قريب أو بعيد إلى قصة عمر بن عبد العزيز، فلعلها إضافة من صاحب المنية أو لعله رجع إلى نسخة من الطوق غير التى بين أيدينا، نسخة كاملة غير مختصرة، وهو ما أرجح (المترجم).

جانب مع ذكره ابن حزم فى كتابه «طوق الحمامة»، الصفحة ٦ من طبعة بتروف. (أو الصفحة ٢٠ من طبعة دار المعارف).

وأما فى الباب السادس من «المنية»، وهو الخاص بعلامات الحب. فقد اتكأ الشيخ مرعى طويلا على كتاب ابن حزم، دون أن يشير إليه، وإليك جانبًا من نص المؤلف المشرقى، وفيه صرفت النظر عن الأشعار التى تتخلله، وهى غير ذات أهمية، إلى جانب فقرة غير واضحة، وقد ألمحت إلى الاتفاقات الأكثر وضوحًا، وجئت بها فى حرف مختلف، وعلقت عليها:

«**فللمحب والعاشق علامات يعرف بها المحبون، وحالات يتميز بها العاشقون**[1] **فمن العلامات** (الورقة ١٢ ب) **اضطراب أعضاء المحب العاشق عند نظر محبوبه ومعشوقه**[2]. ورميه بطرفه نحو الأرض، وتغيره تغير إحمرار وإصفرار، وذلك من مهابته له، وحيائه منه، وعظمته فى صدره (بيتان من الشعر).. ولذلك قال بعضهم: من علاماته إصفرار وجه المحب عند رؤية حبيبه، وإحمرار وجه المحبوب عند مقابلة محبه: (بيتان من الشعر). **ومنها أن يضطرب المحب عند رؤية من يشبه محبوبه أو عند سماع اسمه**[3] (بيتان من الشعر).. **ومنها أن يستدعى سماع اسم محبوبه ويستلذ الحديث فى أخباره**[4] **وأشعاره، ويحب أهل محبوبه وقرابته**[5] وغلمانه وجيرانه ومن ساكنه.. (بيتان من الشعر وتفصيل الموضوع).. (الورقة ١٤٢). **ومنها الإنصات لحديثه، واستغراب ما يأتى به ولو كان عين المحال، وتصديقه وإن كذب، وموافقته وإن ظلم، والشهادة له وإن جار.. واتباعه كيف سلك، والإسراع بالسير نحو المكان الذى يكون فيه، والتعمد للقعود بقربه، والدنو منه، والتباطىء فى القيام من عنده**[6]

---

(١) فى طوق الحمامة، الصفحة ٢٧ ، من طبعة دار المعارف: «وللحب علامات يقفوها الفطن، ويهتدى إليها الذكى».

(٢) فى طوق الحمامة، الصفحة ٢٧: (ومنها بهت يقع، وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة).

(٣) فى الطوق، فى الصفحة نفسها «ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه، أو عند سماع اسمه فجأة».

(٤) فى الطوق، الصفحة ٢٩: «ومن علاماته أنك تجد المحب يستدعى سماع اسم من يحب، ويستلذ الكلام فى أخباره».

(٥) فى الطوق، الصفحة ٣٢ ، «ومن علاماته أنك ترى المحب يحب أهل محبوبه وقرابته.....».

(٦) فى الطوق، الصفحة ٢٧: «والانصات لحديثه اذا حدث، واستغراب كل ما يأتى به ولو أنه عين المحال... وتصديقه وان كذب، وموافقته وأن ظلم، والشهادة له وأن جار، واتباعه كيف سلك».

(بيت من الشعر).. ومنها بذل نفسه والتكرم بها دون من يحبه ويهواه[1].. (الورقة ١٣).. ومنها الانبساط الزائد الكثير، والتضايق فى المكان الواسع، والمجاذبة على الشىء يأخذه أحدهما، والتعمد للمس اليد عند المحادثة، ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة، وشرب ما أبقى المحبوب فى الإناء[2]».

فى ضوء هذه الاستفادة، أو إن شئت الدقة فى ضوء هذا النقل، نستطيع أن نتوصل إلى النتائج التالية:

● ان طوق الحمامة كان معروفًا، وجرت عليه أعين القرّاء والكتاب فى سورية، فى النصف الثانى من القرن السابع عشر الميلادى[3]. ومن ثم لا يجب أن نفقد الأمل فى أنه يمكن العثور يومًا على مخطوطة جديدة له فى المشرق.

● لقد أتيحت لى الفرصة أن ألحظ فى مقدمة ترجمتى الإسبانية للطوق[4] أن «باب علامات الحب» أتيح له من بين أبواب كل الكتاب، أكبر حظ من الذيوع والانتشار، فى الشرق والغرب على السواء، فهل ياترى كان هذا الفصل يجرى بين يدى القراء وحيدا، ومنفصلا عن بقية الكتاب، أم أنه ضم، مع فصول غيره، إلى كتاب آخر لا نعرفه، وكان هذا الكتاب المصدر المباشر لمن استخدموه فى المشرق، وحتى فى الغرب؟، فى هذه الحالة علينا أن نصرف النظر عن النتيجة الأولى.

● ملاحظة أخيرة :

لم تعرض لى فى مؤتمر المستشرقين، ولكنى أبادر إلى رأى يمكن أن يقال عن القسم الأول من هذه الدراسة، من الذين يرون أن التشابة صدفة فيما يتصل بالأفكار العامة فى

---

(١) فى الطوق، فى الصفحة نفسها. «منها الاسراع بالسير نحو المكان الذى يكون فيه والتعمد للقعود بقربه، والدنو منه... والتباطىء فى المشى عند القيام عنه...».

(٢) فى الطوق، فى الصفحة نفسها: «ومن علاماته.. والانبساط الكثير الزائد، والتضايق فى المكان الواسع، والمجاذبة على الشيء يأخذه أحدهما.. والتعمد لمس اليد عند المحادثة، ولمس ما أمكن من الاعضاء الظاهرة، وشرب ما أبقى المحبوب فى الاناء».

وفى هذا الاتفاق أشارة جديدة على أن أضافة برشيه، الصفحة ٣٤ من طبعته، لتصبح العبارة «الانبساط الكثير الزائد فى المكان الضيق»، نزوة خالصة، مثل عدد من التصويبات الأخرى التى حاولها.

(٣) كل بقية المؤلفين الذين أشرنا اليهم: ابن الخطيب، وابن قيم الجوزية، وابن أبى حجلة، من القرن الرابع عشر الميلادى، وداود الانطاكي من القرن السادس عشر.

(٤) أنظر الصفحة ٣٠٨ الهامش ١ من هذا الكتاب.

الحب، وفى العبارات والنغم، سهل جدا، لأننا، في رأى من يدافعون عن هذه الفكرة، بصدد مشاعر ومجالات مشتركة بين كل عصر ومكان، ولست من أنصار هذا الرأى، فالحب ليس شيئًا مشتركًا بين مختلف العصور والثقافات، فضلا عما فيه من جانب تشريعى وآخر يمس وظائف الأعضاء، ويقول أورتيجا إى جاسيت: «الظن بأن ظاهرة شديدة الإنسانية مثل أن نحب وجدت دائما، ودائمًا فى صورة واحدة، هو مثل أن نعتقد خطأ أن الأفراد يملكون مثل المعادن والنبات والحيوان طبيعة واحدة وثابتة، ونجهل أن كل ما فيه تاريخي، كل شيء، حتى ما ينتمى منه إلى الطبيعة فعلا، كما هو الحال فى حاجاته الغريزية... الحب شكل واختراع ونظام إنسانى، وليس ابن عم الهضم، ولا زيادة الكلور فى المعدة». وأحتفظ لنفسى بتطبيق أفكار أورتيجا إى جاسيت، في مستقبل غير بعيد، على تطور الأدب العاطفى عند العرب، فقط أبادر هنا إلى القول بأنه يمكننا فى القريب أن نؤرخ فى عالم العرب المشارقة متى اقتحم الحب العذرى مجال الحب الطبيعى الجاهلي، ومتى حل مكانه، ومتى انتصر الحب الذى تمثله قصائد عمر بن أبى ربيعة ورفاقه، ومتى ساد حب الجوارى ومتى برزت ظاهرة حب الغلمان فى الأدب العربى، ومن كل هذه الغراميات الأخيرة، ذات التقليد المشرقى، توجد عناصر فى طوق الحمامة لابن حزم ومن جانب آخر، بين الروحانيات العاطفية النبيلة للأديب القرطبى والفحش الجاسى لشاعر كبير من القرن التاسع الميلادى، مثل الغزال، تتوسط هوة عميقة، لا يمكن أن نفسرها بردود فعل عفوية فحسب، دون أى لون من تأثير التقاليد المشرقية التى سبقته مباشرة.

آخرون كتبوا فى الحب

بعد ابن حزم

• **السراج وكتابه مصارع العشاق :**

كان ابن حزم نسيج وحده فى كتابه **«الطوق»** على نحو ما رأينا، لم ينقل عن أحد ولم يتأثر فى منهجه بقراءة، وترك أثره فيمن جاءوا بعده، دون أن يبلغ أحد منهم مبلغه، وأول هؤلاء فيما أعرف أبو محمد جعفر بن أحمد **السراج**، المتوفى سنة ٥٠٠هـ - ١١٠٧م، وإذا عرفنا أنه جاء إلى الحياة عام ٤١٦هـ - ١٠٢٥م، تبين لنا أنه عاصر ابن حزم لسنوات طويلة تقارب الأربعين عامًا، وكان عالم قرطبة ملء السمع والبصر، ولكن تحديد الزمن الذى بلغت فيه مؤلفاته المشرق عسير، ولما يدرس، ويمكن القول إجمالا أن دنيا المشرق فى القرن الحادى عشر كانت مهيأة، إن لم نقل متشوفة، إلى أن تقرأ كتابًا من طراز «طوق الحمامة» دون أن نجزم بأن عينى السراج وقعت عليه، وليس فى كتابه ما يرجح هذا ظنًا، على نحو ما سنعرف بعد قليل.

يُعرف **السراج** بالقارئ البغدادى، لأنه ولد فى بغداد، وعلى ساحتها لقى الله، وكان رجلا كثير التجارب، رحل إلى مكة والشام ومصر، ويقول عنه **جلال الدين السيوطى**: «كان عالى الطبقة فى الحديث والقراءة والنحو واللغة والعروض»، ومن هنا كانت أغلب تآليفه تقوم على الرواية والنقل، والجمع والنظم، وكتابه «مصارع العشاق» خير مثال لهذا، فهو حشد من الروايات والأخبار والأشعار، مسندة أو مرسلة، يوردهادون أى تحليل أو نقد أو موازنة، كأنما يستهدف الرواية وحدها، وكأنما غايته التسلية والإمتاع وكفى.

ويختلف عن **ابن حزم** فى أنه فقيه سياسى، ومحدث سلفى، يجرى على مذهب العامة فى أيامه، وليس له اطلاع على الفلسفة، ولا مشاركة فى الثقافات الأجنبية المترجمة، وعادى فى حياته وثقافته، ولا يتميز بموقف فى أى مجال، وربما لهذا السبب لا تقف عنده كتب التراجم طويلا، فهو محدث كمئات المحدثين الذين تضيق بهم بغداد، ونحوى كآلاف منهم على امتداد العالم العربى، وأقرب الظن أنه كان رقيق العاطفة،

يصبو للجمال، ويتذوق الشعر، ويقول الأبيات منه على استحياء يلفه الوقار، وتكبح نزعاته التقاليد، ويحرص دائمًا على الأخلاق السائدة، وأراه وجد فى الحديث عن العشاق غيره تسلية، والحياة مع أخبارهم، سلوى، ولعله أراد أن يكتب تاريخه، وأن ينفس عن مكنون صدره، حين سطر سيرتهم فى: «مصارع العشاق».

بدأ السراج كتابه بلا مقدمة تبين منهجه، وانتهى به دون خاتمة توجز غايته، وكسره على اثنين وعشرين جزءا، زحمها بكل ما عرف من قصص العشاق، حتى ما كان نادرا أو خرافة لا تصدق، ولا تجيء أخباره مرتبة، وقد يعرض للموضوع ثم يعود إليه، وقد يجئ جانب منه فى جزء، وجانب ثان فى جزء آخر، ومحورها أخبار العشاق العذريين، وفاضت على أيامه، وأصبحت تمثل فى بغداد تيارا ملحوظًا، فى عالم الأدب على الأقل. ويأتى بأخباره مسندة، وهو فى ذلك يجرى على عادة سارية، لأن إسناد الخبر عنده ليس دليل الصحة دائمًا، وإهماله ليس قرين الضعف. وأورد لنا عبر هذه القصص طائفة من الشعر لعدد كبير من الشعراء على أيامه أو قبلها مثل جرير، وعمر بن أبى ربيعة، وبشار بن برد، وأبى العتاهية، وأبى نواس وأبى تمام، والبحترى، وغيرهم، ولشعراء آخرين مجهولين من الأعراب وسواهم، لا نعرف أسماءهم، ولم تعن كتب الأدب برواية شعرهم، وكان متداولا فى مجالس السمر البغدادية على أيامه، ويأتى بها لأنها تكمل القصة التى يوردها، أو توشى الموضوع الذى يتحدث عنه، أو لأن ذاكرته فاضت بها. وعرض على نحو أقل للحب الإلهى وأورد عددا من قصص الصوفية وأشعارهم فى حب الله، أو الجنة، أو الحور العين، أو فى مدح صاحب الكعبة.

وحاول فى الجانب الأكبر من قصصه أن يؤكد خلود العاشقين، وأن يبرز ملامح النساك منهم والذين يخافون الله، وأن يربط بين العشق والتقى والعفة، وتركنا نفهم أن الدين يسهم بقدر فى توجيه الحب وجهة عفيفة، فعشاقه يؤكدون من خلال تعاملهم على الوازع الدينى، وأنه يحول بينهم وبين ارتكاب المعاصى، أو يحملهم على إخفاء عواطفهم، فصاروا أمثلة للتضحية والوفاء. وهو فى كل الحالات رجل إخبارى، لا يحلل ولا يدرس، لا يلتمس العلل، ولا يدفع لك بالنتائج، ومع ذلك فتحليل القصص الذى أورده يهدى إلى تفسير أدق لظاهرة الحب العذرى فى بغداد. ومن المفيد أن نشير إلى أن السراج، وقد طوى كتابه على الكثير من أشعار العذريين وصرعى الحب الإلهى، لم يجد حرجًا فى أن يتحدث عن عشاق الغلمان، وأورد شيئًا من شعرهم الماجن، وهى

ظاهرة ترتبط بتقدم الحضارة، وكانت بغداد فى قمة الحضارة على أيامه، ولعلها لم تكن ترى فى الحديث عن مثل هذه الظاهرة الشاذة شيئًا يعاب.

ومهما يكن فكتاب السراج قصص انفصل عن الواقع، وعن الأسماء التى ارتبطت به، زاد فيه الرواة وأعادوا تلوينه، أو ابتدعوه أصلا، ونثروا بين سطوره أسماء معروفة، ليكون أقرب إلى الواقع، وأنفذ إلى قلوب السامعين وهو يعكس دون شك ذوق الذين أقبلوا على هذه القصص، يسمرون بها أو يؤرخون لها، دون أن تصبح وثيقة لحياة أبطالها، أو لواقع المجتمع الذى انتموا إليه، ومؤلف الكتاب فقيه خائف، يتوجس شرا من وراء رواية أية حكاية، فيوردها مسندة، كأنما يريد أن ينفض يديه من مسئوليتها، ويوصد الباب دون مشاعره، فلا يعرف أحد على نحو يقيني ما تنطوى عليه، وكلها ملامح يقف ابن حزم فى الجانب المقابل لها تمامًا.

• **كتاب «ذم الهوى» لابن الجوزى :**

بعد ثمانى سنوات من وفاة السراج يجئ **ابن الجوزى**، أبو الفرج عبد الرحمن، القرشى البغدادى، ولد فى بغداد عام ٥٨٠هـ - ١١١٤م، وفيها توفى عام ٥٩٧هـ - ١٢٠١م، والجوزى نسبة إلى «فرضة الجوز» من ضواحى عاصمة الرشيد، وأمضى طفولة تعسة، مات أبوه ولما يتجاوز الثالثة من عمره، وأهملته أمه، فرعته عمة له، ثم احتضنه خاله حين ظهرت مواهبه وتفرد بين قرنائه، واتجه صغيرا إلى الوعظ، فبرع فيه، أعانته عليه مشاعر رقيقة، وحنان متدفق، ورغبة فى الإصلاح، وعزم على مقاومة الفساد الذى عم وطنه، بالكلمة القارعة، والقصة الموحية، والمثل القدوة، ولكن مواهبه لم تقف به عند الوعظ، فشارك فى كل مناحى العلم على أيامه، كتب فى علوم القرآن والحديث، والأدب واللغة، والوعظ والفقه، والتاريخ والسير، وتعرف له المكتبة العربية قرابة ستين كتابًا بين مخطوط ومطبوع، على حين يرتفع أصحاب التراجم القدامى بمؤلفاته إلى ثلاث مئة، ويهمنا من بينها جميعًا كتابه: **«ذم الهوى»**.

وقبل أن نعرض للكتاب نفسه أرى من المفيد أن نقف عند صورة دقيقة لمؤلفه، أوردها **ابن العماد الحنبلى**، نقلا عن **الموفق عبد اللطيف**، ففيها ما يكشف اتجاهه، ويلقى ضوءا على مؤلفه، يقول «كان ابن الجوزى لطيف الصوت، حلو الشمائل، رخيم النغمة، موزون الحركات، لذيذ المفاكهة، لا يضيع من زمانه شيئا، يكتب فى اليوم أربع كراريس ويرتفع له كل سنة من كتابته ما بين خمسين مجلدا إلى ستين، وله فى كل

علم مشاركة.. وكان يراعى حفظ صحته، وتلطيف مزاجه، وما يفيد عقله قوة، وذهنه حدة، يعتاض عن الفاكهة بالمفاكهة، لباسه الأبيض الناعم المطيب.. وله مجون لطيف، ومداعبات حلوة، ولا ينفك عن جارية حسناء، وذكر غير واحد أنه شرب حب البلاذر فسقطت لحيته، فكانت قصيرة جدا، وكان يخضبها بالسواد إلى أن مات».

ورغم أن ابن الجوزى احتاط لنفسه، فجعل عنوان كتابه: «ذم الهوى» مما يرفع الحرج عنه للوهلة الأولى، احتاج كعادة الذين كتبوا فى الحب قبله، أن يشير إلى أنه يؤلف كتابه استجابة لرغبة أبديت له: «شكا إلى بعض من أثرت شكواه إثارة همتى فى جمع هذا الكتاب، من بلاء ابتلى به وهوى هوى فيه، وسألنى المبالغة فى وصف دواء دائه، فأهديت له نصيحة وديد لأودائه، وقد أتيت بها على أبلغ ترتيب». وبعد مقدمة قصيرة جدا لا تتجاوز هذه السطور، عقب بما يشبه أن يكون اعتذارا عما يمس وقاره من مضمون الكتاب: «وأعلم أنى قد نزلت لأجلك فى هذا الكتاب عن يفاع الوقار إلى حضيض الترخص فيما أورد، اجتذابًا لسلامتك، واجتلابا لعافيتك، وقد مددت فيه النفس بعض المد، لأن مثلك مفتقر إلى ما يلهيه من الأسمار، عن الفكر فيما هو بصدده من الأخطار، فليكن هذا الكتاب سميرك، واستعمال ما آمرك به فيه شغلك، والله ولى صلاحك، فإنه لا عاصم إلا من رحم».

ثم أتى على الأبواب التى تضمنها الكتاب، وتبلغ الخمسين، وتحت كل باب فصول عديدة، تتناول الجوانب المختلفة للقضية التى يعالجها.

نحن مع «ذم الهوى» إذن أمام كتاب ضخم، لعله أضخم كتاب ألف فى هذا المجال، ولا غرو أن يكون كذلك، فصاحبه واعظ، معارفه وفيرة وعبارته مواتية، ورغبته فى الإفاضة بينة، وإدراكه لنفسية القارىء دقيقة، وكانت دراسته جماع هذا كله فجاء الجانب الأكبر منها فى التحذير والتذكير، من التنبيه إلى فضل العقل، وذم الهوى والشهوات، والحض على مجاهدة النفس ومحاسبتها، وتوبيخها، ومدح الصبر والحث عليهك وحراسة القلب من التعرض للشواغل والفتن، وما يصدأ به، وما يجلو صدأه، أو يفرغه من محبة الرب.

وخص النظر بأبواب عديدة تدور حول الأمر بغض البصر، وذم فضول النظر، والتحذير من شره، والنهى عن النظر إلى المردان ومجالستهم، وإثم النظر وعقوبته، ومن عاقب نفسه عليه ومن طلب العمى خوف الفتنة، وثواب من غض بصره عن الحرام، ومعالجة

الهم والفكر المتولد عن النظر، والتحذير من فتنة النساء، والتخويف من الفتن ومكايد الشيطان، والتحذير من المعاصى وقبحها، وفى ذم الزنا، وعرض للعواطف المنحرفة، وحذر من ذلك كله، وذكر بعقوبته، وحث على التوبة لمن تردى فى مهاويها، وخرج من ذلك إلى نهاية منطقية فيها الحماية لمن أراد العافية، فحبب فى الزواج، وقرع من خبب امرأة على زوجها، وبذلك انتهى الجانب الوعظى من الكتاب.

ومن الباب الخامس والثلاثين حتى نهاية الكتاب وقفه على العشق، حقيقته وأسبابه وذمه، وثواب العفة فيه، وما يجرى على العاشق من المرض والضنى والجنون والحيل والمخاطرة، والتهلكة لأجل لقاء المحبوب، ومن ضربت به الأمثال من العشاق، ومن حمله العشق على أن يزنى بمحارمه، ومن كفر بسببه، ومن دفع به العشق إلى أن يقتل نفسه أو معشوقه، ومن قتله العشق، وأدوية الشفاء، وأخبار مشاهير العشاق، وأنهى الكتاب بباب وقفه على الوصايا والزواجر والمواعظ.

كان اعتماد ابن الجوزى فى الجانب الخاص بالنهى والتحذير، والإرشاد والتذكير، قائمًا على النقل عن الزهاد والعباد والمحدثين، والفقهاء والمتصوفة والمفسرين، والأدباء والعلماء وعلية القوم، والبدو وعامة الشعب، وقد يذهب بعيدا فينقل عن السيد المسيح، ويستشهد بأحوال الرهبان، أو يضرب المثل بأنبياء بنى إسرائيل، وأفاد فى الأبواب الخاصة بالعشق من التراث اليونانى المترجم، فهو ينقل عن أفلاطون، وبوذجانس، وأرسطوطاليس، وفيثاغورس، وجالينوس، ويسميهم «الأوائل»، ويعقب على آرائهم بالإسلاميين. إنه مفتوح العقل والقلب، يلتقط أية مادة يسقط عليها عقله، ما دامت تخدم الهدف الذى يسعى إليه، ويوشى قصصه بين حين وآخر بأبيات من الشعر تمتد أحيانًا حتى تصبح قصيدة طويلة، وأخباره مسندة دائمًا، وعبارته واضحة أبدا.

وحددت مهمته واعظا نهجه فى الرواية، فهو يهتم بالتأثير فى المقام الأول، لا يعنيه المصدر كثيرا، ولا صدق ما يرويه، يحور القصة ويطورها وقد يوشيها بحديث ولو موضوع، لكى يبلغ التأثير غايته. وجرى قلمه بأبعد مما جرى به قلم أى واحد من الذين سبقوه، يورد قصة الأم التى عشقت ابنها واحتالت عليه، والأخ الذى أحب أخته واتخذها عشيقة، ويمضى بالقصتين فى خبر مثير، وأسلوب سهل جذاب، يغرى بالقراءة، ويمسك باهتمام القارىء حتى النهاية.

والكتاب صورة لما كان يجرى فى المجتمع العربى بعامة، وفى بغداد على نحو خاص، فى عصر المؤلف وما قبله، وإذا صفينا مادته من طابع القصة، وإرادة التأثير، التقينا بالحياة كما هى، وإذا البون شاسع بين ما يحدث فعلا، وما يتمناه ابن الجوزى واعظًا، وقد أسرف فى أمثلته، وأراها لا تحقق ما أراد منها، فبها أشاع نادرا، وأذاع مجهولا، وجعل من سقطات الأبرار مندوحة لعامة الناس.

وأدار المؤلف ظهره للأندلس، والغرب الإسلامى، وحتى مصر لا ترد إلا نادرا، وكان فى ذلك مخلصًا مع نفسه، فهو لم يبرح بغداد فيما يبدو، والتقط مادته من روايات معاصريه الذين لقيهم، وشهدة بنت أحمد من بينهم على نحو ظاهر، والخبر الأندلسى الوحيد الذى اهتم به، وأروده تفصيلا، قصة **أحمد بن كليب** مع **أسلم بن عبد العزيز**.

وأكاد أجزم أن **ابن الجوزى** لم يقرأ **«طوق الحمامة»**، أو حتى سمع به، فهو لا يأتى على ذكر **ابن حزم** أبدا، ولا يلتقى معه فى رأى أو منهج أو فكرة، ومسافة الخلف بينهما واسعة، مادة ومنهجًا، ابن حزم أصيل وذاتى ومبدع، وابن الجوزى قارىء ومختار وصانع، والأول واقعى ومقرر وذاتى، والثانى واعظ وقصاص وناقل، والقرطبى يقدم مادة لانكاد نجدها عند غيره، والبغدادى يقدم حشدًا هائلا من الروايات يمكن أن نلتقى بالجانب الأكبر منها مبعثرا فى مؤلفات أخرى، ولكن ذلك لا يقلل من شأنه، فهو شيق بحكاياته وأسلوبه، وأنت تجرى بين سطوره، وكأنك تقرأ كتابًا معاصرا، لا تقع منسعلى جملة قلقة أو تعبير غامض، أو كلمة صعبة تقف عندها، أو تحتاج فى فهمها أن تعود إلى المعاجم.

- **روضة المحبين لابن قيم الجوزية :**

وبعد قرن تقريبًا يجئ **ابن قيم الجوزية**، ومن توافق الصدف أن البعد الزمنى بين وفاة السراج ومولد ابن الجوزى، يعادل تقريبًا المسافة بين وفاة ابن الجوزى ومولد ابن قيم الجوزية، سنوات تتجاوز التسعين وتقل عن المائة، وثمة فارق جوهرى بينهم، فالسراج وابن الجوزى بغداديان، وابن قيم الجوزية دمشقى، جاء إلى عاصمة بنى أمية عام ٦٩١هـ - ١٢٩٢م، وبها توفى عام ٧٥١هـ - ١٣٥٠م، وعبر حياته الطويلة تنقل ما بين **سورية ومصر** ومكة. وكان تلميذا لشيخ الإسلام **ابن تيمية** (١٢٦٣-١٣٢٨م)، لا يخرج عن شيء من أقواله، وينتصر له فى جميع ما يصدر عنه، وهو الذى هذب كتبه، ونشر علمه، وسجن معه فى قلعة دمشق، وأهين وعذب بسببه، وطيف به على

جمل مضروبًا بالعصى، وأطلق سراحه بعدموته. وكان **ابن تيمية** إمامًا جليلا، لا يخضع فى مذهبه إلا للقرآن والسنة والإجماع، رغم أنه من أتباع الإمام أحمد بن حنبل، وقد رفع عقيرته ضد البدع وعبادة الأولياء والحج إلى قبورهم، والنذر لهم، وسار الوهابيون على مبادئه فيما بعد.

وكان ابن قيم الجوزية حسن الخلق، محبوبًا عند الناس، ذا عبادة وتهجد وطول صلاة، تفنن فى كافة علوم الإسلام من تفسير وحديث وأصول، متمكنًا من النحو وعلم الكلام والتصوف، أغرى بحب الكتب فجمع منها عددا عظيما، وكتب بخطه الحسن شيئًا كثيرا، وألف تصانيف كثيرة تقارب السبعين، أروجها: «زاد المعاد فى هدى خير العباد»، ويهمنا من بينها كتابه: «روضة المحبين ونزهة المشتاقين»، وأراد به فيما يقول: «عونًا على الدين والدنيا، فتارة يضحك قارئه، وتارة يبكيه، وطورا يبعده عن أسباب اللذة الفانية، وطورا يرغبه فيها».

تناول **ابن قيم الجوزية الحب** من كل جوانبه، حب الله والإخوان، والأموال والنساء والألحان، «فبالمحبة وللمحبة وجدت الأرض والسموات. وعليها فطرت المخلوقات، ولها تحركت الأفلاك الدائرات، وبها وصلت الحركات إلى غاياتها. واتصلت بداياتها بنهاياتها، وبها ظفرت النفوس بمطالبها، وحصلت على نيل مآربها، وتخلصت من معاطبها». ويرد الحب إلى أسباب ثلاثة: ما قام بالمحبوب من الصفات التى تدعو إلى محبته، وما قام بالمحب من الشعور بهذه الصفات، والموافقة التى بين المحب والمحبوب، ومتى قويت هذه الدواعى وكملت، قويت المحبة واستحكمت، والعكس صحيح أيضًا.

وهو رجل دين ملتزم، وباحث جاد فى دروسه وفى حياته، يعرض للجنس والحب فلا يرى له طريقًا غير حكم الشريعة، لا يرجع إلى عادة جارية فى أيامه، ولا إلى تفسير مستعار، لا يتساهل ولا يترخص، «إن فصل الخطاب هو أن الاتصال الجنسى الحرام يفسد الحب، ولابد أن تنتهى المحبة بينهما إلى المعاداة والتباغض، أمّا الاتصال المباح فإنه يزيد الحب إذا صادف مراد المحبوب، فإنه إذا ذاق لذته وطعمه أوجب له ذلك رغبة أخرى لم تكن حاصلة قبل الذوق».

ويعرض للنظر على غير ما نظر فيه ابن الجوزى قبله، يورد أراء الذين يرونه مباحًا، لأن روْية الجمال البعيد تنطق ألسنة الناظرين بقولهم: سبحان الله رب العالمين، وتبارك الله أحسن الخالقين، والله تعالى لم يخلق هذه المحاسن عبثًا، وإنما أظهرها ليستدل

الناظر إليها على قدرته ووحدانيته وبديع صنعه ولقد خطب رجل امرأة فاستشار النبى فقال: هل نظرت إليها؟ فقال: لا. قال: إذهب فانظر إليها». و«أَمْرُ النبى للخاطب بأن ينظر إلى المخطوبة إنما هو نظر للحاجة، وهو من النظر المأذون فيه لمصلحة راجحة، وهو دخول الزوج على بصيرة فالنظر المباح أنواع هذا أحدها، بخلاف النظر إلى الصورة المحرمة، بل إن التلاصق لا يذهب التقى إذا كان فى عشق مباح، بل هو أمر مستحب، كعشق الزوجة والجارية. «ويورد مناظر طريفة بين القلب والعين، فالعين رائدة، والقلب باعث طالب، وهذه لها لذة الرؤية، وهذا له لذة الظفر، لهذا كانا فى الهوى شريكين، فلما وقعا فى العناء، واشتركا فى البلاء، أقبل كل منهما يلوم صاحبه».

ويورد فى حقيقة العشق آراء الأطباء والفلاسفة، والمفكرين العرب، وأهمهم رأى ثمامة بن أشرس، وهو موجود فى كل الكتب السابقة التى عرضت للحب، ويعرض لإرادة الحب: هل هو اختيارى تابع لهوى التنفس وإرادتها، أو اضطرارى لا يدخل تحت قدرة العبد، فهو بمنزلة محبة الظمآن للماء البارد، والجائع للطعام، ويورد آراء كل من الفريقين، ويفصل بينهما، منتهيًا إلى أى وسط، فالحب فى أوله، من نظر وتفكير وتعرض، أمر أختيارى، ولكن ما يترتب على هذا الاختيار اضطرارى، ويضرب لذلك مثلا بالخمر والسكر، فشرب الخمر أمر إرادى، ولكن السكر الذى يتولد عنها اضطرارى، متى وقع السب اختيارا، لم يكن فاعله معذورا فيما تولد عنه، فإذا حصل العشق بسبب غير محظور، كمن يعشق زوجه أو جاريته، ثم فارقها وبقى عشقها غير مفارق له، لا يلام صاحبه عليه، ولا يقف بالجبرية عند هذا الحد، فمن وقع نظره فجأة على جميلة، ثم صرف بصره، ولكن العشق تمكن منه، لم يكن مختارا.

ويتناول قضية الحب من جانبها الفقهى، وأكمله فيما يرى ما انتهى بالزواج، فالعزوبة ليست من الإسلام فى شىء، فاذا تزوج المحبان فإن للمعاشرة فوائد وآدابًا وقواعد منها: «إكمال اللذة، وكمال الإحسان إلى الحبيبة، وحصول الأجر، وثواب الصدقة، وفرج النفس، وذهاب أفكارها الرديئة عنها، وخفة الروح، وذهاب كثافتها وغلظها، وخفة الجسم، واعتدال المزاج، وجلب الصحة، ودفع المواد الرديئة، فإن صادف ذلك وجها حسنًا، وخلقًا دمثًا، وعشقًا وافرًا، ورغبة تامة، فتلك اللذة التى لا يعادلها شىء، ولاسيما إذا وافقت كمالها، فإنها لا تكمل حتى يأخذ كل جزء من البدن بقسط من اللذة، فتلذ العين بالنظر إلى المحبوب، والأذن بسماع كلامه، والأنف بشم رائحته، والفم بتقبيله،

واليد بلمسه، وتعتكف كل جارحة على ما تطلبه لذتها، وتقابله من المحبوب، فإن فقد من ذلك شيء لم تزل النفس متطلعة إليه، قال الله تعال: «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها».

ويدرك واعيا أن الرغبة تشتد مع الصحة الكاملة، والغذاء الجيد، وتهبط أو تتلاشى مع المرض والجوع والحاجة، فالصوم، مثلا، يكسر حدة الشوق ويضيق على النفس مجارى الشهوة، ويختم كتابه بخمسين وصفة لمن وقع فى الهوى وأراد أن يبرأ منه، وهى نصائح مسجوعة، ووعظ إنشائى، قراءتها تسلى، ولكنها لا تشفى عاشقًا، ولا تأخذ بيد مريض.

ينفرد **ابن قيم الجوزية** بين رفاقه بأنه قرأ كتاب «**طوق الحمامة**» دون شك، وعلى ذلك شواهد من حياة الرجل، ومن طبيعة العصر، ومن كتابه نفسه، فنحن نعرف أنه كان جماعة للكتب حفيًا بها، وخلف وراءه مكتبة غنية، وكانت الصلة بين **دمشق والأندلس** أقوى بكثير فى هذه الفترة من الزمن مما كانت عليه بين **الأندلس وبغداد** بعد أن سقطت الخلافة، واجتاح هولاكو عاصمة بنى العباس، وأتى على معالمها تدميرا، وأرسل بها إلى دائرة الظل لزمن طويل، على حين صعد نجم **القاهرة** سريعًا، وأصبحت قبلة العالمين العربى **والإسلامى**، بعد أيام **صلاح الدين** المجيدة، وبعد أن حطم الجيش المصرى **بقيادة الظاهر بيبرس** جيش التتار فى موقعة «**عين جالوت**»، عام ١٢٦٠م، وحرر سورية، وعاد بها من جديد إقليما من دولة كبرى عاصمتها القاهرة، وتشمل **مصر والشام والجزيرة العربية**. وكانت **مصر** محط الأندلسيين فى طريقهم إلى الحج، أو رحالة إلى الشرق، أو تجارا يعملون فى التصدير والاستيراد، أو طلابًا يبحثون عن العلم، أو أساتذة يحاولون أن يجدوا لهم فى حلق الأزهر مكانًا، زهوًا بما وصلوا إليه وبلغوه فى وطنهم، أو هاربين من الملاحقة يطلبون الأمن والمأوى. ومن **القاهرة** ينطلقون إلى الحجاز للحج، وإلى القدس تبركًا، وإلى دمشق طلبًا لصناعاتها الدقيقة، وكانت تشتهر بها على نحو عالمى، طوال العصر الوسيط.

أما تأثير «**الطوق**» فى كتاب «روضة المحبين»، فيتجلى من خلال مناقشة **ابن قيم الجوزية** لآراء **ابن حزم** وفيما نقل عنه، فهو يرفض رأى عالم قرطبة فى أن سبب الحب «اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع»، لأنه مبنى على القول بتقدم خلق النفوس على الأبدان وهو فاسد، وعلى خطى ابن حزم يؤمن

بوحدانية الحب، ولكنه لا يقف مثله بالفكرة عند جانبها العاطفى وحده، وإنما يكسوها ثوبًا دينيًا، فيذكر الآية:«ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم»، ويذكر أراء المفسرين فى أن المقصود عجز الإنسان عن العدل بينهن فى الحب والشهوة، وإن كان يستطيع أن يفعل ذلك فيما هو مادى من الملبس والمسكن والنفقة، وينشر أبيات ابن حزم فى استحالة تعدد المحبوب، ويصنع منها مثلا موجزا: «ليس فى القلب حبان، ولا فى السماء ربان».

أما الباب الخاص بعلامات الحب، فكان فيه عالة على ابن حزم تمامًا، ينقل عنه دون أن يشير إليه، ويستشهد به ذاكرا له فى أكثر من موضع، والفرق بينهما أن ابن حزم موجز، يحاول أن يعطى صورة لنفسه ولمن حوله، دون أن يرتدى ثياب الواعظ أو مسوح الراهب، ولا يحاول أن يبحث عن أمثاله خارج حياته وحياة صحبه، ولا يقتنص الشواهد مما قرأ فى كتب الآخرين، على حين أن ابن قيم الجوزية يورد على ما يقول، أو ينقل إن شئت، الشواهد كثيرة ومتعددة، وهو يؤرخ أو يحلل، ولكن عينه على ما تقتضيه الشريعة إجازة أو تحريمًا، وقد كسا أفكاره أثوابًا مشرقية، وصاغها فى صورة دينية، ليبلغ بها غايته، وكان واثقًا من نفسه فلم يكن فى حاجة ليعتذر عن حديثه فى الحب، أو ليبرر إقدامه على التأليف فيه.

- **ديوان الصبابة لابن أبى حجلة التلمسانى :**

وكان ابن أبى حجلة التلمسانى، أحمد بن يحيى، أبو العباس، معاصرًا لابن قيم الجوزية، حنبليًا مثله فى اتجاهه الفقهى، وهو يمثل وحدة الثقافة الإسلامية فى عصرها الزاهر خير تمثيل، فقد ولد فى المغرب عام ٧٢٥هـ ١٣٢٥م، وأمضى شطرًا من حياته فى دمشق، ثم جاء القاهرة واستقر بها، وولى مشيخة الصوفية بصهريج منجك، إلى أن توفى عام ٧٧٦هـ - ١٣٦٦م، وله أكثر من ثمانين مصنفًا فى الحديث والفقه والنحو والأدب، وله شعر ونثر، ويهمنا من بين كل مؤلفاته كتابه:«ديوان الصبابة».

بدأ ابن أبى حجلة كتابه بمقدمة مسجوعة. أبان فيها غايته بأنه يحوى أخبار من قتلهم الهوى، وتركهم كهشيم محتضر، ويزهو بأن جماعة من معاصريه غلبوا من تقدم بالتأليف فى هذا الباب، ويقارن بين كتابه وبين ما ألفه الشهاب محمود، ويرى أن ذاك بالنسبة إلى هذا مشكور، ويشير إلى **«طوق الحمامة»** فى السطور الأولى من مقدمته إشارة غامضة، لم أتبين ما يريد منها تمامًا، ربما لأن النص الذى بين أيدينا مطبوع

تجاريًا، على هامش كتاب «تزيين الأسواق» للأنطاكى،فهو ملىء بالتحريف والأخطاء. سلك ابن أبى حجلة فى تأليف كتابه طريق «الاختصار والاقتصار، على النوادر القصار» واحتذى فيه شكلا منهج ابن حزم، فرتبه على مقدمة وثلاثين بابًا وخاتمة، أوقف المقدمة على ذكر حد العشق واشتقاقة، وما قيل فى وسمه ورسمه، وأسبابه وعلاماته ومراتبه، وأسمائه ومدحه وذمه، واختلاف الناس فيه: أهو اختيارى أم اضطرارى، وخص الخاتمة بمن «مات من حبه، وقدم على ربه، من غنى وفقير، وكبير وصغير». ودرس فى كل باب من أبوابه جانبًا من جوانب الحب، فبدأ بذكر الحسن والجمال، والمحبين والظرفاء من الملوك والخلفاء، ومن عشق على السماع، ومن أحب من أول نظرة، وتغير ألوان المحبين، والغيرة، وإفشاء السر، ومغالطة الحبيب، والرسل والرسائل، ولطيف الخيال، والرقيب، والنمام والواشى، والتعاتب بين الأحبة، ومساعدة العاشق، والشفاء من الجوى، وتعنت المعشوق، والدعاء على المحبوب، والخضوع، والوعد، والرضى من المحبوب، واختلاط الأشباح، ونحول المحب، وما يكابده المحبون، وطيب ذكر الحبيب، ووصف ما يجمل فى المحبوب شكلا، وأخبار المطربين من الرجال وذوات الحجال، ومن ابتلى بحب النساء والغلمان ومن اتصف بالعفاف، ويأتى بعناوين الأبواب مسجوعة فى تكلف ظاهر، وتحت كل باب فصول تختلف طولا وعددًا من باب إلى آخر.

عاش ابن أبى حجلة فى عصر بدأت فيه الثقافة العربية تأخذ شكلا موسوعيا، يقوم على الجمع والحفظ والترتيب، وكان المغاربة أكثر ميلا، وأسبق أخذًا، فى هذا الاتجاه، ويتجلى هذا واضحًا فى «ديوان الصبابة»، فقد زحمه صاحبه بأسماء الفلاسفة والشعراء والكتاب، وهو لا يقنع من الأسماء الأجنبية بذكرها، وإنما يضيف إليها تعريفًا موجزًا، لا تجده عند من سبقوه، ممن كتبوا فى هذا المجال، فارسطو فلكى وتلميذ افلاطون، وأفلاطون أخذ الحكمة عن فيثاغورس، وبطليموس فلكى وعلى معرفة واسعة بالجغرافية، وإلى جوار هؤلاء تلتقى بأسماء ابن سينا، والجنيد، ومن الشعراء أبو تمام، وبشار، وأبو نواس، وامرؤ القيس، ووالبهاء زهير، وابن نباتة المصرى، وآخرون كثيرون.

وينقل عمن سبقوه فى الكتابة عن الحب، كالخرائطى، وابن حزم، والسراج، وابن الجوزى، وابن قيم الجوزية، وعن أبى عمرو محمد بن أحمد النوفانى، فى كتابه «تحفة الظراف» وشمس الدين بن الأكفانى فى كتابه: «غنية اللبيب عند غيبة الطبيب»، وتفرد من بين هؤلاء جميعًا بأنه ضمن كتابه أمثلة أندلسية عديدة، جاء بها من مصادر مختلفة،

أشار إليها حينا، وأهملها حينا آخر، وهو أمر طبيعى من مغربى يعيش فى المشرق، ويشده الحنين دومًا إلى مسقط رأسه، وذكريات أمسه، وكان الأندلس جزءًا من عالم المغرب أحاسيس وذكريات، فقد أورد فى الباب الأول بيتين للحكم بن هشام دون أن ينسبهما إليه، مكتفيًا بقوله: إنهما «لبعض ملوك الأندلس» وهما:

ظـل مِن فَرْط حُبِّه مملوكًا ... ولقـد كان قبـل ذاك مليكا
تركتْه جـــآذر القصر صبًّا ... مستهامًا على الصعيد تريكا

ثم عاد فى الباب الثانى، وهو الخاص بذكر «المحبين الظرفاء من الملوك والخلفاء»، فذكرهما ثانية، وأضاف إليهما بيتين آخرين، ونسبها إلى الحكم **ابن هشام** صراحة[1]، وأتى بأبيات الرشيد فى جواريه، وهى مشهورة، ووصلت الأندلس فى زمن مبكر، وراجت فيه كثيرًا، وأتبعها بأبيات الخليفة الأندلسى **سليمان المستعين**، من قصيدته التى قالها يعارض فيها أبيات الرشيد، وكان الأندلسيون يزهون بقصيدة أميرهم، ويرون بحق أنها أرق من أبيات الرشيد، وقد أتينا عليهما من قبل[2]، وينقل بعدها رواية للشيخ أثير الدين أبى حيان نصها: «كان السلطان أبو عبدالله محمد بن السلطان الغالب بالله، أحد ملوك الأندلس، جميلا حسن السياسة، متظاهرًا بالدين، رأيته مرارًا بغرناطة، وأنشدنى شعرا، وحضرت عنده إنشاد الشعراء، ومن شعره:

أيا ربّة الخدْر التى أذهبت نُسكى ... على كلِّ حال أنت لابد لى منك
فإمـــا بَذْلٌ وهـــو أليْقُ بالهـوى ... وإمـــاً بعزٍ وهـــو أليْق بالملك

وهو كما ترى شعر سخيف، وكل مبررات روايته وذكره أن قائله أمير. ويورد الأبيات التالية، من قصيدة رقيقة وشهيرة لابن بقى، نقلا عن ابن الأبار فى كتابه «تحفة القادم»، وهى ليست موجودة فى «المقتضب» منه الذى اختاره أبو اسحاق إبراهيم بن محمد البلفيقى:

حتى إذا مالتْ به سنة الكرَى ... زَحْزَحْتُه شيئًا وكان معـــانقى
أبعدتُه عن أضَــــلع تشتاقُه ... كى لا ينام على وســاد خافق

(١) المقطوعة من خمسة أبيات فى «الحلة السيراء لابن الابار، ج ١ ص ٤٩ ، طبعة القاهرة ١٩٦٣م».
(٢) انظر صفحة ١٠٠ من هذا الكتاب.

ويعلق عليها ابن الأبار: «نسب بعض أهل عصرنا ابن بقى[1] إلى الجفاء فى قوله: «أبعدته عن أضلع تشتاقه»، ولو قال: أبعدت عنه أضالع تشتاقه لكان أحس». ويعقب عليه برأى **ابن الأثير فى هذه الأبيات**، نقلا عن كتابه **«المثل السائر»**: «أبيات ابن بقى من الحسن والملاحة بالمكان الأقصى، ولقد خفت معانيه على القلوب حتى كادت ترقص رقصًا». ولم يقف عند هؤلاء وحدهم، فاستشهد بأبيات من شعر ابن عبد ربه، وابن زيدون، وابن شرف، وابن رشيق، وابن الزقاق، وابن خفاجة، وابن سهل الإشبيلى، وغيرهم.

وقد اتكأ **ابن أبى حجلة** على **ابن حزم** فى أكثر من مكان، وكان غرسية غومث فطنًا كعادته حين لحظ أن «باب علامات الحب» فى **«طوق الحمامة»**، كان أكثر أبواب الكتاب ذيوعًا وتأثيرًا فيمن جاءوا بعده، ونجد ذلك واضحًا فى مقدمة **«ديوان الصبابة»**، فى الفصل الخاص بأسباب الحب وعلاماته، فهو يذكر:«ومنها أنه يستدعى سماع اسم محبوبه، ويستلذ الكلام فى أخباره، ويحب أهل محبوبه»، «والإنصات لحديثه إذا حدث، واستغراب كل ما يأتى به، ولو أنه عين المحال، وتصديقه وإن كذب، وموافقته وإن ظلم، والشهادة له وإن جار، واتباعه كيف سلك» «والإسراع بالسير نحو المكان الذى يكون فيه، والتعمد للقعود بقربه، والدنو منه، واطراح الأشغال الشاغلة عنه، والزهد فيها، والرغبة عنها، والاستهانة بكل خطيب جليل داع إلى مفارقته، والتباطىء فى المشى عند القيام عنه». وهى فقرات نقلها كلها عن «الطوق» نصًا دون أن يشير إليه.

ويذكر **ابن أبى حجلة** فى الباب الثالث من كتابه، وهو «فى ذكر من عشق على السماع، ووقع من النزوع إلى الحبيب فى النزاع»، قصة أبقراط حين وصف له رجل من أهل النقص أنه يحبه، فقال: ما أحبنى إلا وقد وافقته فى بعض أخلاقه، وقد نقلها نصًا عن ابن حزم، وقد أوردها فى «الطوق» فى باب «الكلام فى ماهية الحب». وينقل فى الباب التاسع والعشرين، وهو «فى ذكر من ابتلى من أهل الزمان بحب النساء والغلمان»، قصة أوردها ابن حزم فى «الطوق» فى «باب فضل التعفف»، وينسبها إليه فى هذه المرة، ويلقبه بالأموى، ونص عبارته «قال الحافظ أبو محمد الأموى، إن امرأة يثق بها حدثته أن فتى علقها، وشاع أمرهما، فاجتمعا يومًا خاليين فقال لها: هلمى نحقق

(١) وردت كلمة ابن بقى فى ديوان الصبابة المنشور فى المرات الثلاث (ابن تقى)، وهو خطأ.

ما يقال فينا. فقالت:لا والله، لا كان هذا أبدا، أنا أقرأ: «الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين».

وأورد ابن ابى حجلة فى الباب الثانى «فى ذكر المحبين الظرفاء، من الملوك والخلفاء» أبياتًا لابن حزم، دون أن ينسبها إليه، وقد جاءت فى «الطوق» عند الحديث على وحدانية الحب، فى «باب من لا يحب إلا مع المطاولة»[١] ولم يورد «ديوان الصبابة» البيت الأول. وتقدم بالبيت الأخير بيتًا، وتأخر بالذى سبقه، وأعاننا على تصحيح كلمة فيه، جاءت قلقة فى طبعتنا الأولى «للطوق»، وصححناه فى الطبعة الثانية منه، كانت فى تلك «ذو شك» فأصبحت فى هذه «ذوشرك»، وهى أقرب إلى الصواب، وفى الباب الثالث، وهو «فى ذكر من عشق على السماع»، يورد ثلاثة أبيات من الشعر، من بحر الهزج، وينسبها لشاعر يدعى المدنى على حين ينسبها ابن حزم فى «الطوق» فى «باب من أحب بالوصف» لنفسه، والبيت الأول منها:

ويامن لا منى فى حب من لم يره طرفى[٢]

وفى الفصل نفسه يورد ابن أبى حجلة أربعة أبيات من الشعر، غير منسوبة لأحد، ومطلعها:

ياليت شعرى من كانت وكيف سرتْ ... أطلعة الشمس كانتْ أم هى القمرُ

وقد نسب ابن حزم الأبيات لنفسه، وجاء بها فى «الطوق» فى «باب من أحب فى النوم»[٣]، وأعانتنا رواية «ديوان الصبابة» على تصويب كلمة غامضة وغير واضحة فى البيت الثانى، وهى «أظنه» فأصبحت «أظنها»، وكلمة «تخيل» فى البيت الثالث فأصبحت «تحير»، وبذلك استقام معنى الأبيات. وقد نسب ابن أبى حجلة فقرة فى الفصل الرابع من مقدمة كتابه إلى ابن حزم وهى: «قال رجل لعمر بن الخطاب: ياأمير المؤمنين، إنى رأيت امرأة فعشقتها، فقال عمر: ذلك مما لايملك، ولم يذكر المصدر الذى نقلها عنه، ولا توجد فى نسخة «الطوق» التى بين أيدينا، وهى به أشبه.

(١) طوق الحمامة، ص ٤٦ ، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥.
(٢) طوق الحمامة، ص ٣٨، وفى ديوان الصبابة: أيا من....
(٣) طوق الحمامة، ص ٣٧.

قد نلتقي بالعنوان واحدا، أو متقاربًا، عند الإثنين، لكنهما يختلفان في تناوله «فباب «الإذاعة» عند ابن حزم، هو باب «في إفشاء السر والكتمان عند عدم الإمكان» عند ابن أبي حجلة، و «في الرسل والرسائل، والتلطف في الوسائل» عنده، تلتقي به عند ابن حزم في بابي «المراسلة» و «السفير». وهو يفرد بابًا خاصًا لكل من «الرقيب» و «الواشي»، ولكن ابن أبي حجلة يجمعهما في باب واحد: «الرقيب والنمام، والواشي الكثير الكلام». وابن حزم، في كل هذه الأبواب، يتخذ مادته من الواقع، ويوشيها بشيء من شعره، أما ابن حجلة، فاكتفى فيها بأمثال عديدة من الشعر، لشعراء مختلفين، وقليل من حكايات مشرقية ينقلها عن الخرائطي، دون أن يأتي بجديد أو ينقل عن ابن حزم شيئًا.

والحق أنهما في ما عدا ما أشرنا إليه من موافقات، نقل فيها الأديب المغربي عن عالم قرطبة العظيم، يختلفان دافعًا ومناخًا وغاية. لقد جاء ابن حزم في وهج الخلافة، وكتب «الطوق» في عنفوان شبابه، فكان صورة للتمرد والأصالة، وعدم المبالاة بما حوله، وألّف ابن أبي حجلة كتابه وشمس الحضارة الإسلامية تسرع نحو الغروب، فجاء مزيجًا مما حوله، رواية وجمعًا، وخرافة وأساطير، وفحشا وقلة حياء.

ولقد عالج ابن حزم الحب عاطفة لاتقنن، وأمسك بجوانب غير قليلة من ظواهره، وحاول أن يجد لها تفسيرا، ودخل به ابن أبي حجلة في متاهات الفقه، فيبحث مثلا: هل التداوي بالجماع يبيحه الشرع، ويذهب إلى أن ذلك غير جائز إذا كان المحبوب ممن لا يجوز نكاحه، وأما التداوي بالضم والقبلة، فإن تحقق الشفاء به، كان نظير التداوي بالخمر عند من يبيحه، بل لعل ذاك أسهل من هذا، لأن شربه من الكبائر وهذه من الصغائر».

ويعرض لحق الزوجة على زوجها حين ترغب، ويأتي بآراء الذين لا يرون لها هذا الحق، لأنه للزوج وحده، إن شاء استوفاه وإن شاء تركه، ويراه أضعف الأقوال، لأن القرآن والسنة والعرف والقياس يرفضه، ويرده قول الله: «ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف». وقال آخرون بل هو حق واجب، وحددوا له مواعيد، وضربوا آجالا، وكان ابن قيم الجوزية يرجح هذا الرأى فيما يشير.

وأسرف ابن أبي حجلة في وصف المرأة حسيا، وأوقف على ذلك فصولا تتناول كل أجزاء جسمها، وما قال الشعراء فيها وتغزلوا به، وهي أشياء برئ منها كتاب ابن حزم. والظاهرة التي استرعت انتباهي، ووقفت عندها طويلا، أن ابن حزم عرض لظاهرة

حب الغلمان، وجاء لها بشواهد واقعية تتناثر عبر صفحات الكتاب كله، دون أن يخصها بباب، أو يحللها، أو يدلى فيها برأى، إلا ما جاء فى الباب قبل الأخير، وأوقفه على «قبح المعصية» وتحدث فيه عن حرمة الزنا واللواط بعامة، ولم يعرض لظاهرة حب المرأة للمرأة لا تلميحًا ولا تصريحًا، ولا تمثيلا، ولا حتى تقبيحًا، تجاهلها تمامًا. على حين خص ابن أبى حجلة ظاهرة التغزل فى الغلمان بباب كامل : «ذكر من ابتلى من أهل هذا الزمان بحب النساء والغلمان»، ولم يقف بالأمر عند هذا الحد، فتجاوزه إلى الحديث عن حب المرأة للمرأة، وأفاض فيه، وأسرف لونا وقولا فيما أتى به من شواهد وأمثلة وأشعار.

لا أظن سكوت ابن حزم عن هذه الظاهرة يعنى أن قرطبة قد خلت منها، فليس ذلك من طبيعة الحياة فى القديم أو الحديث، ولا أظنه تجاوزها تعففًا فقد تحدث عن الحب يقع من الرجل على الغلام، فهل يقع فى الظن أن الناسخ رفع من الكتاب ما اتصل بهذا الأمر؟ ربما. إنه فرض قائم حتى نجد للأمر تفسيرا آخر، ولا يقلل من هذا الاحتمال أنه أبقى على ما اتصل منه بالغلمان، فالرجل فيما يتصل بالمرأة أنانى بطبعه، ولدينا على هذا شواهد كثيرة حذف فيها الناسخون أو الطابعون ما اتصل بحب المرأة وأبقوا كل ما اتصل منها بالرجل مهما كانت معيبة.

بقى أن أشير إلى أن الأندلسيين احتفوا بديوان الصبابة على نحو لا نعهده حتى مع كتاب ابن حزم، فقد وصل الأندلس عام ٧٦٧هـ ١٣٦٦م فيما أرجح، أى قبل وفاة مؤلفه بعشرة أعوام كاملة، ورفع إلى السلطان أبى عبدالله بن أبى الحجاج يوسف، فأعجب به، وأشار أصحابه على لسان الدين بن الخطيب أن يعارضه ففعل، وجعله لموضوع أشرف، فيما يقول، وهو محبة الله تعالى، ألفه فى أخريات أيامه، مكرهًا لابطل، وأعطاه عنوان: «روضة التعريف بالحب الشريف»، وجاء من بين أفضل ما سطر وزير غرناطة الكبير، ومن سخريات القدر، أن هذا السفر الجليل كان وثيقة الاتهام التى أدانته بها محكمة التفتيش، ودفع حياته ثمنًا لتأليفه فى الظاهر وضحية ألاعيب السياسة وقذارتها فى واقع الحال.

- **كتابا البقاعى والأنطاكى :**

وبعد أربعين عامًا من وفاة ابن أبى حجلة، يجىء إلى الحياة البقاعى، إبراهيم بن عمر بن حسن، وأصله من البقاع فى سورية، وسكن دمشق، وولد عام ٨٠٩هـ - ١٤٠٦م،

وتوفى بها عام ٨٨٥هـ – ١٤٨٠م، وكانت له رحلة إلى القاهرة وبيت المقدس ومكة، وهو مؤلف وأديب وشاعر. وألف كتابًا عن الحب أسماه «أسواق الأشواق» لما يزل مخطوطًا، ولم يتح لى الإطلاع عليه، ولكن الأنطاكى يقول عنه إنه اختصار لكتاب «مصارع العشاق» للسراج البغدادى، وعرضنا له من قبل ويصف مختصر البقاعى: «بأنه طال فى غير طائل، وجمع مالا حاجة بهذه الصناعة إليه من المسائل، كذكر الأسانيد والتكرار الذى هو شأن الأحاديث النبوية، لتوثيق الأحكام الدينية، وكالإخلال بمحاسن الأخبار، ولطائف الأشعار، التى هى بهذا الفن أعلق من الجوى بأهل الهوى، وعدم الترتيب المستلزم لاحتلال التهذيب، وكالإعراض عن ذكر غالب أسباب وقوع بعض العشاق فى شراك الحب».

وعلى نفس المسافة من مجيء البقاعى بعد ابن أبى حجلة، يجئ **داود الأنطاكى** من البقاعى تقريبًا. وهو داود بن عمر المعروف بالأكمه، ولد فى أنطاكية فى تاريخ نجهله، وحفظ القرآن، وقرأ المنطق والرياضيات، وشيئًا من الطبيعيات، وتعلم اليونانية وأحكمها، وكان عالمًا بالطب والأدب، وضريرا، وإليه إنتهت رياسة الطب فى زمنه، وهاجر إلى الديار المصرية، «ومثل فيها بين يدى الأماثل، وخدم من سما فيها من أرباب الفضائل» واستقر بالقاهرة زمنًا، ونال شهرة عريضة، ثم رحل إلى مكة، وأقام بها سنة، توفى فى آخرها عام ١٠٠٨هـ – ١٦٠٠م.

ألف الأنطاكى كتابًا فى الحب، وأعطاه عنوانًا: **«تزيين الأسواق، بتفضيل أشواق العشاق»**، وجاء اختصارًا لكتاب البقاعى، إلى جانب كتب أخرى كثيرة أفاد منها، وأشار إلى بعضها فى مقدمته. ونُشر كتابه فى القاهرة عام ١٣٢٨هـ – ١٩١٠م، وبحاشيته **«ديوان الصبابة»** لابن أبى حجلة وعرضنا له من قبل. وليس من السهل علينا أن نحكم، وكتاب البقاعى ليس بين أيدينا، ماذا أخذ البقاعى عن السراج، وماذا ترك، وما الذى تجاوزه الأنطاكى من كتاب البقاعى وما الذى حرص عليه، ولكن من يقرأ كتاب **«تزيين الأسواق»**، يجد نفسه أمام الظاهرة التى تتميز بها كتب «المبصرين»، حين يتدفقون إملاء، فتتدافع المادة فى أفواههم وتجيء كيف ما اتفق.

وحكايات الأنطاكى وأمثلته وأشعاره مشرقية فى جملتها، ومصادره كذلك، وأشك كثيرا أنه رأى **«طوق الحمامة»**، فهو لا يشير إليه كتابًا أو مؤلفًا ولامرة واحدة، ولا يلتقى مع صاحبه فى منهج أو إتجاه، إذا استثينا أمثلة ثلاثة توافق فيها الإثنان. الأول، وينسبه

الأنطاكى إلى «وحُكى عن بعضهم»، وهو: «حكت لى إمرأة عن شخص هويها وهويته، أن قال لها يوما: هل لك ان نحقق ما قيل فينا، فقالت: معاذ الله أن أفعل ذلك، وأنا أقرأ:«الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين». والثانى: حكاية الأندلسى الذى باع الجارية فى أرض البربر ثم استردها. والثالث حب ابن كليب الكاتب، الشهير بابن قزمان لأسلم بن عبد العزيز ولا أرى الأنطاكى فيها جميعًا قد نقل عن «الطوق». فالحكاية الأولى أرجح أنه نقلها عن ديوان «الصبابة»، وجاءت فيه، وذكره الأنطاكى بين مصادره، وأما الثانية فيغلب على ظنى أن ابن حزم والأنطاكى كليهما نقلا عن أصل ثالث، أما الأخيرة فيذكر الأنطاكى نفسه مصدرها الذى نقلها عنه، وهو كتاب «الإحاطة فى أخبار غرناطة» للسان الدين بن الخطيب.

وإنها لظاهرة تسترعى النظر أن يكون «طوق الحمامة» بين يدى ابن أبى حجلة، أو قرأه على الأقل، وهو يحرر «ديوان الصبابة»، ثم لا نلتقى به بين مصادر الأنطاكى، وكان حريصًا على أن يجمع بين يديه كل ما كتب عن الحب قبل أن يحرر كتابه، ونقل عنها جميعًا، وأشار إليها فى أحايين كثيرة، وعلى الرغم من أننا نلتقى به بين الكتب التى نقل عنها المقرى التلمسانى صاحب كتاب «نفح الطيب»، ومن نسخة تخالف نسخة «الطوق» التى بين أيدينا، وجاء إلى القاهرة بعد سنوات قليلة من وفاة الأنطاكى، وأرجح أنه استخدم نسخة وجدها فى القاهرة، لأنه يشير كثيرا إلى أنه خلف مكتبته وراءه فى مدينة فاس، ويخيل إلى أن المغاربة، ومعهم الأندلسيون، كانوا أكثر حرصًا على تسجيل تراثهم، والحرص عليه، والاحتفاظ به، على حين كان المشارقة كالعادة لايرون فيما خطه هؤلاء جديدا يستأهل أن يقفوا عنده، وأن يفيدوا منه.

وحول العام الذى توفى فيه الأنطاكى، قبله أو بعده بقليل، يجىء إلى الحياة يوسف بن مرعى الحنبلى، وسوف يؤلف كتاب: «منية المحبين وبغية العاشقين»، وقد درسه غرسية غومث، وتتبع تأثير الطوق فيه، وترجمنا هذه الدراسة من قبل.

ابن حزم شاعرًا

• شاعر فى سن الصبا :

قال ابن حزم الشعر صبيًا، فى زمن باكر من حياته، قبل أن يبلغ الحلم على حد تعبيره، ويحدد الفقهاء والمعاجم والعلم سن الحلم بأنها فى الثالثة عشرة تقريبًا، وهو يشير إلى ذلك صراحة فى كتابه **الطوق**: «وفى المذهب الذى عليه الناس أقول من قصيدة قلتها قبل بلوغ الحلم:

دليلُ الأسى نارٌ على القلب تلفح ... ودمعٌ على الخديْن يحمى ويسفحُ
إذا كتم المشغوف سرٌ ضلوعه ... فإن دموع العين تُبدى وتفضح
إذا ما جفون العين سالت شئونها ... ففى القلب داءٌ للغرامُ مبرِّح»

وهى أبيات عاطفية، وذلك شىء متوقع فى هذه السن، كما أنها تمثل فنيًا مرحلة طفولته الشاعرية.

ونعرف من الطوق أيضًا أنه كان يقول الشعر طالبًا يتردد على المسجد الجامع فى قرطبة، فقد هجرته فتاة كانت تربطه بها علاقة عاطفية لم يفصح عنها، وأقرب الظن أنها كانت من معابثات المراهقة، لأنه لم يعاود الحديث عنها ثانية، وليست بين أولئك اللائى تعلق بهن قلبه زمنا طويلا، وكان **أبو سعيد الفتى الجعفرى** يشرح لهم فى المسجد الجامع معلقة طرفة، وأعجبه مطلعها. فقال فى صاحبته هذه شعرا، شطر البيت الأول له، وخاتمته من المعلقة، ويؤكد أنه قالها على سبيل المزاح:

تذكرت وّدًا للحبيب كأنه ... لخولةَ أطلالٌ ببرقة ثَهْمد
وعهدى بعهدٍ كان لى منه ثابتٍ ... يلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

إلى آخر الأبيات. وكذلك الشادين بالشعر فى خطاهم الأولى، إنهم يقلدون ويعبثون، حتى تستقيم لهم الوسائل والأدوات.

• **ثقافته الشعرية :**

لا نعرض هنا لثقافة ابن حزم بعامة، فهذه لها مكان آخر تدرس فيه، ولكن نومىء منها إلى ما اتصل بالشعر، وفى شكله فحسب، لأن قصائد ابن حزم تعكس فى مضمونها ثقافته كلها، وهى متنوعة وواسعة، وتكاد تشمل كل معارف عصره باستثناء الرياضيات، وشعره فى **الطوق** رغم أنه قال فى مرحلة الشباب الباكر يعكس هذه الثقافة بكل جوانبها، ويومىء إلى أنه تمثل كل ما قرأ على نحو جيد، رغم أنه قال هذا الشعر قبل أن يترك الدنيا وراء ظهره، ويقبل على التخصص والتدريس والرحلة والمعاناة.

حفظ القرآن صبيا، إلى جانب قصائد من روائع الشعر، وقرأ على عدد من جلة الأساتذة فى أيامه، ومن بينهم **عبد الرحمن بن أبى يزيد المصرى**، وكان عميق التأثير فى نفس **ابن حزم**، واحتفظ له مدى حياته بإجلال وقور، ولا يشير إليه عبر صفحات **الطوق** إلا مسبوقًا بكلمة «أستاذى»، ويصفه بأنه «كان واسع الثقافة فى اللغة والأدب والأنساب والأشعار».

وفى درس **ابن أبى يزيد** هذا جمعته عرى الصداقة مع عدد من أدباء الشباب، من أبناء الأسر القرطبية الوجيهة، يتعاطون الشعر وجاهة لا حرفة، ومنهم **ابنا الطبنى**: **أبو عبدالله محمد بن يحيى التميمى**، وشهر **بابن الطبنى**، وأخوه إبراهيم، وأصبح فيما بعد وزيرا، وكان أبوهما من كبار الموظفين فى البلاط، وتعد أسرتهما من بين أعرق الأسر وأشهرها فى قرطبة.

وكان من رفاقه فى تلك السن الفتية **أبو بكر عبد الرحمن بن سليمان البلوى**، من أهل سبتة، ويذكر عنه أصحاب التراجم أنه: «كان شاعرا مفلقًا».

وثمة أصدقاء آخرون كثيرون نموًا فى **ابن حزم** هذا الاتجاه، وأسهموا فى تربية ذوقه، دون أن يكونوا أساتذة له أو رفاق درس، فقد عايش أكثر شعراء عصره ثقلا، والتقى بهم فى ندوات القصور وسمرها، وبلغت أوجها فى تلك الفترة، ويتردد عليها صفوة شباب البلاط والمجتمع القرطبى، ومارس هذا تأثيرا واضحًا فى تحديد اتجاهه، ونقاء أسلوبه، وأوضح هؤلاء الشعراء الذين نلمس صداهم واضحًا فى إبداع **ابن حزم**،

ويعين على تفسير مزاجه الرومانسى فى **طوق الحمامة**، **الأمير الشاعر مروان**، من أحفاد عبد الرحمن الناصر، واشتهر فى الأندلس باسم: **الشاعر الطليق**[1].

على أية حال كان الشعر يمثل جانبًا أساسيًا من ثقافة أهل الصفوة فى مجتمع **ابن حزم**، فالأصدقاء يتبادلون الأبيات فى المناسبات المختلفة، ويرتجلونها فى اللحظات المواتية، ويعترف **ابن حزم** فى غير مواربة، بأن طائفة من شعره ليس وليد تجربة خاصة، أو معاناة ذاتية، وإنما قاله استجابة لرغبة، أو أداء لحق الإخوان ممن تنقصهم القدرة على النظم، ويعرض لهم ما يحبون تسجيله، يقول: «فإن إخوانى يجشموننى القول فيما يعرض لهم على طرائقهم ومذاهبهم».

وأخيرا، إلى جانب تلك الأشياء المكتسبة، والبيئة المعاونة، هناك الموهبة نفسها، وتجىء فى المقام الأول، ولكن ينبغى أن نضع فى الحسبان أن الفن أنانى تمامًا، لا يعطيك جوهره مالم تعطه اهتمامك كله، وكان اهتمام **ابن حزم** موزعًا منذ البداية، بين السياسة والأدب والعلم، وأسهم فى كل ضروب المعرفة على أيامه، باستثناء الرياضيات، ومن هنا جاء شعره فى مجمله بين بين.

- **ديوان ابن حزم :**

كتب **ابن حزم** الشعر صغيرا، كما قلنا، وكان به حفيا، مجاراة لذوق عصره، ومنافسة للنابهين من لداته بين قومه، وظل يقوله حتى آخر أيام حياته، ولو أنه فيما بعد عصر **طوق الحمامة** اقتصر على الأبيات تجئ عفو الساعة، تعبر عن موقف، أو توجز قولا، أو تفيض عن قلب ممرور.

ويذكر عنه تلميذه **الحميدى**، وتوفى فى بغداد عام ٤٨٨هـ - ١٠٩٥م، فى كتابه **«جذوة المقتبس»**، أن «شعره كثير، وقد جمعناه على حروف المعجم». ولم يصلنا شىء مما جمع **الحميدى** من ديوان شيخه، ولا ندرى بالتالى عند أية فترة توقف، وأى ألوان من الشعر جمع، وهل كان مختارا متذوقا، أم مسجلا راصدا، لم يقع على شىء منه إلا دوّنه، وهذه الفقرة التى أوردها فى كتابه نقلها عنه كل الذين جاءوا بعده، من أندلسيين ومشارقة، دون أن يضيفوا إليها جديدا.

---

(١) الدراسة الوحيدة، فيما أعلم، لحياته وشعره، تجدها فى كتاب غرسية غومث، الذى نقلناه إلى العربية بعنوان: **شعراء الأندلس والمتنبى**، دار المعارف الطبعة الخامسة القاهرة ١٩٩٢.

ومع ذلك فلدينا قدر لا بأس به من شعر ابن حزم، ويعود الفضل فى بقائه إليه نفسه، وأكبر قدر منه نجده فى **طوق الحمامة**، إذ اشتمل على ١٧٩ قطعة بين قصيدة ومقطوعة تضمنت ٧٨٩ بيتا، إلى جانب أبيات أخرى له متناثرة فى مصادر كثيرة، بعضها مما ورد فى الطوق فعلا، وبعضها يكمل ما ورد فيه، ويلقى ضوءا على مقدار ما حذف منه الناسخ، ومنهجه فى الحذف، وعدد كبير منها أورد قصائد لم ترد فى الطوق أبدا، ومنها ما نجده فى أكثر من مصدر، وقليل منها اختص به مصدر بعينه، وهذه المصادر أندلسية، ومغربية، ومشرقية.

فمن المصادر الأندلسية: الجذوة للحميدى، ومطمح الأنفس لابن خاقان، والذخيرة لابن بسام، والصلة لابن بشكوال، والبغية للضبى، وشرح مقامات الحريرى للشريشى، والقسم الثالث من أعمال الأعلام، والإحاطة لابن الخطيب، والمغرب فى حلى المغرب، ورايات المبرزين، وكلاهما لابن سعيد، ورفع الحجب المستورة للشريف الغرناطى.

ومن المصادر المغربية: المطرب لابن دحية، والمعجب فى أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى، ونفح الطيب للمقرى.

والمصادر المشرقية كثيرة، ومنها: معجم السلفى، ولما يزال مخطوطًا، ولكن الدكتور إحسان عباس نشر التراجم الأندلسية الواردة فيه فى كتاب مستقل، وإرشاد الأريب لياقوت الحموى، وإنباه الرواة فى أخبار النحاة للقفطى، ووفيات الأعيان لابن خلكان، وتاريخ الإسلام، وسير النبلاء للذهبى، وكلاهما مخطوط، ولكن الأستاذ سعيد الأفغانى استخرج ترجمة ابن حزم من الثانى ونشرها، وأبيات ابن حزم فى الكتابين هى بعينها، وانفرد ابن فضل الله العمرى فى كتابه مسالك الأبصار ولمايزال مخطوطًا، بخمس مقطوعات عدتها عشرون بيتا، لا نجدها فى غيره، إلى جانب ما شارك فيه الآخرون، ومن المعروف أن السبكى فى طبقات الشافعية أورد قصيدة ابن حزم فى الرد على نقفور كاملة، ثم ذكر له مقطوعة صغيرة من أربعة أبيات.

وإلى جانب هؤلاء نجد له آثارا قليلة متناثرة فى بعض كتب المتأخرين، كالصفدى فى كتابيه: الوافى بالوفيات، والغيث المسجّم، واليافعى فى مرآة الجنان، وابن حجر فى لسان الميزان، وابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة، وابن العماد فى شذرات الذهب. وربما آخرون لم نعرفهم بعد.

غير أن جانبًا لا بأس به، كان مجهولا حتى عهد قريب، نجده فى مخطوطة عثر عليها أخيرا، وسنعرض لها فى الفقرة التالية.

- **مخطوطة دار الكتب المصرية :**

فى دار الكتب المصرية مخطوطة توهم للوهلة الأولى أنها لابن حزم لأنها وردت فى فهرس المخطوطات تحت عنوان: «ديوان ابن حزم»، ورقمها ز ١٦٣٠٢ ، ولكن محتواها، على ما سنرى، يضم قصائد لابن حزم وآخرين.

نعرف من التقييدات التى بالمخطوطة أنها كانت ملكا **لمصطفى بن تاج الدين بن إلياس مفتى المدينة**، وأنه تملكها عام ١٢٥١هـ (= ١٨١٠م) ثم انتهى أمرها إلى السيد **محمد بن السيد على بن السنوسى** فى تاريخ نجهله، ولكنه ليس قبل عام ١٣١٥هـ = ١٨٩٧م على التأكيد، وفيما بعد جاء بها إلى القاهرة ورّاق شامى يدعى السفر جلانى الدمشقى، وعرضها للبيع على دار الكتب المصرية، ولكنه غالى فى ثمنها فلم يتم الاتفاق، واكتفت دار الكتب بتصويرها، أما الأصل فلا يعرف أحد الآن أين انتهى به المطاف.

تتكون هذه النسخة من ٧١ لوحة، ومسطرتها بين ١٩ سطرا و٢١ سطرا فى الصفحة الواحدة، وفى كل لوحة صفحتان، أى أن المخطوطة تضم ١٤٢ صفحة، وخطها واضح، وبالهامش منها تصويبات لعبارات ضرب عليها فى الأصل، وشروح لبعض المفردات، وتتضمن الصفحة الأولى من اللوحة الأولى العبارة التالية، وكتبت بالخط الثلثى:

لا إلـه إلاّ الله محمدٌ رسولُ الله. الله هو الحق الحيُّ القيوم
لا إلـه إلاّ الله. الواحد القهار، نعم الحافظ
اللّهُ نعمَ القادر، الله نعم الناصر، الله مقدِّرنا
فنعم القادرون، اللهم صل على محمد وآل محمد وسلم
ديوانُ «ابن حزَمٍ»
مِلكُ مصطفى

والصفحة الثانية بيضاء، وفى اللوحة الثانية: «تملكه الفقير إليه عز شأنه، مصطفى بن تاج الدين إلياس مفتى المدينة المنورة، عفا الله عنه سنة ١٢٥١هـ».

وتبدأ المخطوطة فى اللوحة الثالثة، ونجد فى بدايتهـا: «بسم الله الرحمـن الرحيـم، صلى الله على سيدنا محمد وعلى آل محمد وسلم، قال الفقيه الإمام الأوحد، أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسى، رضى الله عنه».

ويلى هذه المقدمة قصيدة ابن حزم فى «إثبات حدوث العالم، وصحة نبـوة سيدنـا محمد، صلى اللهعليه وسلم. وفيها وعظ حسن، ارتجلها الفقيه فى مجلس الخلافة دون إعمال روية. رحمه الله». وهى فى ثمانين بيتا ومطلعها:

لك الحمد والشكرُ يارب ثمّ   لك الحمْد ما باح بالشكر فَمُ

ويذكر ابن خير فى فهرسته، ص ٤١٧ ، أن أبياتها ثلاثة وسبعون، ولكنه لم يـورد منها غير مطلعها.

وتجئ بعدها القصيدة التى ردّ فيها **ابن حزم** على قصيدة كان **نقفور الثانى فوقاس Nicephor Phokas** إمبراطور بيزنطة، من ٩٦٣ إلى ٩٦٩م، قد أرسلها إلى **الخليفة العباسى المطيع**، من ٩٤٦ إلى ٩٧٤م، باللغة العربية، ونظمها له شاعر أرمنى مرتـد، وجـاءت فى ٦٧ بيتا، عدّد فيها مزهوا ما أخذ الروم من ثغور المسلمين ومدنهم، ويتهجم عليهم وعلى دينهم، ومطلعها:

من الملك الظهر المسيحى مـــالك   إلى خلف الأمـــلاك من آل هاشـم
إلى الملك الفضل المطيع أخى العلا   ومن يرتجى للمعضـلات العظائم(١)

وهى قصيدة جاءت بها المخطوطة كاملة، فى اللوحتين العاشرة والإحـدى عشرة، أى بعد ردّ **ابن حزم** عليها، وجاء هذا ارتجالا، فى مئة وأربعة وثلاثين بيتا، وفى البحر نفسه والقافية ذاتها، ومطلع قصيدة ابن حزم:

من المحتمى لله رب العـوالم   ودين رسول الله من آل هاشم

والقصيدة كاملة فى المخطوطة، ولكن ذلك لا يعنى شيئًا كثيـرا، لأن **تاج الدين السبكى**، المتوفى عام ٧٧١هـ = ١٣٦٩م، أورد نصها بحذافيـره، فى كتابـه «**طبقات**

---

(١) أورد الفرغانى القصيدة كاملة فى كتابه «صلة الصلة» وعنه نقلها ابن عساكر ومن خطه نقلها الحافظ ابن كثير، فى كتابه **البداية والنهاية**، جـ ١١ ص ٢٤٤ – ٢٤٧ ، بيروت ١٩٦٦ ، وتوجد فى **طبقات الشافعية** للسبكى، جـ ٣ ص ٢٠٥ – ٢٠٩ ، طبعة القاهرة ١٩٦٤ .

الشافعية». وقد أشار إليها ابن خير فى فهرسته، وذكر أنها فى مئة وتسعة وثلاثين بيتا، ولكنه لم يورد منها إلا مطلعها[1].

وفى اللوحة ما قبل الأخيرة، وهى رقم ٧٠ ، نقرأ فى الصفحة الثانية منها: «الحمد لله رب العالمين وصلاته على محمد عبده ورسوله، وعلى آله وعترته الطاهرة»، وهو ما يعنى أن المخطوطة كملت، وأنها تضم كل ما تصور الناسخ أنه ديوان ابن حزم، وتضم الصفحة الأخيرة من أخر لوحة خاتمًا دائريا نصه: «فيض الفاتح القدوس السيد محمد بن السيد على بن السنوسى سنة ١٣١٥»، وبجواره تمليك جاء فيه: «تملكه الفقير إلى ربه مصطفى بن تاج الدين بن إلياس، مفتى المدينة المنورة سنة ١٢٥١».

ولا يخضع ترتيب القصائد فى الديوان لأى منهج، أبجدى أو تاريخى أو فنى، وما إن ينتهى المرء من قراءة قصيدة ابن حزم فى الرد على نقفور، وقصيدة نقفور نفسها إلى الخليفة المطيع. حتى يداخله الشك فى أن ما يروى من شعر كله **لابن حزم**، فإذا سار مع الصفحات شيئًا تأكد أن جانبًا مما يقرأ **لأبى العلاء المعرى**، وأنه موجود فعلا فى ديوانه **«اللزوميات»**، بعضها أبيات منتزعة من قصائدها، والبعض الآخر قصائد جاء بها كاملة.

ولكن جانبًا لا بأس به من هذه الأشعار **لابن حزم** أكيدا، بعضها أوردته كتب التراجم المختلفة، أو ذكرت أبياتًا منه، وبعضها نلتقى به كاملا للمرة الأولى، وأطول هذه القصائد، بعد قصيدته الأولى فى أثبات حدوث العالم، وقصيدته الثانية فى الرد على **نقفور**، جاءت فى ٥٩ بيتا، وخاطب بها **عبد الرحمن بن بشير، قاضى الجماعة فى قرطبة**، ويكنى **أبا المطرف**، ويعرف **بابن الحصار**. وأورد منها أصحاب كتب التراجم والسير ٣١ بيتًا، على تفاوت بينهم فى عددها. وأقل القصائد عددا جاءت فى أحد عشر بيتا، وهناك بيت مفرد وهو:

كأن لم يكن بين ولم يك فرقةٌ إذا كان من بعد الفراق تلاق

---

(١) **طبقات الشافعية**، جـ ٢ ص ٢١٤ – ٢٢٢ ، وابن كثير **(البداية)** جـ ١١ ص ٢٤٧ – ٢٥٢ ، وابن خير، فهرسة، ص ٤٠٩ .

غير أن هذا البيت نلتقى به عند الحميدى، فى الجذوة منسوباً إلى محمد بن عبد السلام بن ثعلبة الخشنى،مطلع أبيات سبعة أوردها لـه. ونسبـه ابن خاقان فى كتابه «مطمح الأنفس» لنفس الشاعر أيضا[1].

أما القصيدة التى مطلعها:

أجل هـو ربعٌ قد عفته الدوارس فهل أنت فيه ويب غيرك حابس

وجاءت فى ٤٣ بيتاً فأرجح أنها ليست لابن حزم، فهى لا تحمل روحه، ولا فكره، ولا طريقته فى النظم، وبعيد أن يتحدث ابن حزم، وهو فى قرطبة عاصمة الخلافة، وابن الترف كله، وفى التاسعة والعشرين من عمره، عن عيس محبوسة، وناقة يعوج عليهـا، ورسوم طوامس، وطلول دوارس، وربع عفته الـروامس، وظبى بالصريمـة كـانس، وأن يتحدث عن الشيب، ويفخر بساسان ودارا، وكيف ملكوا الأرض، ولا نجد لها ذكـرا فى غير المخطوطة إلا عنـد ابن فضل الله العمـرى، وهو جغرافي مشرقى من القـرن الثامن الهجرى، الرابع عشر الميلادى، فقد أتى منها بثلاثة عشر بيتاً متفرقات فى كتابه مسالك الأبصار، ومع ذلك أتينا عليها فى الملحق، ترقبا لنقد داخلى وخارجى مفصل، يقول كلمة الحق فيها.

يحار المرء فى الأسباب التى جعلت الناسخ، أو الجامع، يخلط بين شعر ابن حزم وأبى العلاء وهما يتمايزان روحًا وإيقاعًا، وبخاصة فى المرحلة الأولى مـن حيـاة ابـن حزم، أما فى الجانب الثانى منها فيمكن القول أنه يلتقى مع شاعر المعرة فى روح الزهد والتشاؤم، وإن كان زهد المعرى سلبيًا مستسلما، وزهد ابن حـزم إيجابيًـا ثائـرًا ويبقى لكل منهما مع ذلك، طريقته الخاصة فى التفكير والتعبير.

أقرب ظنى أن الناسخ الأول كان واعيا بما لكل منهما ولم يسجله، لأنه خط الكتاب لنفسه، وأما العنوان فليس من وضعه، وإنما من وضع ناسخ آخر، متأخر عن الأول، قرأ القصيدة الأولى، وهى لابن حزم، فأعطى المجموعة عنوان: «ديوان ابن حزم»، دون أن يكلف نفسه عناء تتبع محتواها، والوقوف عند بقية قصائدها، وذلك لأن طبيعة التدوين فى العصور الوسطى، وندرة الورق وغلائه، والحرص على الإفادة من كل صفحة بيضاء،

(١) الجذوة، الترجمة رقم ١٠٠ الدار المصرية التأليف ١٩٦٦ – مطمح الأنفس ص ٥٧.

جعل الذين ينسخون الكتب لأنفسهم، أو الأدب بعامة، يجمعون بين قصائد متنوعة، لشعراء مختلفين، أو يملأون ما تبقى من صفحات بيضاء فى مخطوطة كتاب ما بقصيدة تعجبهم أو أبيات علقت بذاكرتهم، وهم يعرفون صاحبها، ولا يرون ضرورة ملحة فى نسبتها له، ومع الزمن تتنقل المخطوطة بين أيد كثيرة، إلى أن ينتهى بها الحال إلى من لا يعرف التفرقة بين شاعر وشاعر، فيقع الخلط والاضطراب[1].

● شعر المطوق :

«طوق الحمامة» كتاب عن الحب والمحبين، والحب وثيق الصلة بالشعر، كلاهما يصدر عن عاطفة رقيقة متدفقة، ويعكس صورة عالم داخلى متوهج وشفَّاف، ولا غرو إذن أن يوشي ابن حزم كتابه بالكثير من أشعاره التى تتصل بموضوعات الكتاب من قريب او بعيد، ويتراوح عدد أبياتها بين البيت الواحد والثمانية والثلاثين بيتا، باستثناء القصيدة الأخيرة، فى الباب الأخير: «فضل التعفف»، فقد جاءت فى ٨٦ بيتا، وهى أقرب ما تكون إلى طبيعة ابن حزم فى شعره، فنحن نعرفه ثرى المدد، طويل النفس، ميالا إلى القصائد الطوال. وبداهة انتهينا إلى هذا فى ضوء نسخة الطوق التى بين أيدينا، ونحن نعرف أن الناسخ تصرف فى أشعارها، وسجل على نفسه أنه: «حذف أكثر أشعارها، وأبقى العيون منها، تحسينا لها، وإظهارا لمحاسنها، وتصغيرا لحجمها، وتسهيلا لوجدان المعانى الغريبة من لفظها».

ولدينا شاهد مؤكد ومادى على طريقة الناسخ فى حذف الشعر على الأقل، ذلك أن ابن حزم بكى ديارهم فى بلاط مغيث حين أتى عليها البربر هدمًا وتدميرًا عام ٤٠٣هـ = ١٠١٣م، فى باب «البين» من كتابه «طوق الحمامة»، بكاها شعرا ونثرا، فأبقى الناسخ على النثر كله، واكتفى من الشعر ببيت واحد، وكان الشعر أكثر من ذلك، على الأقل نجد النص نفسه فى كتاب «أعمال الأعلام» لابن الخطيب، وجاء بعد ابن حزم نفسه بثلاثة قرون ونصف، وقد بلغت أبياته عشرين كاملة وربما كانت القصيدة أطول من هذا أيضًا، لأن ابن الخطيب نفسه كان يدس أنفه فيما يختار، فينتقى ويكتفى، ويحذف ما لا يرتضيه.

(١) لمعرفة طبيعة التدوين والنسخ فى العصور الوسطى يمكن العودة إلى كتابنا دراسة فى مصادر الأدب، فصل: عصر المخطوطات، الطبعة السادسة، دار المعارف القاهرة ١٩٨٥.

لم يضمّن ابن حزم كتابه «الطوق» أشعارًا لغيره إلا فى حالات لا تتجاوز الثمانى، جاء فى كل موضع منها بأبيات قليلة، منسوبة لأصحابها فى ستة مواضع، ومجهولة القائل فى موضعين وهى:

• أبيات أربعة تغنت بها جارية[1]، فى حفل أُقيم فى قرطبة، حضره عِلْية القوم، وأركان الدولة، وأجل رجال الخلافة، وعدد من النساء والخدم، وأرادت أن تداعب بها فتى كان يحبها وحضر الحفل، وأرادها فى بعض وصلها على ما لا يجمل، ويصف ابن حزم الأبيات بأنها قديمة، ولم أقع لها على قائل، وهى:

غـزالٌ قـد حكى بدرَ التمـام ... كشمسٍ قـد تجلَّتْ من غمـامِ
سبى قلبى بألحـاظ مـراضٍ ... وقـدٌّ الغصن فى حسـن القـوام
خضعتُ خضوعَ صب مستكين ... لــه وذللْتُ ذِلّـة مستهـام
فصلنى يا فـديتك فى حـلالٍ ... فما أهـوى وصـالا فى حرام

• وذكر فى موضع ثان بيتين لأبى بكر البلوى، وكان زميله فى درس شيخهم ابن أبى يزيد المصرى، فى داره بالرصافة، أنشدهما له، وهما فى طريقهما إلى الدرس، من قصيدة له فى صفة حبيب له تجنى عليه:

سريعٌ إلى ظهْر الطـريق وإنـه ... إلى نقض أسباب المودة يسرع
يطـول علينـا أن نرقع ودّه ... إذا كـان فى ترقيعـه يتقطـع

فسمع أبو على الحسين بن على الفاسى البيت الأول، وكان فى طريقه إلى مجلس ابن أبى يزيد أيضًا، فتبسم لهما، وطواهما ماشيا، وهو يقول: بل «إلى عقد المودة» إن شاء الله فهو أولى.

• وأتى فى الموضع الثالث على أبيات خمسة لابن عمه أبى المغيرة ابن حزم، قالها وهو ابن سبعة عشر عامًا أو نحوها، وفيها يخاطب ابن حزم صاحبنا، ويذكر له

---

(١) نستخدم لفظ جارية هنا دون أن يعنى أن صاحبته رقيقة وإنما جريا على استخدام ابن حزم له انظر الفصل الخاص بالمرأة من خلال طوق الحمامة، فى هذا الكتاب.

أن «البين» أصعب من «الصد»، واهتبل مؤلف الطوق الفرصة ليأتي على أبيات له من قصيدة طويلة تدور حول المعنى نفسه[١].

• والمرة الرابعة ذكر فيها أبياتًا خمسة للشاعر العباسي **العباس بن الأحنف**، وهي المرة الوحيدة التي ذكر فيها شعرًا مشرقيًا، وقد تغنت بها «جارية»، في حفل أقيم في دارهم، وكانت واحدة من بين الفتيات اللائي هام بهن حبًا في مراهقته وشبابه، وبقي على حبه لها زمنًا طويلا، وأعطانا لها وصفًا رائعًا ومفصلا، ودرسنا قصتها في فصل «**غراميات ابن حزم**» في هذا الكتاب[٢].

• وفي موضع خامس ذكر أبياتًا لصاحبه أبي عبد الله محمد بن يحيى، المعروف ابن الطبني، وكانا أليفين لا يفترقان، وخدنين لا يجري الماء بينهما إلا صفاء، فلما ألقت الفتنة البربرية جرانها، ونهب الجند البربر منازل آل حزم، وترك ابن حزم قرطبة وسكن المرية، كانا يتهاديان النظم والنثر كثيرا، فخاطب ابنُ الطبني ابنَ حزم برسالة ضمنها ستة أبيات، مطلعها:

لَيْتَ شعري عن حَبْلِ وُدِّك هل يمسي جديدا لديّ غير رثيثِ[٣]

وجاء بها ابن حزم في مجال الحديث عن حياته، وبعض ما كان يجري في بيئته، دون أن يستدل بها على معنى، أو فكرة مما عالج في كتابه الطوق، ومن ثم فإن إيرادها لا يمس تفرده بالاستدلال بشعره وحده على القضايا التي يعالجها.

• والموضع السادس ذكر فيه بيتين لمن يدعى عيسى الخولاني، قالهما في ابن الجزيري، وقد «رضى بإهمال داره، وإباحة حريمه، والتعريض بأهله، طمعًا في الحصول على بغيته...»

يا جاعلاً إخراج حُرِّ نسائه ... شركًا لصيد جآذر الغزلانِ
إنِّي أرى شركًا يُمزَّق ثم لا ... تحظى بغير مذلّة الحرمان

• وفي الباب نفسه، والصفحة عينها، يذكر أنه حضر مجلسًا وأخوان له، عند بعض مياسير أهل بلده، فرأى بين بعض من حضر وبين من كان بالحضرة من أهل صاحب

(١) أبيات أبي المغيرة، وابن حزم، في الطوق، ص ١٢٦ ، الطبعة الرابعة دار المعارف القاهرة ١٩٨٠.
(٢) الأبيات في الطوق، ص ١٤٦.
(٣) بقيتها في الطوق، ص ١٥٥.

المجلس أمرا أنكره، وغمزا استبشعه، وخلوات بين الحين والحين، وصاحب المجلس كالغائب والنائم، فنبهه بالتعريض فلم ينتبه، وحركه بالتصريح فلم يتحرك، فجعل يكرر عليه بيتين قديمين لعله يفطن:

إنّ إخوانه المقيمين بالأمـ ـس أتَوْ للزنـاء لا للغنــاء
قطعوا أمرهم وأنت حمارٌ موقـرٌ من بلادة وغــباء

• وأخيرا أورد بيتًا واحدًا من قصيدة لأبى العطاء السندى قالها فى رثاء يزيد بن عمرو بن هبيرة، وكان صاحبه أبو بكر بن إسحاق ينشده متمثلا، وهما يودعان صاحبهما أبا عامر محمد بن عامر، وقوفًا على ساحل البحر بمالقة، فى سفرته إلى شرق الأندلس، ولم يرياه بعدها:

ألاَ إنّ عينًا لم تجد يوم واسط عليك بباقى دمعهــا لجمودُ

سبعة وعشرون بيتا فحسب، تناثرت عبر الكتاب كله، فى ثمانية مواضع لشعراء غيره، وهى لعمرى شيء قليل بجوار ما قال من شعر لا يخلو منه فى الكتاب إلاّ بابا: «الإشارة بالعين» و «المساعد من الإخوان»، فلم يورد فيهما شعرا له، ولا لغيره، ويغلب على ظنى أنه كان فيهما شعر لابن حزم نفسه، وأن الناسخ بتره فيما بتر من نصوص الكتاب.

نحن نعرف أن ابن حزم ألّف الطوق ولما يتجاوز الثمانية والعشرين من عمره، أى أن الكتاب يضم الشعر الذى قاله فى هذه المرحلة الباكرة من حياته فحسب، وبداهة ليس شعر الطوق كل ما قال فى هذه الفترة، حتى ولاجله، وإنما جانب منه ارتبط بالعاطفة وحدها، والتقى مع موضوع الكتاب، ولا مجال لإيراد القصائد الأخرى فيه.

ويقف المرء مترددا إزاء الباعث على اقتصار ابن حزم على شعره فحسب: أكان ذلك إعجابًا منه بنفسه، وافتتانًا بقدرته الشاعرية، ورغبة فى أن يسجل إبداعه، وأن يدفع به إلى ذواكر الناس عبر صفحات كتاب يمثل الآن، وفى عصره، درة فى عالم الفكر الإنسانى؟ هناك ما يرجح هذا التفسير، فإشاراته فى الطوق تومىء إلى إعجابه بنفسه، وافتتانه بمواهبه، فهو يقدم لأية قصيدة أو مقطوعة، أو حتى بيت مفرد، بما يؤكد فى فى جلاء أنها له، ولو تكرر ذلك فى الموضوع الواحد عدة مرات، كقوله:

ولى أبيات جمعت فيها كثيرا من هذه العلامات.

وفى ذلك أقول شعرا منه.

وفى مثله أقول فى كلمة طويلة.

وأقول من قصيدة لى.

وغير ذلك كثير.

وبداهة استبعدت من البدء أن مرد ذلك فقر فى حفظه لشعر غيره، لأن التربية فى الأندلس كانت تقوم بدءا على أن يأخذ الطلاب وهم صغار بحظ وافر من الشعر، ينمو مع حياتهم[1]، وهو نفسه يعترف بأنه درس الشعر صغيرا، واغترف منه كبيرا، إلى جانب أن كتبا أخرى سبقته فى التعرض لدراسة الحب، وعرف ابن حزم بعضها أكيدا، مثل كتاب «الزهرة» **لابن أبى داود الأصفهانى**، وهو ظاهرى كابن حزم، وكتابه حافل بالأشعار جاهلية وإسلامية، وكلها تدور حول العشق، وما يتصل بأضربه وفنونه، وتبلغ الخمسة آلاف بيت، وكانت له مندوحة فى أن ينقل منها ما يريد، دون أن يتعرض لمؤاخذة أو تنقيص أو اتهام.

الأقرب، فيما أرى، أنه كان مستجيبا لدافع منهجى بحت، فقد أومأ فى مقدمة الطوق إلى أنه ضائق بتجارب الآخرين التى سبقت، وفى مكان آخر من الأرض، ويود أن يرى الأشياء عبر ذاته، ومن خلال أحاسيسه، حتى يفى بما أخذه على عاتقه، بألاَّ «ينضى مطية سواه، وألا يتحلى بشعر مستعار»، وأن يتجاوز أخبار القدامى مهما كثرت، لأن سبيله غير سبيلهم، وحتى حين عرض لقناعة المحب بزيارة طيف الحبيب، وأورد لنفسه شعرا يتصل بهذا الموضوع وازن بين نفسه وآخرين عرضوا للقضية ذاتها، فأتى على معانى أبياتهم فحسب، دون أن يذكر أشعارهم كما تتطلب الموازنة، لتتاح الفرصة كاملة لمن يرغب فى القيام بها، رغم اعترافه بسبقهم وفضلهم، يقول:

«وللشعراء فى علة مزار الطيف أقاويل بديعة المرمى، مخترعة، كلٌّ سبق إلى معنى من المعانى: فأبو إسحاق بن سيار النظام رأس المعتزلة جعل علة مزار الطيف خوف الأرواح من الرقيب المرقّب على بهاء الأبدان، وأبو تمام حبيب بن أوس الطائى جعل

---

(١) لمعرفة المزيد عن التربية الاسلامية فى الاندلس يمكن العودة إلى: خوليان ريبيرا، التربية الاسلامية فى الأندلس. أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، دار المعارف القاهرة ١٩٨١ ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى.

علته أن نكاح الطيف لا يفسد الحب، ونكاح الحقيقة يفسده. **والبحترى** جعل علة إقباله استضاءته بنار وجده، وعلة زواله خوف الغرق فى دموعه. وأنا أقول من غير أن أمثل شعرى بأشعارهم، فلهم فضل التقدم والسابقة، وإنما نحن لا قطون وهم الحاصدون، ولكن اقتداء بهم، وجريا فى ميدانهم، وتتبعًا لطريقتهم التى نهجوا وأوضحوا، أبياتًا بينت فيها مزار الطيف مقطّعة...»[1].

• موقف ابن حزم من الشعر :

قبل أن نعرض لجوانب أخرى من شعر ابن حزم من الخير أن نتعرف إلى رأيه فيه، فقد كان أولا وأخيرا رجل دين: فقيها ظاهريا مناضلا، وعالم كلام جَدلاً، وعلى معرفة واسعة بالفرق والمذاهب والأديان. والعلماء بعامة، والفقهاء من بينهم بخاصة، لهم موقف معين من الشعر، تأثروا فيه بالآية الواردة فى سورة الشعراء: «والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون، وأنهم يقولون مالا يفعلون» وهم يتراوحون فى مواقفهم بين التحريم المطلق له، والتفريق بين أنواعه، والإمساك عنه تعففا وتوقيرا، ومن قبل قال **الإمام الشافعى** رضى الله، وكان من حين لآخر يتغنى بالأبيات من الشعر له:

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيدِ

وموقف ابن حزم يصدر إجمالا فى ضوء الآية القرآنية، فهو فى جوهره كبقية آراء المستنيرين من الفقهاء، ولكنه اختلف تشددا وتسامحًا تبعًا للحظة التى أبداه فيها، شابا عاشقًا يقول الشعر، أو رجلا عالمًا يناضل بالحكمة، ويقاتل بالكلمة، ويتصدى للظلمة، ويدعو إلى حكم الله واضحًا صريحًا فى غير لف ولا دوران ولا تأويل.

وقد تحدث عن الشعر عرضًا فى «**طوق الحمامة**»، وهو أول كتاب ألفه فيما أرى، ومزج فيه بين الشعر والنثر، وذلك فى «باب السلو» حين عرض للشعراء الذين يدمنون البكاء على الدمن، ويطرون المثابرة على اللذات، وأن **أبا نواس** من بينهم أكثر فى هذا، وافتخر به، فلما نظم **ابن حزم** أبياتًا كلفته بها **ضنا العامرية**، ابنة **المظفر عبد الملك** الحاجب، لتقوم بتلحينها، قالها على طريقة أبى نواس، ذمّ فيها بكاء الأطلال، وابتدأها بالدعوة إلى الشراب، بين الرياض، على نغمات الموسيقا، ثم عقب على رأيه هذا قائلا:

---

(١) طوق الحمامة، ص ١٣١ – ١٣٢، الطبعة الرابعة، دار المعارف القاهرة ١٩٨٥.

«ومعاذ الله أن يكون نسيان ما درس لنا طبعًا، ومعصية الله بشرب الراح لنا خلقًا، وكساد الهمة لنا صفة، ولكن حسبنا قول الله تعالى، ومن أصدق من الله قيلا، فى الشعر: «ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون...»، فهذه شهادة الله العزيز الجبار لهم. ولكن شذوذ الشاعر عن مرتبة الشعر خطأ».

أى أن من يقول الشعر عليه أن يلتزم بقواعده وقوانينه، ونهجه وطرائقه.

غير أنه عاد إلى القضية تفصيلا فى «رسالة التلخيص فى وجوه التخليص» وهى من أروع ما كتب ابن حزم»، وخطها وهو فى قمة توهجه، علمًا وحوارا، ونضالا وفكرا، فجاءت تعكس ثقافته بدقة، فى شمولها وعمقها، ووضوحها وروعتها، وتومىء إلى شخصيته فى شموخها وتعاليها، وتسامحها وبرها، وكتبها ردا على أسئلة جاءته من بعض أصدقائه، أجادوا فيها السؤال وبرع فى الجواب. سألوه عن طلب العلم، وهل الأداب من العلم، يعنون النحو واللغة والشعر، وفروعًا أخرى لا تعنينا هنا.

وفى هذه الرسالة أبدى رأيه فى الشعر جليًا ومفصلا، وقوله ليس فى حاجة إلى فضل شرح، أو بيان، أو تعليق، وإليك نص ما قال:

«وأمّا علم الشعر فإنه على ثلاثة أقسام:

أحدها: ألا يكون للإنسان علم غيره فهذا حرام، يبين ذلك قوله عليه السلام: «لأن يملأ، أو يمتلئ، جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له من أن يمتلىء شعرا».

والثانى: الاستكثار منه، فلسنا نحبه وليس بحرام، لا يأثم المستكثر منه إذا ضرب فى علم دينه بنصيب، ولكن الاشتغال بغيره أفضل.

والثالث: الأخذ منه بنصيب، فهذا نحبه، ونحض عليه، لأن النبى عليه السلام قد استنشد الشعر، وأنشد حسان على منبره عليه السلام وقال عليه السلام: «إن من الشعرِ حكمًا، وفيه عون على الاستشهاد فى النحو واللغة، فهذا المقدار هو الذى يجب الاقتصار عليه من رواية الشعر، وفى هذا كفاية، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وأما من قال الشعر فى الحكمة والزهد فقد أحسن وأجر، وأما من قال معاتبًا لصديقه، ومراسلا له، وراثيا من مات من إخوانه بما ليس باطلا، ومادحًا لمن استحق الحمد

بالحق، فليس بآثم ولا يكره ذلك. وأما من قال هاجيا لمسلم، ومادحًا بالكذب، ومشببًا بحرم المسلمين، فهو فاسق، وقد بين الله هذا كله بقوله: «والشعراء يتبعهم الغاوون».

ومن المؤكد أن هذا الرأى انتهى إليه ابن حزم بعد تأليفه «طوق الحمامة» بزمن طويل، وأنه كان وراء قلة شعره فى الطور الثانى من حياته وتوقفه عن قول الشعر العاطفى تقريبا، فلسنا نعرف له بعده إلا قصائد فى التأمل والرثاء والعتاب والحكمة والتراسل مع الأصدقاء، وفى الجاد من قضايا الحياة إجمالا، ويقتضينى الأنصاف أيضا أن أقرر أنه حتى فى شعره العاطفى الذى قاله فى شبيبته كان ملتزما بما قاله هنا، فلم يخدش حياء، ولم يمس عرضا ولم يتقول على كريم.

• موضوعات شعره :

جاء الشعر فى الطوق مكملا لنثره، وتَوْشية للمعانى التى احتواها ومتمما للأفكار التى نثرها، وبالتالى تعددت أغراض شعره فيه بتعدد موضوعات الكتاب، وإذا كان ابن حزم قد تناول فيه الحب ودواعيه، والوصل ومتعته، والنفس ونوازعها، والحزن وأسبابه، والتضحية ومواطنها، والصبر وثماره، فقد غطى شعره كل هذه القضايا، وما اتصل بها من وصف ومدح، ورثاء وحكمة، وما من خبر إلا واستشهد عليه ابن حزم بأبيات من الشعر، تأكيدا لروايته، أو إظهارا لشاعريته، أو استجابة لدوافع داخلية فى القليل. يقول: «وسأورد فى رسالتى هذه أشعارا قلتها فيما شاهدته، فلا تنكر أنت، ومن رآها، على أنى سالك فيها مسلك حاكى الحديث عن نفسه، فهذا مذهب المتحلين بقول الشعر، وأكثر من ذلكَ فإن إخوانى يجشموننى القول فيما يعرض لهم على طرائقهم ومذاهبهم. وكفانى أنى ذاكر لك ما عرض لى مما يشاكل ما نحوت نحوه، وناسبه إلى»[1].

أما الأفكار التى تناولها فى شعره الذى عثرنا عليه خارج الطوق سواء فى مخطوطة الديوان المنسوبة إليه، أو المتفرقة فى كتب التراجم، فهى تتصل فى جانب منها بالأغراض التى وردت فى الطوق، والجانب الأكبر من شعر المخطوطة ذاتى خالص، يفخر فيه ابن حزم بأهله وعلمه ومواقفه، وسنرد هذا إلى أسبابه عندما نعرض لهذا الشعر.

وسوف نتناول هذه الموضوعات، فيما يلى، واحدا وراء أخر.

---

(١) طوق الحمامة، ص ١٦.

• **الحب والجمال :**

خبر ابن حزم المرأة عن كثب، وكان رأيه فيها سيئًا للغاية، وعرضنا لذلك تفصيلا فى فصل «المرأة فى قرطبة من خلال الطوق» من هذا الكتاب، غير أن موقفه ذاك موقف المتأمل والعالم والدارس، أما الشاب العاشق الولهان فشىء مختلف تمامًا، ذلك أن ابن حزم الفتى عرف المرأة أنثى وهو فى سن باكرة جدا، على عتبة المراهقة، ومارس الحب معها ولما يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، وأحب وانفعل، وأحس بالجمال وتأثر به وتذوّقه، ومارت عاطفته ورقت، واستجاب لداعى الهوى، فخفق قلبه واضطرب، ولم يقف بشعره عند تجربته فيه، وإنما عرض لتجارب غيره من لداته وأصحابه، ومن أبناء طبقته ومعاصريه، فتيات وفتيانًا، وسنقف عند الأبيات التى نرى أنها تعكس تجربته عاشقًا، ونتجاوز تلك التى أتى بها لتُجمل ما سبقها فى النثر من أفكار.

يعترف ابن حزم فى دراسته للحب بأن الصورة الحسية، أو الظاهرة ليست شرطا فى وقوعه، وقد يقع دون ان تتوفر فى المحبوب دواعى الجمال الحسى، ولكنه مع هذا يعترف بأن الجمال الحسى، يجذب ويأسر، ويستولى على المشاعر، وأن المرء يؤثر فى المرأة أشياء معينة، تختلف من فرد إلى آخر، فقد كان هو وأبوه قبله، يؤثران الشقراوات دون غيرهن، ويعترف بذلك فى بساطة مؤكدة وأخاذة: «إنى أحببت فى صباى جارية لي شقراء الشعر، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ولو أنه على الشمس، أو على صورة الحسن نفسه، وإنى لأجد هذا فى أصل تركيبى من ذلك الوقت، ولا تؤاتينى نفسى على سواه، ولا تحب غيره البتة، وهذا العارض بعينه عرض لأبى رضى الله عنه، وعلى ذلك جرى أبى إلى أن وافاه أجله».

وردّ على أولئك الذين أخذوا عليه هيامه بالشقراوات، بأن الشقرة لون النور والذهب والنرجس والنجوم على البعد، أما السواد فلون أهل جهنم، ولباس الثكالى وأهل الحزن:

يعيبونهـــا عندى بشُقرة شَعرهـــا ... فقلت لهم: هـــذا الذى زانها عندى
يعيبون لـــون النور والتبر ضـــلة ... لـرأى جهـول فى الغـــواية ممتد
وهل عاب لون النرجس الغض عائبٌ ... ولـون النجوم الزاهـرات على البعد
وأبعـدُ خَلْقِ الله من كـــل حكمة ... مُفضِّل جـرم فـاحم اللـون مسـوَّدُ
بـه وُصفَت ألـوانُ أهـــل جهنمٍ ... ولبسـةُ بـاكٍ مشـكل الأهـــل محتد

محبّةُ صدْق لم تكن نَبْتُ ساعة ... ولا وَرِيتْ حين ارتياد زنادُهـــا
ولكن على مَهْلٍ سرتْ وتَولَّدتْ ... بطولِ امتزاجٍ فاستقر عمادهـــا
فلـم يَدْنُ منها عزمُها وانتفاضُها ... ولم يَنْأ عنها مُكثُها وازديادهـــا

وأخيرا فإن الحب يحمله على ألوان من الخلق لا يرتضيها فى غير هذا المجال، فهو يكره الكذب، ويراه أكبر الذنوب، وأقبح من الكفر، ومع ذلك لايرى بأسًا أن يطلب من محبوبه شعرا أن يعده ولو كذبًا، إنه لون من الكذب الأبيض، الذى يُسْعد ولا يؤذى:

إن كان وصلُكَ ليس فيه مَطمعٌ ... والقربُ ممنوعٌ فعدْنى واكذبِ

هذه لمحة عن ابن حزم الشاعر عاشقًا، وبداهة لم نعرض له مفكرا يتحدث عن الحب والمحبين درسًا وتنظيرا، يقدم آراءه هذه نثرا، ثم يجملها شعرا، لأنها لاصلة لها بمشاعره فعلا، ومنطق القلب والعاطفة لاصلة لها بقوانين العقل والفكر ومسارهما.

• **الرثـاء :**

يمثل الرثاء الجانب الآخر الأكثر صدقًا فى الشعر العربى، فهو كالحب لا يصدر إلا عن عاطفة صادقة، ولا يتفجر إلا من قلب كليم. وقد رثا ابن حزم صادقًا من أحب وما أحب، ورثاؤه يرتبط فى جملته بالغاية من تأليف «طوق الحمامة»، فهو يرثى حبيباته، وأصحابه الأوفياء، ممن كانوا مثله، لهم فى مجال الحب جولات وصولات.

وأول رثاء له نقع عليه قاله فى حبيبته «نُعْم»، وكانت بين من أحب وذاق من النساء، ويقدم لنا صورة دقيقة لها ولمشاعره حين بكاها: «كنت أشدُّ الناس كلفا، وأعظمهم حبا، بجارية لى، كانت فيما خلا اسمها «نُعْم». وكانت أمنية المتمنى، وغاية الحسن خَلْقا وخُلُقا، وموافقة لى، وكنت أبا عذرها[(١)] وكنا قد تكافأنا المودة ففجعتنى بها الأقدار، واخترمتها الليالى ومر النهار، وصارت ثالثة التراب والأحجار، وسنى حين وفاتها دون العشرين سنة، وكانت هى دونى فى السن، فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابى[(٢)] ولا تفتر لى دمعة على جمود عينى، وقلة إسعادها، وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف، وببعض

(١) أى أنها صارت على يده امرأة بعد أن كانت فتاة.
(٢) أى لم يمارس الحب مع أى امرأة أخرى طوال هذه المدة.

أعضاء جسمي العزيزة علي، مسارعًا طائعًا، وما طاب لي عيشٌ بعدها، ولا نسيت ذكرها، ولا أنستُ بسواها، ولقد عفّى حبي لها على ما كان قبله، وحرم ما كان بعده:

كأنيَ لم آنس بألفــاظك التي — على عُقَد الألبـاب هنّ نوافثُ
ولم أتحكم في الأمـاني كأنني — لإفراط ما حُكِّمتُ فيهن عابث

ومنها:

ويبدين إعراضـاً وهـنّ أوالـف — ويُقسْمنَ في هجري وهن حوانث»

وكما نرى فإن أبياته فيها لم ترد في الطوق كاملة، وإنما اكتفى منهـا، أو اكتفى الناسخ إذا شئت، بالأبيات الثلاثة السابقة، رغم أننا نفهم من عبارة قدم بها لهذه الأبيات أنه بكاهـا بشعر غزير، فهـو يقول في صيغة الجمع: «ومن مراثي فيهـا قصيـدة أقـول فيهـا».

والأبيات الثلاثة لا تقدم أفكارا عميقة، أو حتى غير عادية، وكل ما تقول «إن حديثها ساحر، وأمانيه بين يديها بلا حدود، وفي البيت الأخير منها، وربما كان آخر القصيدة، يشير إلى اللائي يردنه ويتظاهرون بالإعراض عنه، ويرغبن في وصله ويظهرن الهجر.

ونُعيَ إليه بعض من كان يحب من بلدة نازحة، ففر بنفسه إلى المقابر، وجعل يمشي بين سكانها، ويقول:

وددتُ بأن ظَهْر الأرض بَطْنٌ — وأن البطن منهـا صـار ظَهْرا
وأني متُّ قبـل ورود خَطْب — أتى فأثار في الأكبـاد جمْرا
وأنّ دمي لمـن قـد بانَ غُسْلٌ — وأنّ ضلوعَ صدري كنّ قبرا

وهو في هذه الأبيات أصيل ومبتكـر، فهـو لا يتحـدث عـن شخص الـذي ذهب، وإنما يصـور وقع الفجيعة على قلبه، وهـو شيء جديد في الرثاء، حتى لو كان يبكي محبوبًا.

ثم جاءته البشرى، واليأس مستحكم، والقلب مظلم، بأن الخبر كاذب، فأخضر فؤاده بعد سواد، وانزاح الغم عن قلبه، وأسعده الخبر، رغم ألا سبيل إلى الوصال، وإنما يكفيه البقاء على قديم الوداد:

بشرى أتتْ واليـــأسُ مستحكمٌ — والقلب فى سبع طباق شـــدادْ
كست فـؤادى خضرة بعدمـــا — كان فؤادى لابســـاً للحـدادْ
جَلى ســـواد الغم عنى كمـــا — يُجْلى بلون الشمس لونَ السواد
هـذا وما آمـل وصلاً ســـوى — صدْقِ وفـــاءٍ بقديم الـوداد

ورثا صديقه الوفى عبدالله بن يحيى التميمى الطبنى، وكان ابن حزم يجل الصداقة ويضعها فى المحل الأسمى من تقديره واهتمامه، ويعترف بأنه لم يستطع أن يكتم حزنه، وأنه ظل يتردد على ديارهم فيجدها خلاءً منه، فيبكيها ويدعها عائدا إلى بيته حزينا:

لئن سترتْكَ بطـونُ اللحود — فوجْدى بعـــدَكَ لا يستَتِر
قصدت ديارك قصد المشوقِ — وللدهـر فينا كُرورٌ ومـــر
فألفيتها منك قفرًا خـــلاءً — فأسكبت عينى عليـك العبر

وكما نرى لا جديد فى أفكار ابن حزم راثيًا، رغم أنه كان فيها صادقًا، وربما كان أجمل رثاء قاله شعرا ونثرا بكاءه ديارهم فى بلاط مغيث، حين أتى عليها البربر هدمًا وتدميرا، ونقل إليه خبرها وقد صارت أطلالا وهو لاجىء فى المرية، فأخذ يبكيها فى حرقة مؤثرة، ويقارن بين حالها أمس وما انتهت إليه اليوم، ولو أنه فى نثره كان أروع منه فى شعره، وهى إلى جانب قصيدة صديقه الشاعر ابن شهيد أجمل وأروع ما قيل فى رثاء عاصمة الخلافة، وقد ذهب بجلالها وروعتها الأحداث والزمان.

● **الطبيعة :**

لم يغفل ابن حزم عن الطبيعة فى شعره، وما كان له أن يفعل، فالطبيعة فى الأندلس جميلة ومتنوعة، لا تقع منها دائمًا إلا على ما هو جميل ومثير، ولكنها لا تأتى فى شعره بالقدر الذى كنا نطمح فيه، وهو أمر طبيعى، فصاحبنا عالم يقف على أرض الواقع، وهو رقيق المشاعر والأحاسيس، ولكنه بحكم ثقافته واتجاهه العلمى، وربما بتكوينه المزاجى أيضا، أبعد ما يكون عن الخيال يحلق به عاليا فى دنيا الوهم والتصور، وينأى به بعيدا عن الواقع المادى الملموس.

ونلحظ أن وقفاته المحدودة أمام الطبيعة ارتبطت بظروفه عاشقا، أو صديقًا فى صحبة من الأصدقاء بين الرياض، ولهذا لا تتجاوز وصف الليل، ظلامه ونجومه، وما

يعتمل فى أفئدة المحبين أثناءه، وهى فكرة قديمة ظل الشعراء يدورون حولها منذ قال إمرؤ القيس أبياته الجميلة:

وليلٍ كموج البحرِ أرخى سدوله ... عليَّ بأنواع الهمـــوم ليبتـــلى
فقلتُ لـــه لمّـا تمطىَّ بصلبــه ... وأردف أعجازا ونـاء بكلكل[1]

وقد سبق الجميع، وفاقهم فكرة وتصويرا.

ووصف ابن حزم البساتين والحدائق، وهو أمر عادى لمن كان فى مثل طبقته الإجتماعية، تطوق بيتهم الجنان المخضرة والمثمرة، وتحيط به الأشجار العالية المظلة، أماما عدا ذلك من مظاهر الطبيعة حوله، من جبال وحيوان وسماء وأنهار، فلم يعرها التفاتا، على الأقل فيما وصلنا من أشعاره.

جاء حديث ابن حزم عن الليل عرضًا، وهو يتحدث عن السهر بوصفه من أعراض المحبين ولوازمهم، فهم يدعون الكواكب، ويصفون طول اليل، وعلى نهجهم شاعرا ومحبًا تحدث لنا عن السحاب الذى يقلد دموعه مطرا، والليل الذى لا سبيل إلى نهاره، وقد أخفت الغيوم سناه عن العيون، وأخفى هو حبه فليس يدركه أحد إلا ظنا:

تعلّمت السحائبُ من شؤونى ... فعمّت بالحيا السكْبِ الهتون
وهـذا الليـلُ فيك غـدا رفيقى ... بذلك أم على سـهرى معينى
فليس إلى النهـــار لنـــا سبيلٌ ... وســـهدٌ زائـد فى كـل حين
كـــأن نجـومه والغيمُ يخفى ... سناهـا عن مـلاحظة العيون
ضمـيرى فى ودادك يامنـايا ... فليـس يبين إلا بالظنـــــون

وبقية مقطوعاته الأربع الأخرى عن الليل ونجومه، والسحاب وهطوله، تدور حول هذا المعنى تقريبًا.

وإلى جانب الليل صور لنا الرياض والبساتين نظمًا ونثرا، وأجاد فى الحالين، وصف لنا حديقة التقى فيها وصحبة معه، فـوصف أشجارهـا المورقـة، وأزهارهـا المتفتحـة، وأطيارها المغردة، ومياهها الجارية، وفيما أرى كان أول من التفت إلى أن الإنسان إذا

---

(١) أنظر تكملة الأبيات وشرحها والتعليق عليها، فى كتابنا: امرؤ القيس، حياته وشعره، ص ٢٣٦ ، الطبعة الخامسة، دار المعارف ١٩٨٥ .

سما خُلُقا وتهذيبًا كان أجمل من كل هذا، ولكنه لا يقنع بهذا الجمال، ولا يرضى عن هذه الفتنة، لأنه بعيد عن حبيبه، ويؤثر أن يكون بقربه ولو في السجن:

ولما تروّحنا بأكناف روْضـــة   مهدّلة الأفنان في تربها الندى(١)

وهو يتحدث عن المحبين وسلوهم، وأثر الهجر في صحتهم وأبدانهم ويصف لنا زهرة النرجس، وأنها قائمة وسط البستان بين بقية الزهور، مائلة حائرة، كعاشق طوقه الحب من كل جانب، فأخذت لونه، وكانت في واقعها تعشق زهر البهار:

وبدا النرجسُ البديعُ كصبٍ   حائرَ الطرْف مائلا كالمدار
لـونهُ لـونُ عاشـــقٍ مستهامٍ   وهو لا شك هــائمٌ بالبهار

وهي صورة جميلة، لولا أن التأكيد في تعبير «لاشك» ذهب بجانب من جمالها، ولو ترك فيها مجالا للحيرة والتردد لكانت أكثر جمالا وأشد إثارة، ومثل هذه الصورة نجد لها شبيها في أشعار صديقه **الشاعر الطليق**، وسوف يبلغ بها شعراء القرن التالي، **كأبن خفاجة** وابن اخته **ابن الزقاق**، قدرا عاليًا من الإجادة والصقل.

- **الفخر :**

افتخر ابن حزم بأخلاقه ومبادئه فحسب، رغم أن إحساسه بأهله ونفسه وطبقته، ومكانته الاجتماعية بين قومه، يتجلى واضحا عبر صفحات الطوق، ولكنه لا يعرض لهذا شعرا، لقد وقف بفخره في باب «الهجر»، عند تميزه العلمي، وأنه لا يتوقف عن التزود من الثقافة، رغم أن الدنيا تسيء إليه، وماذا يضيره إذا لم يستطع ضعاف البصائر أن يدركوا ضوء الشمس:

ولا ذنبَ لي إذ صرتُ أحدو ركائبي   إلى الورِدْ والدنيــا تسيء مصــادري
ومـاذا على الشمس المنيرة بالضحى   إذا قصّرتْ عنهــا ضعافُ البصــائر

وفي باب «السلوّ» أربعة أبيات يفتخر فيها بصفتين كان يعدهما من أجل ما يتصف به ويحرص عليه: الوفاء وعزة النفس، والحرص عليهما في مجتمع جبُل على النفاق والتلون، وبين فقهاء درجوا على المداهنة والمصانعة، يكلفه الثمن غاليا:

(١) بقية الأبيات والقطعة النثرية التي سبقتها في «طوق الحمامة» ص ١٣٣ - ١٣٤ الطبعة الرابعة، دار المعارف القاهرة ١٩٨٥ .

لى خلّتان أذاقـــانى الأسى جُرَعًا ونغّصــا عيشتى واستهلكا جلدى
كلتا هما تَطّبينى نحـــو جبلتهــا كالصيد ينشبُ بين الذئب والأسد
وفـاءُ صـدْق فما فارقت ذا مقةٍ فزال حزنى عليـه آخـــر الأبـد
وعـزة لا يحــل الضيمُ ساحتهـا صرامةً فيـه بالأمـــوال والولـــد

وفى باب «الوفاء» سبعة أبيات متفرقات يفتخر فيها بوفائه أيضًا.

ولكن الافتخار ذهب بالحظ الأوفى من شعره الذى فى المخطوطة، فالقصيدة التى يخاطب بها **القاضي أبا المطرف** تدور كلها، بعد مقدمة قصيرة أثنى فيها باعتدال على القاضى، حول شخصه، يفخر بسبقه على صحبه، ويعتب على أبى المطرف أنه لا يعرف مكانته، ويقول إن فخره ليس زهوا، وأن عجبه لا يستفز حليما، وأن له فى **يوسف النبى** أسوة، وفيها يذكّر بحدة خاطره، ووفرة ذكائه، وسعة علمه، فى الفقه والحديث، والفتيا وعلم الكلام، وأنه فى أشعاره فاق كعبًا وجريرا، ويصرح بأنه يعرف أكثر من لغة، لاحديثا ومفردات فحسب وإنما تمكنا من نحوها أيضًا، إلى جانب علوم العروض والأنساب والفلسفة، وأنه فيها ندّ **لأرسطو** إن لم يَفُقْه، وأنه صنع مجده ولم يرثه، وتتضمن الأبيات التى أوردها معظم الذين ترجموا له، وفيها يصف نفسه عالمًا بأنه الشمس منيرة، ولكن عيبه أنه أندلسى.

وأرى أنه قال هذه القصيدة فى شبيبته، لأنه سوف يعترف لنا فيما بعد، فى آخر ما كتب، وهو **«الأخلاق والسير فى مداواة النفوس»**[1] بأن العجب كان بعض نقائصه، وأنه عانى مغبته، وبذل جهدا مضنيا فى التخلص منه، وأعانه الله على ذلك. وافتخر فيها أيضًا بماله الذى لا ينضب، وإنما كان له ذلك فى أيامه الأولى قبل أن يغادر قرطبة.

وأخيرا فالقصيدة توجه بها، كما قلنا، إلى أبى المطرف وهو قاض، وهذا ظل فى منصب القضاء حتى عام ٤١٩هـ = ١٠٢٨م، وذلك يعنى أن ابن حزم قالها قبل هذا التاريخ. وفى القصيدة بيت يشير إلى أن ابن حزم بلغ الخامسة والعشرين من عمره، أو تجاوزها، أى أنه قالها بعد عام ٤٠٩هـ = ١٠١٨م وبين هذين التاريخين يمكن أن نحدد وقت إنشادها، وأراها إلى التاريخ الثانى أقرب منها إلى الأول.

---

(١) نشرته دار المعارف بتحقيقنا، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٩٢.

وقد نشرنا القصيدة برمتها فى الملحق وهى الأولى منه، وتنشر للمرة الأولى فيما أعلم.

والقصيدة الثانية فى الملحق، وهى من المخطوطة أيضًا، تكاد تكون فى الفخر كلها، وتعود قطعًا إلى المرحلة الثانية من حياته، إن لم يكن إلى آخرها، لأنه يتحدث فيها عما بلغه من لذة الدنيا، عيشا وسلطانا وثراء، وكيف ذهبت الأيام بهذا كله، وأن ثراءه أُخذَ عليه، وكان سببًا فى اضطهاده، فلاذ من ذلك كله بالعلم والأخلاقَ والأدب، لأن الدهر يعجز عن واحدة منها، فكيف بها جميعًا، فارتد عنه مهزومًا.

وتحدث عن إقبال الناس مع الدنيا وذهابهم معها، وهى حقيقة يقررها عن تجربة، فقد عرفها مقبلة ومدبرة، وأكد على هذا المعنى كثيرا فى كتابه **«الأخلاق والسير»**، وفى هذه القصيدة يفتخر للمرة الأولى، فيما أُعرف بوالده صراحة فى الشعر، وكيف كان يدبر الدنيا بخاتمه ثلاثين عامًا كاملة.

وأفاض القول فى علمه، وأنه به فى منزلة تعدل منزلة الملك، وقد ادخر منه كثيرا، وأفاض منه على الناس، ولم يبخل به على أحد، لأن العلم غير المال، هذا يذهب به الأنفاق، وذاك يزكو معه وينتشر، ويكسب صاحبه أهلا ورفقة وطلابًا وذكْرًا، ويجد فيه أنسا ونورا وخير صحبة، ومعينا إذا أشكل أمر، وبه حقق أماله أجمعها.

والقصيدة الثالثة أبياتًا مختارة من قصيدة أُطول فيما أرى، وجاء فخره فيها أكثر اعتدالا ورزانة، ويقرر واقعا حدث فعلا، لأنه يصور لنا جلده فى مقاومة أحداث الزمان، وهو شيء لا ينكره أحد عليه، ويمتزج الفخر فيها بشيء من الزهد وذم الدنيا حين تقبل فيتزاحم معها خساس الناس، وحين تذهب فتحملهم، وأكرم بها ساعتها، لأنها تتركه مع الكرام والفضلاء.

وتبقى لى ملاحظة أخيرة، وأراها بليغة الدلالة، وهى أن **ابن حزم** افتخر بنفسه طويلا، عالمًا ومناضلا وجوادا، ولكن افتخاره بأهله الأقربين كان قليلا، لا يتجاوز الإشارة إلى والده مرة واحدة، بأنه وزر طول ثلاثين عامًا، ولم يتجاوزه إلى جده أبدا، ولم يشر إلى أسلافه الخالين من قريب أو بعيد، مما يدعم رواية **ابن حيان** فى أنه «خامل الأبوة، مولد الأرومة، من عجم لبلة، جده الأدنى حديث عهد بالإسلام، لم يتقدم لسلفه نباهة، فأبوه

أحمد على الحقيقة هو الذى بنى بيت نفسه فى آخر الدهر برأس رابية، وعمّده بالخلال الفاضلة، من الرجاحة والمعرفة والدهاء والرجولة والرأى»[١].

ومع ذلك نجد فى القصيدة التى مدح بها قاضى الجماعة فى قرطبة، عبد الرحمن بن أحمد، أبا المطرف، المعروف بابن الحصار، بيتا يقول:

وماضرّ شعرى ان منو شَهْرَ والدى ولـم تحْظ بى عُليْا تميم ولا كلب

ومَنو شهر هذا يمكن أن يكون منوجهر بن إيرج بن أفريدون، جدملوك الفرس، وجاء فى المصادر العربية القديمة بالشين والجيم[٢]، لأن كلا الحرفين صوت مجهور، ومخرجهما واحد، ويتقاربان فى اللهجات العربية إلى حد بعيد. ولكنى لست مطمئنا إلى هذه الرواية، وأشك فى صحة البيت كثيرا، لأنه إشارة وحيدة، لا تجد ما يدعمها فى ما كتب ابن حزم، أو فى خلقه، ولم يعرض لهذا الاسم فى غير هذا المكان ولا مرة واحدة، واختصت به مخطوطة الديوان وحدها، مع أبيات أخرى قليلة، على حين وردت بقية أبيات القصيدة فى مراجع أخرى عديدة[٣].

ويغلب على ظنى أن البيت دخله تصحيف، أو شابه تحريف، قصدا أو عفوا، انتهى بالكلمة إلى هذه الصورة التى تشبه اسم الملك الفارسى، وبعيد جدا أن يفخر ابن حزم وهو مسلم طيب، وغيور على الإسلام، شديد الحماسة له، بجد مجوسى، حتى ولو رأى - فرضا! - أن أصوله البعيدة تضرب فى فارس، وأن يختار لزهوه أقدم ملوكها، وأقلهم شهرة بين العرب، متجاوزا أعاظم ملوك فارس فى مجالات الفكر والفن، ومن كانوا على صلات وثيقة بالعرب، وشاعت أسماؤهم فى الأدب العربى شعرا وقصصا وحكايات، وأمثالا وأيّاما.

- **الصداقة :**

كان ابن حزم حفيًا بأصدقائه، ومقدرا لمعنى الصداقة، وربطته بعدد من أنداده سنًا وطبقة وثقافة صداقات حميمة، ذات ألوان مختلفة، تحدث عن جانب محدود منها فى

---

(١) ابن بسام، القسم الأول، ص ١٧٠ ، طبعة احسان عباس.

(٢) أنظر:

- الطبرى، جـ ١ ص ٢٧٧ ، تحقيق أبو الفضل ابراهيم، طبعة دار المعارف، القاهرة ١٦٩٠.
- ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ ١ ، ص ١٦٤ ، بيروت ١٩٦٥ .

(٣) أنظر توثيق القصيدة فى الملحق، آخر هذا البحث.

كتابه «طوق الحمامة»، كالذين عرفهم بدءا عن طريق المراسلة. فلما التقى بهم مواجهة تحول الود إلى منافرة، ونسخ الكره ما كان يضمره كل منهما للآخر من حب:

أبدلتْ أشخاصنا كَرْها وفرط قلى   كما الصحائف قد يبدلْن بالنسخ

وعرض لموقف على النقيض مما سبق، كان بينه وبين أبى عامر محمد بن عامر، ويصف هذا بقوله: «كنت له على كراهة صحيحة وهو لى كذلك، ولم يرنى ولا رأيته، وكان أصل ذلك تنقيلا يحمل إليه عنى وإلى عنه، ويؤكده إنحراف بين أبوينا لتنافسهما فيما كانا فيه من صحبة السلطان ووجاهة الدنيا، ثم وفق الله الاجتماع به فصار لى أود الناس، وصرت له كذلك، إلى أن حال الموت بيننا:

أخٌ لى كسَّبنيه اللقـــــاءُ   وأوجـدنى فيـه علْقًا شـريفًا
وقد كنت أكــره منه الجواد   وما كنتُ أرغبـه لى أليفـــا
وكان البغيض فَصـار الحبيبَ   وكان الثقيلَ فصـار الخفيفا
وقـد كنت أُدْمنُ عنه الوجيف   فصرتُ أُديم إليـه الوجيفـا

وكان **أبو عامر** هذا من أجمل فتيان قرطبة، وكانت النساء تولع به، وتتزاحم على مرآه، وقدم لنا **ابن حزم فى الطوق** وصفا كاملا لهذا وكان يضرب به المثل، فيقال **أجمل من وجه أبى عامر**[1].

وحين ودعه على ساحل مالقة مع صديقهما **أبى بكر بن إسحاق**، فى رحلته إلى شرق الأندلس، التى لم يرياه بعدها، كان أبو بكر يبكى وينشد متمثلا ببيت **أبى عطاء السندى فى رثاء يزيد بن عمر بن هبيرة**:

ألا إنّ عينًا لم تجد يوم واسطٍ   عليك بباقى دمعهـــا لجمود

على حين جمد الدمع فى عين ابن حزم، فأخذ يردد:

---

(١) طوق الحمامة، ص ١٠٣ – ١٠٤ و ١٧٣.

● خلط الدكتور عمر الدقاق فى كتابه ملامح الشعر الأندلسى، منشورات دار الشرق، بيروت ١٩٧٥ ، ص ١٠٧ و ١٠٨ ، بين أبى عامر هذا، وهو من أحفاد المنصور بن أبى عامر، وبين أبى عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد، ونسب ماورد من أخبار فى الطوق من الأول للثانى، وبنى عليها أحكاما، مع أن ابن حزم لم يعرض فى الطوق لابن شهيد ولا مرة واحدة.

وإنّ امرأً لم يفن حسنُ اصطباره   عليـك وقـد فــارقته لجليدُ

فاذا حاول واش إفساد ما بينه وبين أصدقائه لم يستجب للفتنة، وكان له صديق مرة، وكثر التدخيل بينهما، حتى كدح ذلك فيه، واستبان فى وجهه، وفى لحظه، على حين طبع ابن حزم على التأنى والتربص والمسالمة - ما أمكنه - فالتمس السبيل إلى معاودة المودة، وكتب إليه شعرا:

ولى فى الذى أُبدى مـــرام لوانهـــا   بدت ما ادعى حُسْنَ الرماية وَهْرِزُ(١)

ولكن أطول حديث خص به صديقًا فى مجال الشعر نجده فى المخطوطة التى أتينا على خبرها من قبل، فالقصيدة الأخيرة فيها، والرابعة فى ملحقنا، وجاءت فى اثنين وثلاثين بيتًا، تدور حول هذ الجانب من حياة ابن حزم، وقد أورد الذهبى فى ترجمته لابن حزم الأبيات السبعة الأولى منها، فى كتابه: سير النبلاء(٢).

والقصيدة كاملة فيما أرى، فقد بدأها ابن حزم بمقدمة طللية عصرية، ليس لها من طابع القديم إلا أنها غزلية، ولكنه غزل نأى به صاحبه عن الأطلال، ولم يقف بالأثافى الدوارس، وآثر أن يتحدث عن نفس متجلدة، لا يزعجها الهجران، ولا تعرف السلو، ولم تدر «أسماء» بخلد صاحبها يومًا، ولا جالت بميدانه. وإنما يتمثل داؤه العصى فى تفرق أصدقائه، ونَأْىْ خلانه، وكأن الفرقة تعرف مذهبه فى الصداقة وحرصه عليها، فهى تبلوه بألوان من نارها.

وأقسم بأنه لن ينسى أخًا نفسه تحدثه بأنه ليس ينساه، وعهده بظنه أن يكون صادقًا، وتعود أن يجد فيه العضد والساعد، والدرع والدعم، إذا جارت الأيام وتغوّل الزمان، ولكنه غاب، فغمت الدنيا بغيبته، فقد كان الشمس هداية ساعة الظلمة، وفى هدوء المؤمن رضى بحظه، واستسلم لقدره.

ثم عاد يؤكد ما يحسه القلب وتفيض به النفس، ويلمح الناس أثره عيانًا: إنه رغم غيبته، وثقل وحشته، وسفحه الدمع حزنا على بعده، لايزال يراه نصب عينه، ويأنس

(١) وهرز: قواس صائب الرماية، فارسى الأصل، كان مشهورا بذلك فى الجاهلية.

(٢) نشر سعيد الأفغانى الفقرة الخاصة بابن حزم محققة، بيروت ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

بطيفه، ومسكنه الجوانح، وهل الحضور إلا عين هذا الأمر؟ فشخصه ماثل فى ناظره، وفى ضميره إذا غفت عينه، يدعوه مرتاحًا لرؤيته، وحسبه أنه يلقاه.

ويتوجه إلى الزمن يعذره فيما أساء، فقد تساوى فى حسده على هذا الصديق الأولياء والأعداء، وحتى حواسه أيضًا تتحاسد عليه، فالفؤاد يحسد البصر، وعاد القلب يحسد العينين، وأخذ الزمن بحظه ففرق بينهما، وذهب صديقه مغلوبًا، وبقى هو نائيًا. وفى سماحة المؤمن يعذر الجميع، ومن ذا الذى لا يتعرض للحساد فى دنيا سليمان؟! وحسدهم له على هذا الصديق له ما يبرره، فقد كان الخير كله، وكان إخاءه نفعًا خالصًا، فهو نعمة تُحمد، وحقها أن تعلن ويعرفها الناس، وهو يعدل الدنيا كلها قدرا، بدونه لا تساوى شيئًا، ومعه بدونها الكفاية والكفاء.

وأجمل خلاله كلها بأنه نفيس وخطير، ولو خُير بين نفسه وبينه لاختاره، فما يمثل من معان خالد باق، أما الأجسام ففانية، وختم القصيدة داعيًا له بالسلام والعز والدعة، ما اخضرت الدنيا، ولاح فى السماء نجم[1].

ليس بين أبيات القصيدة ما يشير إلى هذا الصديق، وأراه أراد بها إنسانًا بعينه، رغم أنه لم يذكر اسمه أو ما يهدى إليه، ويحار الإنسان بعد قرون تسعة مضت على إنشادها عمن يكون، فلابن حزم أصدقاء كثيرون، فرق بينهم الزمان، وشتتهم الفتن، وتعاورتهم الأحداث، ومضى وحده يضرب فى بيداء الأندلس شرقا وغربا بلا رفيق ولا صديق، وإذا أردنا أن نحدد لها زمنا يمكن أن نقول إنها تعود إلى النصف الأول من الطور الثانى من حياته، حين هجر السياسة، وعكف على العلم والدرس والحوار.

وهى تمثل، إلى جانب ما كان بينه وبين صديقه الشاعر الناقد ابن شهيد من مراسلات شعرية – وسوف نخصها بدراسة مستقلة – لونا فريدا، وقليلا فى الشعر الأندلسى، ولست أعرف لها شبيها فيه، على كثرة ما قرأت إلا ما كان بينه وبين ابن شهيد لأنها تعبر عن عاطفة صادقة، وتعكس إحساسًا عميقًا بمعنى الصداقة وحقوقها، وليست مجرد مطارحات إخوانية يغلب عليها طابع الصنعة والنظم، تحملها أبيات قصيرة، كما هو الحال فى كثير من الأشعار التى تتناول هذا الجانب.

(١) أتينا على القصيدة كاملة فى الملحق.

لم يذكر **ابن حزم** صديقه الذى يتحدث عنه، وقد يرد على الخاطر أنه يريد بها الصداقة معنى، ولكنى أرجح مطمئنا، ظنا وحسا لايقينا، اعتمادا على تاريخه، وشواهد الحال، أنه يعنى بها من بين أصدقائه **أبا بكر محمد بن أحمد بن إسحاق المهلبى**، وكان له صديقًا ودودا، رافقه عندما ترك قرطبة بعد أن دهمها البربر وأتوا عليها، ونلتقى به عبر صفحات الطوق أكثر من مرة، وهو الذى توجه إليه هذا الإخاء الصادق:«أما بعد، ياأخى أبا بكر، سلام عليك سلام أخ مشوق، طالت بينه وبينك الأميال والفراسخ، وكثرت الأيام والليالى، ثم لقيك فى حال سفر ونقلة، ووادك فى خلال جولة ورحلة، فلم يقض من مجاورتك أربا، ولا بلغ من محاورتك مطلبا».

غير أن المصادر، أندلسية أو مشرقية، لا تلقى أى ضوء على أبى بكر هذا، أكثر من أنه كان صديقًا **لابن حزم**، فقط نعرف من الطوق أنهما كانا معًا فى **مالقة** يودعان صديقهما **أبا عامر محمد بن عامر** على ما أشرنا من قريب، وأنهما كانا فى المرية، واعتقلهما **خيران الصقلبى** معا، ثم نفاهما إلى قرية «**حصن القصر**» معا، وفيما بعد اتجها إلى بلنسية معًا، ليكونا فى جيش الخليفة **المرتضى**، وبعد الهزيمة انقطعت أخبار أبى بكر كلية، وأخبار ابن حزم أيضا، لولا ما نعرف من مؤلفاته نفسها..

- **المديح :**

يرئ شعر ابن حزم من المديح، لأنه عاش فى فترة كان الذين يتجه إليهم الشعراء بالمديح ممن ينطبق عليهم قول أبى العلا المعرى:

يسوسون الأمورَ بغير عَقْل ... فينفذُ أمرُهم ويقال ساسةْ
فــأفٍ للحيــاة وأفٍّ منى ... ومن زمنٍ رياسته خساسةْ

فلا غرو أن يتسامى ابن حزم عن مدحهم، بل إنه حمل عليهم، وسبهم، وواجههم، ولم يدارهم أبدا، رغم كل ما ألحقوه به من أذى. ولكنه فى قصيدة ذاتية طويلة، بدأها بمقدمة غزلية تقليدية، مضى يوازن فيها بين حياة كانت له، وحياة إنتهى إليها، وجاء بأبيات متفرقات منها فى «طوق الحمامة»، مدح فيها أبا بكر هشام بن محمد، أخا الخليفة المرتضى، والذى ناضل معه ابن حزم لتكون له الخلافة، ثم هزم على يد زاوى بن زيرى حاكم غرناطة، وأتى من المدح بأربعة أبيات فحسب، ولولا إشارته إلى أنها

فى مدحه لما أدركنا شيئًا من هذا وفيها مدحه بسعة الثقافة والعلم، وأنه من الدنيا كالروح من الجسد، محيط بكل ما فيها:

ألَيسَ يحيط الـروحُ فينـــا بكل مـــا دنا وتناءى وهـو فى حجب الصـــدْرِ
كذا الدهرُ جسمٌ وهو فى الدهر روحهُ محيـط بمـــا فيـه وإنْ شئت فاستقـرِ

ثم بيتان آخران متصلان بأبيات حذفها الناسخ فيما أرجح، فأصبح معناهما غامضا شيئا، ويشير فيهما إلى أن الإتاوات تهدى إليه، وأن تقبله لها منة منه يشكر عليها، إنها أنهار وهو بحر، والنهر مهما غزر وطما ينتهى به الحال إلى البحر أخيرا:

إتاوتهـــا تُهـــدى إليـه ومنّةٌ تَقبُّلُها منهـــم يُقَابل[1] بالشـــكر
كذا كل نهرٍ فى البلاد وإن طمتْ غزارته ينصبُّ فى لجج البحـــر

ولم أر لابن حزم مديحًا فى الطوق أو غيره إلا هذه الأبيات، وربما كان مفيدا أن أشير إلى أن أبا بكر هذا آخر خليفة أموى شهدته قرطبة، فقد بويع بالخلافة خارج العاصمة فى ٤١٨هـ = ١٠٢٧م، ودخل قرطبة بعد ذلك بعامين، وأزيح عنها بعد دخوله بعامين أيضا، فى ٤٢٢هـ - ١٠٣١م، ليموت مغمورا فى لاردة Lerida مدينة أندلسية فى الشمال الشرقى من شبه الجزيرة. أما قصيدته التى توجه بها إلى القاضى أبى المطرف فتدور حول فخره بعلمه ونفسه، ولم يعرض فيها لصفات القاضى بشىء.

• **الحكمة والزهد والوعظ :**

بعض أشعار ابن حزم نصحا خالصا، وأقرب ما تكون إلى الوعظ، ووشاها بحكم جيدة تعكس خبرته العريضة بالناس والحياة، أو بأمثال سائرة يتردد صداها عبر الزمن، غير أن الأمثال لا يقف بها عند شعر الوعظ أو النصح، وإنما نلتقى بها عبر كل الأغراض، ففى «باب الرقيب» فى الطوق، يقول فى محبوبين لمحبوب واحد، وكلاهما يرقب صاحبه:

كالكلب فى الآرىّ لا يَعتلف ولا يخـــلّ الغير أن يعتلف

(١) فى الأصل، فى الطوق ص ١٠٨ «يقاوم» ولاأرى المعنى يستقيم الأعلى معنى بعيد فأبحت لنفسى تغييرها هنا.

وهو يذكرنا بالمثل الذى نردده اليوم: «لا يرحم ولا يخلى رحمة ربنا تنزل».

وقد يأخذ مثله من التوراة، فيقول فى باب الواشى:

وماذا عليه من عنائى ولوعتى أنا آكل الرُّمّانَ والوُلْدُ تضرِسُ

والمثل فى التوراة نصا: «الآباء أكلوا الحصرم وأسنان الأبناء ضرست».

وفى «باب الهجر»:

يلوم أبو العباس جَهْلاً بطبعـــــه كما عيّر الحوتُ النعامة بالصدى

ونجد فى «باب البين»:

وما ينفعُ الطبُّ عند الحمام وينفع قبل الردَى من تلافـا

وهو قريب من المثل السائر بيننا اليوم: «الوقاية خير من العلاج».

ويرى ابن حزم أن الوفاء يدل على طيب الأصل وشرف العنصر فيقول:[1]

وهــــل ترى قطُّ دفْلى أنبتت عنبًا أو تذخر النحلُ فى أوكارها الصبر

وهو معنى يلتقى معَ ما نردده اليوم من مثل: «إنك لا تجنى من الشوك العنب».

وقصيدته «البائية» الطويلة فى «باب الهجر»، وأبقى الناسخ على ثلاثين بيتًا منها فحسب، تضم ضروربا من الحكمة وفنونا من المثل، ويكاد كل بيت فيها أن يكون حكمة مستقلة، وكان الشاعر نفسه على وعى بما فيها، فهو يقدم لها بقوله: «وأقول من قصيدة محتوية على ضروب من الحكم وفنون الآداب الطبيعية»، وأحيل القارىء على القصيدة كلها فى كتاب الطوق.

وشعر الزهد قليل فى «طوق الحمامة»، وهو أمر طبيعى فقد حرره فى أوج شبابه، وقمة إقباله على الدنيا وإقبالها عليه، ولكننا نلتقى فى آخره بقصائد ثلاث تدخل فى هذا الباب: الأولى منها فى «باب قبح المعصية» وقال عنها: إنها «فى النهى عن اتباع الهوى على سبيل الوعظ»، وهى طويلة نسبيا، وأبقى عليها الناسخ كلها، أوجلها، ويأتى الزهد

(١) طوق الحمامة، ص ٩٩-٩٨ ، الطبعة الرابعة، دار المعارف القاهرة ١٩٨٥.

فيها ممتزجا بالوعظ، والدعوة إلى الصلاح، وفيها يحاول أن يفتح أعين الناس على تفاهة الدنيا، وتوجيه قلوبهم وأبصارهم إلى ذكر الله، وفيها يتجه بالحديث إلى نفسه بدءا:

أقـــول لنفسى ما مبينٌ كحالك   وما الناسُ إلا هالكٌ وابن هالكِ

والأخريتان، وأرجح أنه قالهما بعد تحرير الطوق، ووردتا فى باب «فضل التعفف»، ولا صلة له بموضوع الكتاب كما يعترف ابن حزم نفسه، وجاءتا زاهدا خالصًا، وعزوفًا عن الدنيا، ودعوة قوية للإعراض عنها، «ومن عرف ربه، ومقدار رضاه وسخطه، هانت عنده اللذات الذاهبة، والحطام الفانى»، وتعكس أبيات الأولى منهما ومطلعها:

أقصرَ عن لَهْوه وعن طربه   وعفّ فى حبّه وفى عُرُبه

عاطفة رقيقة وروحًا شفيفًا، قريبًا من الله حقا، ويرعاه فى السر والعلانية.

والثانية، وهى أطول من الأولى، أعلى صوتًا، وأوضح نبرة فى مجال الزهد والوعظ والتذكير، وإن كانت دونها رقة وشفافية، ومطلعها:

أعـــارتْك دنيـــا مُستَرَدّ مُعارهُـــا   غضارةَ عَيْشٍ سوف يذوى اخضرارها

ونلتقى له بأبيات متفرقات فى المصادر التى عرضت لترجمته ينعى فيها الدنيا، وأنها طريق إلى الآخرة، مسراتها قليلة وفانية، ومشاغلها كثيرةودائمة، والمرء فيهما يضيع بين الحنين إلى ما افتقد، والإنشغال بما إليه يطمح:

هـــــل الدهـــر إلا ما عرفنا وأدركنا   فجـــــائعهُ تبقى ولذّاتـــــهُ تفنى
إذا امكنتْ فيـــه مســـرةُ ســـاعةٍ   تولّتْ كمرّ الطرف واستخلفتْ حزنا
إلى تبعات فى المعـــــاد وموقف   نـود لديـه أنّنا لـــــم نكن كُنّا
حصلنا على هـــــم وإثمٍ وحسرةٍ   وفـــــات الـذى كنّا نلـذّ بـه عنّا
حنينٌ لمـــــا ولىّ وشغْلٌ بمـــا أتى   وهَمٌ بمـــا يرجى فعيشك لا يهنـــا
كأن الذى كُنّا نســـــــرُّ بكونـه   إذا حقّقتْه النفسُ لفــظٌ بلا معنى[1]

(١) الأبيات فى: الحميدى، الجذوة، ص ٣٠٩، طبعة الدار المصرية للتأليف - ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص ٥٥-٥٦، طبعة الجوائب - ابن بشكوال: الصلة، جـ ٢ ص ٤١٦ طبعة الدار المصرية، القاهرة ١٩٦٦.

• **شعره الدينى :**

تفقه **ابن حزم** طالبًا فى **المذهب المالكى** الذى كان سائدا فى الأندلس على أيامه، به تأخذ الدولة وعليه يجرى القضاء، فلما شب عن الطوق مال عنه إلى **المذهب الشافعى**، وفى زحمة الأحداث السياسية التى أحاطت به، رأى من الفقهاء من يلوى عنق النصوص والإحكام إرضاء لحاكم ظالم، أو تبريرا لجور حادث، فآثر **المذهب الظاهرى** ليقف فى وجه هذه الموجة من التأويل والقياس، ونافح عن مذهبه ولم يكن مرغوبا، حتى ولا مسكوتا عنه، وجادل عنه بقوة، وبقى عليه حتى آخر أيامه، واستخدم كل ما يملك من منطق وعلم وموهبة، وجدل عنيف، وحوار جاد، ليدفع عنه تهجم فقهاء المالكية، وكان الشعر بين أسلحته التى استخدمها، فدافع عن الإسلام بعامة، وعن مذهبه الظاهرى بخاصة، وتحدث عن نفسه داعية أخيرا.

جاء دفاعه عن الإسلام نظمًا، يعكس تحمسه للدين وذوده عن العقيدة، وقلما تقع فيه على صورة شعرية، أو كلمات مشعة، أو أساليب مصورة، وإنما ألفاظ ومصطلحات محددة المعنى، تقع على كل النفوس بمقدار واحد، وما هكذا الفن.

أول هذه الأشعار قصيدته الأولى فى المخطوطة وجاءت فى ثمانين بيتا، وفى آخرها أنها: «فى إثبات حدوث العالم، وصحة نبوة سيدنا محمد ﷺ، وفيها وعظ حسن، ارتجلها الفقيه فى مجلس الخلافة دون إعمال أو روية». ومطلعها:

لك الحمدُ ياربُّ والشكر ثم ... لك الحمد ما باح بالشكر فمْ
لك الحمد فى كل ما حالةٍ ... فقد خصَّنى منك فضلٌ وعمْ

ومثلها القصيدة الثانية، وجاءتْ فى الرد على نقفور على نحو ما أشرنا إليه من قبل.

وثانى هذه الأشعار أوقفه على الدفاع عن المذهب الظاهرى، ويمكن أن نميز فيه لونين مختلفين، الأول منهما مجرد نظم لأسس المذهب الظاهرى، وأنه يقوم على الكتاب والسنة، ويرفض التقليد والتأويل والقياس، ويفصل آراء الظاهرية فى النسخ، وفى التعارض الظاهرى بين الآيات، والتحليل والتحريم وما إليهما، ومن ذلك اللون قصيدة مطولة تبلغ الستين بيتا، وردت فى آخر مخطوطة المجلد الثانى من كتاب ابن حزم:



الإحكام فى أصول الأحكام، وتوجد فى مكتبة ابن يوسف فى مدينة مراكش فى المغرب، تحت رقم ٥٢٤ ، ص ٤٦٢-٤٥٨ ، ومطلعها:

تعدىَّ سبيل الرشد من جار واعتدى وضـــاء له نور الهـــدى فتبلدا
وخـاب امـرؤ وافـاه حكمُ محمدٍ فقـــال بآراء الرجـــال وقلّدا(١)

أو يدافع عن رجال الحديث وما قاموا به من جهد فى جمع السنة وتصنيفها، وأنه يَفضل دور الفقهاء، وأن «مسلم والبخارى» أولى بالتبجيل والتعظيم من سحنون فقيه القيروان الشهير:

أنائم أنت عن كتب الحديث ومـا أتى عن المصطفى فيها من الدين(٢)

أو أن يجاهر الملأ، ويُشْهد الله والملائكة، أنه لا يأخذ بالرأى والقياس ويقف عند النص وحده:

أشـهدُ الله والمـــلائكَ أنى لا أرى الرأى والمقـــاييس دينا
حـــاش لله أن أقـول سـوى ما جاء فى النص والهدى مستبينا
كيف يخفَى على البصائر هـذا وهـو كالشمس شهرة ويقينا(٣)

وهذا النظم يجئ فى مرتبة وسط، لا يبلغ حد الشعر للأسباب التى أومأنا إليها قبل، ويعلو بسلاسته، ووقوفه عند الكليات، وإعراضه عن الجزئيات، وبعده عن الصنعة المغالية، والتزامه شكل القصيدة الغنائية عروضًا وقافية، على غير ما نعهده فى منظومات العلوم التى سوف تحفل بها القرون التالية.

واللون الثانى من دفاعه عن المذهب الظاهرى يمتزج بما يلاقى فى سبيله من عنت، دون أن يعرض لمبادئه قاصدا، فلا يسقط والحال هذه على نظم ركيك، أو قواعد جافة، وإنما تأتى أبياته هنا فى صورة خطرات لمكافح يحس وينفعل، ويأسى لما يرى، ويجرى

---

(١) نشر الأستاذ إبراهيم الكتانى القصيدة فى مجلة معهد المخطوطات العربية القاهرة ١٩٧٥ المجلد ٢١، جـ ١ ص ١٤٩.

(٢) الأبيات كلها فى الملحق.

(٣) الأبيات فى سير النبلاء للذهبى، الجزء الخاص بترجمة ابن حزم، تحقيق سعيد الأفغانى، ص ٤٥-٤٤، بيروت ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م.

لسانه بما تفيض به مشاعره قولا رقيقًا تترقرق فيه الصورة الشعرية، وتحس وراءه بنفس صاحبه، راضيا مبتهجا، أو حزينا آسيا:

مَن عذيرى من أناسٍ جهلوا ... ثمّ ظنوا أنهم أهلُ النظرْ
ركبوا الرأى عنادا فسروْا ... فى ظلام تاه من عَبَر
وطريق الرشد نهج مُهْيَعٌ ... مثلما أبصرت فى الأفق القمر
وهو الاجماعُ والنص الذى ... ليس إلا فى كتاب أو أثر(١)

وثالث الأقسام فى هذه الأشعار لا يتحدث فيه عن الإسلام عقيدة، ولا عن الظاهرية مذهبا، وإنما عن أمنيته داعية. ولدينا من هذا الاتجاه قصيدة واحدة، جاءت فى ثمانية أبيات، وردت مفرقة فى عدد من المصادر، وتحدث فيها عن أمانيه فى أن يبث علمه حيثما استطاع، وأن يبلغ به من الدنيا ما أمكنه، حاضرة وبادية، فيدعو إلى القرآن والسنة وقد نسيهما الناس، ويتحدث للمرة الأولى عن رغبته فى أن يلزم الثغور مدافعًا عن الدولة، وأن يهب للجهاد أول نافر، ليلقى منيته شهيدا، مقبلا غير مدبر، يكافح الأعداء ويطاعنهم حتى يلقى الله صريعًا، يرحل أصحابه عنه، ويخلفونه وراءهم طريحا، ويدعو الله ألا يجعل منيته بغيرها:

منایَ من الدنيا علومٌ أبثها ... وأنشرها فى كل بادٍ وحاضرِ
دعاءٌ إلى القرآن والسنن التى ... تناسى رجالٌ ذكرها فى المحاضر
وألزم أطراف الثغور مجاهدا ... إذا هيعةٌ ثارت فأول نافر
لألقى حِمامى مقبلاً غير مدبر ... بسمر العوالى والرقاق البواتر
أطاعنهم حتى يوافينى الردى ... بضربة حرّان وطعنة ثائر
كفاحًا مع الكفّار فى حومة الوغى ... فأكرم موت للفتى قتْل كافر
ويرحل أصحابى وأُترك ثاويا ... طريحًا بلحدى فى مكرّ الحوافر
فياربِّ لا تجعلْ حمامى بغيرها ... ولا تجعلنّى من قطين المقابر(٢)

---

(١) السبكى، طبقات الشافعية، جـ ٩ ص ٢٨٥ – الصفدى، الغيث المسجم فى شرح لامية العجم، جـ ١ ص ٦٤، بيروت ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م.

(٢) انظر: الذهبى، سير النبلاء، الترجمة الخاصة بابن حزم، ص ٤٥ – والصلة لابن بشكوال، جـ ٢، ص ٤١٧، طبعة الدار المصرية – ومخطوطة مسالك الابصار، لابن فضل الله العمرى، جـ ٤، الورقة ١٩١.

يصعب تحديد الفترة التى قيلت فيها هذه الأبيات، وربما تعود إلى المرحلة الأولى من الطور الثانى من حياة ابن حزم، حين نفض قلبه وعقله من السياسة يائسًا، ولكن مستقبل الأندلس دولة تواجه الأعداء من كل جانب ظل يشغله دوما، وهى المرة الأولى التى يتحدث فيها شعرا عن رغبته المشاركة فى الجهاد، وأمنيته أن يستشهد فى ساحة القتال، وإذا عددنا هذه الرغبة شيئًا عاديا من مسلم مؤمن متحمس، فإنها تمثل من رجل كابن حزم، اتخذ من القلم والعلم سلاحًا وحرفة، شيئًا يلفت النظر، وتعكس فيما أرى واقعًا سياسيًا حوله بلغ قمة التدهور، وضعفًا مس حافة الذل، فلم يستطع ابن حزم، وهو آخر من يجب عليه حمل السلاح فى ظروفه هذه إلا أن يفصح عن مكنون همومه، علها تحرك عند غيره ساكنًا، وترضى فى أعماقه روحًا ثائرا.

• **شاعرية ابن حزم فى الميزان :**

هل كان ابن حزم فيما أبدع من قصيد شاعرا يعبر عن أحاسيس يفيض بها داخله، أم مجرد ناظم يريد أن يبرهن على علمه وقدرته، وسعة معارفه وشمولها، وأنه ليس دون الآخرين؟.

أولا يجب ألا ننسى للحظة واحدة أن الشعر كان عنده، ولو فى الأعوام الأولى من حياته على الأقل، وجاهة اجتماعية، وأن نضع فى الحسبان ونحن نقيم شعره عوامل قصّت جناح خياله، وحالت دون تحليقه عاليًا فى سماء الإبداع:

• وضع اجتماعى يفرض عليه واقعا معينا، ومعجما محددا لا يتجاوزه علانية وفى الظاهر على الأقل.

• حياة علمية جادة، تتطلب وعيا دائمًا، ويقظة مستمرة، ومنطقًا محكمًا، يمتد إلى كل ما يقول.

• مواجهة حادة مع علماء عصره، ومشاركة فعالة فى سياسة وطنه، تتطلب منه أن ينأى عما يؤخذ عليه، وأن يبعد عن الظنة والشبهة.

• وأخيرا موضوع محدد يدور حوله كتاب «طوق الحمامة»، وقد تضمن أغلب شعره، يحد من حريته، ويمسكه فى نطاق معين من الأفكار لا يتجاوزه.

متى تحرك الفنان واعيًا، فى دائرة العقل والمنطق، بعيدا عن منطقة اللاوعى، وبين قيود مانعة، من خارج نفسه أو داخلها، جاء إبداعه منطفئا خامدا، واتسم بالنثرية والجفاف إن كان شاعرا، وقديمًا قال النقاد: إن شعر العلماء بارد لا وهج فيه.

كان ابن حزم فى **طوق الحمامة** يستكره شاعريته لكى يقول الشعر، ويحصرها فى حدود الأفكار التى عرض لها نثرا، والكتاب حافل بالأفكار ومعرض لكل قضايا الحب، والنثر مهمته أن يعبر عنها كلها، ولكن الشعر لا يمكن أن يجاريه فى هذا المضمار إلا متكلفًا، وطول القصائد، وطواعية النظم عند ابن حزم، لا تومىء إلى شاعرية محلقة، وإنما تبرهن بحق على تمكنه من علوم العربية عروضًا ونحوا وبلاغة، وسعة معجمه اللغوى واستجابته له، والأمران جد مختلفان.

ورغم ذلك، فإن جانبًا لا بأس به من شعر ابن حزم جاء تعبيرا صادقًا عن تجربة حقيقية، فحلق به معنى ولفظًا، فأبياته فى حبيبته «نُعم»، ونثره أيضا، من الشعر العذب الجميل بكل المقاييس، وكذلك تصويره لمعاناته السياسية، هاربًا ومرتحلا، يفتقد الأمن، ويبحث عن الملاذ والمأوى، نفد صبره، وكشف دمعه عن خفى ما فى جوانحه، وحائر بين جسم يمل الإقامة والدعة، وقلب بألف المكان الذى ينزل فيه والناس الذين يحل بينهم، يضنيه الفراق وتوجعه الرحلة، لم يستقر فى بيت ولم تحتضن إليه مدينة، ولا امتد به النوم ساعات فى فراش واحد، كقطعة من سحاب تدفع بها ريح الأحداث أنىَّ تشاء، أو كوكب فى كبد السماء، يظهر حينا ويختفى أحيانًا، تضيق به الأرض والناس والمدن، كما لو كان كلمة توحيد تغص بها نفس كافر.

وقد استمدت الأبيات جمالها من موسيقاها، واتساق أنغامها، فليس فيها كلمة مستكرهة، ولا زائدة، وزادها رقةً دقة تصوير حالته واضطرابه يخب فى أرض الله ويضع بلا هدف، تسيره الأحداث، وترسم خط حركته المصائب، والمقابلة بين الجسم الملول والقلب الألوف أعطت معاناته بعدا حقيقيًا نحس به:

ولىَّ فولىَّ جميلُ الصبر يتبعه ... وصرّح الدمعُ ما تخفيه أضلعه
جسمٌ ملولٌ وقلبٌ آلفٌ فإذا ... حلّ الفراق عليه فهو موجعه
لم تستقرّ به دارٌ ولا وطنٌ ... ولا تدفأ منه قط مضجعه
كأنما صيغ من رَهْو السحاب فما ... تزال ريحٌ إلى الآفاق تدفعه

أو كوكبٌ قاطعٌ فى الأرض منتقلٌ فالسيرُ يغـــربه حيناً ويُطلعـــه
كأنّمـــا هـــو توحيد تضيق بـه نفسُ الكفـور فـأبى حين تودعـه

وأحيانا تقع عنده على معانى جديدة مبتدعة، فالموت رحم العاشق من أخذ روحه، لأنه رأى قسوة تباريح الهوى به:

ما عاش إلاّ لأنّ الموت يرحمه مما يرى من تباريح الضنى بـه

ونلتقى عنده بالوصف رقيقًا، والتشبيه جميلا، فحركة النجم بطيئة متثاقلة كأنه مخطىء، أو خائف، أو عاشق دنف، أو راقب موعد:

تخاله مخطئًا، أو خائفًا وجـلا أو راقبًا موعدا، أو عاشقًا دنفًا

والفتاة الجميلة تعرف أنها مهبط الأعين ومرعى القلوب، تتهادى زهوا وعجبا وخيلاء، كأنها الحمامة وداعة واتزانًا ودلا:

كأنّ مشيها مَشْى الحمامة لا كـدٌ يُعابُ ولا بطءٌ به باس

أو كأنها قضيب نرجس يتمايل هادئا فى يوم رق نسيمه:

كأنهـــا حين تخطو فى تأودها قضيبُ نرجسة فى الروض ميّاسُ

وهى صور تعكس ذوق مجتمع متحضر، وشاعر ينتزع مادته مما حوله، ولا يعيش عالة على على محفوظه من التراث.

وحين يغادر حبيبه يعانى، كأنما يساق نحو الفناء، ويسرع فى مجيئه إليه متهللا كالبدر يقطع السماء:

فى مجيئ إليك أحثُ كالبد رِ إذا كان قاطعـــاً للسماء
وإذا قمتُ عنك لـم أمشِ إلا مَشْىَ عانٍ يقـادُ نحو الفناء

وقد افتخر ابن حزم بأنه شبه شيئين بشيئين فى بيت واحد، وذكر أن «هذا مستغرب فى الشعر»:

فكأنها والليـــلُ نيرانُ الجـــوى قد أُضرمتْ فى فكرتى من حِندْسِ

وذكر أنّ له ما هو أكمل، «وهو تشبيه ثلاثة أشياء فى بيت واحد، وتشبيه أربعة فى بيت واحد، وكلاهما فى القطعة التى أوردها، وهى»:

كأنّ النوى والعتْبَ والهجر والرضى   قـــرانٌ وأنداد ونحــسٌ وأســـعدُ

. . . .

كأن الحيا والمــزن والروض عــاطرًا   دمـــوعٌ وأجفـــانٌ وخــدٌ موردُ

ويزيد فيقول: ولى أيضًا ما هو أتم من هذا، وهو تشبيه خمسة أشياء فى بيت واحد فى هذه القطعة، وهى:

كأنى وهى والكأسُ والخمرُ والدجى   حيــاً وثرىً والــدُّر والتبرُ والسبجُ[1]

وليس لهذا، فيما أرى، أية أهمية فى جمال الشعر وقيمته، لأنه يومىء إلى مزيد من الصناعة، يناهض العفوية، ولا يعنى أكثر من قدرة الشاعر، كما ألمحنا من قبل، وجمال الشعر لا يقاس عندى بكثرة التشبيهات فى البيت الواحد، وإنما بمقدار صدق التشبيه ودقته فى حمل ما أحس به الشاعر، وتأثيره فى نفس المتلقى. ولو امتد العمر بابن حزم لرأى الصناعة بهذا إلى أبعد مما تصور، وأصبح الأمر فوق طاقة البيت الواحـد، فأخـذ الشعراء يأتون بجمهرة من المشبهات فى بيت، وحتى فى بيتين، ثم يأتون بالمشبهـات بها فى البيت الذى يليه، أو فى البيتين الثالث والرابع، وأنها كانت تبلغ أحيانًا ستة عشر تشبيها لا يتخللها أى كلام، ودخلت عالم التنظير والتقعيد، ودرسهـا علـم البلاغـة فى باب مستقل، أخذ عنوان «اللف والنشر»[2].

- بين شعر الطوق ونثره :

يضم «طوق الحمامة» كما ألمحنا، الجـانب الأكبـر مـن شعـر ابـن حـزم، ويمثـل مرحلة التوهج فى حياتـه العاطفيـة والإنسانيـة، ويضم إلى ذلك جانبًا لا بـأس بـه مـن

---

(١) طوق الحمامة، ص ٣١-٣٠ ، والبيت الأخير فى نفح الطيب أيضا ٩٩/٢٠ه طبعة إحسان عباس.

(٢) درست المستشرقة الإسبانية سوليداد خيبرت هذه الظاهرة عند الشاعر الأندلسى ابن خاتمة، وتناولت أصولها فى العربية وتأثيرها فى الأدب الإسبانى، انظر: د. الطاهر أحمد مكى: دراسات أندلسية فى الادب والتاريخ والفلسفة، ص ١٥٠-١٤٩ ، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٧.

أروع صفحات النثر الفنى التى خطها بقلمه، لأنه فى بقية كتبه الأخرى، أو فى جلها إن شئت[١]، كان عالما هدفه التوضيح والإقناع، أما فى «الطوق» فكان عاشقًا هدفه التعبير والتصوير، وإذا استثنينامنه الفقرات التى توضح تاريخًا، أو جاءت تمهيدا، فإن نثره بلغ القمة بلاغة فى بابه.

حفل نثر ابن حزم في الطوق بالصور البيانية الجميلة، وجاء موقعًا فى جله، ويجئ سجعه فى موضعه، طبيعيًا وغير متكلف، وجمله قصيرة، ذات نغم موسيقى، ويلح على المعنى مستقصيا حتى يأتى على جميع جوانبه، وربما خرج به هذا الاتجاه إلى لون من الإطناب ملحوظ وغير مستكره، فتتوارد الجمل لتؤدى فكرة واحدة، فى عذوبة وتناسق، ويحفل نثره بألوان من الطباق والمقابلة، تجىء فى صورتها البلاغية القديمة ألفاظًا مفردة، أو تجيء في مواقف لا يعرض لها علم البلاغة، مواقف متعددة الأفكار، وربما الرجال والأمكنة، تأتى متضادة، كل واحد منها فى مواجهة الآخر، فيزاد المعنى قوة والتصوير وضوحا فى كلا الجانبين. ويأتى الجناس عنده قليلا.

وإذا وازنا بين الشعر والنثر رجحت كفة النثر فنيا، فقد خرج فيه على القوالب الموروثة، وقدم عملا أصيلا، بدت فيه شخصيته واضحة، وعبّر فيه صادقًا عن أحاسيسه ومشاعره، وأفكاره وانفعالاته، على حين جاء الشعر تقليديا محضا، متكلفا فى كثير من الأحيان، يسير على خطى الشعراء قبله معنى وشكلا وأغراضًا، مباهيا بأنه يجاريهم، ويحاول أن يتفوق عليهم، ومجرد التصريح بهذا القول ينزع عنه صفة الابتكار، ويضعه فى دائرة التقليد، ويقعد به عن التحليق عاليًا فى سماء الخيال والتعبير، ويعترف صراحة بأن بعض شعره لا يعبر عن واقعه تمامًا، والشعراء «يقولون ما لا يفعلون»، وإنما اقتفى أثرهم لأن الصنعة تلزمه ذلك، و«شذوذ القائل للشعر عن مرتبة الشعر خطأ»، وربما كان هذا، إلى جانب أسباب أخرى عرضنا لبعضها من قبل، ونأتى على بعضها فيما بعد، وراء جفاف شعره، وافتقاره إلى التوتر، ويجىء قويا وعنيفًا وحتى صاخبًا، حين يعبر عن تجربة حقة، ويجئ بريئًا من القيود.

---

(١) أستثنى من بقية مؤلفاته كتاب «الأخلاق والسير» فقد كان فيه أديبا صاحب أسلوب متميز، وقد حققناه ونشرته دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩٢.

- **المآخذ والعثرات :**

انعكست ثقافة **ابن حزم**، فلسفية ولغوية وفقهية، فى شعره، وقد أفادته فيما يتصل بالقدرة على الغوص فى أعماق النفس الإنسانية وتحليل مخبوئها، ولكنها جنت على شاعريته فى مجال التصوير، لأن عددا من مصطلحاتها تسرب إلى أبياته، وهى ألفاظ بطبيعتها محددة، غير مشعة، فلا تصلح للتعبير الشعرى، وهو بطبيعته يتجاوز فى النفس حدود ما فى المعاجم وقعًا وتأثيرا.

ويتجلى تأثر ابن حزم **بالفلسفة** واضحًا فى قصيدته التى أطلق عليها أصحابه «الإدراك المتوهم». وأورد منها هذه الأبيات:

ترى كل ضـــد بـه قائمًا ... فكيف تحدُّ اختلاف المعانى
فيا أيها الجسمُ لاذا جهاتٍ ... ويا عرضـاً ثابتًا غير فـان
نقضتَ علينا وجـوَه الكلام ... فما هو مُذْ لحت بالمستبان

وقد يتجاوز الفلسفة إلى **الفلك**.

لـو عـاش بطليموسٌ أيقـن أنّنى ... أقوى الورى فى صد جَرْى الكُنّس

ومثل قوله:

دنَا أمـلى حتى مددتُ لأخـذه ... يدًا فانثنى نحو **المجرة** راجلا
فأصبحت لا أرجـو وقـد كنتُ موقنًا ... وأضحى مع **الشعرى** وقد كان حاصلا

أو كقوله:

دفءٌ وشمس الضحى **بالجدى** نازلة ... وباردٌ ناعـم والشمس فى **الأسـد**

وإذا تجاوزنا الفلسفة والفلك إلى **اللغة**، فسوف نلتقى بالكثير من مصطلحاتها، يقول فى ختام أبيات أتى فيها على قصة فتى وفتاة، يتبادلان القبل، إذا حضرهما أحد، من وراء المستد، حتى لا يُريان:

هل ها هنا وجهٌ تراه سوى ... تواضـع **المفعول للفاعل**

ويصف نفسه فى تساميها عن الدنايا:

أبتْ عن دنىِّ الوصــف ضربة لازب		كما أبتْ الفعل الحروفُ الخوافض

ومثل قوله:

صـارَ وصرنا لفرط مـالا		يزولُ كالاسم والمسمَّى

ومثل قوله:

أصرِّفُها حيث انصــــرفت وكيفما		تقلَّبتُ كالمنعوت والنحو والنعت

وشاعت الأصداء الفقهية فى شعره، فهو يجعل من الرقيب فى الحب ثالثًا للملكين «رقيب وعتيد»:

على كل مَن حــــولى رقيبانُ رتِّبا		وقد خصَّنى ذو العرش منهم بثالث

ومنه قوله:

وُدُّ الملول - فدْعه - عاريةٌ مسترده

ومثل قوله:

وكم حـالة صــــارتْ بيانا بحالةٍ		كما تُبت الأحكام بالحَبَل الزنى

نجد تأثير علم الكلام والمنطق واضحًا فى الأبيات التالية، حين تحدث عن الحب، وأنه يقع على غير الجميلة وأن الموافقة فى الملاحة والأخلاق ليست شرطًا فيه فهو «شىء» فى ذات «النفس» عبّر عن ذلك شعرا:

ودادى لك الباقى، على حسبْ كوْنه		تناهى، فلـم ينقص بشىء ولم يزد
وليس لـــه غيرُ الإرادة عـــلةٌ		ولا سببٌ حاشـــاه يعلمه أحـدْ
إذا ما وجدنا الشىء عـلة نفســه		فذاك وجــود ليس يعنى على الأبـدْ
وإمّــا وجـدنا لشىء خـــلافه		فإعدامُه فى عـدمنا ما لـــه وجـدْ

فهذه المصطلحات: «تناهى»، و «العلة» و «السبب»، مسوقة كلها على طريقة المتكلمين، فما تناهى فهو الكمال المطلق، لا يدركه نقص، ولا مزيد فيه لكمال. وإذا

كانت العلة عين المعلول، والسبب عين المسبب، فذلك الوجود السرمد، أما إذا افترقا، وامتازت العلة من المعلول، فالدوام مستحيل، وتعبير علماء الكلام بالنص: «العلة تدور مع المعلول وجودا وعدما، فإذا وُجِدت وجد، وإذا انتفت عُدِم».

ويستخدم مصطلح «**التقية**» حين يتحدث عن الهجر يكون من المحب:

وقـد أبـاح الله فى دينـــه　　　تقيَّة المأســـور للآســـر
وقد أحلَ الكفر خوف الردى　　　حتى ترى المؤمـــن كالكافر

وأحيانًا يستمد الصورة كلها من موروثه الفقهى، أو من محفوظه القرآنى، كقوله:

وخذنى عصا موسى وهات جميعهم　　　ولو أنهُم حيَّات ضـــالٍ نضـانضُ

ومثله أيضًا:

فكل تراب واقـــعٌ فيه رجـــله　　　فـذاك **صعيدٌ طيِّب** ليس يجحـــد
كذلك فِعْلُ الســـامرىِّ وقـــد بدا　　　لعينيـــه مـــن جبريـــل إثـــر ممَّجد
فصير جوف العجل من ذلك الثرى　　　فقـــام لـــــه منه خـــوارٌ ممدّدُ

فالصورة كلها مأخوذة مما ورد فى قصة السامرى فى سورة طه، الآيات ٨٧-٩٦، من القرآن الكريم: «فكذلك ألقى السامرى، فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا: هذا إلهكم وإله موسى فنسى... قال: فما خطبك يا سامرىُّ، قال: بصرت بما لم يبصروا به، فقبضتُ قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولتْ لى نفسى». ويقول المفسرون: إن السامرى كان من قوم موسى، أخذ ما كانوا قد استعاروه من حلى، فصاغ منه عجلا، وألقى فيه قبضة من التراب أخذها من إثر فرس جبريل حين رآه، يوم أغرق الله فرعون على يديه، فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقى.

أما المصطلحات **الجغرافية والتاريخية** فنلتقى بها على قلة، وذلك كقوله:

وعهدى بهنْد وهى جارةُ بيتنا　　　وأقربُ من هندٍ لطالبهـا الهندُ

أو كقوله:

كأنَّ زمـــانى **عبشمى** يخالنى　　　أعنتُ على عثمانَ أهل التشيُّعِ

وعبشمى نسبة إلى عبد شمس الجد الأعلى للأمويين.

وإذا ما تجاوزنا هذا العديد من المصطلحات، وهى بطبيعتها ألفاظ غير شاعرية ولا مشعة - كما قلنا - نراه أيضًا يتكلف فى التشبيه أو يجىء عنده متناقضًا يذهب آخره بأوله، فلا يصلح مركبًا لما يريده الشاعر، فهو يصور مثلا روعة التلاقى بعد الفراق فى سرورها، بسرور المفيق كان قد أطبق الموت عليه، وذكر الموت فى موقف كهذا ليس مستحبًا ولا جميلا:

للتلاقى بعد الفراقِ سرور　　كسرورٌ المفيق حانت وفاته

أو يقع فى نثرية جافة لا صلة لها بالشعر إلا النظم كقوله:

ما أقبح الهجر بعد وصل　　وأحسن الوصل بعد هجر
كالوفـرْ تحويه بعد فقر　　والفقر يأتك بعد وفـر

أو تجئ الفكرة مسطحة باردة لا تصوير فيها ولا جدة، كقوله:

لقد قـرّت العينان بالقرب منكُم　　كما سَخُنَتْ أيام يطويكمُ البعدُ
فللّه فيما قد مضى الصبرُ والرضى　　ولله فيما قضى الشكرُ والحمد

وبعض صوره تحمل **تأثيرات مشرقية** واضحة، وهى على جمالها ليست إلا إعادة صياغة للصورة المشرقية، فقوله:

دموعُ الصبِّ تنسفك　　وسترُ الصبِّ ينهتكُ
كأنّ القلبَ إذْ يبدو　　قطاةٌ ضمّها شرك

وهو فى بيته هذين عالة على بيتى المجنون:

كأنّ القلب ليلةَ قبل يُغدى　　بليلى العامرية أو يُراح
قطاةٌ عزّها شركٌ فباتت　　تجاذبه وقد علق الجناح

والفرق بينهما هو الفرق بين التكلف والنحت عند ابن حزم، والفن والعفوية عند المجنون.

أحيانًا يستخدم ألفاظًا مشرقية بلا مبرر، وكل ما هناك أنها اشتهرت فى الوشرق وشاعت بين شعرائه، وكان له فى مهابط الأندلس مندوحة عنها، وأى غناء!:

يُطيل جلوسـاً وهو أثقُل جالسٍ ويُبدى حديثًا لست أرضى فنونه
شمـامٌ ورضـوى واللطـامُ ويذبلٌ ولبنـانُ والصّمانُ والحـزنُ دونه

• الموسيقا :

تتبعت البحور العروضية التى استخدمها ابن حزم فى كل ما وصلنا من شعره، فوجدت أنه استخدم كل البحور المعروفة على أيامه، ما عدا بحرين لم يقل فيهما الشعر، وهما: المقتضب والمتدارك.

ولكن استخدامه لبقية البحور كان متفاوتا، فمن بين ٢٢٢ قطعة وصلتنا من شعره بين قصيدة ومقطوعة نجد ٩٣ منها جاءت فى بحر الطويل و٣٢ فى البسيط، و٢٠ فى الوافر، و١٦ فى المتقارب، و١٣ فى الخفيف والسريع، و١٠ فى الكامل، و٤ فى المنسرح ومخلع البسيط، و٣ فى كل من المجتث والمديد، ومرتان فى الرمل والهزج، واستخدم كلا من المضارع، ومجزوء الكامل، ومجزوء الرجز، ومجزوء الوافر، ومجزوء الرمل، ومجزوء الخفيف، ومجزوء المديد، مرة واحدة. ومن الواضح أنه كان يجد فى طول تفاعيل بحر الطويل، ثم البسيط بعده، ما يعينه على عرض أفكاره، أما الأبحر الأربعة الأخرى فلها رنة موسيقية تعذب فى الغناء، وتستجيب للتلحين والتوقيع.

واتكأ فى قوافيه على الدال والراء والنون، فاستخدم الحرف الأول ٣٤ مرة، والثانى مثلها، والثالث ٢٨، وهى من الأصوات المجهورة، ورنينها قوى، وبخاصة حين يأخذ حركة خفيفة كالفتحة، إلى جانب أنها صوت أنفى رنان. ولم ترد له أية قواف فى حرفى الظاء والغين، وجاء بها مرة واحدة فى حروف الخاء، والذال، والزاى، والشين، والطاء، ومرتين فى الهمزة، والألف، والثاء، والجيم، والصاد.

وابن حزم عالم متمكن من قواعد العروض والقافية، ولكن موسيقا الأبيات الداخلية عنده، وهى تخضع للذوق والدربة والموهبة، تجئ نشازا أحيانًا، فنلتقى فى مواضع من شعره بكلمات قلقة، جاءت فى غير موضعها، فتثقل على الأذن والعقل، ويشعر القارىء معها أنها مقحمة، أتى بها الشاعر لتكملة البيت فحسب، مثل قوله:

يعيبونهـــا عندى بشقرة شعرهـــا   فقلتُ لهم: هذا الذى زانها عندى
يعيبون لـــونَ النور والتبرِ ضَــلّةً   لرأى جهـــولٍ فى الغـــواية ممتدّ

فكلمة «ممتد» غير منسجمة موسيقيا، إلى جانب أن الرأى لا يمتد، ويشعر المرء بأن جملة «فى الغواية ممتد» زائدة، جاء بها الشاعر لتكملة البيت، وأن لفظ «ممتد» تطلبته القافية، دون أن يكون له دور فى بناء البيت معنى وإيقاعا.

• **ما لم ينشر من شعره :**

ننشر فيما يلى القصائد التى وردت فى مخطوطة ديوان ابن حزم التى أشرنا إليها من قبل، وقد تجاوزنا عن القصيدة الأولى، وهى ثمانين بيتا، لأنها من النظم الدينى وتدور حول حدوث العالم وصحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، والقصيدة الثانية وهى التى رد بها على نقفور، وهى فى مئة وسبعة وثلاثين بيتًا، لأنها من النظم الدينى وأوردها السبكى فى كتابه طبقات **الشافعية، وابن كثير فى كتابه البداية والنهاية.**

والقصيدة الأخيرة من هذه المجموعة، وهى رقم ٧ ، ليست لابن حزم فيما أرى، وألمحت إلى ذلك فيما سبق، ومع قليل من التمعن يمكن أن نتصور أن ناظمها عالم من أصل فارسى، متمكن من اللغة العربية، نحوا وعروضًا، ولكن ينقصه حس الشاعر وذوقه، وسار فيها على طريقة يعرفها من عانى النظم الصناعى، أو مارس النقد طويلا، فهو يكتب كلمات القافية أولا، مأخوذة من القاموس المحيط، والمادة اللغوية فيه مرتبة بحسب أخر الكلمات، ثم بعد ذلك يكمل البيت، ومن هنا حفلت القصيدة بألفاظ ليست من معجم ابن حزم الشعرى، ولا نجدها عند أى شاعر أندلسى من عصره، مثل كلمات: الروامس، العيس، الصريمة، الحنادس، الأواعس، الفلاقس، الأعايص، العنابس، المتارس، الأواكس، وغيرها.

أضف إلى ذلك أن ناظمها كان محدود المعرفة بالشعر الأندلسى وتطوره، فهو يجهل أن المقدمة الطللية فى صورتها الجاهلية اختفت عند معظم الشعراء فى الأندلس، والبقية الذين بقيت عندهم أخذت شكلا أندلسيا متميزا، وابن حزم بالذات لا نقع فى شعره فى غير هذه القصيدة المنسوبة إليه على أية مقدمة طللية من هذا اللون، ولم يركب الناقة فى أى من قصائده أبدا.

بقي أن أشير إلى أن هذه القصيدة، أو حتى أبيات منها، لا نجدها فى أى مصدر أندلسى آخر، والوحيد الذى نعرف عنه أنه أورد أبياتًا محدودة منها، هو: ابن فضل الله العمرى الدمشقى، المتوفى عام ٧٤٩ هـ = ١٣٤٨ م، فى كتابه مسالك الأبصار، وهو كتاب فى الجغرافية، ثم هذه المخطوطة التى نحن بصددها، ومع ذلك فقد أوردتها كاملة، لعل هناك من يشاركنى رأيى، أو يهدينى إلى وجه الحق والصواب.

– ١ –

• **وقال رضى الله عنه يخاطب أبا المطرف[1]:** [من الطويل]

أخٌ لى مشكورُ المساعى وسيّدٌ — تسرُّ بواديه إذا ساءك الصحْبُ
ألمّ يجالينى جلاءَ مجرّب — على أنّه حقاً بىَ العالمُ الطَّبُّ
يطالع فى سبل البلاغةِ مذهبى — وهل يستوى منها لِىَ الحَزْنُ والسُّهْب
وكيف أنا فيها إذا ما تشعبَّتْ — وضاق على طلاّبها المنهجُ الرّحْب
فلحتُ له خِرّيتَ غَفْل ومَجْهلٍ — يضلّ لديه النجم والقُتُمُ النكْبُ
فيا أيُّها القاضى المبجّلُ والذى — مواردهُ من سرى البارد العَذْب
ومن دان أرباب العلوم بأسرهم — له بصريح الرقِّ وهو لهم رَبّ
أعيذك أنْ ترتاب فى أننى الذى — أتى سابقًا والكلُّ ينجرُّ أو يَخبو
ومثلى إذا جدَّ الرجال وأتعبوا — نفوسَهُمْ سعيًا وكدَّهُم الخَطْب
تقدّم سَبْقًا ثانياً من عنانه — وغادرَ من جاراهُ فى رهْجهِ يكبو
أمثلك يعشو عن مكانى ويمترى — بأنىَ مِن أفلاكِ ذا الأدب القُطْب
أيخفى عليك البدرُ ليلةَ تَمّهِ — ولم تَستر عنك النيازك والشُّهْب
وأنت الذى يلقى الخفيّاتِ ظاهرا — بعينِ نُهىً لم تنج من دونها الحُجْب
فكيف بما وازى الجهول تمكُّنًا — ذوو العلمِ فيه واستوى السودُ والصُّهْب

---

(١) انظر صفحة ٣٨١ من هذا الكتاب عن أبى المطرف.

وحاشاىَ أن يمتدّ زهوٌ بمنطقى ... وأن يستفزّ الحلمُ فى قولىَ العُجْبُ
ولكنّ لى فى يوسف خيرَ أُسْوَةٍ ... وليس على من بالنبىِّ ائتسى ذَنْب
يقول وقال الحقَّ والصدقَ إننى ... حفيظٌ عليمٌ ما على صادق عَتْب
فلو كُسِىَ الفولاذُ حدّة خاطرى ... تساوى لديْه اللحمُ والحجرُ الصُّلْب
ولو كان للنيران بعضُ ذكائه ... وفاضتْ عليه لُجّةُ البحرِ لم يَخْب
وما اختصّ علمٌ دون علمٍ بوجهتى ... بل مَسْرحى فى كلّها الواسع الخصب
تظل فنون العلم تجلىَ إذا غَدَتْ ... بأيدى رجالٍ وهى منحولةٌ عُضْب
وما عزّتى والحمدُ للّهِ مطلبٌ ... من العلمِ مِمّا أَبْقتِ العُجْمُ والعُرْب
حليفى ومُحيى همّتى ومنيرها ... ورائعُ ذكرى حيثما اتصلَ الركْب
وأُنسىَ مذخمس وعشرين حجّة ... أروحُ وأغدو وهْوَ صارِمىَ العَضْب
وخطّتىَ العليا التى لستُ أتّقى ... حياتى منها العزْلُ ما رَتَعَ الضّبُّ
ومالٌ عميمٌ لستُ أخشى نفادَه ... بإنفاقِهِ لا بل يزيدُ ويَنْصَبّ
سموتُ بنفسى لا بمجدٍ هوتْ به ... من الزمن العدّاءِ آلاتُهُ الحُدْب
على أننى لو شئتُ قلتُ مصدَّقًا ... وأقبحُ قَوْلٍ ما أَلَمَّ به الكَذْب
ولكنّه من لم يُشِدْ ما حلا له ... رَعَا فى مبانيه وضعضعها السَّقْب
فإنْ شئتَ فى علم الديانةِ تَلْقنى ... نِقابًا له لم يخفَ عنّى له نَقْب
وأمّا أفانينُ الحديثِ فإنّنى ... أنا بحرُها الطامى وينبوعها السَّكْب
وقيّدتُ من فُتْيا ذوى الفقهِ ضابطًا ... بحفظىَ ما طالتْ به قبلها الحُقْب
وإن لاذ طلاّب الكلام بجانبى ... فإنّىَ ساقيهمْ وكلُّهُمُ شَرْب
وعلمى بما فى سرّ خصمى كعلمه ... فما غاب عنّى منه سَهْلٌ ولا صعب
وإن تذكر الأشعار لم يك خارجًا ... أمامى جريرٌ فى الرهانِ ولا كعب
وما ضر شعرى أن مَنُو شَهْرَ والدى ... ولم يحظ بى عُليا تميمٌ ولا كلب
وأمّا تسائِلْ باللغات ونحوها ... فما صارمى فيها إذا عُدِّدتْ ينبو
وما إنّ شأنى عند ذلك سابقٌ ... على أننى لم يُغْرنى التعْبُ والوَطْب
وحسبكَ بى فى ذى الأعاريض مقنعًا ... إذا عُدّتْ الأوتاد والشطْرُ والضرب

وإن شئتَ أخبــــار الدهـــور فإننى ... أنا جــامعُ التاريخ مذ نَبَتَ الهضب
فما غـــاب عنّى أمْرُ مَلْكٍ وسـوقةٍ ... ولا شـدّ دونى أمْرُ سِلْم ولا حَرْب
ســـواءٌ على ذكرى قريب ونازحٌ ... ومَن حملتْ أرضٌ ومَن ضمّه التُّرْب
وإنْ تُذكــرِ الأنســابُ كنتُ نقيبَها ... ولم يخفَ عن ذكراى حىٌّ ولا شِعْب
ولـــو أنّ رُسْـــطاليسَ حىٌّ بززتُـه ... وما عـاش إلاّ وهو لِى بالحرى تِرْب
يســـافر علمى حيث سافرتُ ظاعنًا ... ويصحبنى حيث استقلّتْ بى الركْب
محلّته صـــدرى ومسكنُ عمـــره ... بحيث التقـــى منّى الترائبُ والتُّرْب
إذا ما الجُنُوبُ استوطأتْ فى ضجاعها ... فعنــه نَبَا عـــن مضجعى مِنىَ الجنْب
أنا الشمسُ فى جـوِّ العـــلوم منيرةٌ ... ولكن عَيْبى أنّ مطلعـــى الغَـــرْب
ولو أننى من جانب الشرق طـــالعٌ ... لجدّ على ما ضـاعَ من ذِكْرِىَ النَّهْب
وَلِى نحـــو أكنافِ العــراقِ صبابةٌ ... ولا غَرْوَ أن يستوحش الكلفُ الصَّب
فـــإنْ يُنْزِلِ الرحمنُ رَحْلِىَ بينهـــم ... فحينئذ يبدو التأسُّـفُ والكَــــرب
فكم قـائل أغفلتُهُ وهـــو حاضـــرٌ ... وأطـــلبُ مـا عنه تجئ بـه الكتْب
هنالك يدرى أنّ للبعـــدِ قِصّـــةً ... وأن كســـادَ العـــلمِ آفتُه القُرْب
فيا عجبًا ! مَن غـــاب عنهم تشوفوا ... لـــه ودنوُّ المـــرءِ من دارهم ذَنْب
وإنّ مـــكانًا ضـــاق عنّى لضيِّقٌ ... على أنّـــه فَيْحٌ مذاهبـــه سُهْب
وإنّ رجـــالاً ضيعـــونى لَضُيَّعٌ ... وإنّ زمـــانًا لم أنلْ خِصْبه جَــدْب
ولو أنّنى خاطبتُ فى الناسِ جاهـــلاً ... لقيل دعاوٍ لا يقـــومُ لهـــا طُنْب
ولكنّنى خاطبتُ أعْلـــمَ مَن مشـــى ... ومَن كلُّ عِلْم فهـــو فيـه لنا حَسْب
يصَدّقُنى فى وَصْفهِ كلُّ ســـامع ... يَقينًا ولا يَأبىَ لســـــانٌ ولا قَلْب

— ٢ —

• وقال رضى الله عنه : [من البسيط]

بلغتُ من لـــذةِ الدنيـا ذُرى أربى ... فى لذّة العيش والســلطانِ والنشَبِ
فـأذهبتْ دُوَلُ الأيـــامِ مـــنزلتى ... وزادَ فقـــدىَ اللذاتِ فى كَــرَبى

وكان مالى لهذا كلّه تبعًا — بل صار عونًا لأعدائى على طلبى
لكنْ رجعتُ وقد جَدَّ الزمانُ إلى — كَنْز من العلم والأخلاقِ والأدب
فأعجزَ الدهرَ أنْ يودى بواحدةٍ — منها وأقصرَ عنّى واهِىَ السبب
لا أختشى تضعُ الأيامُ منزلتى — مدى الزمانِ وعندى أغلبُ الطلَب
لا يستطيعون عزلى عن ولايتها — إذ كلّ والٍ لهمْ بالعَزْل فى العُقَب
هذا بلا كلْفَةٍ منى ولا حَرَسٍ — ولا عديدٍ ولا إنفاق مُكتَسَب
وكم أخ لى مُصفٍ غَيْرِ مضطربٍ — لأنّ ما فيه آخى غيرُ مضطرب
وكلّ مَن كان فى دُنيایَ يصحبنى — ناديتُه حين خانتنى فلم يُجب
كلامُ من جرّب الأمرين وانفتحتْ — له المذاهبُ من جدٍ ومن لعب
أنا ابنُ مَن دبّر الدنيا بخاتمه — عشرين عامًا وعَشْرٌ بَعْدُ لم يَرِب
وإنّ منزلتى فى العلم منزلةٌ — فى المُلْكِ خطُّ الصادق النسب
ما زلتُ أذخرُهُ دهرى وأنفقهُ — كفعْلهِ فى اللُّجَيْنِ المَحْض والذهبَ
وإنّنى لبخيلٌ بالسلام إذا — بَخلْتُ بالعلمِ من لفظى ومن كُتُبى
لو استطعتُ منحتُ الناس كُلَّهُمُ — ما قد تجمعَ فى حِفْظى وفى كَسَبى
أأبْذلُ المالَ يُفْنى البذلُ حاصلَهُ — ولستُ أبذلُ ما يَنْمى على النَّهَب
وكيف أسترُ مُعْلى رُتْبتى أبدًا — ومن يُخلّد ذكرى آخرَ الحِقَب
ومَن يُكثر لى أهلى ويجعلنى — صديقَ مَن شئتُ من عُجْمٍ ومن عَرَب
أنيسُ روحى إذا ما الدهرُ أوحشنى — ونورُ عقلى وجالى غُمة النكَب
سائلْ بأىِّ علومِ العالمين تَجدْ — عندى ينابيع ذاكَ العِلْم عن كَثَب
لا أنثنى لسوى البرهان أسألُهُ — ولا لعنف مقال الباحث اللَّجب
لكنْ إذا أشكلتْ دهياءُ مُعضلةٌ — قابلتها بسنا ذهنى وحَسْبُك بى
مِن فكرتى لى عينٌ لا تغيضُ ومِن — ماضى لسانى ما يمضى مضا الشُّهُب
فإنْ أضفْت إلى ذا الحظّ من عملى — شيئًا أفوز به فى يوم مُنْقلبى
فقد حصلتُ على الآمالِ أجْمَعها — وخاب من فى سوى ذا كان ذا تعب

— ٣ —

• وقال رضى الله عنه : [من الطويل]

ويوم كحـــدِّ السيفِ ليس بثابتٍ … عليــه جليــدٌ لا ولا مُتَجَلــــدُ
لقيت شباهُ وهـــو جمـــرٌ مؤججٌ … وأقلعت عنه وهـــو فَخْـــرٌ مُخَلَّد
أمـــورٌ كأمـــواجِ البحورِ تصادمتْ … عليهنّ ســـربالٌ من الليـــل أكْبَد
عبأت لــه جسرًا من الحزمِ مُحْكَمًا … ومصبــاحَ رأى نــورُهُ يتوقَّـــد
فأفقـــدتُ عزقاهـــا ونورّتُ ليلَها … وقرَّبتُ منهـــا كلَّ ما كان يبعـــد
سأفْنَى فهـــل حىٌّ على الأرضِ خالدٌ … وينقــلُ عن يومى وعن أمسى الغـــد
أحاديثُ فى جيدِ الزمـــانِ نظامُها … ومنهـــا على الدنيـــا نثارٌ مبدَّد
لهـــا غُرّةٌ فى صفحةِ الدهرِ وسْمُها … وفى عـــاتقِ الأيـــامِ سيفٌ مُخَلَّد
وطـــالبتُ نهجًا ليس يصحبنى بــه … من النـاس إلاّ الفاضـــلُ المتجلد
فأخْسسْ بدنيا نلتهـا ومشـــاركى … لديهـــا خِســـاسٌ فى القبائحِ ورَّد
وأنبل بحـــال أهْلُهـــا كلُّ راغب … كرامُ المساعى وهو فى الفضل يزهد

— ٤ —

• وقال رضى الله عنه : [من البسيط]

لم أشـــكُ صـــدا ولم أُذعر بهجران … ولا شعرتُ مدى دهـرى بسـلوان
أسمـــاءُ لم أدرِ معناهـــا ولا خطرت … يومـــاً علىّ ولا جـــالتْ بميدانى
لكنما دائىَ الأدْوى الــذى غضبتْ … علىَّ أرواحُـــهُ قدمـــاً فأعيـــانى
تفـرّق لـــم تزلْ تســـرى طوارقُهُ … إلىّ بجامـــع أحبـــابى وخِلاّنى
كأنمـــا البيْنُ بِى يأتـــم حيث رأى … لى مذهبًا فهـــو يبلونى ويغشـــانى
قد كنتُ أحسبُ عندى للنوى جَلدا … إذا عَنَى فى بوادى شَجْوها العـــانى
فقـــابلتنى بألـــوان غـــدوْتُ بهـــا … مقـــابلا مـــن صباباتى بألـــوانِ
فالله أنْسىَ أخـــاً لى قـد لهجتُ بـه … نفسى تُحـــدِّثنى أنْ ليس ينســـانى

فإنْ لم يكن فيه ظنّى صادقًا فلقدْ … عهدتُ ظنّى قديماً غير خوّان
هذا على قِسْمةِ الأيّام ليس على … أنّى أخافُ عليه طَبْعَ نسيان
قد كنتُ ألقىَ زمانى منه مُدَّرِعًا … على تَغَوُّلِ أيّامى وأزمانى
درعًا يقول الردى من أجلها حذرًا … ما شأنُكَ اليومَ يا هذا وما شانى
فالآنَ أظلمت الدنيا لغيبته … فالليلُ عندى وغيرُ الليلِ سِيّان
وحُقّ لى ذاك إذْ فى كلّ شارقةٍ … كانتْ تلوحُ لعينى منه شَمْسان
فالآن أعْدمنى أضْواهما قَدَرٌ … تجرى بأحكامه فينا الجديدان
لكنّنى قائلاً قولاً يحقّقه … كلُّ البريةِ عن نُورٍ وبُرْهان
عجبت مِنّى إذا أشكو تَوَحُّشَهُ … وأسفح الدمع سحًّا غيرَ ضنّان
ووجهُهُ نُصْبَ عينى ما يُفارقنى … وطيفُهُ مُؤنسى فى نصفه الثانى
ومُهْجتى عنده والقلبُ مسكنُهُ … هذا وخَدُّك عينُ الحاضرُ الدانى
وشخصُه ماثلٌ فى ناظرى أبدًا … وفى ضميرى إذا ما نِمْنَ أجفانى
أدعوه دَعْوَةَ مُرتاحٍ لرؤيته … حَسْبَ ارتياحى له إذ كان يلقانى
يا عذرَ دَهْرِىَ مِن ماضى إساءَتهِ … ومَن تَساوِىَ وليىٌّ فيه والشانى
كلاهما حاسدٌ لى مِن أُخُوَّتِهِ … على عُلا الدهرِ موصولاً برضوان
قد كان منك فؤادى حاسدا بصرى … والآن يحسدُ فيك القلبَ عينان
حتى لقد صار دهرى فيكَ يحسُدنى … فبانَ عنىَ مغلوبًا وأنآنى
عذرتُ فيكَ لعمرى كلَّ ذى حسدٍ … مَن ليس يحسدُ فى الدنيا سليمان
وحُقّ لى عذرهم إذ صرتُ أعرفُ مقدارَ الذى منك كان اللّهُ أولانى
لقد صبانِىَ حظًا مِن إخائك لا … يُجزَى بِسترٍ ولا يُلقَى بكفران
لو كانتْ الأرضُ لى حاشاه ما عَنيَتْ … روحى وإنّى به عن غيره غانى
شخصٌ نفيسٌ خطيرٌ لو بَذَلْتُ به … نفسى أخذتُ الذى يبقَى على الفانى
ذاك الذى لستُ أدرى ما أقابِلُهُ … به مِن الشك فى سرى وإعلانى
واسلمْ ودُمْ لِىَ فى عزٍ وفى دَعةٍ … ما لاحَ فى اللجّةِ الخضراءِ نجمان

- ٥ -

• وقال رضى الله عنه : [من البسيط]

قالـــوا تحفَّظْ فإن الناس قد كَثُرتْ أقوالُهمْ وأقـــاويلُ العــــدا مِحَنُ
فقـــلت هــــل عيبُهم لى غير أنّى لا أقـــول بالرأى إذ فى رأيهـــم فَتنُ
وأنّى مولــــعٌ بالنصّ لســـتُ إلى ســـواه أنحو ولا فى نصـــره أهَن
لا أنثنى نحو آراء يقــــال بهـــــا فى الدين بل حسبىَ القـــرآن والسنن
يا بُرْدَ ذا القــولِ فى قلبى وفى كبدى ويا ســــرورى به لوْ أنّهــــم فطنوا
دعهم يَعَضّوا على صمِّ الحصى كمدًا من مــات مِن قولـــه عندى له كفن
إنّى لأعجب مِن شــأنى وشـأنهمُ واحســـرتَا إننى بالنـــاس مَمْتَحَن
ما إنْ قصـــدت لأمــــر قط أطلبُهُ إلاّ وطـــارتْ به الأظعانُ والسفن
أما لهـــم شُغُلٌ عنّى فيشـــغلهم أوْ كلهـــم بِىَ مشغول ومُرْتهـــن
كأنّ ذكـــرىَ تسبيحٌ به أُمِـــروا فليس يَغْفــــل عنّى منهمُ لَسَـن
لو بيع ذكـــرِى على ما قد تكاثر من طـــلاّبه لم يكن يُدرى لـــه ثمن
إنْ غبتُ عن لحظهم هاجـــوا بغيظهمُ حتى إذا مـــا رأوْنى طـــالعًا سكنوا
دعُوا الفضـــولَ وهبُّوا للبيان لكى يـدرى مقيمٌ عـــلى الحسنى ومُفْتتن
وحسبىَ اللّــــهُ فى بدء وفى عقبِ بذكــــره تُرفـــع الغمّاءُ والإحـــن

- ٦ -

• وقال رضى الله عنه : [من البسيط]

أنائمٌ أنتَ عن كُتْبِ الحـديثِ ومـــا أتى عن المصطفى فيهـــا من الدينِ
لمســـلمَ والبخـــارىِّ اللذين همـــا شـــدًّا عُرى الدينِ فى نقـل وتبيينِ
أولى بأجــــر وتعظيم ومَحْمـــــدة من كل قَـــوْل أتى من رأى سحنون
هيهاتَ رأىُ امـرىءٍ من وَحْىِ خالقنا قياسُ هـــذا بذا رأىُ المجـــانين
يا مَن هــــدى بهما اجعلنى كمثلهما فى نَصْــــرِ دينكَ مَحْضًا غيرَ مفتون
لا تجعلنىَ ربُّ العـــرش دونهمـــا يومَ الحسابِ وفى وَضْـــعِ الموازين

– ٧ –

• وقال رضى الله عنه :   [من الطويل]

أجَلْ ! هـو رَبْعٌ قـد عفتْه الروامسُ   فهـل أنتَ فيه ويب غيرك حـابسُ
لقَلّ لـه أنْ يحبس العيسَ سـاعةً   عليه فتبكيكَ الرسـومُ الطـوامس
على أرْبُعٍ قـد كان دهـرًا بطولـه   لِلَهْـوِكَ فيـه مَرْبَعٌ ومجـالس
عسى يستجيب الربعُ إذْ أنا سـائل   وهـل تُرجع اللفظَ الطلولُ الدوارس
فعجتُ عليـه ناقتى وهـو سبسبٌ   سقتْهُ وجـادتْه الغمـامُ الرواجس
وقلتُ ودمعـى سـالفٌ متحدِّرٌ   وإنسـانُ عينى فى هواميه غـامس
لقـد كان عَيْشى فيك لو دام مونقـاً   ولكنْ أبتْ ذاك الحظـوظُ الأباخس
ليـالِيَ مَن أهـواه يمسى كأنّه   من العُفْـر ظبْى بالصريمـة كانس
وإذْ شمْلُنا بـاقٍ جميع محسَّـدٌ   ولم تقتطع ذاك الدهورُ الدهـارس
فكان جـوابُ الربعِ إذ أنا سـائل   وهـل تفهمِ القولَ الربوعُ الأخارس
كذلك حكمُ الدهـرِ آتٍ وذاهب   وفى الدهـر أصنافٌ مدوسٌ ودائس
وفى طـى مثنى الصفيح عـلى الثرى   (سنى سنه) للشكل والحسنُ لابس[1]
غريبُ صفاتِ الحسنِ أن تبيع حسنه   فأمنعَ معـدومٌ هناك المجـانس
إذا حدٌّ لم تحو الحـدودُ جهـاتِه   وإن قيس يومًا ضـلَّ فيه المقـايس
فدنيـاه من ظَبْىٍ يلـوح ضياؤه   على مثله حقًا أصـاب المنـافس
عجبتُ لدهـر لاينى وهو طالبى   بثـأر ولا ينفـك دأبًا يمـارس
إذا ما اصطرعنـا فالتـداولُ بيننـا   عِـراكٌ فمنهـوسٌ هناك وناهس
فتسـعٌ وعشرون أتيحت سهامُهـا   لرأسى فغضتْ منه فالرأس هـارس
كأنّ بيـاضَ الرأسِ ينفى سـوادَه   صباحٌ تفـرَّى عنه ليـلٌ عكامس
فأهلا بوفدِ الشيبِ إذ جاء وافـدا   وكنتُ وقـلبى قبـلَ ذامتـه واجس
ولمّـا أتى رُدّتْ نفـوس بغيظهـا   ولم تنبسط نحـوىِ اللحاظُ النواعس

(١) ما بين الخاصرتين بياض فى المخطوطة، ومنقول عن مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى.

ولم أرَ مثلَ الشيب أوفى وفيَّة　　لُيْذعِرَ عقبانًا لنهارًا لمؤانسُ
وكنّا نجوماً طالعات مضيئة　　تنيرُ بأدناها الخطوب الحنادس
لقد كان لى فى بعضِ ذلك واعظٌ　　وما اختَلَسَتْنيه الصروفُ الخوالس
تنائيْن عنّى كالغصونِ وأعرضتْ　　ضواحكُ أقمارٍ وهنّ عوابس
وقد طال ما ارتاحتْ وهزّتْ غصونُها　　بقربى أحقافُ الرمال الأواعس
ظباءٌ إذا قِيس الظباء بحسنها　　فإنّ يعافيرَ الظباءِ خنافس
زعيمون أنْ يُقضى لنا دون غيرنا　　إذا ازدحمتْ عند الملوك القلانس
سمْونا فما فى دهرنا غيرُ حاسد　　وطُلْنا فلم نُدرك فما ثَمَّ نابس
إذا ما ترامينى مفاخرُ معشر　　فأيسرُ فخرى للمفاخر هارس
وإنّى بِعرْضى دون دينىَ مُتَّقٍ　　وإنّى بروحى دون عِرْضى متارس
سما بى ساسانٌ ودارا وبعدهم　　قُرَيْشُ العُلَى أعياصُها والعنابس
فما أخرتْ حربٌ مراتبُ سؤددى　　ولا قعدتْ بى عن ذرا المجدِ فارس
هنالك مجدُ الدهرِ طالتْ فروعه　　فهنّ مواض صُعَّدٌ لا نواكس
ملكْنا ملوكَ الأرضِ فى كل جانبٍ　　فحدُّ مناوينا الحدودُ الأواكس
إذا شبّتِ الحربُ العوانُ فبأسنا　　لكلٌّ منيعِ النيْل فى الناس فارس
أباحوا بيوتَ النّارِ كلَّ ذخيرةٍ　　حَمَتْها شياطين الردى والأبالس
فلما أتى الإسلامُ بالحق والهدى　　أقرُّوا لنور حوَّلَته الأحامس
فشُدَّتْ عُرى الإسلام وعُطِّلَتْ　　بأسيافهمْ للمشركين مدارس
وأعلنَ دينُ الله فى الأرضِ بأسهم　　وذُلَّتْ بهم للمسلمين الكنائس
فسائل بسلمانَ وبالحسن الرضى　　زرارًا وفيروزًا هداة أشاوس

الفهرس

الموضـــــوع	صفحة

الموضـــــوع | صفحة

الموضـــــوع | صفحة

كتب أخرى للمؤلف

- **امرؤ القيس حياته وشعره.**

  الطبعة السادسة. دار المعارف، القاهرة ١٩٩٣.

- **دراسة فى مصادر الأدب.**

  الطبعة السابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٣.

- **ملحمة السيد، دراسة مقارنة.**

  الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣.

- **مع شعراء الأندلس والمتنبى.**

  ترجمة لكتاب المستشرق الإسبانى إميليو غرسية غومث، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٢ .

- **بابلو نيرودا شاعر الحب والنضال.**

  (نفد ويعاد طبعه الآن).

- **تحقيق كتاب طوق الحمامة لابن حزم.**

  الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٣ .

- **القصة القصيرة، دراسة ومختارات.**

  الطبعة السادسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٢ . (مزيدة ومعدّلة).

- **الشعر العربى المعاصر، روائعه ومدخل لقراءته.**

  الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٠ .

- **الحضارة العربية فى إسبانيا.**

  ترجمة كتاب المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال،الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٣ .

- **الفن العربى فى إسبانيا وصقلية.**

  ترجمة كتاب المستشرق الألمانى فون شاك، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥ .

- **دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة.**
الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٧.
- **العجوز يرحل.**
قصة مترجمة عن البرتغالية،القاهرة ١٩٧٨.
- **التربية الإسلامية فى الأندلس.**
ترجمة لكتاب المستشرق الإسبانى خوليان ريبيرا، دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٩٣ .
- **الأخلاق والسير فى مداواة النفوس لابن حزم.**
تحقيق وتقديم وتعليق، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٢ .
- **فى الأدب المقارن: دراسات نظرية وتطبيقية.**
الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٢ .
- **الأدب المقارن: أصوله وتطوره ومناهجه.**
دار المعارف، القاهرة ١٩٨٩ .
- **الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف.**
ترجمة كتاب المستشرق الفرنسى، هنرى بيريس، دار المعارف، القاهرة ١٩٩١ .
- **الأدب الأندلسى من منظور إسبانى.**
دار الآداب، القاهرة ١٩٩٠ .
- **مناهج النقد الأدبى.**
ترجمة كتاب إنريك أندرسون الأستاذ فى جامعة هارفارد الأمريكية، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٩١ .
- **الشعر العربى فى إسبانيا وصقلية.**
الجزء الأول، دار المعارف، القاهرة ١٩٩١ .

تحت الطبع :

- مقدمة فى الأدب الإسلامى المقارن.
- الحب عند دانتى وابن حزم، دراسة مقارنة. مع ترجمة كتاب الحياة الجديدة لدانتى.

رقم الإيداع		١٩٩٣ / ٣٨٨٩
الترقيم الدولى	977 - 02 - 4055 - 9	ISBN

٣ / ٩٣ / ٩
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)